

حضارة العرب

عنوان الكتاب: حضارة العرب

الكاتب: غوستاف لوبون

ترجمة: عادل زعير

تصميم الغلاف: سلمى جمال

رقم الإيداع: 2025/28871

الترقيم الدولي: 978-633-8379-49-0

رقم تليفون: ٠١٠٩٣٤٧٨٤٧٩



دار الرونق للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة © لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعمال المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال المعروفة حالياً أو التي ترد مستقبلاً دون إذن خطي مسبق من الناشر والمؤلف، الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة على توجه دار الرونق للنشر والتوزيع بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول وكل ما وكل ما يحتويه الكتاب مسؤولية المؤلف.

حضارة العرب

تأليف

غوستاف لوبون

ترجمة

عادل زعيتر

حضارة العرب

"إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ما ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغةً لهم، فذلك لما رآوه من عدل العرب الغالين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل"

"ولم ينتشر القرآن، إذن بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا، كالترك والمغول"

"أدرك الخلفاء السابقون، الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دُعاة الديانات الجديدة، أن النظم والأديان ليست مما يُفرض قسرًا؛ فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فاضلين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب، إذا ما قيسَت بما كانوا يدفعون سابقًا في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم"

غوستاف لوبون

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

كان من نتائج اصطراع الشرق والغرب منذ قرون مَضَتْ، وإلقاء العرب الرُّعب في قلوب الأوربيين — أن صار الأوربيون يشعرون بمذلة الخضوع للحضارة العربية التي لم يتحرروا من سلطانها إلا منذ زمن قريب، فأخذوا يُنكرون فضل العرب على أوربة وتمدينهم لها، وأصبح هذا الإنكار من تقاليد مؤرّخي أوربة وكتّابها الذين لم يُقرُّوا لغير اليونان والرومان بتمدينها، وقد ساعدهم على هذا ما عليه العرب والمسلمون من التأخر في الزمن الأخير، فلم يشاءوا أن يروا للعرب رُقياً تاريخياً أعظم مما هم عليه الآن غير ناظرين إلى أن نجم حضارة العرب أفل منذ أجيال، وأنه لا يصحُّ اتخاذ الحال دليلاً على الماضي.

ولم تخلُ أوربة، مع ذلك، من مؤرخين أبصروا ما للعرب من فضلٍ في تمدين أوربة، فألفوا كتباً اعترفوا فيها للعرب بما ليس فيه الكفاية.

وقد راعَ هذا الجحودُ العلامةَ الفرنسيَّ الكبير غوستاف لوبون، وهو الذي هدّته رحلاته في العالم الإسلامي ومباحثه الاجتماعية إلى أن العرب هم الذين مدّنوا أوربة، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقدته، وأن يُبديّه للعالم في صورته الحقيقية ما استطاع، فأخرج في سنة ١٨٨٤ كتابَ «حضارة العرب» الذي نعرض ترجمته على الناطقين بالضاد. سلك العلامة لوبون في تأليف كتاب: «حضارة العرب» طريقاً لم يسبقه إليها أحد، فجاء جامعاً لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها في العالم، شاملاً لعجائبها مفصلاً لعواملها، باحثاً في قيام دولة العرب، وفي أسباب عظمتهم وانحطاطهم، مبتعداً عن أوهام الأوربيين التقليدية في العرب والإسلام.

وقد استعان لوبون بطريقة التحليل العلمي على الخصوص، فأوضح في هذا الكتاب الصّلة بين الحاضر والماضي، ووصّف فيه عِرْقَ العرب وبيئاتهم، ودرس فيه أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم ونُظُمهم ومعتقداتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وصناعاتهم وتأثيرهم في المشرق والمغرب، وأسباب عظمتهم وانحطاطهم.

لم يكن العرب، على رأي لوبون، من الأجلاف قبل الإسلام، وقد رأى أن السجاياء الخُلُقِيَّةَ للعرق العربي هي التي عيّنت اتجاهه، وأنه، وإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بغتة على مسرح التاريخ، لا يكون هذا إلا نتيجة نُضْجٍ بطيء، وأن تطور الأشخاص والأمم والنُظُم والمعتقدات لا يتم إلا بالتدريج، وأن درجة التطور العالية التي تبدو للعيان لا تبلغ إلا بعد الصعود في درجاتٍ أُخرى، فإذا ما ظهرت أمةٌ ذاتُ حضارة راقية كانت هذه الحضارة ثمرةً ماضيٍ طويل، ورأى لوبون، أيضًا، أن جهل الناس لهذا الماضي الطويل لا يعني عدم وجوده، وأن الحضارة التي أقامها العرب في أقلّ من مائة سنة، وهي من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ، ليس مما يأتي عفواً، وأنه كان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن دون حضارة الآشوريين والبابليين تقدماً، وكان للعرب، عدا الآثار القليلة التي كُشِفَ عنها، لغةٌ ناضجة وآداب راقية، وكان العربُ ذوي صِلات تجارية بأرقى أمم العالم عالمين بما يَتِمُّ خارج جزيرتهم، فالعربُ الذين هذا شأنهم كانوا، لا ريب، من ذوي القرائح التي لا تَمُ إلا بتوالي الوراثة وثقافةٍ سابقة مستمرة، والعرب الذين صُقلَت أدمغتهم على هذا الوجه استطاعوا أن يُبدعوا حضارتهم الزاهرة بعد خروجهم من جزيرتهم في مدة قصيرة.

ثم أيد لبون وجهة نظره بقوله: «إن البرابرة الذين قَوَّضُوا دعائم الإمبراطورية الرومانية قاموا بجهود عظيمة دامت قرونًا كثيرة قبل أن يقيموا حضارةً على أنقاض الحضارة اللاتينية، ويخرجوا من ظُلُمات القرون الوسطى.»

ثم ذهب لبون إلى أن المعتقدات القديمة في جزيرة العرب كانت قد ضَعُفَتْ، وفقدت الأصنام قوتها ودبَّ الهَرَم في آلهتها، وأنه كان في الجزيرة العربية، خلا النصارى واليهود، مَنْ كانوا يعبدون إلهًا واحدًا، وهم الحنفاء.

ولكن لبون، الذي ذكر استعداد العرب للقيام برسالتهم العظمى، أشاد بفضل الرسول الأعظم على العرب، وزَعَمته الكبرى لهم، فالرسولُ في نظره «كان يبدو رابط الجأش إذا ما هُزِم، ومعتدلًا إذا ما نُصر»، وذهب لبون إلى أن الرسول الأعظم «كان شديد الضبط لنفسه، كثير التفكير، صَمُوتًا حازمًا، سليم الطَّويَّة ... صبورًا قادرًا على احتمال المشاق، ثابتًا بعيد الهمة، لين الطبع وديعًا ... وكان مقاتلًا ماهرًا، فكان لا يَهْرُب أمام المخاطر، ولا يُلقِي يديه إلى التهلكة، وكان يعمل ما في الطاقة لإنهاء خُلُق الشجاعة والإقدام في بني قومه ... وكان عظيم الفطنة.»

ورأى لبون أن السيد الرسول الذي كانت تلك صفاته أتى العرب، الذين لا عهد لهم بالمُثل العليا، بمُثلٍ عالٍ اهتموا به، فاكسب العرب بهذا المثل العالي آمالًا متائلة، وتوجَّهت به جهودهم إلى غرض واحد، وصاروا مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل نشره في أنحاء الدنيا، ثم قال: «إن محمدًا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك كان فضل محمد على العرب عظيمًا ... وإذا ما قيسَت قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من

عَرَفَهم التاريخ ... والتعصبُ الدينيُّ هو الذي أعمى بصائر مؤرخي الغرب عن الاعتراف بفضل محمد.»

قامت عظمة الرومان على عبادة رومة، وكانت رومة سيِّدة العالم حين كان الرومانيُّ يُضَحِّي بنفسه في سبيل عظمتها، ثم فَقَدَت الأُمم الإغريقية والرومانية والآسيوية مُثُلَهَا العليا، ولم يَبْقَ لحب الوطن والدين والاستقلال والأمة والمدينة أثر في نفوس أبنائها، وصارت الأثرة كُلُّ ما في قلوب هؤلاء، «والأثرةُ إذا كانت دليل قوم عجزوا عن مقاومة قومٍ آخرين مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل معتقداتهم.»

وصار العرب أمةً واحدةً بفضل الإسلام، وأصبح الإسلام مثَل العرب الأعلى، واكتسب العربُ به من الحميَّة ما استعدوا معه لفتح العالم إعلاءً لشأنه بقيادة زعمائهم الماهرين.

ولم تكن جزيرة العرب قبل الإسلام سوى ميدان حرب دائم واسعٍ لِمَا تَأَصَّلَ في العرب من الطبايع الحربية، فقد جاء الإسلام وألَّف بين قلوب العرب ووجَّهوا جميع قوايهم إلى البلاد الأجنبية، وهم الذين وَرِثُوا الشجاعة أبا عن جد، صَرَعُوا الأغارقة والفرس بفضل يقينهم، وصار الناس يدخلون في الإسلام، ويتحلون لغة العرب أفواجًا.

وهنا يبدو إنصاف العلامة لبون في بيان أسباب ذلك، فقد صرَّح بأن وضوح الإسلام من أسباب انتشاره، وبأن وضوحه هذا مشتقٌّ من قوله بالتوحيد المحض الذي فيه سرُّ قوته.

ومن أسباب انتشار الإسلام، كما يبيِّن لبون، ما أَمَرَ به من العدل والإحسان، وما انطوى عليه من التهذيب للنفوس والتسامح والملاءمة لمناحي العلم واكتشافاته.

ثم ردَّ العلامة لبون على الزعم القائل: «إن الإسلام انتشر بالقوة»، فمما قاله: «إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ما ترك العربُ المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن

اعتنق بعضُ الأقوام النصرانية الإسلامَ، واتخذوا العربية لغةً لهم، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.

«ولم ينتشر القرآن، إذن، بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا، كالترك والمغول.»

«أدرك الخلفاء السابقون، الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما نذر وجوده في دُعاة الديانات الجديدة، أن النُظم والأديان ليست مما يُفرضُ قسرًا؛ فعاملوا أهل كلِّ قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فاضحين عليهم سوى جزية زهيدة، في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعون سابقًا في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحقُّ أن الأمم لم تعرِف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم.»

«وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم.» وأكثر لوبون، في مواضع كثيرة، من ذكر الأمثلة على تسامح العرب ورافقتهم بالمغلوبين، ومن ذلك «أن العرب حاصروا الإسكندرية حصارًا دام أربعة عشر شهرًا، وقُتل في أثناءه ثلاثة وعشرون ألف جندي من العرب، وأن عمرو بن العاص كان سمحًا رحيمًا نحو أهل الإسكندرية مع تلك الخسارة التي أصيب بها العرب، ولم يقسُ عليهم، وصنع ما يَكسِب به قلوبهم، وأجابهم إلى مطالبهم، وأصلح أسداهم وترعهم، وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم العامة.»

ولذلك لم يكّد القرنُ الأول من الهجرة ينقضي حتى كانت رايةُ النبي العربي تخفقُ فوق البلاد الواقعة بين الهند والمحيط الأطلنطي، وبين القفقاس والخليج الفارسي وفوق إسبانية.

ويبحث العلامة لوبون في القرآن وأصول الإسلام، وفيما يُسندُه بعض كُتّاب أوربة إلى الإسلام من عوامل الانحطاط، كعقيدة القضاء والقدر (الجبرية) وأحوال المرأة، ومبدأ تعدّد الزوجات.

رأى لوبون أنه ليس في القرآن من الجبرية ما ليس في الأديان الأخرى، وأن فريقاً من فلاسفة الوقت الحاضر وعلمائه يقول: إن مجرى الحوادث تابعٌ لسُنّة لا تتبدل، وأن الجبرية الإسلامية نوعٌ من التسليم الهادئ الذي يعلم به الإنسان كيف يخضعُ لحكم القدر من غير تبرُّم ومُلاومة، «وتسليمٌ مثلُ هذا وليدُ مزاجٍ أكثر منه عقدة، والعرب كانوا جَبَرِيّين بمزاجهم قبل ظهور محمد، فلم يكن لجَبَرِيّتهم تأثير في ارتقائهم، كما أنها لم تُؤدِّ إلى انحطاطهم.»

ولما تناول لوبون حال المرأة في الإسلام بيّن أن الرجال كانوا، قبل ظهور الرسول، يَعُدُّون منزلة النساء متوسطةً بين الأنعام والإنسان، وأنهم كانوا يرونها أداة للاستيلاد والخدمة، وأن عادة الوأد كانت شائعةً بين عرب الجاهلية، ثم جاء الإسلام وحسّن حال المرأة، وكان أول دينٍ رفع شأنها، ومنحها حقوقاً إرثية لا تحُدُّ مثلها في القوانين الأوربية، وأمر بمعاملتها بأحسنٍ مما في تلك القوانين، وبيّن لوبون، أيضاً، أن نقصان شأن المرأة حدث خلافاً للإسلام، لا بسبب الإسلام، وأن الإسلام، الذي كان أول دين رفع شأن المرأة، بريء من خفضه، وأنه اتفق للنساء أيام حضارة العرب ما اتفق لأخواتهنّ حديثاً في أوربة من التقدم، ثم التمس لوبون العذر للشرقيين في مراقبة المرأة، فقال: «إن الشرقيين، إذ

كانوا مطلعين بغرائزهم على سرائر الأمور، وكانوا يَرون من طبيعة المرأة أن تكون غادرة غيرَ وفية، كما أن الطيران من طبيعة الطير، وكانوا حريصين على صفاء نسلهم، اتخذوا ما يروقههم من وسائل الحذر منعًا لحدوث ما يخشون.

وأنحى لوبون باللائمة على مؤرخي أوربة الذين قالوا: إن مبدأ تعدد الزوجات هو ركن الإسلام، وإنه علّة انحطاط الشرقيين، فمبدأ تعدد الزوجات، كما أوضح لوبون، لم يكن خاصًا بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور الرسول، ولم ترَ الأمم التي اعتنقت الإسلام شيئًا جديدًا فيه، وعند لوبون: «أن حبَّ الشرقيين الجَمَّ لكثرة الأولاد وميلهم الشديد إلى حياة الأسرة، وخُلُق الإنصاف الذي يردعهم عن ترك المرأة غير الشرعية بعد أن يكرهوها خلافًا لما يقع في أوربة، وغير ذلك من الأسباب الكثيرة، كلُّها أمورٌ تحفز الشرائع إلى تأييد العادات التي هي وليدة الطبائع، وإذا نظرنا إلى أن القوانين لا تلبث أن تطابق العادات كان لنا أن نقول: إن تعدد الزوجات غير الشرعيّ في أوربة لا يلبث أن تؤيده القوانين»، ولم يرَ لوبون سببًا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبةً من مبدأ تعدد الزوجات السريّ الخبيث الذي يُؤدّي إلى زيادة اللُّقطاء في أوربة.

ولإنما عزا لوبون سقوط الدولة العربية وانحطاط العرب إلى صفات العرب الحربية المتأصلة التي كانت نافعةً في دَور فتوحهم، فالعربُ بعد أن تَمَّت فتوحهم أخذ ميلهم إلى الانقسام يبدو، وصارت دولتهم تتجزأ، وقوّضوا كيانهم بسلاحهم أكثر مما قوّض بسلاح الأمم الأخرى، وعزا لوبون انحطاط العرب، أيضًا، إلى ما حدث من قبض أناسٍ من ذوي العقول المتوسطة على زمام دولتهم الواسعة بعد أن كان يُدير شؤونها رجالٌ من العباقرة، وإلى ما ألفه العرب من الترف، وما أصابهم من فتورٍ في الحماسة لمثلهم الأعلى،

وإلى تنافس مختلف الشعوب التي خَضَعَت لسلطانهم، وإلى فساد الدم العربي الذي نشأ عن توالد العرب وتلك الشعوب.

وعلى ما في هذه الأسباب من الصحة لا نعتقد أن لوبون أصاب حين ظنَّ أن من أصول الإسلام النظام الأساسي القائل بجمع جميع السلطات في يد سيد مطلق، وحين عزا انحطاط العرب إلى هذا النظام الذي مُلِحَ به الناس كما ادَّعى، على التمسك بأحكام الماضي الإسلامية غير المطابقة لاحتياجاتهم المتحولة، فبعد أن أوضح لوبون أن نظام العرب ديموقراطي، وأن مبدأ المساواة التامة ساد الجميع بفضلِهِ، وأن الفقهاء ساروا على مبدأ «لا يُنكَرُ تَغْيَرُ الأحكام بتغير الأمكنة والأزمان»، وأن المسلمين في عصر خلفاء بغداد وقرطبة الزاهر كانوا يعلمون، بما يأتون من ضروب الاجتهاد، كيف يُوقِّفون بين هذه الأحكام واحتياجات الأمم التي انتحلتها، كان من الخطأ ذهابه إلى أن نظام الحكم المطلق هو من أصول الإسلام، جاء في القرآن: وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... وَأْمُرْهُمْ بِشُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... إلخ، وقال الرسول الأعظم: «الدينُ النصيحة لله ولكتابه، ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» ... و«إن الله يرضى لكم أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تُنَاصِحُوا من وُلَّاه الله أمركم» ... و«ما تشاور قومٌ إلا هُتِدوا لأرشد أمرهم» ... و«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهُم الله بعقاب من عنده» ... إلخ.

وبعد أن أوضح العلامة لوبون أن الإسلام أَلْفَ بين قلوب العرب، وأنهم فتحوا العالم بفضلِهِ متخذين ما أمرهم به من العدل والإحسان والتسامح والرفقة بالأمم المغلوبة دستوراً لهم، قال: «كان من سياسة العرب الثابتة، إذا ما أرادوا الاستقرار بقطر؛ أن

يكونوا على وئام مع الأهليين المغلوبيين، وأن يحترموا دينهم وشرائعهم، وأن يكتفوا بأخذ جزية طفيفة منهم»، وإلا كان همهم تمويل الجنود وأخذ الغنائم.

وأثبت لوبون، بما لا يترك للشك مجالاً، أن عبد الرحمن الغافقي لم يهدف من غزوه لفرنسة إلا الاستقرار بها واتخاذها قاعدة للاستيلاء على أوربة، وأن النصر الذي أحرزه شارل مارتل في پواتيه لم يكن مهيماً كما زعم المؤرخون، بدليل عجز شارل مارتل عن استرداد أية مدينة استولى عليها العرب عسكرياً في فرنسة، وبدليل بقاء العرب، بعد معركة پواتيه مدة قرنين في جنوب فرنسة، وبدليل محالفة بعض أمراء فرنسة العرب على شارل مارتل الذي أخذ ينهب بلادهم، ثم قال لوبون: «إن النتيجة المهمة الوحيدة التي أسفر عنها انتصار شارل مارتل في پواتيه هي أنه جعل العرب أقل جرأة على غزو شمال فرنسة، ونتيجة مثل هذه لم تكف لتكبير أهمية انتصار هذا القائد الفرنجي».

ثم ألمع لوبون، بعد أن ذكر غاية العرب من غزو فرنسة، إلى تخوف مؤرخي الغرب على مصير أوربة فيما لو كان النصر قد تم للعرب في معركة پواتيه وكانت غايتهم الاستيلاء، وقال: «لنفرض، جدلاً، أن النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جوار شمال فرنسة غير بارد ولا ماطر كجوار إسبانية فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربة؟ كان يصيب أوربة النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوربة، التي تكون قد هُذبت، ما حدث فيها من الكبائر، كالحروب الدينية وملحمة سان بارتلمي ومظالم محاكم التفتيش، وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي صرّجت أوربة بالدماء عدة قرون».

وقد خصّص العلامة لوبون فصلاً للحروب الصليبية أشار فيه، غير مرة، إلى الفرق بين الفتح العربي والغارات الصليبية من حيث التسامح وحسن معاملة المغلوبيين والسياسة

الرشيدة، فقال: «كانت أوربة، ولا سيما فرنسة، في القرن الحادي عشر الذي جُرِّدت فيه الحملة الصليبية الأولى في أشد أدوار التاريخ ظلامًا ... ولم يكن الصراع العظيم الذي كان يَتَمَخَّضُ عنه العالم غير نزاع عظيم بين أقوام من الهمج، وحضارة تُعَدُّ من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ.»

وقال لوبون، بعد أن ذكرَ الفظائع الوحشية وأعمالَ التخريب والسلب التي اقترفها الصليبيون في طريقهم إلى القدس، وذبحهم لمئات الألوف من المسلمين والعرب والأبرياء: «كان سلوكهم حين دخلوا القدس غيرَ سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى.»

ثم قال لوبون، الذي رَوَى لنا أن أول ما بدأ به قائد الحملة الصليبية الثالثة ريكاردوس هو قتله صبرًا ثلاثة آلاف أسير مسلم سَلَّمُوا أنفسهم إليه بعد أن قطع لهم عهدًا بحقن دمائهم: «ليس من الصعب أن يتمثل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النبيل الذي رحم نصارى القدس فلم يمسَّهم بأذى، والذي أمدَّ فليب أوغست وقلب الأسد ريكاردوس بالأزواد والمُرطَّبات في أثناء مرضهما، فقد أبصر الهوة العميقة بين تفكير الرجل المتمدن وعواطفه وتفكير الرجل المتوحش ونزواته.»

وتمنَّى العلامة لوبون أن يكون العرب قد استولوا على العالم، ومنه أوربة، لما كان فيهم من نبيل الطبائع وكريم السجايا، فأعرب عن ذلك بقوله: «يُروى، مع التوكيد، أن موسى بن نُصير فكَّر، بعد فتح إسبانية، في العودة إلى سورية من بلاد الغول وألمانية، وفي الاستيلاء على القسطنطينية، وفي إخضاع العالم القديم لأحكام القرآن، وأنه لم يَعْقُه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إياه بأن يعود إلى دمشق، فلو وُفِّقَ موسى بن نصير لذلك لجعل

أوربة مسلمة، ولحقّق للأمم المتمدنة وحدثها الدينية ولأنقذ أوربة، على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه إسبانية بفضل العرب.»

ولم يكن دور الفتح سوى وجه من وجوه تاريخ العرب، ولم تعن إقامة دولة عظيمة إبداع حضارة، والعرب قد أبدعوا حضارة جديدة، ولم يلبث دور ازدهار حضارتهم أن بدأ بعد أن فرغوا من فتوحهم، وما بذلوا من الجهود في الوقائع الحربية وجّهوا مثله إلى الآداب والعلوم والصناعة، وأبدعوا فيها بسرعة ما أبدعوه في ضروب القتال، وكان لا بد من وجود عوامل لصعود العرب في سُلّم الحضارة والإبداع فيها.

رَجَعَ العلامة غوستاف لوبون هذه العوامل، خلا ما تقدم، إلى بيئة العرب وذكائهم اللامع وخيالهم الخصب وحيويّتهم، وقال:

لم يلبث العرب بعد خروجهم من صحاري جزيرتهم أن وجدوا أنفسهم أمام ما بهرهم من آثار الحضارة الإغريقية اللاتينية، وأن أدركوا تفوّقها الثقافي، كما أدركوا تفوقها الحربي فيما مضى، فجذّوا، من فورهم؛ ليكونوا على مستواها.

ويتطلب استمرار حضارة راقية ذكاءً مثقّفًا ... وقد أثبتنا أن العرب كانوا أيام الرسول ذوي ثقافة أدبية رفيعة.

والحق أن الرجل المثقف قد يجهل أمورًا كثيرة، وإننا يتعلمها بسهولة؛ لما فيه من الاستعداد الذهني، وقد أظهر العرب في دراسة العالم، الحديد في أعينهم، من الحماسة كالاستعداد، الذي أبدوا لفتحه.

ولم يتقيّد العرب في دراسة تلك الحضارة، التي واجهتهم فجأة، بمثل التقاليد التي أنقلت كاهل البزنطيين منذ زمن طويل، فكانت الحرية من أسباب تقدمهم السريع ... ولم يلبث أن تجلّى استقلال العرب الروحي الطبيعي وخيالهم وقوة إبداعهم في مبتكراتهم الحديثة،

وقد رأينا أنه لم يمضِ سوى وقت قصير حتى طبعوا على فن العمارة وسائر الفنون، ثم على مباحثهم العلمية، طابعهم الخاص الذي يبدو أول وهلة في آثارهم.

وقد استدللّ لوبون على أن العرب خرجوا من جزيرتهم أصحاب ذكاء مصقول من عجز البرابرة الذين قَضَوْا على الدولة الرومانية، ومن عجز الترك والمغول الذين قضوا على الدولة العربية عن إبداع أية حضارة لعقولهم الغليظة، مع توافر عوامل البيئة، فقال:

يبدو لنا الفرق بين الأمم التي تكون على جانب كبير من الذكاء، كالأمة العربية، والأمم المنحطة، كبرابرة القرون الوسطى الذين قَضَوْا على دولة الرومان، وأجلاف الترك والمغول الذين غمر طوفانهم دولة محمد.

فلقد أبدع العرب من فورهم، بعد أن استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس، حضارةً جديدةً أفضل من الحضارات التي جاءت قبلها، وكانت عقول البرابرة عاجزةً عن إدراك كنه الحضارة التي قهرها أهلها، وكان انتفاعهم بها ممسوخاً في بدء الأمر، ولم يسيروا بها نحو الرقيِّ إلا بعد أن صُقلت أدمغتهم فصارت قادرةً على إدراك معانيها بعد زمن طويل.

والواقع أن تقدم أولئك البرابرة الذين هدموا الدولة الرومانية لم يحدث إلا بتوالي الأجيال، وأنهم لبُطء تقدمهم لم يستطيعوا إقامة حضارة جديدة على أنقاض حضارة القرون الأولى إلا بعد جهود استمرت قرونًا كثيرة.

أما الترك والمغول فلم يكن لهم، على رأي لوبون، شأنٌ في ميدان الحضارة، ولم يقدرُوا على الانتفاع بحضارة العرب انتفاعاً كافياً، فضلاً عن عدم استطاعتهم إبداع أيِّ شيء بتوالي القرون.

حقاً إن العرب أخذوا يُنظِّمون شؤونهم بعد إنتهاء دور الفتوح، فحوَّلوا جهودهم إلى ميدان الحضارة، وأبدعوا حضارة أُنعت فيها الآداب والعلوم والفنون، وبلغت الذروة. وهنا نذكر أن العلامة لوبون، الذي رأى أن العرب أثبتوا منذ ساعة اتصالهم بالعالم الخارجي أنهم من ذوي العقول الناضجة المستعدة للتمدن والتمدين، لم يسعُه، حين تكلم عن تهمة حرق مكتبة الإسكندرية، سوى ردّها عنهم بحرارة في الكلمات الآتية، وهي:

وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعومُ فمن الأعمال الهمجية التي تأبأها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً؟ وهذه القصة دُحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نُثبت، بما لدينا من الأدلة الواضحة، أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربيّ بعناية كالتّي هدموا بها التماثيل، ولم يبقَ منها ما يُحرق.

رأى العربُ ذوو الذكاء اللامع والخيال الخصب والحيوية أنفسهم، في دور الفتح، في بيئات متباينة واقعة بين بلاد الهند والمحيط الأطلنطي، وكان لهذه البيئات تأثيرٌ متنوع فيهم مع تشابه صفاتهم الخاصة بعرقهم، فكان ما ترى من تفاوت في آثارهم الماثلة القائمة في تلك الأقطار، ومن وجود أوجه شبه بينها على العموم.

قال لوبون: «كان شأن العرب بالنسبة إلى المهندسين الأجانب الذين استخدموهم في دور الفتح كشأن الرجل الغنيّ الذي يقيم لنفسه بيتاً، فكما أن المهندس الذي يرسم بيت ذلك الغنيّ يراعي فيه، لا ريب، ذوقه، نرى مهندسي الروم قد رَاعُوا ذوق العرب فيما أقاموا لهم من المباني الأولى، فتجلت عبقرية العرب فيها.

ولم يلبث العرب، بعد أن تحرَّروا من المؤثرات الأجنبية، أن أصبح لعبارتهم من الأشكال والنقوش الخاصة ما صار من المتعذر معه خلطها بغيرها، وإن أمكن أن يُرى شيءٌ من

الأثر البنزنطيّ أو الفارسي أو الهندي في بعض زخارفها مع محافظة البناء في مجموعه على طابعه العربي.»

ولكن إبداع فن عمارة جديد لا يكفي لجعله أفضل من غيره، فقد يكون الفن الذي ظهر قبله خيرًا منه، فإلى هذا انتبه العلامة لوبون، وقال: «يكفي الإنسان أن ينظر إلى إحدى البنايات التي أقيمت في دور راقٍ من أدوار الحضارة العربية، مسجداً كان ذلك البناء أو قصرًا، أو أن ينظر إلى ما صُنِعَ فيه من دَوَاةٍ أو خِنَجَرٍ أو جلد قرآنٍ؛ ليرى لهذه الآثار طوابعَ خاصةً لا يتطَرَّقُ الوهم إليه في أصلها، والباحث في مصنوعات العرب، كبيرة كانت أو صغيرة، لا يرى فيها أية صلة ظاهرة بمصنوعات أية أمة أخرى، فالإبداعُ في مصنوعات العرب تامٌّ واضح ...

وتتجلى قوة الإبداع الفني في الأمم في سرعة تحويل ما ظَفِرَتْ به من عناصر الفن، وجعله ملائمًا لاحتياجاتها وابتكارها بذلك فنًا جديدًا، فإذا تحقّق هذا لدينا علمنا أن العرب لم تسبِقْهم أمة ...

وما على المرء إلا أن ينظر إلى آثار العرب الأدبية والفنية؛ ليعلم أنهم حاولوا تزيين الطبيعة دائمًا، وذلك لما اتّصف به الفن العربي من الخيال والنضارة والبهاء وفَيْضَ الزخارف والتفنن في أدق الجزئيات.

والأمة العربية، قد رَغِبَتْ بعد أن اغتنّت (والأمة العربية أمةٌ شعراء، وأيّ شاعرٍ لا يكون متفتنًا) في تحقيق خيالاتها فأبدعت تلك القصور الساحرة التي يُحَيَّلُ إلى الناظر أنها مؤلفة من تحاريم رُخاميةٍ مُرَصَّعةٍ بالذهب والحجارة الكريمة.

ولم يكن لأمة مثل تلك العجائب، ولن يكون، فهي وليدة جيل فتى مضى، وخيال خصب ذوى، ولا يَطْمَعَنَّ أحدٌ في قيام مثلها في الدور الحاضر الماديّ الفاتر الذي دخل البشر فيه.»

ولم يستطع العلامة لوبون أن يمنع نفسه، وهو المفكر الوقور، من التَّغَنِّي بِآثَارِ العرب، وإبداء ذلك في كل مناسبة، ومن ذلك قوله عن جامع الصخرة في القدس: «والمرء قد يُفكر في تلك القصور السحرية التي يُبصرها بخياله أحياناً، ولكن الخيال دون الحقيقة في أمر جامع عمر.»

والخلاصة: أن لوبون رأى أن فنون العرب آية في الإعجاز، وأنها تُورث العجب العجائب.

ولم يرَ لوبون أن انتفاع الفنِّ العربي، بما ادَّخَرَتْهُ الأجيال السابقة مما يَصُرُّه، فعند لوبون أن كل جيل يقتبس من الأجيال الماضية، وهو يضيف إلى ما اقتبسه إذا كان على ذلك من القادرين، قال لوبون: «أثبت العلم الرفيع أن أصول الفن اليوناني مقتبسةٌ من الآشوريين والمصريين ... وأن العرب والأغارقة والرومان والفنقيين والعبريين وكلَّ أمة أخرى استفادوا من مجهودات الماضي، ولولا ذلك لكان لزاماً أن تبدأ كل أمة بما بدأت به الأمم الأخرى، ولَسُدَّ باب التقدم، وكلُّ ما تفعله الأمة في بدء الأمر هو أنها تقتبس من الأمم التي جاءت قبلها، ثم تضيف إلى ما أخذته أموراً أخرى ...

وإذا أنعمت النظر في المباني العربية، كالقصور التي أقامها العرب في الأندلس أو المساجد التي أقاموها في القاهرة، رأيتَ العناصر الأولى التي تألفت منها بلغت من التمازج درجةً يتعذر معها الانتباهُ إلى المصادر التي اشتُقت منها.»

ولم يكن النشاط الذي يحفز الإنسان إلى التقدم قوياً في أمة مثل قوته في العرب، كما شهد به العلامة غوستاف لوبون، ولذلك نال العرب درجة رفيعة من الثقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمان قصير، وكانت لهم مبتكراتٌ فيما ورثوه من علوم الأولين.

والواقعُ أن حب العرب للعلم كان عظيماً، وأن الخلفاء لم يتركوا طريقاً لاجتذاب العلماء ورجال الفن إلا سلكوها، وأن أحد خلفاء بني العباس شهَرَ الحربَ على قيصر الروم؛ ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد، وأن العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل أخذوا يتقاطرون إلى بغداد التي كانت مركز الثقافة العالمية، كما أخذوا يتقاطرون إلى عاصمة الأندلس، قرطبة، التي كانت مركزاً للعلوم والفنون والصناعة.

قال لوبون: «كانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساساً لثقافة متعلمي العرب في الدور الأول، وكان هؤلاء كالطلاب الذين يتلقون في المدرسة ما ورثه الإنسان من علوم الأولين، وكان اليونانُ أساتذة العرب الأولين إذن، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط لم يكتفوا بحال الطلب الذي اكتفت به أوربة في القرون الوسطى، فلم يلبثوا أن تحرروا من ذلك الدور الأول ...

والإنسان يقضي العجب من المهمة التي أقدم بها العرب على البحث، وإذا كانت هنالك أمم قد تساوت هي والعرب في ذلك، فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل ... ولم يلبث العرب، بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان، أن أدركوا أن التجربة والترصد خيرٌ من أفضل الكتب ... ويُعزى إلى بيكن، على العموم، أنه أول من أقام التجربة والترصد، اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة، مقام الأستاذ، ولكنه يجب أن يُعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم.

ومنح اعتمادُ العرب على التجربة مؤلفاتهم دقةً وإبداعاً لا يُتَظَر مثلُهما من رجل تعود
درسَ الحوادث في الكتب ...

ونشأ عن منَهاج العرب التجريُّ ووصولُهم إلى اكتشافات مهمة ...
ولما آل العلم إلى العرب حوَّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلقَّاه ورثُهم مخلوقاً خلقاً آخر ...»
ولم يقتصر فضل العرب في ميدان الحضارة على أنفسهم، فقد كان لهم الأثر البالغ في
الشرق والغرب، والمشرق والمغرب مدينان لهم في تمدنهما، ولم يتَّفَق لأمة فيهما ما للعرب
من النفوذ.

ذلك ما رآه لوبون، وهو القائل: «إن الأمم التي كانت لها سيادة العالم، كالآشوريين
والفرس والمصريين والأغارقة والرومان، تَوَارَتْ تحت أعفار الدهر ولم تنزل لنا غير
أطلالٍ دارسة، وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات، والعرب، وإن
تَوَارَوْا أيضًا، لم تنزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل: ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حيَّةٌ
...»

«وأنشأ العرب بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارة التي ظهرت قبلها،
وتمكنوا من حل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وحضارتهم الجديدة، واتصلت
بالعرب أممٌ قديمة كشعوب مصر والهندوس، واعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم
وطبائعهم وفنَّ عمارتهم، واستولت بعد ذلك أمم كثيرة على الأقطار التي فتحها العرب،
وظل نفوذ العرب فيها ثابتاً، ويلوح لنا أن رسوخ هذا النفوذ أبدى في جميع البقاع
الآسيوية والإفريقية التي دخلوها، والتي تمتدُّ من مراكش إلى الهند.»

وشمَل فضل العرب قاهريهم أيضًا، مع عجز هؤلاء عن الانتفاع بحضارة العرب كما كان
يجب، وانتحل أكثر قاهري العرب دين العرب وفنونهم وعلومهم، واتخذ أكثرهم العربية
لغة له، ولم يَدْرِ في خَلَد أحدهم إقامة حضارة مقام حضارة العرب، فحضارة العرب أينما

حلَّت بُنَّت أصولها، ولم يقدِّر فاتح على زعزعتها، وهي من المناعة ما استطاعت أن تُهيمن به على الأمم التي حاولت هدمها.

قال لوبون: «لا نرى في التاريخ أمة ذات أثر بارز كالعرب، فجميع الأمم التي اتَّصل العرب بهم اعتنقت حضارتهم، ولو حيناً من الزمن، ولما غاب العرب عن مسرح التاريخ انتحل قاهروهم، كالترك والمغول، إلخ، تقاليدهم وبدوا للعالم ناشرين لنفوذهم، أجل، لقد ماتت حضارة العرب منذ قرون؛ ولكن العالم لا يعرف اليوم في البلاد الممتدة من سواحل المحيط الأطلنطي إلى الهند، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء غير أتباع النبي ولغتهم.»

وعندما تكلم العلامة لوبون عن عرب الأندلس قال: «لم يكد العرب يُثْمُون فتح إسبانية حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يُحيوا ميّت الأرضين ويعمروا خرب المدن، وقيموا فخم المباني ويوطّدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرَّغون لدراسة العلوم والآداب، ويطرحون كتب اليونان واللاتين، ويُشَوِّنون الجامعات التي ظلَّت وحدها ملجأً للثقافة في أوربة زمناً طويلاً.»

ثم رأى لوبون أن إسبانية هبطت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب عنها، وذلك بعد قوله: «لا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين، ومما يُرثى له أن حُرِّمت إسبانية عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية.»

ورأى لوبون، والحقُّ ما رأى، أن العرب مدَّنوا أوربة مادة وعلمًا وأخلاقاً، «فقد كان عرب الأندلس يتصفون بالفروسية المثالية خلا تسامحهم العظيم، فكانوا يرحمون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، وما إلى هذا من الخلال التي اقتبستها الأمم

النصرانية بأوربة منهم مؤخرًا ... وأثر عرب الأندلس في أخلاق الناس، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يُعلِّموها التسامح الذي هو أئمن ما تصبو إليه الإنسانية ... ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقًا في دور ازدهار العرب ... ومثل هذا التسامح مما لم تصل إليه أوربة بعد ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة، وما عانت من الأحقاد المتأصلة، وما مُنيت به من المذابح الدامية.

وقد أفاض العلامة لوبون في إيضاح تمدن العرب لأوربة، وانتهى إلى ما يأتي: «إنه كان للحضارة الإسلامية تأثيرٌ عظيم في العالم، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم، والعرب هم الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة الذين قَصَّوا على دولة الرومان، والعرب هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهل من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، فكانوا مُمدِّنين لنا وأئمة لنا ستة قرون ... وظلَّت ترجمات كتب العرب، ولا سيما الكتب العلمية، مصدرًا وحيدًا، تقريبًا، للتدريس في جامعات أوربة خمسة قرون أو ستة قرون ... وإذا كانت هناك أمة تُقرُّ بأننا مَدِينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ... فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنْعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافًا أبدئيًا، قال مسيو ليبرى: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ؛ لتأخرت نهضة أوربة الحديثة في الآداب عدة قرون.»

ولم يغب عن بال لوبون أن يردَّ على قول بعض الكتاب إن معظم علماء العرب في بلاد الإسلام ليسوا من أصلٍ عربي، فقد قال: «إن تلك البلاد مما ملكه العرب، وإن الدم العربي مما جرى في عروق أبنائها، وإن علوم العرب مما كان لها نصيبٌ منه زمنًا طويلًا، وإنه إذا أبيح لأحد أن يجادل في الآثار التي صدرت عن مدارس العرب كان ذلك من

قبيل إباحته لنفسه أن يجادل في مؤلفات علماء فرنسة بحُجَّة أنهم من الشعوب الكثيرة التي تألف من مجموعها الشعب الفرنسي كالنورمان، والسُّلت، والأكيَّتان ... إلخ.

وعند العلامة لوبون أن أوربة أخذت حضارتها من عرب الأندلس على الخصوص، وهو لم يرَ للحروب الصليبية كبيرَ فضلٍ في تمدين أوربة خلا ما اقتبسه الأوربيون في أثنائها من وسائل ترف الشرق، وطراز عمارته وصنائه، قال لوبون: «إن استفادة الصليبيين من علوم العرب الخالصة كانت ضعيفة إلى الغاية خلافاً لما ذهب إليه كثير من المؤرخين، فالجيوش الصليبية إذ كانت جاهلة للعلماء لم تكن لتبالي بالمعارف والأصول مبالاتها بشكل البناء أو الأسلوب الصناعي».

وسأل لوبون، بعد أن أثبت فضل العرب على أوربة وتمدينهم لها: «لماذا يُنكرُ علماء الوقت الحاضر تأثير العرب؟» فكان جوابه: «إن استقلالنا الفكري لم يكن، بالحقيقة، في غير الظواهر، وإننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد.

فالمرءُ عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كوَّنتها الدراساتُ الخاصة والبيئةُ الخلقية والثقافية، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جَمَدَتْ وتحجرت بفعل الأجداد وكانت خلاصةً لماضي طويل.

والشخصيةُ غيرُ الشاعرة وحدها، ووحدها فقط، هي التي تتكلم عند أكثر الناس، وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماةً بأسماء مختلفة، وتملي عليهم آراءهم فيلوح ما تملي عليهم من الآراء حرةً في الظاهر فتُحترم.

فالحقُّ أن أتباع محمد ظلوا أشد ما عرفته أوربة من الأعداء إرهاباً عدة قرون، وأنهم عند ما كانوا لا يُرعدوننا بأسلحتهم، كما في زمن شارل مارتل والحروب الصليبية، أو يهددون

أوربة بعد فتح القسطنطينية، كانوا يُدّلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس.

وترأّيت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، وصارت جزءاً من مزاجنا، وأضحت طبيعةً متأصلةً فينا تأصّلَ حقدَ اليهود على النصارى الخفي أحياناً والعميق دائماً.

وإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مُبتسراتنا الموروثة الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة «إن اليونان واللاتين وحدهم منبعُ العلوم والآداب في الزمن الماضي» أدركنا، بسهولة، سرَّ جحودنا العام لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوربة.

ويترأى لبعض الفضلاء أن من العار أن يُرى أن أوربة النصرانية مدينةً في خروجها من دور التوحش لأولئك الكافرين، فعارٌ ظاهر كهذا لا يُقبل إلا بصعوبة.

ووضّع لوبون العرب في صفِّ اليونان والرومان، ورأهم أرقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عصر النهضة، فكان في هذا أكثر إنصافاً من بعض كتّاب العرب المعاصرين الذي استهوتهم الثقافة الأوربية المدرسية، فأخذوا يسايرون رجالها متجاهلين ما لأمتهم العربية من المقام العريض في ميدان الحضارة راغبين بالأغارقة والرومان عنها حينما يتكلمون في تاريخ الحضارة العالمية.

واعترف لوبون للعرب بظهور رجالٍ عظماء منهم كما تشهد بذلك اكتشافاتهم، ولكنه أبدى ارتياحه في ظهور عباقرة منهم كنيوتن وليبنتز، فنَعُدُّ ذلك هَفْوَةً من العلامة لوبون الذي ذكر في غير موضعٍ أن لاقِوازيه مدينٌ لعلماء العرب في علم الكيمياء، وأن كيلر وكوبرنيك مدينان لعلماء العرب في علم الفلك مثلاً، فقد قال: «يرى بعضُ المؤلفين أن

لاقوازيه هو واضع الكيمياء، وقد نُسوا أننا لا عهد لنا بعلم من العلوم، ومنها علم الكيمياء، صار ابتداعه دفعةً واحدةً، وأنه وُجد عند العرب من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافاتٍ لم يكن لاقوازيه ليستطيع أن ينتهي إلى اكتشافاته غيرها»، وقال نقلًا عن العلامة سيديو: «إن العرب سبقوا كيبلر وكوبرنيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضيٍّ، وفي نظرية دوران الأرض»، وقال: «ترى في كتب العرب من النصوص ما تعتقد به أن نفوسهم حدّثتهم ببعض اكتشافات العلم الحديث المهمة»، فإذا كانت الحضارة العامة سلسلةً حلقات، وكانت حضارة العرب من أهم تلك الحلقات كان من المتعذر ظهورُ نيوتن وليبنتز وغيرهما من أركان حلقة الحضارة الحديثة بدونها، والفضلُ للمتقدم.

وهنا أذكر أن لكتاب «حضارة العرب» الذي أقدمُ ترجمته مطالبَ ومناحيَ كثيرة لا تتسع هذه المقدمة للإحاطة بها، وأن أقلَّ نظرة إلى الفهرس المفصل الذي نُشر في آخر هذا الكتاب يدل عليها.

فمن درسِ كتاب «حضارة العرب» وإنعام النظر فيه يتبيّن للقارئ أن العلامة غوستاف لوبون سلك في تأليفه طريقًا جديدًا لم يسبقه إليه أحد، وأنه حاول فيه بعث حضارة العرب من مرقدها، وإظهارها للملأ على وجهها الصحيح.

ولم يألُ العلامة لوبون جهدًا في درس حضارة العرب مستندًا إلى أهمّ المؤلفات التاريخية، وإلى مشاهداته الشخصية، فجاء كتابه جامعًا لكثيرٍ مما في تاريخ حضارة العرب من العظات والعبر، وقد أكثر بعض كُتّابنا من الاستشهاد بجُملي منه عند بحثهم في تاريخ الحضارة فصار من الضروريّ نقله بأسره إلى اللغة العربية.

وهذا الكتاب صحيحٌ المناحي والغايات في مجموعته، وهو كغيره من الكتب المهمة، لا يخلو من هفواتٍ لا تخفى على القارئ، ولكن هذه الهفوات لا تُحطُّ من قيمته العظيمة، وقد أشرت إلى أهمها في هذه المقدمة.

ويبحث العلامة غوستاف لوبون في طبائع العرب وعاداتهم ونظمهم في مختلف الأقطار كما كانت عليه في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، فعلى القارئ أن يلاحظ ذلك، وأن يعلم أن هذا الكتاب ظهر في سنة ١٨٨٤م، وأن طبائع العرب وعاداتهم تحوَّلت بعض التحول منذ ذلك التاريخ بفعل مبتكرات العلوم والفنون والصناعة، وبفعل علاقات أمم الشرق الوثيقة بأمم الغرب في الزمن الحاضر.

ألا إن الأمة العربية التي هي عرضةٌ لأشد المصائب والمحن، والتي نرى أن القضاء على كيائها القومي، ومقوِّمات حضارتها من سياسة أكبر دول التاريخ في المشرق والمغرب منذ قرون كثيرة، لا تزال تقاوم، وها هي ذي قد أخذت تنهض وتسعى؛ لتحلَّ مكانًا لائقًا بتاريخها المجيد، فإذا كان التوفيق قد أصابني في نقل هذا الكتاب، وكان للأمة العربية نفع فيه، نلت ما أتمنى.^١

عادل زعيتر

نابلس

^١ يقضى الواجب بأن أسجل شكري الوافر لمطبعة دار إحياء الكتب العربية التي التزمت طبع هذا الكتاب، وذلك لما بذلته من جهد وتضحية في إخراجها في هذه المرة على هذا الوجه النفيس الذي يحكي الأصل في المظهر جهد الاستطاعة، ولما قدمته إليَّ من تسهيل في الإشراف على طبعه باتقان بالغ، وذلك بعد أن أعدت النظر في ترجمته، وقمت بتجديده في عبارته. وهنا تنبه القارئ إلى أن العلامة لوبون قد اقتطف كثيرًا من كتب الحديث والأدب والعلم والفلسفة والتاريخ، إلخ، فأعدنا معظمه إلى أصله العربي، وأما الذي لم نتوصل إلى نصه العربي، وهو قليل جدًا، فقد ترجمناه من الفرنسية مع وضع إشارة (*) عليه في مواضعه تنبيهًا للقارئ (المترجم)

مقدمة المؤلف

يَعْرِفُ قراء كتبنا السابقة مَضامين هذا السَّفر الجديد، ويعلمون أننا سندرس تاريخ الحضارات بعد أن بحثنا في الإنسان والمجتمعات.

كان كتابنا السابق^٢ وقفًا على وصف ما اعتور جسم الإنسان وعقله من التطور المتتابع، وعلى بيان العناصر التي تتألف المجتمعات منها، وقد رَجَعنا فيه إلى أقدم أدوار الماضي، وأوضحنا فيه كيف نشأت زُمَر الإنسان الأولى، وكيف تولَّدت الأُسَر والمجتمعات والصناعات والفنون والنُّظم والمعتقدات، وكيف تحولت هذه العناصر بتوالي الأجيال، وبيَّنَّا فيه عوامل هذا التحول.

وإننا، بعد أن بحثنا في الإنسان وهو منفردٌ وفي تطور المجتمعات، نرى أن نطبق قواعدنا التي بسطناها هنالك على الحضارات العظيمة إكمالًا لبرنامِجنا.

إن العمل لواسعٌ، وإن مصاعبه لكثيرةٌ، وإذ كنا لا نُبصر مداه الآن عزمنا على جعل كلِّ مجلد منه تامًّا مستقلًّا، فإذا انتهينا من المجلدات الثمانية أو العشرة الباحثة في تاريخ مختلف الحضارات وتمت بذلك غايتنا سَهْل ترتيبها ترتيبًا علميًّا.

وبالعرب بدأت، وسبب ذلك: أن حضارتهم من الحضارات التي اطلَّعتُ عليها في رحلاتي الكثيرة أحسنَ مما اطلعت على غيرها من الحضارات التي كَمُل دورها، وتجلَّى فيها مختلف العوامل التي أوضحنا سرَّها في ذلك الكتاب، وهي من الحضارات التي نرى الاطلاعَ على تاريخها مفيدًا إلى الغاية وهو أقلُّ ما عرفه الناس.

وتسيطر الحضارة العربية، منذ اثني عشر قرنًا، على الأقطار الممتدة من شواطئ المحيط الأطلنطيِّ إلى المحيط الهنديِّ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال إفريقيا الداخلية،

٢ كتاب «الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما» وهو يقع في مجلدين.

وكان سكان هذه البلدان المترامية الأطراف تابعين لدولة واحدة، ويدينون الآن بديانة واحدة، ولهم لغة واحدة ونُظْمٌ واحدة، وفنونٌ واحدة.

ولم يُقَمِّ عالمٌ بوضع كتاب جامع لتأثير حضارة العرب في الأمم التي سيطرت عليها شامل لعجائبها في إسبانية وإفريقية ومصر وسورية وفارس والهند، ولم تُكَلِّدُ البحث العام فنونَ العرب، وإن كانت أكثر ما عُرِفَ من عناصر حضارتهم، وباء المؤلفون القليلون الذين أرادوا ذلك بالخيبة، فعزوا حبوط عملهم إلى نقص الآثار والأسانيد!

ولا ننكر أن تشابه المعتقدات أوجب تجانسًا كبيرًا في فنون مختلف البلاد التي خضعت للإسلام، ولكن من الواضح أن ما بين الأمم الإسلامية من الاختلاف وما بين بيئاتها من التباين أدَّى — من جهة أخرى — إلى فروق بعيدة الغور في تلك الفنون، فما ذلك التجانس؟ وما تلك الفروق؟ سيري القارئ الذي يتصفح فصول هذا الكتاب، الخاصة بدراسة فن البناء وما إليه، درجة صموت العلم الحديث عن هذه المسائل.

وكلما أمعنا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم، وفنونهم — ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولُسُرَعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدَّنوا أوربة مادةً وعقلًا وأخلاقيًا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يُفَقِّهم قوم في الابتداع الفني.

وتأثيرُ العرب عظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى، ولم يتَّفَقْ لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، والأمم التي كانت لها سيادة العالم، كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان، توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة، وعادت أديانها

ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات، والعرب، وإن تَوَارَوْا أيضًا، لم تزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حية، وينقاد أكثر من مائة مليون شخص مقيمين فيما بين مراكش والهند لشرعة الرسول.

وثبتت أصول شريعة الرسول وفنون العرب ولغتهم أينما حلَّت، ولم يذُر في خَلَد أحد من الفاتحين الكثيرين الذين قهروا العرب إقامة حضارة مقام حضارة العرب، وانتحلوا كلُّهم دين العرب وفنونهم، واتخذ أكثرهم العربية لغةً له، وتقهقرت أمام الإسلام في الهند دياناتٌ قديمة، وجعل الإسلام مصرَ الفراعنة القديمة، التي لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذ قليل، عربيةً تامةً العروبة، وعرفت أقوام الهند والفرس ومصر وإفريقية لهم سادةً غير أتباع محمد فيما مضى، ولم يعرفوا لهم سادةً غير مسلمين بعد أن رضوا بالإسلام دينًا.

حقًا إن من أعاجيب التاريخ أن يلبي نداء ذلك المُتَهَوِّس الشهير شعبٌ جامعٌ شديدُ الشكيمة لم يقدر على قهره فاتح، وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدول وألا يزال يُمسك، وهو في جَدَّته، ملايين من الناس تحت لواء شرعه.

ويجب احترام أعظم مؤسسي الأديان والدول، وإن وصَّفهم العلم الحديث بذوي الهوس، وحقَّ له ذلك، ففيهم تتجلى روح الزمن وعبقريّة القوم، وبلسانهم تنطق أجيال من الأجداد راقدةً في ثنايا العصور، والخيالات، وإن كانت كلُّ ما يأتي به هؤلاء المبدعون مُثُلٌ عالية، هي التي أوجدت كياننا الحاضر ولا تقوم بغيرها حضارة، ولم يكن التاريخ سوى قصصٍ للحوادث التي أقام بها الإنسان خيالاً فعبده ثم هدمه.

والحضارة العربية من صنع قومٍ من شباه البرابرة، فلما خرج هؤلاء القوم من صحارى جزيرة العرب صرعوا الفرس واليونان والرومان، وأقاموا دولة عظيمة امتد سلطانها من

الهند إلى إسبانية، وأبدعوا تلك الآثار التي هي آية في الإعجاز والتي تُورث بقاياها العجب العجائب.

فما العوامل التي ظهرت؛ ونمت بها حضارة العرب ودولتهم؟ وما أسباب عظمتهم وانحطاطهم؟

حقاً إن ما ذكره المؤرخون ضعيف إلى الغاية، ولا يقف أمام سلطان النقد، وطريقة التحليل العلمي أفضل وسيلة لإيضاح شأن أمة كالأمة العربية.

والغرب وليد الشرق، ولا يزال مفتاح ماضي الحوادث في الشرق، فعلى العلماء أن يبحثوا عن هذا المفتاح فيه.

وتبدو الفنون واللغات وأكثر الديانات العظمى بارزة في الشرق، ويختلف سكان الشرق الآن عن سكان البلدان الأخرى في المبادئ والآراء والمشاعر.

والشرق يتحول ببطء، ويقترّب حاضره من ماضيه، ويستطيع من يبحث في أحواله الحاضرة أن يصل إلى صميم الأجيال الغابرة.

والشرق مرجع دائم لرجال الفن والعلم والأدب، وما أكثر ما جلّست تحت نخلة أو أمام معبد فأخذتني سنة، وخُضت في بحر من الخيالات، وأبصرت من خلالها سالف الأجيال، وتمثلت لي مدن غريبة ذات أبراج مُشرّفة، وقصورٌ عجيبةٌ ومعابدٌ شاخخةٌ ومآذنٌ رفيعةٌ تتلألأ تحت وهج الشمس، ورأيت قوافل من أهل البدو وجوعاً من الشرقيين بملابسهم الزاهية، وشراذم من الأرقاء السمر، ونساءً مُحدّرات تجوب تلك المدن!

ولا مرأى في تواري نينوى ودمشق وأورشليم وأثينة وغرناطة وعمفيس وطيبة ذات مائة الباب وأقول نجمها، ولا ريب في أن قصور آسية ومعابد مصر صارت خرائب وأطلالاً، ولا شك في أنه لم يبق من آلهة بابل وسورية وكلدة ووادي النيل سوى ذكريات، ولكنه

يستتر تحت هذه الأنقاض عِبْرٌ لا تُحصى، وتشتمل هذه الذكريات على معانٍ بعيدة الغور، وتنطوي أخبار تلك الشعوب التي تناوبت ما بين عَمَدِ هِرْكُولَ ونجودِ آسية الحُصيبة، وما بين شواطئ بحر إيجة المُخَضَّرَة ورمال إثيوبية المُحَرَّقة، على أسرار وألغاز.

وتلك البقاع القاصية حافلة بالمعارف، وقد يُغيّر الباحث آراءه بسببها، ويدل درسها على وجود هُوة عميقة بين الناس، وعلى بُطلان مزاعمنا في الحضارة والإخاء العالمي، وعلى اختلاف ما نخاله ثابتاً من المبادئ والحقائق باختلاف البلدان.

وفي تاريخ العرب، إذن، مسائل كثيرةٌ تتطلب حلاً، وفيه دروسٌ وعِبْرٌ جديرة بالحفظ، والعربُ عنوانُ أمم الشرق التي تختلف عن أمم الغرب، ولا تزال أوربة جاهلةً لشأنهم، فلتعلم كيف تعرفهم، فالساعة التي ترتبط مقاديرها في مقاديرهم قد اقتربت.

وإن ما بين الشرق والغرب من الاختلاف عظيم إلى الغاية في الوقت الحاضر، ويبلغ في عِظَمِهِ ما يتعذر معه اعتناق أحدهما لمبادئ الآخر وتفكيره.

وقلّبت مبتكرات العلوم والصناعة كيانَ الغرب المادي والأدبي رأساً على عقب، وتعاني مجتمعاته المُسِنَّة تحولاً بعيد المدى، ويقاسي خلافاً شديداً، ويكابد في سبيل معالجة الشرور التي نشأت عن ذلك الخلاف أزمةً عامةً تسوقه باطراد إلى تبديل نظمته، ويثن من عدم الانسجام بين المشاعر القديمة والمعتقدات الجديدة، ويألم من تصدّع مبادئ الأجيال السابقة.

وتنال يدُ التغيير في الغرب الأسرةَ والتملك والديانة والأخلاق والمعتقدات، وتصبح هذه الأمور موضوع جدل، ولا يقدر أحد أن يتكهن بما يتمخض عنه العلم الحديث، وكُلِّفت الجماهير بمبادئ سلبية في الوقت الحاضر، وبلغ كَلْفُها بها درجة الحماسة غير مقدّرة نتائج ذلك.

ونرى الآن قيام آلهة جدد مقام قدماء الآلهة، ونشاهد العلم يدافع عنهم اليوم، فمن ذا الذي يذود عنهم في المستقبل؟

وحال الشرق غير ذلك، فالشرق في طُمأنينة وسكون، وقد بلغت شعوبه التي هي أكثرية البشر درجةً ظاهرة من التسليم الهادئ الذي هو عنوان السعادة على الأقل، ولا عهد له بما عندنا من الانقسامات والحياة الصاخبة.

وتتمتع شعوب الشرق بما خسرناه من التماسك، فمعتقدات هذه الشعوب لا تزال قوية، وتحافظ أسرها على استقرارها القديم، وبقيت مقومات المجتمعات القديمة، كالديانة والأسرة والنظم والتقاليد والعادات، وهي التي أصابها في الغرب من الهدم ما أصابها، مؤثرةً في الشرق مسيطرة عليه، وليس على الشرقيين أن يفكروا في تبديلها.

فصلنا في كتاب آخر طرق البحث والاستقصاء، التي يستعان بها على درس الحوادث التاريخية، تفصيلًا كافيًا، والآن نذكر أهمها: إن مبدأ «العلة» المسيطر على دراسة قضايا العلم يسيطر على دراسة حوادث التاريخ أيضًا، وأن طرق البحث والاستقصاء التي يُستعان بها على دراسة القضايا العلمية يستعان بها على دراسة الحوادث التاريخية أيضًا، فيجب، إذن، درس الحادثة الاجتماعية كما تُدرَس أية حادثة طبيعية أو كيميائية.

وتخضع الحادثات كلها لبعض السنن، أي لنظام من الضرورات والوجوب، ويعمل الإنسان، وتسيّره في عمله قوى مسيطرةٌ يسميها أناس بالطبيعة وآخرون بالحكمة الربانية أو القضاء والقدر أو المصير؛ ونحن مُسيّرون من المهد إلى اللحد بما لا نستطيع مقاومته من القوى القاهرة الغالبة التماسكة، ولا تعدو أقصى جهودنا وغاية أمانينا حد الوصول إلى معرفة بعض مظاهرها وصفاتها اللازمة.

ومثُلُ تاريخ الإنسان كمثل سَرْدِ واسع متماسك الأجزاء تتصل حلقاته الأولى بأقدم الأحقاب والعصور، وكلُّ حادثة تاريخية نتيجة حداثٍ أقدم منها، والحال، وهو وليد الماضي، يحمل في أثناؤه وتضاعيفه بذور المستقبل، فيستطيع صاحب ذكاء ثاقب أن يقرأ سَيرَ الأمور المقبلة من خلال الحوادث الحاضرة.

ولن يتَّصف أحدٌ بمثل هذا الذكاء، والإنسان، وإن استطاع يوماً أن يطَّلع على العوامل التي أوجبت حدوث الحال، وعلى ما في هذه العوامل من القوى المتقابلة، يتعذر عليه تحليل هذه العوامل، وما لا يقدر عليه علمُ الفلك أن يُعيِّن بالحساب اتجاه جِرمٍ خاضع لتأثير ثلاثة أجرام أخرى، فما تكون المسألة حين البحث عن تأثير ألوف الأجرام في جِرم واحد؟

ولم تُستنبط جميع السنن التاريخية المزعومة من غير ما هو تحت الحسِّ والاختبار، وهي تُقاس بملاحظات علماء الإحصاء الذين يستطيعون، بما يشاهدون ويختبرون، أن يُنبئوا، مثلاً، بعدد الوفيات والجرائم وأنواع الجرائم التي يُصاب بها بلد يسكنه مليونُ نفسٍ في سنة ما من غير أن يَحُلُصوا إلى صميم علل الحوادث الذي هو ضربٌ من المحال، وهذه العوامل كثيرةٌ إلى الغاية.

ونشأ عن تعذُّر النفوذ إلى علل الحوادث الاجتماعية استخفاف فريق من العلماء بالعلوم التاريخية التي حاولوا الغوص فيها، قال الكاتب الفاضل مسيو رينان: «إن العلوم الافتراضية تُنْقَضُ بعد أن توضع، وستُهمل في مائة سنة، وأوشك جيلٌ من الذين لا يبالون بالماضي أن يظهر، ويُحسَى، والحالة هذه، أن تندثر قبل أن تُقرأ كُتُبُنَا في دقائق الأدب وروائع الفنون التي ينال التاريخ منها ضبطاً ودقة»، ويرى رينان أن المستقبل للفيزياء والعلوم الطبيعية حيث يتجلَّى «كُنه الوجود، ومعنى العالم، وسر الله، وما إلى ذلك.»

وقد يأمل كل واحد ذلك لا ريب، ولكننا لا نرى ما يُسوِّغ هذه الأمانى، فليس في العلوم الوضعية شيء عن الموجب الأول لأيِّ حادث كان، وكلُّ ما كشفت العلوم الوضعية الحديثة عنه، فكانت فيه قوتها، هو ما بين ظواهر الأمور من الارتباط، وهي حين تتناول أمورًا معقدة تَغْرَق في بحر من الفرضيات والظنون، ولا تكاد العلوم الحديثة تأتي بجواب حائر عن المسائل التي يضعها الإنسان كل يوم، وهي لن تحلَّ واحدة من العضلات التي تواجه الطبيعة بها الإنسان من مهده إلى لحدّه، وهي لا تُشبع ما تلقّيه في قلوبنا من فضول أبدًا، وهي تثير الأفكار ولا تُفك المسائل، وستلحق كُرْتُننا الأرضية في الفضاء بالأجرام الخامدة قبل أن يجيب أبو الهول الخالد عن سؤال واحد.

إذن، يجب ألا يعترينا الوهم حَوْل قدرة العلوم فنَحْمَلَهَا ما لا طاقة لها به، والعلوم تبحث، فقط، في أوصاف الإنسان أو الحيوان أو النبات أو المجتمع، وفي رسم صورة صادقة عن أدوار الماضي، وفي ارتباط بعض الحوادث التاريخية في بعض، ولا نطالب المؤرخ بأكثر من هذا.

والعمل شاقٌّ، ويتطلب عنايةً كبيرة، ومن الصعب جمع ما هو ضروري من المواد لتصوير إحدى الحضارات، وأصعبُ من هذا استخدام هذه المواد.

ولم تكن هذه المواد في أنساب الملوك وأخبار الملاحم والفتوحات، وإنما هي، على الخصوص، في لغات كلِّ دور وفنونه وآدابه ومعتقداته ونُظْمه السياسية والاجتماعية، ولم تنشأ هذه المواد عن المصادفات أو أهواء الرجال أو مشيئة الآلهة، بل عن احتياجات الشعوب وأفكارها ومشاعرها، وتتضمن الديانات والفلسفة والآداب والفنون نمطًا خاصًا من الشعور وطَرَزًا معينًا من التفكير، ولا تتضمن غير هذا.

نعم، إن أعمال الرجال وآثارهم تُعبّر عن أفكارهم ومشاعرهم، وتمكننا من تصوّر الدور الذي كانوا فيه، ولكن هذا لا يكفي، فالأهم نتيجة ماضي طويل، وليست الأمم بنت ساعة واحدة، وهي محصول ما خضعت له من البيئات المختلفة التأثير، ولذا يُفسّر حاضرها بماضيها.

ونرى تسمية البحث في تكوين العناصر التي تتألف الأمة منها بعلم الأجنّة الاجتماعي، وسيكون هذا العلم أساساً متيناً يستند إليه التاريخ كما تستند علوم الحياة إلى علم أجنة الأحياء في الوقت الحاضر.

ولا بد لذوات الحياة من أن تقطع أطواراً سُفلية قبل بلوغها درجة عالية من الرقي، وقبلما يكشف التاريخ لنا الغطاء عن هذه الأطوار السُفلية بعد اختفائها، ولم يفت البحث العلمي أن يجمع منها ما هو أساسي من ضياع حلقات من سلسلتها، ولم تُصب المجتمعات كلها أدواراً متماثلة من التقدم أيضاً، ولم يجاوز الكثير منها بعد ما قطعه الغرب من المراحل التي هي عنوان الماضي الثابت، والذي يسير في الأرض يشاهد أدوار التاريخ البشري المختلفة منذ أقدم العصور الحجرية حتى الوقت الحاضر، وبهذا يمكن تأليف تاريخ إحدى الأمم، ومعرفة عناصر حضارتها.

ومن الممكن تأليف تاريخ لإحدى الحضارات ونموّها بطريق البحث في المباني العظيمة والآداب واللغات والنظم والمعتقدات ... إلخ، وإذا كان من النادر نيل كل هذا فإن بعض هذا يكفي لاستخراج ما تبقى، فالطرق العلمية التي يصل بها الباحث إلى تصوير حيوان مستعينا بقطع من هيكله العظمي يُستفاد منها في المباحث التاريخية أيضاً، وظهور بعض الخطوط والحروف يتضمن وجود غيرها دائماً.

وقد تكون تلك المواد غير كافية من حيث الضبط والدقة على الخصوص، والعلم الحديث يترك إتمامها للحفدة، ومن السهل أن نتوقع اختلافًا بين كتب التاريخ التي تُولف في المستقبل وكتب التاريخ الحاضرة، فستقتصر كتب تاريخ الحضارات التي تُولف في القرن العشرين، مثلاً، على العُنوان ومجموعة من الصور والخرائط والمنحنيات الهندسية الدالة على تقلبات الحوادث الاجتماعية.

ويمكن التعبير عن الجسامة والطاقة والوزن والديمومة بأرقام أو خطوط دائية، ولا نرى حادثة نفسية أو اجتماعية مُعقدة يتعذر الإفصاح عنها بأرقام أيضاً، ويكفي للوصول إلى قياسها بمقياس أن تُفرَّق إلى عناصرها الأساسية، ولا جرم أن علم الإحصاء أقل العلوم الحديثة، التي هي في دور النشوء، تقدماً، وما بلغه علم الإحصاء ينبئنا بفائدته المرجوة في المستقبل، فقد ألقى علماءه، بما جمعه من الأرقام، ضوءاً على إنتاج البلدان واستهلاكها وثروتها واحتياجاتها وقوة سكانها المادية والأدبية، وتباين مشاعرها ومعتقداتها ومختلف العوامل المؤثرة فيها.

وريثما يقع ذلك في المستقبل، الذي يُعبَّر فيه عن وقائع التاريخ والحوادث الاجتماعية بالصور والخرائط والمنحنيات الهندسية، نرى أن نستعين بأصح الآثار والأدلة التي خلفها الماضي وأكثرها ضبطاً، وعندي أن ما لدينا من المواد التي ذكرناها يكفي لوضع صورة عن الحضارات الماضية وتاريخ تكوينها، ويجب، للانتفاع بتلك المواد، أن تُدرس آثار الحضارات الماضية في أمكتها، فمناظر هذه الآثار، لا الكتب، هي التي تُعرب عن الماضي، وليس في الكتب ما تُعرَف به العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية.

وتكون دراسة البيئات في أمكنتها أمرًا ضروريًا عندما يُبحث في أمة، كالأمة العربية، ذات آثارٍ كثيرة في مختلف الأقطار التي ازدهرت حضارتها فيها، وتُعلّمنا الرحلات كيف نتحرر من قيود الآراء المتأصلة والتقاليد الموروثة وضلال الماضي وباطله.

وسيجد القارئ في هذا الكتاب تطبيقًا للقواعد المذكورة التي ابتعدنا بها عن أكثر أحكامنا التقليدية الموروثة في الشرقيين، ولا سيما في دين محمد وتعدد الزوجات والرق والحروب الصليبية، والنظم والفنون وتأثير العرب في أوربة، وما إلى ذلك.

إن الآثار الباقية من حضارة العرب كثيرة، وهي تكفي لإيضاح أقسامها الجوهرية بسهولة، وقد استعنا بأكثرها، أي بما خلّفه العرب من العلوم والآداب والفنون والصناعات والنظم والمعتقدات.

وأكثر ما رجّعنا إليه في وضع هذا الكتاب هو ما نسميه الآثار الماثلة التي تستوقف النظر بأشكالها الظاهرة، وتعبر عن رغائب الزمن الذي قامت فيه ومشاعره تعبيرًا صادقًا، ولا غرور، ففيها يتجلّى نفوذ العروق وتأثير البيئة، وبها يمكن الوقوف على أحوال القرون الغابرة، فالكهف الذي نُحت في العصر الحجري أو المعبد المصري، أو المسجد الإسلامي، أو الكندرائية، أو محطة السكة الحديدية، أو مخدع المرأة العصرية أو الفأس المصنوعة من الصوّان، أو السيف ذو المقبضين، أو المدفع الذي يزن خمسين طنًا، أفضل لمعرفة جميع ذلك من أكّداس كتب البحث والجدل.

ولا نرى غير طريقة واحدة لوصف الآثار الماثلة، وهي عرض صورها، فصور البارثنون والحمراء وأفروديت أولى من مجموعة الكتب التي وضعها جميع مؤلفي العالم لوصفها.

وما تُلقّيه صور الآثار التاريخية في الرّوع من المعاني الصادقة يدفعنا إلى الإكثار منها في هذا الكتاب، والقارئ الذي يقتصر على تصفّح صور هذا الكتاب يطلع على حضارة العرب

وتحولاتها في مختلف الأقطار أكثر مما يطلع عليه من الكتب الكثيرة، وذلك عدا إعفائه من مطالعة المباحث المطوّلة في وصف تلك الآثار من غير أن يظفر منها بفكر صحيح، ولقد أصاب من قال: «إن صورة متقنة خيرٌ من مائة صفحة في الوصف»، وليس من المبالغة أن يقال: إنها خير من مائة مجلد.

ولا تكفي ألفاظ آية لغة لوصف آثار الشعوب، ولا سيما آثار الشرقيين، وإنما نطلع بالمشاهدة على مناظرها ومبانيها وفنونها وعروقها، ولا يستطيع أروغ القول أن يؤثر في النفس بمثل ما تؤثر به رؤية الأشياء نفسها أو صورها عند الضرورة.

والفوتوغرافية هي التي يمكن أن تجود علينا بصور صحيحة للأبنية والآثار الفنية والمناظر وأمثلة الشعوب ومظاهر الحياة المنزلية، وبها نستعين في وضع هذا الكتاب، فما تقدّر الفوتوغرافية عليه من الدقة في بضع ثوانٍ لا يستطيعه أمهر رجال الفن في أيام كثيرة.

ولو اقتصر الأمر على تصوير المباني، مثلاً، لاستطاع رسام ماهر لا قيمة للوقت عنده أن ينافس الفوتوغرافية، ولكن مثل هذه المنافسة تتعذر عندما يجب تصوير ألوف من مناظر الحياة العامة التي هي عنوان وجود الأمة، فالفوتوغرافية وحدها هي التي تستطيع أن تُصوّر الأشياء في أثناء حركتها تصويرًا صادقًا، وذلك كشارع يزدحم الناس فيه، أو سوقٍ أو حصانٍ جوادٍ راكض، أو موكب عرس، أو ما مائل ذلك.

ومنذ أمس فقط أوصت طرق العلم الحديثة بأن يُستعان في الرحلات بالفوتوغرافية، وهذا الكتاب هو أول الكتب انتفاعًا بالفوتوغرافية، وفيه يرى القارئ مقدار النتائج المهمة التي توصلنا إليها بفضل الفوتوغرافية، وكلُّ صورة فوتوغرافية اشتمل عليها وثيقة صادقة قوية لا يتطرق إليها الوهن.

وإذ كانت الصور الفوتوغرافية من عمل الشمس وحدها حُق لي أن أناضل عن قيمتها، وعلى العالم الذي قد يستخف بالصور التي يحتويها هذا الكتاب أن يفكر قليلاً؛ ليرى كيف تُفضّل مجموعة من الصور الفوتوغرافية على تلال الكتب التي بُحث فيها عن اليونان والرومان، وما أكثر ما نتعلمه من الصور الفوتوغرافية، وما أحقر المؤلفات بجانبها! وليترك فنُّ الرسم، وهو الذي قام حتى الآن بما طُلِب منه في تصوير المباني والموجودات، مكانه للفوتوغرافية التي يُركن إليها، اليوم، في كتب العلم أو التاريخ أو الرحلات، نَعَمْ، إن في نقل الآلات الفوتوغرافية المعقدة إلى البلدان البعيدة واستعمالها لمصاعب كثيرة، ولكنه يجب على كل عالم أو سائح ثَبِتَ يريد أن تكون لأثره قيمةٌ أن يخضع لحكم الضرورة مهما كلفه الأمر.

ولا يُترك مثل هذا العمل إلا لأربابه، فإذا كان من السهل استعمال آلة التصوير والتقاط الصور، فإنه يعسر انتخاب الآثار التي يجب تصويرها ويصعب تعيين الأحوال التي يجب أن تكون عليها هذه الآثار وقت تصويرها.

ويكفي لإدراك درجة الاختلاف في اللون أو الصفة أو الأوضاع، أن نُنعم النظر في المنظر الواحد أو البناء الواحد أو الشخص الواحد الذي يُصوّر مصورون كثير.

وعدسة التصوير صادقةٌ في ذلك كله لا ريب، ولكن الطبيعة هي التي تتغير، فالبناء أو المنظر الواحد الذي تضيئه الشمس في الشتاء لا يظلُّ البناء أو المنظر نفسه حين إضاءة الشمس له في الصيف، أو حين إضاءتها له في الصباح أو المساء.

وكلُّ الفن في التقاط صور الأشياء حينما تكون مؤثرة في النفس مع تَوَخِّي الضبط، ولا يكفي أن تكون الصورة صادقةً لتؤثر في النفس، فمع أنني أنظر بعين العجب إلى كتاب

مسيو پيرو عن مصر أرى الصور الشاحبة الجافة التي زَيَّن بها صفحاته لا تؤثر في النفس ذاك التأثير المطلوب،^٣ وغرض غير هذا ما يجب على المؤلفين أن يَسْعَوْا إليه.

وتختلف الوسائل التي نشرنا بها صورنا الفوتوغرافية على حسب تأثيرها في النفس، ففي الأمور التي قُصد بها التأثير جملة، لا تفصيلاً، حُوِّلت صورُها إلى كليشات على طريقة التجويف الفوتوغرافي الحديثة (فوتوغرافور)، وفي الأمور التي قُصد فيها إظهار الدقائق حُفرت صورها الفوتوغرافية بالمنقاش في الخشب من غير أن يكون للرسام عمل فيها، وإذا عدت بعض الشواذ وجدتنا لم نلجأ، لإظهار دقائق فن البناء، إلى طريقة الرسم بالتخطيط إلا عند عدم كفاية أية طريقة أخرى غيرها.

وفي الكتاب ٣٦٣ صورة لم تُترك واحدة منها لمتفني يصنع فيها كما يشاء، ورغبنا عن الوثائق التي كان للخيال حظٌّ فيها مرجحين العدول عن مصدرٍ للصور الرائعة، كالتى نُشرت في كتاب مسيو إيبير ومسيو مسبيرو عن مصر، وحازها ناشر هذا الكتاب، مقتصرين، مع الأسف، على ما استند منها — وهو قليل — إلى صور فوتوغرافية، فرأينا من العبث تكرار صنعه.

ولم تفتني الاستفادة من الرسوم التي صُنِعت بأمانة مع اتخاذي الفوتوغرافية أساساً لصور هذا السُّفر، فاستعرتُ رسوماً كثيرة من مجموعات كوست وپرس الأقيني وجونس، ولا سيما الكتابان الرائعان اللذان نشرنا حديثاً في إسبانية عما فيها من الآثار الفنية والعمارات، وكان للفوتوغرافية كبير عمل في هذا، أيضاً، ما جعلت هذه الرسوم خاضعةً لطريقة التجويف الفوتوغرافي (الهيلوغرافور).

٣ يدرك القارئ درجة النقص في الصور التي أخذها مسيو پيرو من القاهرة عن الأهرام، والصور التي أخذها عن معابد جزيرة الفيلة وغيرها عند قياسها بجيد الصور الفوتوغرافية.

وقضت ضرورة التزيين ألا أُوزَّعَ صور هذا الكتاب توزيعاً مرتباً دائماً، وإنما يمكن القارئ أن يجد بسهولة ما قد يحتاج إليه منها عند نظره إلى فهرس الصور، والقارئ، باطلاعه على هذا الفهرس، يعلم تنوع هذه الوثائق، ويعلم ما نُشر منها في هذا الكتاب دون غيره.

وقد تعذر علينا، لضخامة هذا الكتاب وكثرة صوره، أن نبين المصادر التي اعتمدنا عليها في هامش صفحاته، فاكثفينا بنشر فهرس شامل لها في آخره، فالقارئ الذي يريد أن يتعمق في بعض المباحث يجد ضالَّته فيه.

وليعلم القارئ أن كل فصل في هذا الكتاب هو خلاصةٌ عدةٍ مباحث، وما أبديته من الملاحظات يمكن عدُّه متمماً لها.

ونحن إذ نختم هذه المقدمة نُلخِّصُ المنهاج الذي اتَّبَعْنَاهُ في وضع هذا الكتاب، والذي نَتَّبِعُهُ فيما نؤلفه من تواريخ الحضارات، بما يأتي، فنقول:

من المبادئ العامة: الوجوبُ في وقوع الحوادث التاريخية، والصلةُ الوثيقة بين الحوادث الحاضرة وحوادث الماضي.

ومن موادَّ التأليف: آثارُ الشعوب التي هي موضوع الدرس وتصويرُها تصويراً صادقاً، ووصف العرق جسمًا وعقلًا، والبيئة التي نشأ فيها العرق، والعوامل التي خضع لها، وتحليلُ لعناصر الحضارة، أي للنظم والمعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصناعات، وتاريخُ لتكوين كلِّ واحدٍ من هذه العناصر.

وإذا أصابنا التوفيق في عرض صورة واضحة عن الأزمنة التي نرغب في بعثها، مستعينين بتلك المواد والمبادئ، فإننا نكون قد نلنا ما نتمنى.^٤

٤ من الواجب أن أختتم هذه المقدمة بشكري لمن وجدت منهم نفعا في أثناء تأليف هذا الكتاب، وفي أثناء رحلاتي الأخيرة، وأخص بالذكر منهم العضو في المجمع العلمي ومدير مدرسة اللغات الشرقية مسيو شيفر، والأستاذ في جامعة كوانبر مسيو، ب. سيمويس، والدكتور سوزا فيتريو في أشبونة، ورجل الفن في غوليغان (البرتغال) مسيو شارل ريلفا، والوزير لدى بلاط سلطان مراكش مسيو

دالوين، والمسجل في القنصلية الفرنسية بالقدس مسيو دومالبيرتوي، والدكتور سوكيه، والكونت بود هوركي ببيروت، ومدير البنك السلطاني بدمشق مسيو شلو نبرغر، ومديري المكتبة الوطنية بباريس مسيو لافوا ومسيو تياري، والمصورين الرسامين مسيو هوبو ومسيو بيتي، ومسيو فيرمان ديدو الذي أسعدني الحظ النادر بأن أجد فيه ناشرًا لم يقصر في الإنفاق على طبع هذا الكتاب وبأن كان لي في نصائحه الأخوية ومعارفه الفنية فائدة كبيرة.

الباب الأول: البيئة والعرق

الفصل الأول جزيرة العرب

(١) جغرافية جزيرة العرب

جزيرة العرب هي مهد الإسلام، وهي منبت الدولة الواسعة التي أنشأها خلفاء محمد، ويتألف القسم الأكبر من جزيرة العرب من صحارٍ، ويحيط بها البحر الأحمر من الغرب، وبحرُ عُمان والخليج الفارسيُّ من الشرق، والمحيطُ الهنديُّ من الجنوب، وتتصل من أقصى غربها وشرقها بإفريقية وآسية.

ويحيط بجزيرة العرب من ثلاث جهات، أي من الغرب والشرق والجنوب، ثلاثة أبحر كما ذكرنا، وأما حدُّها الشماليُّ فغير واضح، وهو يمتد تقريبًا باتجاه الخط الذي يبدأ من مدينة غزة الفلسطينية الواقعة على ساحل البحر المتوسط مارًا بجنوب البحر الميت فدمشق فالفرات، وينتهي بخليج فارس، ويبلغ طول جزيرة العرب من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها نحوَ ٢٣ درجةً أو ٢٥٠٠ كيلو متر، ويبلغ عرضها من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي نحو ألف كيلو متر.

وتزيد مساحة جزيرة العرب على ٣٠٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع، أي على مساحة تعدل فرنسة ستَّ مرات.

وليس لدينا إحصاء قاطع لنفوس جزيرة العرب في الوقت الحاضر، وقد قُدِّرَت منذ بضع سنين بعشرة ملايين، ولم تَزِدْ على خمسة ملايين في أحدث المؤلفات، وخمس هؤلاء السكان أهل بدوٍ على الأقلِّ.

ونحن إذا نظرنا إلى سطح جزيرة العرب رأيناه مؤلفًا من هضبة تُشبه الصحراء الإفريقية في اتساعها وسهولها القاحلة الرملية، أو الصخرية، التي تتخللها بقاعٌ منبتةٌ، وتنحدر هذه الهضبة إلى الخليج الفارسيِّ.

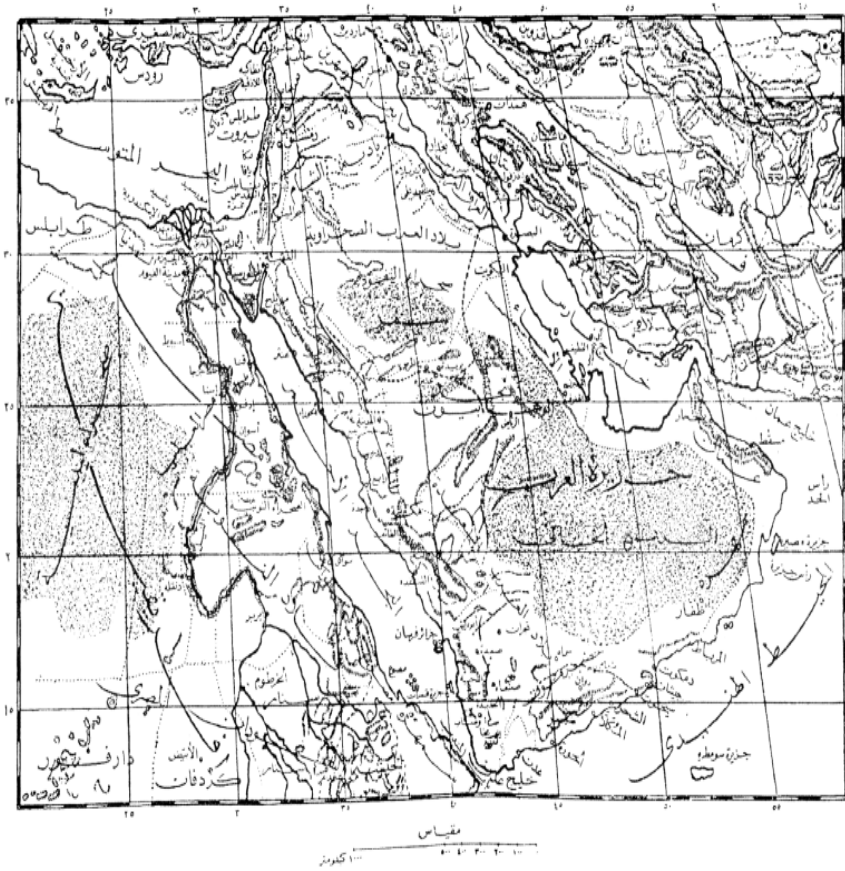
ويقطعُ مجاهلُ جزيرة العرب الواسعة أوديةً وبقاعَ جبلية ذاتُ مُدُن وقرى يسكنها فريقٌ من الزراع، ولا تعرف الصحراء غير أهل البدو الذين يجوبونها. وتقع في وسط تلك الهضبة العربية بلادُ نجد التي تُعدُّ جزيرةً خصبة تحيط بها الفلوات والجبال بدلاً من الماء.

ويُظنُّ أن نحو نصف جزيرة العرب مؤلفٌ من بقاع خصبة، وأن النصف الآخر من صحارٍ، وإن دلت الخرائط على اتساع رُقعة الصحاري، وانقباض رُقعة البقاع الخصبة، وما في الخرائط من التفاوت ناشئٌ عن قلة ارتياد علماء الجغرافية لجزيرة العرب واضطرارهم إلى ترك البقاع المجهولة منها بيضاً.

ولم يُعرف من سلاسل جبال جزيرة العرب الكثيرة سوى القليل، وأحسن ما عُرف منها السلسلة الممتدة على طول الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر حيث يرتفع بعض ذراها ٢٥٠٠ متر.

وفُقدان الأنهر الدائمة في جزيرة العرب مما يستوقف النظر، وتبقى أخاديدها خاليةً من الماء في أكثر أيام السنة، وتشقُّ هذه الأخاديدُ جزيرة العرب طولاً وعرضاً، وقد يبلغ طول بعضها، كوادي الرُّمة: ١٣٠٠ كيلو متر، وهي تصبح كالأنهر العظيمة المعروفة حين يملأها ماء المطر.

والجذب والحُرُّ من أظهر ما عُرِفَتْ به جزيرة العرب منذ القديم، والجذبُ على الخصوص، هو أشدُّ ما تعانیه، ولم ينشأ عن قطع أشجار غابها بالتدريج سوى زيادة القحط، شأنُ بلادِ الجزائرِ الخصيبة في العهد الرومانيّ، والجديية في الوقت الحاضر.



شكل ١-١: خريطة جزيرة العرب ومصر (وفق أحدث الوثائق).

ويدوم المطر في جزيرة العرب بضعة أشهر على العموم، ومتى احتبس عمَّ الخراب، وأصبحت تلك البلادُ غيرَ صالحة للسَّكن تقريباً، ويقترن القحط في جزيرة العرب بريح السَّموم في الغالب.

ورِيحُ السَّمُومِ وعدم الماء أشدُّ ما تقاسيه القوافل في جزيرة العرب من أخطار، قال مسيو ديفرْجيه: «تعْرِفُ القافلة، وهي تتوغل في الصحراء، علاماتِ رِيحِ السَّمُومِ الأولى، وهي: أن السماء تظهر في الأفق مَغْرَاءً^٥ ثم قَهْبَاءً^٦ ودَكْنَاءً^٧ والشمس تضعف أشعتها فتصبح حمراء، والرمال الناعمة تملأ الجو والهواء، والرياح تثيرها فتغدو كالبحر المزد الذي تحرَّكه العاصفة الهوجاء.

وهناك تنقبض صدور السُّيَّاح، وتحمّر عيونهم، وتجف شفاههم، ويأخذون في الهرب هم وجمالهم التي تعدو تارةً وتَقِفُ أخرى؛ لتَطْمِرَ نحوَرها في الرمل وتُمَرِّغَ مناخيرها بالأرض، وإذا ما استطاعت القافلة أن تحتمي وراء صخرة حتى تهدأ الزوبعة فإنها تنجو، ولكنها إذا تاهت في البادية وكانت بعيدة من الملاجئ أو اشتدت العاصفة فإن نشاطها يفتر، وتفقد غريزة حب البقاء، ويستولي عليها الثَّوَلُ^٨ والدُّوَار، وتصير غير قادرة على الفرار، وتُدْفَن تحت أكثبة الرمل، وتبقى مدفونة إلى أن تهبَّ عاصفةٌ أخرى، وتكشف عن عظامها المبيضة.»

وتكون درجة الحرارة في داخل جزيرة العرب مرتفعةً عادة، ولا تهبط في الصحراء إلى أقلَّ من ٤٣ نهارًا و٣٨ ليلاً، وتكون معتدلة في الأماكن الجبلية أو القريبة من البحر، فقد شاهد نيبُوهر أن الحرارة في اليمن لا تزيد في أواخر شهر يولييه على ٢٩ درجة بمقياس ستيفراد، ويكون البرد في صنعاء قارسًا في الشتاء.

٥ المغراء: مؤنث الأمغر؛ وهو ما كان لونه بلون المغرة.

٦ القهباء: مؤنث الأقهب، وهو ما كان لونه القهبة، وهي بياض تعلوه كدرة.

٧ الدكناء: مؤنث الأدكن، وهو ما كان لونه مانلاً إلى السواد.

٨ الثول: من ثول الرجل يثول: حمق.

والجفاف والجو المحرق ليسا سائدين لجزيرة العرب كلها، مع ذلك، ففي جزيرة العرب بقاعٌ متسعة اتساع الدول الأوربية المهمة كثيرة الخصب كبلاد اليمن، وبلاد نجد التي لم يرَ بلغريف ما هو أنفع من جوها للصحة في العالم.

وتتألف صحاري جزيرة العرب من سهول رملية واسعة، وفيها آبارٌ ووحدات ذات نخيلٍ ومناجع^٩.

وتجوب قبائل البدو الصحراء دائماً، يأخذ عيشها بمجامع قلوب الأعراب، ويُفضّله الأعراب على غيره مع نَفَرَة الأوربيين منه، وليس حبُّ الأعراب لعيش البادية حديثاً، فهم حفدة العرب الذين قصّت التوراة علينا من أنبائهم، والذين حافظوا على ما تقتضيه من أذواق وطبائع وعادات.

ومما تقدّم ترى جزيرة العرب ذات أجواءٍ وثربة مختلفة، فيوجب هذا اختلافاً في طُرُق معايشها ونباتها وحيوانها وسكانها.

(٢) إنتاج جزيرة العرب

التمر والبُنُّ من أهم ما تنتجه جزيرة العرب، ويعتمد سكانها على التمر في طعامهم، وعلى البن في اغتنائهم، ويستفيد العرب منذ القديم مما يُصدرون من اللُّبَانِ والسَّليخة^{١٠} والسَّنا^{١١} المكي والأدهان.

ولاختلاف جو جزيرة العرب ينبُت فيها مثل نبات البلاد الحارة والبلاد المعتدلة، كالقطن وقصب السكر والجُمَيْرِ والطلح والدردار^{١٢} والمران^{١٣}... إلخ.

٩ المناجع: جمع المنجع، وهو الموضع يقصده الناس في طلب الكلأ.

١٠ اللبان: الكندر، وهو صمغ شجرة شانكة ورقها كالأس.

١١ السليخة: دهن ثمر البان قبل أن يربب.

١٢ السنا: نبات كانه الحناء، زهره مائل إلى الزرقة وحبّه مفرطح إلى الطول، ومنه نوع عريض الأوراق أصفر الزهر وأجوده الحجازي، ويعرف بسنا مكة، ويقال له أيضاً "السنا المكي"

١٣ الدردار: شجر عظيم له زهر أصفر وورق شانك وثمر كقرون الدفلى.

١٤ المران: شجر تتخذ منه الرماح.

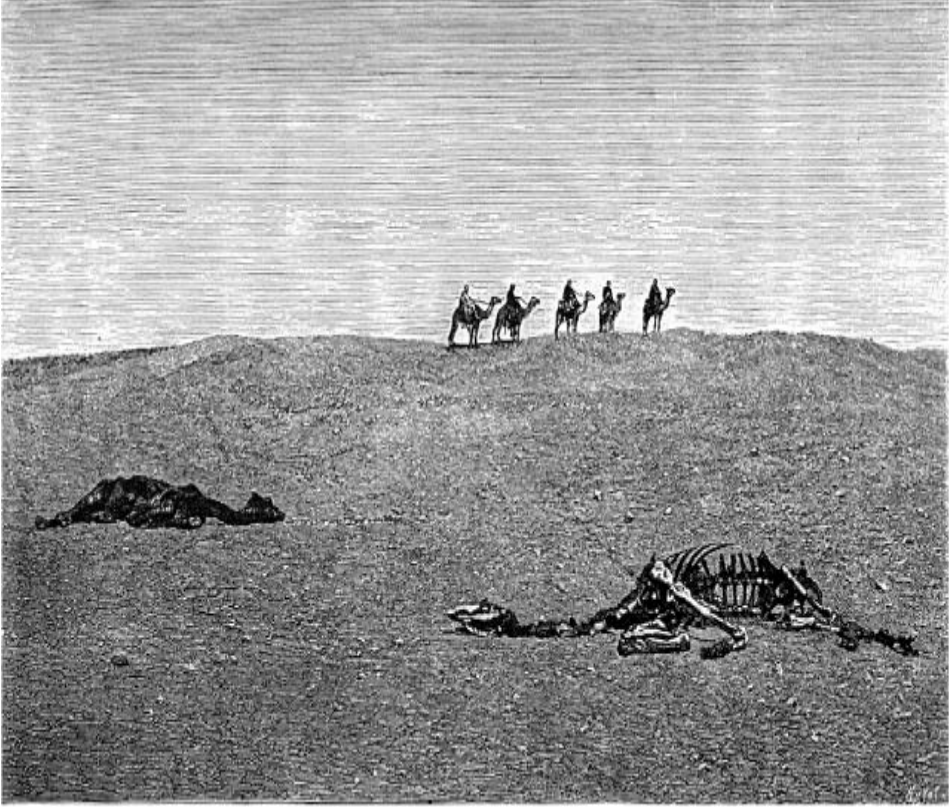
ويندُر شجر الغاب في جزيرة العرب، والنخلُ أظهر ما فيها، وهو الذي يكون به لمناظر الشرق شكلٌ خاص.

وتصلُح الأماكن الخصبة من جزيرة العرب لمثل النبات الذي يزرع في أوربة، كالمشمش والخوخ والتين واللوز والعنب والقمح والذرة والشعير والدُّخن^{١٥} والبقول والتبغ ... إلخ.

ومع أن الزراعة في حقول اليمن جيدة، فإن العمل فيها شاق؛ لما تحتاج إليه من السقي الدائم بمياه المطر التي تُجمَع في الآبار وبين الأسداد.

وتعرف جزيرة العرب مثل ما نعرف من الحيوانات الأهلية؛ كالبغال والحمير والبقر والضأن والمعز ... إلخ، ولا تجهل جزيرة العرب الكثير من الضواري كالأسد والنمر والفهد.

١٥ الدخن: نبات حبه صغير أملس.



شكل ١-٢: البادية من صورة فوتوغرافية.

وليست الضواري أشدَّ ما يخاف سكانُ جزيرة العرب، ففيها الجرادُ الذي قد يأتي على الأخضر واليابس، وقد لا يخلو الجراد من فائدةٍ مع ذلك، فهو في الغالب، غذاء المسافرين في البادية، وطعامُ مطاياهم أسابيع كثيرة.

والخيل والجمال أكثر حيوانات جزيرة العرب نفعًا للإنسان، فأما الجمل، وهو أفضل حيوان أهلي عند العرب، فلا تُقَطَّع البادية بغيره، وهو لقناعته وقوته واحتماله المشاقَّ وصبره على العطش أيامًا، لا يقوم مقامه حيوانٌ في الركوب وحمل الأثقال، وهو يستطيع أن يجوب البادية بين حلب والبصرة حاملاً ٥٠٠ رطل مع علف قليل، وهو يقدر أن يأكل

ما لا يقدر حيوانٌ عليه من الطعام، وقد عجبت منه حين رأيته يأكل هادئًا مطمئنًا أوراق الصبار التي تكون على جوانب الطُّرق فيشبه شوكها المسَلَّات.

وأما الخيول العربية؛ فذات شهرة عالمية، وهي إذ وُصفت غير مرة، وكان ما قاله بلغريف من أحسن ما قيل فيها، فإنني أقتطف منه ما يأتي:

إن الخيول العربية، وهي قويةٌ عصبية رشيقة، مفتخرة بعقتها، مختالةٌ في مراتعها، مثال الأناقة في شكلها والكمال في صفاتها، وهي برؤوسها الصغيرة النحيفة، وأحداقها الوهاجة، ومناخيرها الواسعة، وكواهلها الناهضة، وجوانبها الممتلئة القصيرة، وأكفها الطويلة، وذيلها المتموجة، وقوائمها الدقيقة المتينة عنوان الجمال، وهي بدعتها وبأسها وقناعتها وسرعة عدوها تفضلُ أحسنَ الأنواع الأوربية، ويُعدُّ الأعراب خمسة أنواع أصيلة للخيول متولدة من خمسة حُجُور^{١٦} كان يركبها الرسول على زعمهم، وعندما تلد الحِجْر الأصيلة مُهرًا يجتمع في المضْرَب^{١٧} أناس؛ ليكتبوا شهادة عن وصفه واسم أمه ونسبها، ويمضوها ويضعوها في كَيْسٍ جلدي يُربط بنحره، فيدخل بذلك في زمرة الجياد المرموقة التي أدى الطمع فيها إلى اقتتال القبائل غير مرة.

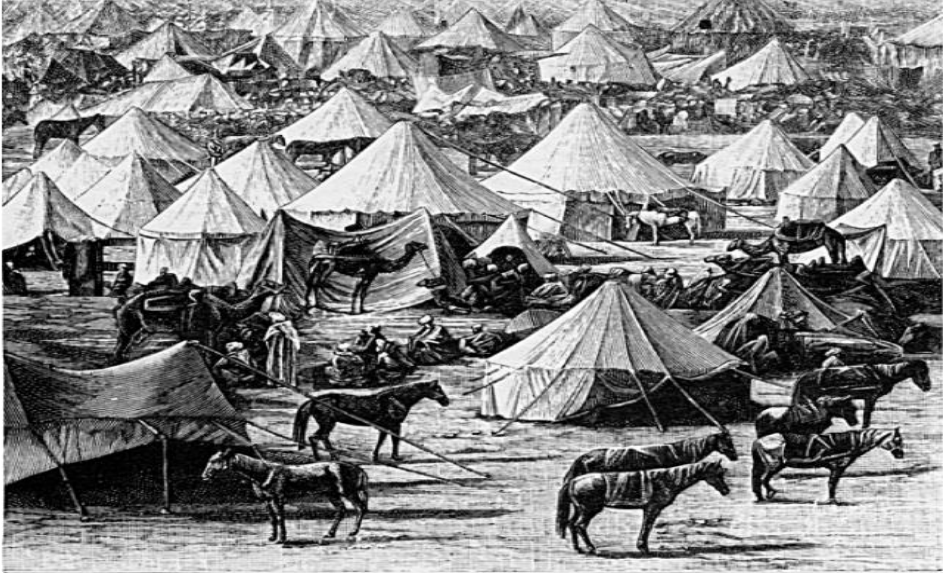
وسرعة عدو الفرس هي التي تنقذ حياة المقاتل في الصحراء غالبًا، ومما رواه بُركهارد أن فرسانًا من الدروز هجموا في سنة ١٨١٥ على عصابة من الأعراب في حوران، ودحروها إلى مضاربها، وأحاطوا بها من كل جانب، وأنه لم ينبُج من القتل منها سوى رجل واحد امتطى صهوة جواده، وخرق خط الحصار، وولى مدبرًا ولم يُعَقَّب، وأن أحسن فرسانهم، وهم القُساة الذين أقسموا أن يقتلوا العصابة على بكرة أبيها جدُّوا في أثره، وأن ذلك المنهزم لم يترك صخورًا وسهولًا وتلالًا إلا قطعها بسرعة الزوبعة، فلما أيقن أولئك

١٦ الحجور: جمع الحجر، أي: الأنثى من الخيل.

١٧ المضرب: الخيمة العظيمة.

الفرسان، بعد مطاردةٍ عنيفةٍ دامت عدة ساعات، أنه لا أمل لهم في قتله ناشدوه أن يقف؛ ليقبّلوا ناصية جواده الأصيل ويتركوه، فرَضِيَ بذلك، فقالوا له لما صَرَفَوه كلمتهم المأثورة: «اغسِل حوافر جوادك، ثم اشرب غُسَّالَتِها»، قاصدين بذلك إظهارَ مشاعرهم نحو جواده النجيب.

وأضيف إلى ما تقدم قولي: إن الخيول العربية لا تعرف سوى مشيتين: الخِطَاءَ والعدْوَ، وإن انقيادها لصاحبها جديرٌ بالذكر، وما أكثر ما رأيتُ العربَ يترجّلون، وخيولهم لا تحاول الابتعاد عنهم، مع تركهم أعنتّها لها!



شكل ١-٣: مخيم حجاج بالقرب من مكة في موسم الحج (من صورة فوتوغرافية). وعلى ما في الخيل من الفائدة لا تتوالد كثيرًا في جزيرة العرب خلافًا لما يُظنُّ، وسببُ ذلك: أن الخيل، وهي على عكس الجمل الذي يمكن تربيته في كلِّ مكان، لا تُنشأ إلا في البقاع الخصبة، كسهول العراق وسورية، ونجد، وفي نجد وحدها أعزُّ الخيول العربية وأرشقها.

وعُرفت جزيرة العرب في القرون القديمة بوفر معادنها الثمينة وأحجارها الكريمة، واليوم لم يبق أثر لذلك، ولا نعلم غير ما يُقَصُّ علينا من الأنباء عن حديدها ونحاسها، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نبدي رأياً قاطعاً في ثروة جزيرة العرب المعدنية، فمعارفنا بها سطحية.

وظلت صناعة قسم من جزيرة العرب وتجارته على ما كانت عليه في القرون الخالية، وتُعدُّ الحليُّ اليمنية والتمور والخيل والنِّيلج^{١٨} والسنا المكي واللبن والمُرَّ^{١٩} الصافي ... إلخ، أهم مواد الإصدار من جزيرة العرب، ولا تزال القوافل تقوم، كما في العصر الإسرائيلي، بإصدار هذه المواد من جزيرة العرب إلى أوربة، ويأيراد ما تحتاج إليه من إفريقية والهند وفارس.

وتُحسب المسافات بالساعات في جزيرة العرب، كما في الشرق كله، ويرى العربي أن سير الجمل ذي الحمل الخفيف في الساعة الواحدة يعدل فرسخاً، فنجم عن هذا أن المسافات التي تلوح تافهة على الخريطة تُقَطَّع في عدة أيام.

وجزيرة العرب خالية من الطرق المعبَّدة، والطرق التي تسلكها القوافل فيها هي الأودية أو الأخاديد التي ذكرناها آنفاً، وإذا ما استثنينا هذه المسالك، التي لا تزال كما كانت عليه في الزمن القديم، رأينا مناحي جزيرة العرب تتعَيَّن بآبارها التي تتعدَّر الحياة هناك بدونها، وأكثر مسالك جزيرة العرب استطرأً هي: الطريق التي بين دمشق وبغداد، والطرق التي تبدأ من مدينة الرياض النجدية وتنتهي بمكة ومسقط وبغداد ودمشق.

(٣) أقسام جزيرة العرب

١٨ النيلج: شيء يتخذ من نبات العظم بأن يغسل ورق العظم بالماء، فيجلو ما عليه من الزرقة، ويترك الماء، فيرسب النيلج أسفله كالطين فيصب الماء عنه ويجفف.
١٩ المر: مانع يسيل من شجرة فيجمد وهو طيب الرائحة مر الطعم.

لم يَعْرِف القدماء من جزيرة العرب سوى الشيء القليل، ولم يَتَحَدَّثْ هِيرودتس عنها في أكثر من بضع كلمات، ولا يُؤَبِّه للأخبار الناقصة التي أتى بها إسترابون وديودورس الصَّقْلِيُّ، وهما اللذان أسندا إلى جزيرة العرب من المنتجات، في الغالب، وما كانت تصدره إليها بلاد الهند فتصدرها إلى الخارج، وذكر بطليموس — ويظهر أنه عَرَفَ جزيرة العرب أحسن مما عَرَفَهُ أولئك — أنه كان في بلاد اليمن ١٧٠ مدينة، وعدَّ من هذه المدن خمس عواصم كبيرة.

ومعرفة الرومان لجزيرة العرب كانت ضعيفةً إلى الغاية، وحاول الرومان غير مرة، تدوين جزيرة العرب التي كانوا يعتقدون أنها تنتج من التوابل والأبازير والعطور والنسائج والحجارة الكريمة ما كانت تستورده من بلاد الهند والصين بالحقيقة، ولكنهم وهم الذين كانوا سادة العالم، لم يستطيعوا أن يقهروا قبائل البدو العربية التي احتمت بكُثبان الرمال وجوَّ البلاد.

ولم يتوغل الأوريون في جزيرة العرب إلا حديثاً، ولم يعرف عنها الأوريون، قبل نيبوهر الذي زارها سنة ١٧٦٢م، سوى ما أخذوه عن جغرافيِّي العرب أو عن بطليموس من المعارف المبهمة، ونرى الخريطة التي رسمها نيبوهر أُولى الخرائط العلمية عن جزيرة العرب، مع اقتصاره على السياحة في قسم من بلاد اليمن.

وانقضى نصفُ قرن بعد نيبوهر من غير أن يقوم سائحٌ آخرُ بارتياح جزيرة العرب، فلما كانت سنة ١٨١٥ استأنف بُركهارد البحث، فجمع أنباءً رائعةً عن جزيرة العرب، ولا سيما مكة والمدينة، وما قامت به مصرُ حوالي تلك السنة من غزوٍ ضد الوهابيين كان فاتحة بحثٍ واسع عن مختلف أقسام جزيرة العرب، ثم جاب جزيرة العرب سياحٌ كثيرون نذكر

منهم والين (سنة ١٨٤٥) وبرُتُون (سنة ١٨٥٢) وبلغريف (سنة ١٨٦٢) الذي زار في أواسط جزيرة العرب، أماكن كانت مجهولة قبله تمامًا.^{٢٠}

وقسّم القدماء جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام: بلاد الحِجَر العربية (بطرا)، وهي القسم الشمالي الغربي من جزيرة العرب، وبلاد العرب السعيدة، وهي القسم الجنوبي الغربي منها، والصحراء العربية، وهي قلبها وشرقها.

فأما بلاد الحِجَر الغربية (بطرا) فتشتمل على القسم الواقع بين فلسطين والبحر الأحمر، وأما الصحراء العربية فهي البادية الكبرى التي تمتد من حدود سورية والعراق إلى الفرات فألى الخليج الفارسي، وأما بلاد العرب السعيدة فتشتمل على القسم الجنوبي من جزيرة العرب، أي على نجد والحجاز واليمن وعمان... إلخ.

وجَهَل جغرافيو العرب ذلك التقسيم، فلم يَرَوْا بلاد الحِجَر (بطرا) من جزيرة العرب، فكان التقسيم الوحيد الذي اصطَلَحوا عليه ما يأتي:

بلاد الحجاز: وهي جبلية رملية، تشتمل على الجزء المتوسط من المنطقة الواقعة على ساحل البحر الأحمر، ومن بلاد الحجاز مكة والمدينة المقدستان.

وبلاط اليمن: وهي في جَنُوب بلاد الحجاز، تتألف من الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب، وبلاد اليمن أغنى جزيرة العرب وأخصبها.

وبلاط حضر موت ومهرة وعمان والأحساء: وهي تلي اليمن كما يبدو من الخريطة، تمتد من خليج عدن إلى أقصى خليج فارس.

٢٠ كنت أريد أن أتم مباحثي في مختلف البلدان التي خضعت لدولة العرب العظمى، فأسيح في قلب جزيرة العرب، وأوضح بعض المسائل التي لم أجِد لها حلًّا، فافترحت حديثًا على وزير المعارف العامة، وهو القيم على أموال البعثات العلمية، أن يعهد إليَّ في ارتياد جميع جزيرة العرب، والتقاط صور فوتوغرافية لأهم آثارها، فلم يقبل اقتراحي، ولذلك عدلت، وأنا العاجز عن القيام بتلك الرحلة العزيزة من مالي الخاص، عن مشروعي فافقتصر على رحلتي في أقسام دولة العرب الأخرى التي تسهل السياحة فيها.

وبلاد نجد: وهي هضبةٌ خصبة ذاتُ مدنٍ مهمة، تقع وسط جزيرة العرب، وتحيط بها الفلوات والمفاوز من كلِّ جانب.

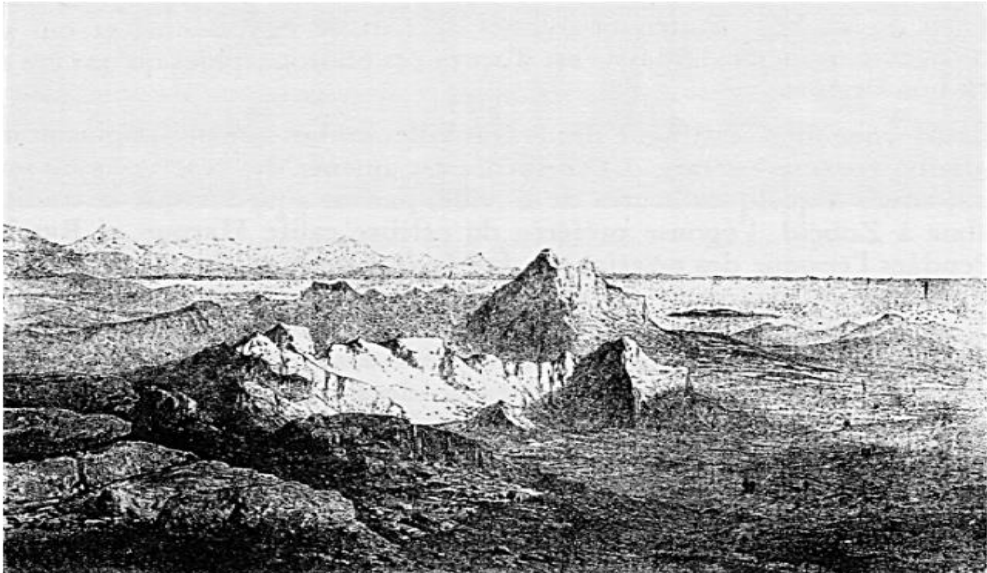
ولا مطابقةً بين هذه التقسيمات، التي يرجع أكثرها إلى أقدم أدوار التاريخ، وتقسيم جزيرة العرب السياسي، فقد كان العرب قبل ظهور محمد منقسمين إلى ألوف من القبائل المستقلة، ثم قامت الدولة العربية فتألفت من تلك القبائل أمة واحدة، ثم عاد سكان جزيرة العرب، بعد زوال تلك الدولة، إلى حالهم السابقة، وأصبحت لا ترى في جزيرة العرب غير إماراتٍ صغيرة وقبائلٍ مستقلةٍ تخضع كلُّ واحدة منها لرئيس واحد، ولا يُستثنى من ذلك سوى الممالك الثلاث: نجد واليمن وعمان.

وإليك بياناً موجزاً عن مختلف الأماكن التي ذكرناها آنفاً:

(١-٣) بلاد الحجر العربية (بطرا)

ذكرنا آنفاً أن جغرافيَّ العرب لم يَعُدُّوا بلاد الحجر من أقسام جزيرة العرب، ونحن لا نستطيع إلا أن نَعُدَّها من تلك الأقسام من الناحية الجغرافية والناحية الإثنوغرافية.

وتتألف «بلاد الحجر» من جزيرة سيناء الممتدة من حدود فلسطين إلى البحر الأحمر، ويدلُّ اسم «بلاد الحجر» على حقيقتها، وذلك أنه يقع في وسط جزيرة سيناء طَوْدٌ من الصَّوَّان يُسمَّى طور سيناء، ويحيط بهذا الطَّود بقعةٌ صخرية ذات نبات قليل ضعيف، وتصبح هذه



البقعة رمليّة بالقرب من الساحل.

شكل ١-٤: منظر من طور سيناء (من تصوير مسيو دو لا بورد).

وكانت جزيرة سيناء ذات شهرة في التاريخ مع فقرها، فهي بلاد الأدوميين والعمالة والأنباط والمديانيين الذين ذكروا في كتب العبريين كثيرًا، وفيها تاه بنو إسرائيل زمنًا طويلًا بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم أرض الميعاد، ولا يزالون يشيرون هنالك إلى الجبل الذي بلغ منه موسى شريعته إلى قومه، وإلى الحجر الذي ضربه موسى بعصاه فانجس منه الماء، وإلى كهف جبل حوريب الذي توارى فيه النبيّ إيليا خوفًا من غضب الملكة إيزابيل.

وتُرى في تلك البلاد القديمة التي قصّت التوراة علينا أخبارها خرائب بلاد الحِجر (بطرا)، وهي أنقاض للمخازن التي كانت قبائل اليمن تجلب إليها اللُّبان والأطياب لمبادلتها بسلع الفنيقيين.

(٣-٢) بلاد نجد

بلاد نجد هضبة واسعة خصبة واقعة في وسط جزيرة العرب، وتحيط بها الفلوات والجبال من كل جانب.

وأطلع الناس على شؤون هذه الهضبة التي تقوم عليها الدولة الوهابية أمرٌ حديث، وقد قال بلغريف عن سكانها: «إن بينهم، كما بين سكان شفيلد وبرمنغم، مهندسين قادرين على إنشاء خطوط حديدية وصنع آلات وبواخر»، ثم ذكر بلغريف، في أثناء كلامه عن نجد، أن من الباطل أن تُوصم جزيرة العرب بالتوحش، وأن يُحكم عليها بما يلاقه السياح الذين لا يقصدون سوى بعض بقاعها الساحلية على العموم.

وعلى ما أصاب الوهايين من الانهزام أمام المصريين في سنة ١٨١٠ وسنة ١٨١٨ لم تلبث الدولة الوهابية أن أعيد بنائها، ويقيم أميرها عادةً في مدينة الرياض العظيمة الشأن. والزراعة أهم ما يعتمد عليه سكان نجد، وقد قال بلغريف: «تُثبت وفرة الذرة والقمح والتمر الجيد في نجد أن النجديين زُرَّاعٌ ماهرون.»

(٣-٣) بلاد الحجاز

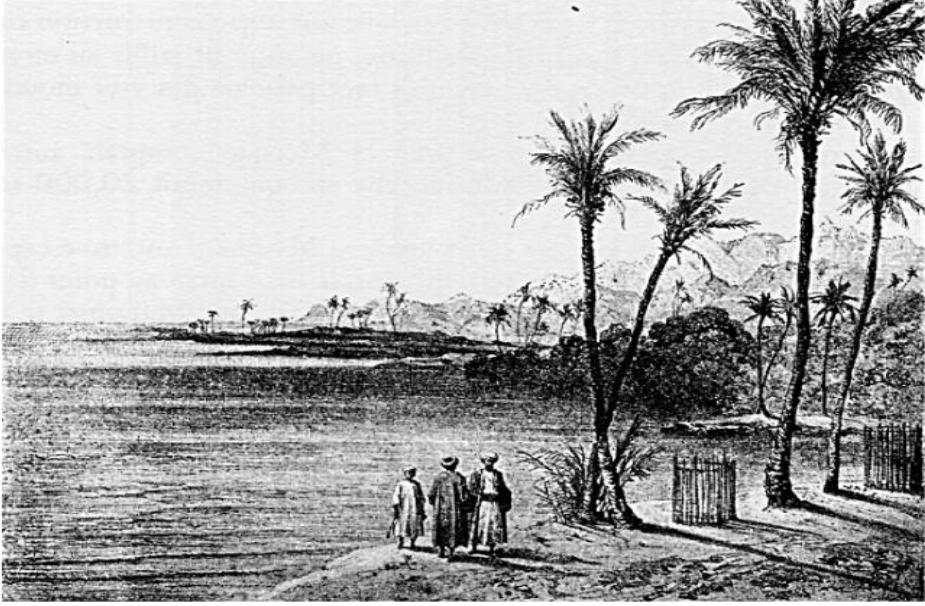
بلاد الحجاز واقعة على ساحل البحر الأحمر وتشتهر، على الخصوص، بأنها مهد الإسلام وبمكة والمدينة المقدستين اللتين يأتيهما، في كل سنة، ألوف الحجيج من أقصى نواحي العالم الإسلامي.

وتشتمل بلاد الحجاز على بقاع خصبة، ولكن معظم بقاعها غير ذي زرع، ونرى شريف مكة الأكبر، الذي يقيم بالطائف، هو الذي يقبض على ناصية الحكم فيها، وإن كانت تابعة لسلطان الآستانة بالاسم.

ومكة من المدن الواقعة في وسط الصحراء، ولا نشاهد مثلها في غير جزيرة العرب، ولا تفي أرضوها غير الخصبة باحتياج سكانها، فيجلب هؤلاء السكان الجبوب، التي يضطرون إليها، من مدينة جدة التي هي مرفأً لمكة واقعاً على ساحل البحر الأحمر.

وجهل الأوربيون مكة، التي سماها أهلها بأُم القرى، زمناً طويلاً، ولا يستطيع أوربي أن يدخلها من غير أن يُعرض نفسه للقتل، وما قدر عليه بعض السياح من زيارة لها كان بفضل تنكرهم وتصلعهم من اللغة العربية، ولم يكن لدينا عنها، فيما مضى، غير رسوم ناقصة لا يُركن إليها عند البحث الصحيح، ونستطيع، اليوم فقط، أن نتمثلها تمثلاً صحيحاً بفضل الصور الفوتوغرافية التي التقطها أحد رجال الجيش المصري، صادق بك، والتي انتهت إلينا بأوربة في سنة ١٨٨١، فاستعنا ببعضها في هذا الكتاب.

ولا تُفضّل مكة على المدن العربية الأخرى بغير نظامها الكبير، ويندرُ الماء فيها، ويُجلب إليها أطيبُ الماء بقنواتٍ من ينابيع عَرَفة التي تبعدُ منها بضع ساعات، وتقول القصة: إن زوجة الخليفة الأشهر هارون الرشيد المفضّلة، زبيدة، هي التي أنشأت تلك القنوات.



شكل ١-٥: واحة الذهب على خليج أيلة (بلاد الحجر العربية، من تصوير مسيو دو لاورد).

وتصبح مكة في موسم الحج أغنى مراكز العالم الإسلاميّ التجارية وأكثرها تنوعًا، ويقوم في وسطها المسجد الحرام الذي ذاعت بفضله شهرة (أم القرى)، وتقوم الكعبة الشهيرة، التي يقول مؤرخو الشرق إن إبراهيم هو الذي أنشأها، في المسجد الحرام، وتنافس الخلفاء والسلاطين والفاطون منذ زمن محمد في تزيين المسجد الحرام بسائق التقوى، فلم يبقَ شيء من زخارفه الأولى.

والمسجد الحرام مُرَبَّع الشكل، ويَجِدُ المرء نفسه، بعد أن يدخله من أحد الأبواب، في باحة فسيحة تحيط بها أقواسٌ قائمة على غابة من الأعمدة، وتعلو هذه الأعمدة قِبابٌ صغيرة كثيرة، وتقوم مآذنُ المسجد الحرام على مختلف أجزاء ذلك المُرَبَّع.

وانتُخذ المسجد الحرام المكي مثالاً في إنشاء كثير من مساجد سورية على الخصوص، ورأيتُ في دمشق مساجد كثيرة مبنية على طراز الحرم المكي، وتختلف مساجد القاهرة عنها بشكل مآذنها ودقائق زخارفها بعض الاختلاف.

ويقع المعبد الصغير، الكعبة، في باحة الحرم المكي، والكعبة بناءً مكعَّبٌ ذو حجارة سُمر، ويبلغ ارتفاعها أربعين قدمًا وطولها ثمانين عشرة قدمًا وعرضها أربع عشرة قدمًا على حسب رواية بركهارد، وليس للكعبة سوى باب واحد يرتفع عن الأرض سبع أقدام، ولا يُوصَل إليه إلا بسُلَّم مُتَنَقِّلٍ يَنْصَبُونَهُ في موسم الحج، ويتألف داخل الكعبة من حجرة واسعة مُبَلَّطَةٌ بالرخام، ومُتَّارَةٌ بمصابيح مصنوعة من الإبريز ومزخرفة بالكتابات.

وداخلُ الكعبة غنيٌّ بزخارفه في كلِّ زمن، ومن أقدم ما وُصف به هو ما جاء في رحلة ناصر خسرو المفيدة التي قام بها في سورية وفلسطين وجزيرة العرب ... إلخ. (١٠٣٥م-١٠٤٢م)، والتي نشرها حديثاً مدير اللغات الشرقية العالم، مسيو شيفر، قال ناصر خسرو:

يُعْطِي جُدْر الكعبة رُخَامٌ من شتى الألوان، وتُسَمَّر بجدارها من الناحية الغربية ستَّة محاريب فضية طويلة بمقدار قامة الرجل مُكَفَّتَةٌ بالذهب واللجين^١ المرقَّش باللون الأسود، ويبلغ ارتفاع الجُدْر في البدء أربعة سواعد من الأرض، فإذا عَدَوَتْ هذا الارتفاع

٢١ اللجين: الفضة.

وجدت ما فوقه حتى السقف مستورًا بصفائح من الرُّخام المزين بالزخارف العربية وبالنقوش المذهب معظمها.

والحجر الأسود الأشهر مُدمَّج في أحد جُدُر الكعبة الخارجية، ولا يزيد قطر الحجر الأسود، وهو الذي يقول العرب إن الملائكة أتوا به من الجنة؛ ليكون مَوْطِنًا لإبراهيم حين بنائه البيت الحرام، على سبعة قراريط، ولا نعلم شيئًا كَرَّمه الناس زمنًا طويلًا كالحجر الأسود الذي كان موضع احترام وتبجيلٍ قبل ظهور محمد بقرون كثيرة.

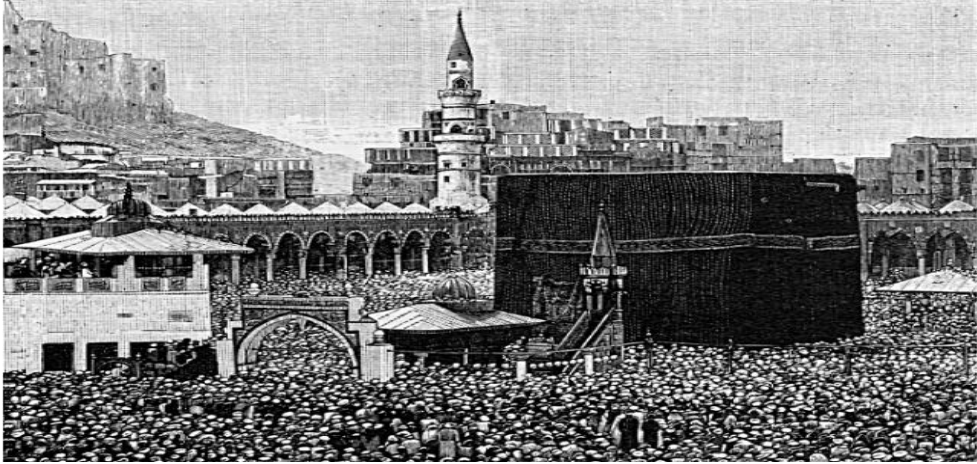
وتُكسَى الكعبة في كل سنة كسوة سوداء تسترها كلها عدا موضع الحجر الأسود وبضع أقدام من أسفلها، ويُعَصَّب أعلى الكعبة، في أوائل مواسم الحج، بنطاق موشى بآيات



قرآنية مكتوبة بحروف من ذهب.

شكل ١-٦: مكة والمسجد الحرام (من صورة فوتوغرافية التقطها الكولونيل المصري صادق بك).

ويقوم في ساحة المسجد الحرام، أيضًا، بناءً مربع سائر لنبوع، تقول القصة: إن ملكًا فجره حين حَجَبَتْ هاجر وجهها لكيلا ترى — وهي هائمةٌ على وجهها في البادية — ولدها إسماعيل يموت عطشًا.



شكل ١-٧: الكعبة في المسجد الحرام بمكة أيام الحج (من صورة فوتوغرافية).
ويجزم مؤرخو العرب أنه كان يسكن مكة مائة ألف نفس في غابر الأزمان، ويرى بركهارد أنه لا يقطن بها سوى عشرين ألف نفس في الوقت الحاضر.
وتقع المدينة في الحجاز أيضًا، وهي أقدم عاصمة للدولة العربية، وتلي مكة في الشرف عند المسلمين من الناحية الدينية، فإلى المدينة هاجر محمد، وفيها تُوفي بعد أن وطد دعائم دينه.
وتحيط بالمدينة أرضٌ جديدةٌ كما تحيط بمكة، ولا تُنبت هذه الأرض ما يحتاج إليه أهلها من الحبوب، فيجلب هؤلاء الأهلون ما يُضطرون إليه منها من ميناء ينبع الواقع على ساحل البحر الأحمر.

وأصبحت المدينة ذات غنى وثراء بفضل تقوى الحجاج وبرهم، وتتألف بيوتها، المبنية من الحجارة المنحوتة، من طبقتين على الأقل، وشوارعها مبلطة، ويحيط بها سور مرتفع. وليس في المدينة مبانٍ قديمة، خلا مسجدها المشهور الذي دُفن فيه محمد بعد أن كان يُعَلِّم الناس فيه أحكام الإسلام، وصارت المدينة، بفضل قبر الرسول، مكان حج وزيارة مهمّ مثل مكة تقريبًا.

(٣-٤) بلاد عسير

تقع بلاد عسير الواسعة بين الحجاز واليمن، وكان الأوربيون يجهلون حتى أوائل القرن التاسع عشر، ونحن لا نعلم من أمرها سوى أنه يسكنها قوم مقاتلون، وأنها ذات مدن مهمة كثيرة.

(٣-٥) بلاد اليمن

تتألف بلاد اليمن من القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب، وهي أغنى جزيرة العرب وأخصبها وأكثرها سكانًا، وهي أهم جزء من البقاع التي كان يسميها القدماء «بلاد العرب السعيدة».

ويتعاطى سكان اليمن الزراعة والتجارة معًا، وترجع علاقاتهم بالمصريين والفرس والهنود وغيرهم إلى أقدم القرون.

واليوم يدين أهل اليمن بالطاعة لمن يُسمونه «الإمام»، ويقيم الإمامُ بصنعاء التي يبلغ عدد سكانها ستين ألفًا، ومن قول العالم الجغرافي العربي الإدريسي عن صنعاء: أنها كانت مقرّ ملوك اليمن وعاصمة جزيرة العرب، وأنه كان للموكلهم قصرٌ متين شهير، وأنها كانت تشتمل في زمانه على عدة قصور تحيط بها الحدائق الواسعة، وعلى بيوت مصنوعة من

الحجارة المنحوتة ومحتوية نوافذ زجاجية، وأن فيها عشرين مسجدًا تعلو أكثرها قباب مذهبة فتساعد على تزيين هذه العاصمة القديمة.

وأتيح لغروتندن أن يزور صنعاء، فوصف موكب الإمام فيها يوم الجمعة بما يأتي: «يشق طريق المسجد خمسون أعرايًّا مُدَجَّجون بالسلاح سائرون ستة ستة منشدون بعض الأناشيد، فيأتي خلفهم أمراء البيت المالك راكبين عتاق الخيل حاملين رماحًا طويلة تعلوها رايات خفاقة، فيأتي الإمام خلف هؤلاء الأمراء ممتطيًا صهوة جوادٍ أشهب ناهض من جِباد الخيل التي تُربى في صحراء الجوف بشمال صنعاء، والتي تعدل خيول نجد سرعة ورشاقة وتزيد عليها علوًّا، حاملًا بيده اليمنى قناة ذات قارية^{٢٢} من فضة ومقبض من ذهب منقوش، متكئًا بيده اليسرى على كتف خَصِيٍّ، تاركًا العنان لاثنين من عبيده، متقيًا وهج الشمس بمظلة وسيدة مهدبة ذات جلاجل من فضة، فيأتي خلف الإمام سيفُ الخليفة مستظلاً بمظلة أقل أهمية من تلك، فيأتي خلف سيف الخليفة قائدُ الجيش وأقرباء الإمام وخواصُّ ضباطه، فمائة أعرايٍّ مسلح».

ولا تزال صنعاء أهم مدن جزيرة العرب، وقال مسيو هاليقي الذي زارها منذ زمن قريب: «يذكرنا فنُّ عمارتها بالمباني الشهيرة التي شيدت على حسب فن العمارة الإسلامية».

وتشتهر مدن اليمن، ولا سيما الروضة القريبة من صنعاء، بحدائقها وبيوت لهُوها، ويُستعان في الروضة بالكُرمة في صنع العُرُش كما يستعان بها في إيطالية.

وتقع بعد ثلاثين فرسخًا من صنعاء خرائبُ مدينة مأرب أو سبأ التي كانت عاصمة البلاد في غابر الأزمان، فعدت اليوم قرية، وكانت تلك الخرائب تشتمل في زمن الإدريسي،

٢٢ القارية: أسفل الرمح أو أعلاه.

الذي ألّف كتابه في القرن الثاني عشر من الميلاد، على أنقاض قصرين أقام أحدهما سليمان وأقامت الآخر نساء داود (!) وكانت الملكة التي زارت سليمان تملك سباً كما روت كتب اليهود.

ومن بين مُدُن اليمن المشهورة نذكر المرفأين، مخا وعدن، الواقعين على البحر الأحمر، وتنحصر أهمية مدينة عدن المتهدمة، التي استولى عليها الإنكليز، في موقعها، وكانت عدن فيما مضى زاهرة كثيرة السكان، ومما قاله العالم الجغرافي الإدريسي عنها منذ ستائة سنة «أنه يُجلب إليها من السُّند والهند والصين ثمينُ الأدوات كِنِصال السيوف المرصعة والجلود المُحبَّبة والمسك وسروج الخيل، والفلفل والبهار والنارجيل^{٢٣} والأبازير والihal، والقرقة وقشر العفص والإهليلج^{٢٤} والأبنوس، وقشر السلحفاء والكافور وجوز الطيب والقرنفل، ومختلف المنسوجات النباتية الثمينة المخملية والعاج والقصدير ونخل الهند والقصب والندُّ المرُّ الصالح للتجارة.

والبنُّ من أهم ما تنتجه بلاد اليمن في الوقت الحاضر، فتصدّره إلى أنحاء العالم قاطبةً، ومع ما يزرع من البن الوافر في كثير من بقاع الأرض لم يبلغ من حيث الجودة في مكانٍ ما بلغه في بلاد اليمن ذات الجو الخاص، وتعدُّ مخا مستودع البنِّ اليمني.

وليس للملوك اليمن في الوقت الحاضر ما كان لأسلافهم في القرون الخالية من الجلال والعظمة، ولا يعدو سلطانهم الآن حدود المدن الكبرى، ولا يتناول نفوذهم مختلف القبائل المستقلة المنتشرة في نواحي البلاد.

(٦-٣) بلاد حضر موت ومهرة وعمان والأحساء

٢٣ النارجيل: الجوز الهندي.

٢٤ الإهليلج: عقار من الأدوية.

تمتد بلاد حضرموت ومهرة من شرق اليمن إلى عُمان، وتقع على طول ساحل المحيط الهندي، وتسكنها قبائل مستقلة، وفيها بضع مدن تكاد تكون مجهولة.

وعاصمة حضرموت هي مدينة شيبام الواقعة على مسيرة يوم من مدينة تريم المهمة، التي يبلغ عدد مساجدها عددًا ما في رومة من الكنائس كما روى فريسنل.

وتقع بلاد عُمان، التي تأتي بعد مهرة، على ساحل المحيط الهندي والخليج الفارسي وهي رملية تتخللها واحات كثيرة وأودية خصبة، ومقر سلطانها مدينة مسقط التي لا قيمة لها اليوم.

وليست بلاد الأحساء الممتدة من عُمان إلى مصبّ الفرات، والواقعة على طول الخليج الفارسي معروفة جيدًا، ويُظن أنها قليلة السكان، ويُعدّ القسم الذي بين مدينة القطيف والبصرة صحراء واسعة، وتقع تجاه هذا القسم جزر البحرين التي هي أشهر مغاوص اللؤلؤ في العالم.

لقد أتينا ببحث موجز عن جزيرة العرب، وعلينا أن ندرس الآن أمر سكانها، وسنرى أن العالم لم يعرف قطرًا طبع بجوه وأرضه طابعه على شعب كما طبعت جزيرة العرب بجوها وأرضها طابعها على من يسكنها من الأهلين.

ولا تنفع أنباء الفتوح وأخبار الملوك في الوقوف على تاريخ إحدى الأمم، والذي ينفع في ذلك هو البحث في مختلف العوامل التي أثّرت في تطورها، والتي يحىء عامل العرق الذي تنتسب إليه في مقدمتها.

فما سجايا هذا العرق الخلقية ومواهبه العقلية؟ وماذا اعتور هذا العرق من التغير بفعل البيئة والوراثة والعلاقات بالأمم الأخرى؟

هذا ما نرغب في معرفته، وما نسعى إلى درسه في هذا الكتاب.

الفصل الثاني العربُ

(١) مبدأ العرق كما أقرّته العلوم الحديثة

أرى، قبل البحث في العرب، أن أمهد الأمر بدرس ما هو ضروريٌّ من أوصاف الإنسان وقوفاً على هذا الفصل.

تقسّم الجماعات البشرية المنتشرة في مختلف أقطار الأرض إلى عروق، وكان يُظنُّ أن الفروق بين العروق البشرية أقلُّ مما هي عليه بين أنواع الحيوان، بيد أن العلم الحديث أثبت أن عروق البشر مفترقةٌ في أخلاقها افتراق أنواع الحيوان المتقاربة، فيجب عدُّ كلمة «العرق» بالنسبة إلى الإنسان مرادفةً لكلمة «النوع».

ويمكن تعريف العرق، أو النوع البشري، بأنه يدلُّ على جماعات ذات أخلاق مشتركة تنتقل إليها بالوراثة انتقالاً منتظماً.

ويرى الذين لم يدرسوا علم أوصاف الإنسان أن «الأمة» و«العرق» كلمتان مترادفتان تقريباً، مع أن لهما معاني مختلفة تماماً، فالأمة: هي جماعة من الناس الذين يتسبون، في الغالب، إلى عروق كثيرة جمع بينها نظامُ حكم واحد ومصالح واحدة، فإذا صح ما ندعوه الآن بالأمة الإنكليزية أو الأمة الألمانية أو الأمة النمسوية أو الأمة الفرنسية مثلاً، لم يبقَ ما تصح تسميته بالعرق الإنكليزي أو العرق الألماني أو العرق النمسوي أو العرق الفرنسي، فكل أمة من هذه الأمم هي من تباين المحاتّد والأصول ونقص الادّغام ما لا يجوز معه أن تطلق عليها كلمة «العرق»، أجل، إن من الجائز أن تنضوي جماعات بشرية كثيرة إلى قوانين واحدة، وأن تدين هذه الجماعات بديانة واحدة، وأن نتكلم بلغة واحدة، ولكنه لا يتألف منها عرقٌ متجانس إلا بعد أن تستقرّ فيها أخلاق واحدة وصفاتٌ جثائية واحدة بفعل البيئة والتوالد والوراثة.

ويتطلب كسب هذه الأخلاق والصفات زمناً طويلاً جداً، والصفات الموروثة إذا كانت لا تستقر إلا ببطء فإنها لا تزول إلا ببطء، وبأقصى البطء تندمج العروق وتتحول، ويجب، لكي يكون للبيئات والتوالد أبلغ الأثر في تكوين العرق، أن يتوالى التطور، ويتراكم بفعل الوراثة المتتابة المستمرة قرونًا كثيرة سائرًا نحو غرض واحد.

ويعدون البيئة، في الغالب، من العوامل التي تستطيع تحويل صفات العرق وإثباتها، ولكن الوراثة التي تتراكم بها أخلاق العرق وسجاياه وترسب مع الزمن أقوى من البيئة وأعظم أثرًا، فقد دلت حوادث التاريخ على أن العرق إذا ما استقرت أخلاقه وسجاياه بالوراثة وبلغ من الكبر عتياً^{٢٥} عجزت البيئة عن التأثير فيه، وصار أهون عليه أن ينقرض من أن يتحول، من أجل ذلك نرى بني إسرائيل يحافظون على مثالهم الثابت في كل قطر، ومن أجل ذلك أيضاً تعذر على بلاد مصر الحارة، مع ما فيها من قوة صهر، أن تحوّل العروق المسنة التي استولت عليها واحداً بعد الآخر فكانت قبراً لكل واحد فيها.

وإنما تؤثر البيئات في العروق الحديثة، أي العروق التي تنشأ عن توالد مختلف الأمم ذات الصفات المتباينة، فإذا ما فلت الوراثة الوارثة وانحلت بذلك مقومات الماضي القديمة الموروثة بفعل الوراثة الجديدة خلا الميدان للبيئة وقامت بعملها.

والتوالد، لكي يكون مؤثراً، يجب أن يتكرر، وألا تتفاوت كثيراً نسب من يتوالدون من أفراد مختلف العروق، وإذا عظم التفاوت في نسب العناصر المتوالدة كانت الغلبة لصفات العرق الوافر العدد، لا لصفات العرق القليل العدد الذي لا يبقى له أثر من حيث النتيجة، وقد دل الاستقراء على أن رهطاً من البيض لم يلبث أن يزول أثره بعد بضعة

^{٢٥} بلغ من الكبر عتياً: بلغ غاية الكبر.

أجيال إذا ما توالد هو وقومٌ من الزوج، وأن صفاتِ أمةٍ مقهورة صغيرة تزول بالتوالد أمام صفات أمةٍ منتصرة كبيرة.

ومن الأمثلة على ذلك أغارقة الوقت الحاضر الذي لا يَمْتُون إلى أجدادهم الذين خلّدتهم التماثيل بوجه شبّه،^{٢٦} ومن تلك الأمثلة رومانُ بلاد الغول الذين، وإن كنا وارثين لحضارتهم ولغتهم، لم يبق لدمائهم أثرٌ في عروقنا، ومنها أيضًا حال العرب في مصر، فسوف ترى أن المصريين الذين تمرّدوا على حضارة الفرس واليونان والرومان ولغاتهم انتحلوا لغة العرب ودينهم وتمذّبهم، وأن مصر غدت بذلك أشدّ البلاد التي دخلت في دين محمد عروبةً، وأنه، مع كثرة توالد المصريين والعرب الفاتحين وظهور مثالٍ جديد اختلف عن الأصل بعد انقضاء جيلين أو ثلاثة أجيال، أدّى تفوق نسبة المصريين العديدة من حيث النتيجة إلى تقلص أثر الدم العربي في المصريين، وأن الفلاح المصريّ العتيد، العربي بدينه ولغته، رَجَعَ ابنًا لقدماء المصريين وصورةً حيّة لهم.

٢٦ لا أبالغ إذا قلت: إنه لا يرى في بلاد اليونان الآن أغارقة حقيقيون إلا نادرًا، كما أن بلاد اليونان لم ترَ إغريقيًا حقيقيًا منهم منذ زمن طويل، فلم أجد واحدًا منهم لا في أثينة ولا في غيرها من بلاد اليونان، كما أنني لم أجد تمثال شخص واحد من التماثيل، التي هي على شيء من القدم والمحفوظة في متحف أثينة، يشابه المثال الإغريقي، ومع ذلك فإن مسيو شليمان الذي سحت معه حينًا بين لي أن المثال اليوناني القديم لا يزال يوجد في ميغار وإيتاك وليسيوز ونواحٍ أخرى لم أزرها، ولكن هذا من القلة بحيث لا ينقض ما ذكرته آنفًا.



شكل ١-٢: أعراب ورؤساء أعراب من القبائل المستقلة المجاورة للبحر الميت (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

(٢) أهمية الأخلاق في تقسيم العروق

لا تصلح اللغة والدين والجماعات السياسية والصفات التشريحية، كشكل الجماجم ولون الجلود والسحنات،^{٣٧} لتقسيم العروق وإظهار الفروق الدقيقة بين الأمم المتقاربة، كالأمم

^{٣٧} أرى السحنات، التي لم تكن عاملاً أساسياً في تقسيم العروق البشرية حتى الآن، مهمة إلى الغاية، وقد اعترفت بأهميتها حينما شاهدت في رحلاتي الكثيرة في أوربة وآسية وإفريقية كيف يسهل على سكان البلاد الأصليين أن يميزوا بالضبط أبناء مختلف العروق مع ما بين هؤلاء من وحدة في الأزياء، ثم حاولت إثبات أهمية السحنات في تقسيم العرق في رسالة خصصتها للبحث في السحنات، ففيها يجد القارئ إيضاحاً كاشفاً عن الوسائل التي يستنبط بها ما بين أفراد العرق الواحد من الاشتراك في سحناتهم.

الأوربية مثلاً، وإن صلحت الأوصاف التشريحية لتقسيم الأجناس البشرية الظاهرة الاختلاف البادية التباين.

بيد أنه توجد صفات نفسية، وإن شئت فقل سجايا حُلُقِيَّة، ثابتة ثبات الصفات التشريحية، وأنه سيأتي يوم تكون فيه هذه الصفات النفسية، التي أغفلها علم أوصاف الإنسان الحديث، أساساً لتقسيم العروق، فلا يقول فيه أشدُّ الناس تمسكاً بالأوصاف التشريحية: إنه ينال، باطلاعه على صفات العرقين المتقابلين التشريحية، معارف أكثر من التي ينالها باطلاعه على صفاتها النفسية.

وتأتي الصفات النفسية المتشابهة بنتائج متشابهة دائماً كما تأتي الصفات التشريحية، ومن يُنعم النظر في تطور إحدى الأمم يعجب مما يلاحظه من تجلّي سجايها الحُلُقِيَّة على نمطٍ واحد في غضون الأجيال، وتنشأ عن الصفات النفسية نُظُمُ الأمة وشأنها في العالم على الخصوص، وتستتر تحت الأخلاق، أي تحت المقوّمات التي تُولد مع الإنسان وتُقرّر طِرازَ شعوره وفعله، عوامل السَّير اللاشعورية.

وتختلف الأخلاق باختلاف العروق، ونفسر بهذا الاختلاف السبب في أن النُّظم المتشابهة تأتي بنتائج مختلفة عند إدخالها إلى أُمم مختلفة، ونفسر به، مثلاً، علة الفوضى السائدة لجمهوريات أمريكا الإسبانية البائسة وما تتمتع به جمهورية الولايات المتحدة من السعادة والرخاء مع تماثل نُظُم هذه البلاد وتلك.

وفي الماضي تنضج عوامل السَّير، ومنه تتسرب فينا، وفي الماضي الطويل تتكون المروءة والنشاط والشجاعة والمبادرة وردع النفس وكبح العواطف، وغير ذلك من الأخلاق والمشاعر التي يرثها أبناء الجيل الحاضر؛ لينقلوها إلى جيل المستقبل، والتي لا يستطيع أيُّ نظام أن يمنعها.



شكل ٢-٢: أعراب سوريون (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في أريحا).
وعلى ما في السجاياء الخلقية من الثبات نراها تقدر، كالصفات الجثمانية، أن تتحول ببطء بتأثير مختلف العوامل، ولا سيما البيئة المادية والمؤثرات الأدبية والتوالد، ومن ذلك اختلاف أخلاق الروماني الذي كان معاصراً لهيلو غابال عن أخلاق أجداده في العصر الجمهوري، واختلاف سكان الولايات المتحدة في الأخلاق عن آبائهم الإنكليز. والأخلاق في طريق التحول عند أكثر الأمم الحاضرة، وهي لا تزال بعيدة من الرُسوخ، فقد نشأ عن الفتوحات العظيمة التي ظهرت بها الأمم الحاضرة أن تقابلت عناصر كثيرة التباين فاختلف بعضها ببعض قليلاً، ولما يمضي من الزمن ما يكفي لاكتسابها كثيراً من المشاعر المشتركة.

وأمرٌ مثل هذا يتضح جيداً حينما ندرس أحوال شعوب حديثة يُحْيَل إلينا، أول وهلة، أنها متجانسة كالفرنسيين المؤلفين بالحقيقة من عناصر مختلفة كالكمريين والنورمان والسُّلت

والأكيتان والرومان، وغيرهم من الذين داسوا ديارنا وجاسوا^{٢٨} خلالها من غير أن يتمازج حَفَدَتهم، كما يجب، حتى الآن.

وأوضحْتُ في كتاب جديد مقدارَ التأثير العميق الذي يؤثِّره في مقادير الأمم مختلف العناصر التي تدخل في تركيبها، كما بيَّنت فيه أن دراسة هذه العناصر، لا دراسة النُّظم السياسية التي هي معلولات لا عللٌ، هي التي ترشدنا إلى سرِّ الدور الذي تمثله الأمم في التاريخ، وما قُمتُ به من تلخيص ذلك في هذا الكتاب يكفي لإقناع القارئ بأهمية درس روح الأمم الذي لا يزال ناقصاً،^{٢٩} وسنرى في البحث في أخلاق العرب تفسيراً وافياً لأسباب عظمتهم وانحطاطهم.

(٣) منشأ العرب

عُدَّ العربُ واليهود والفنيقيون والعبريون والسوريون والبابليون والآشوريون، الذين استوطنوا جزيرة العرب وآسية الصغرى حتى الفرات، من أصلٍ واحد، ويُطلق على هذا الأصل اسم الأرومة السامية.

وتقوم قرابة هذه الأمم على تجانس لغاتها، واشتراك أبنائها في صفاتٍ جُثمانية متماثلة كاسوداد شعورهم وكثائفة لحاهم وكُمْدَة ألوانهم... وما إلى ذلك، ومن الممكن أن نجادل في قيمة هذه الصفات، ولكننا إذ نخرج بهذا عن الغرض، نرى الاختصار على اقتباس ما ورد عنها في بعض المتون.

وذهب العلماء إلى وجود مثالين لصفات تلك الأمم الجثمانية، أحدهما: لطيف، والآخر: غليظ، فأما المثال الأول: فيُصِّف، كما قال مسيو جيرار: «بقامته الهيفاء المعتدلة وأعضائه

^{٢٨} جاس القوم يجوسون جوساً بين البيوت والدور: داروا فيها بالعبث والفساد، وطلبوا ما فيها.
^{٢٩} فصلت تلك المبادئ في الكتب أو المذكرات الآتية: المجلد الثاني من كتاب الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما، علم وصف الإنسان ودرس العروق (المجلة العلمية) من موسكو إلى جبال تتر، بحث في تكوين العرق (مجموعة الجمعية الجغرافية)

المُكْتَرَّة^{٣٠} المشتدَّة ومفاصله الدقيقة، ووجهه الطويل الدقيق في أسفله وذقنه المتوثَّب وفمه الصغير، وأسنانه البيض المنضَّدة، وشفتيه الرقيقتين، وأنفه الضيق الأَقْنَى، وعينه السوداوين النجلاوين، وحاجبيه الأزجين، ورأسه المستطيل، ونجد هذا المثال، الشائع بين العرب على العموم، في بني إسرائيل والسوريين والمصريين الأقدمين والمعاصرين أيضًا.

«وأما المثال الآخر: فيتصف بقامته الطويلة الثقيلة، وأعضائه العَصِلة، ووجهه العريض الثخين، وفكَّه القوي البارز، وذقنه الناتئ، وفمه الضخم، وشفتيه الغليظتين، وأنفه الأَقْنَى الواسع، وحاجبيه المقترنين، وعينه السوداوين الكبيرتين، وجبينه الضيق المستقيم، ونجد هذا المثال بين الآشوريين واليهود وعرب الجنوب والمصريين الذين تجري في عروقهم دماء إفريقية لا ريب، وذلك لما تدل عليه خطوط سَخَنَاتِهِمْ ونَسَبُ أجسامِهِمْ.»

ومهما تكن وَحْدَةُ هذه الصفات التي نجادل في قيمتها، ومهما تكن أهمية هذه القرابة السامية التي لا نجزم بها نراها ترجع، على فرض وجودها، إلى ما قبل التاريخ، وقد كانت هذه الأمم السامية على اختلافٍ وتباينٍ منذ أقدم عصور التاريخ كما دلت عليه الروايات. وإذا جاز لنا أن نحكم في مبادئ الساميين السياسية والاجتماعية، من خلال مبادئنا الحاضرة، رأيناها قَبْلِيَّةً غَيْرَ رَاقِيَّة، وذلك مع الاعتراف بأن الأمم السامية أقامت حضاراتٍ عظيمةً، وأن ثلاثة من الأديان الخمسة أو الستة التي تسود العالم (وهي اليهودية والنصرانية والإسلام) نشأت عن الفرعين الساميين: اليهود والعرب.

وكانت القرابة بين العرب واليهود وثيقةً، ودليل ذلك ما بين لغتي تينك الأمتين وتقاليدهما من التشابه.

^{٣٠} المَكْتَرَّة: المنقبضة.

ولا جرم أن الشَّبه قليلٌ بين العربيِّ أيام حضارته واليهودي الذي عُرف منذ قرونٍ بالنفاق والجبن والبخل والطمع، وأن من الإهانة للعربيِّ أن يقاس باليهودي، ولكن، لا تنسَ أن طرق الحياة الخاصة التي خضع اليهودُ لحكمها منذ قرون كثيرة هي التي أنشأت منهم عِرْقًا ذليلًا غيرَ محترم،^{٣١} وعندى أن كل أمة تكون عُرْضةً لمثل ما أصاب اليهود، ولا تعرفُ عملاً لها غيرَ التجارة والربا، وتُحتَقَر في كل مكان، وتنتقل إليها تلك الغرائز المنحطة بالوراثة المتتابة مدة عشرين قرنًا، وتتأصل فيها، تصير كما صار إليه اليهود لا محالة.

ويجب لكي تتمثل القرابة بين اليهود والعرب، أن نعود إلى عصر إبراهيم الذي نرى أن قبيلته الصغيرة كانت تغزو جيرانها، وتُلقي الذعر فيهم، كما تغزو قبائل البدو العربية الحاضرة جيرانها وتخيفهم، ولنعلم، كما أرجح، أن أسر اليهود في مصر لم يكن سوى نتيجة غزوة أسفرت عن حصر المصريين لليهود النَّهَّايين في مكان من شمال مصر لم يستطيعوا الخروج منه في زمن موسى إلا بعد إقامتهم به زمنًا طويلًا، وبلوغهم من النفوس عددًا

^{٣١} إن العربيَّ مع إقراره لليهودي بالقرابة، أول من يحمى وجهه خجلًا منها، وما شاهدته في رحلاتي الكثيرة التي قمت بها في ألمانية وبولونية وغيلسية وروسية والشرق من الاحتقار لليهودي لا يذكر بجانب كره العربي له، فاليهودي في نظر العربي نوع من الحيوان النجس الذي يباح أن يصنع به كل شيء، ولا يخاطب العربي في الجزائر يهوديًا إلا بعد أن يناديه: «يا منتن بن منتن»، والعربي قادر على فرز اليهودي من غيره مهما حاول اليهودي أن ينتكر، وقد تحققت ذلك حين قدر لي الاشتراك في مؤتمر من الأوروبيين عُقد في الجزائر حيث كان أناس من العرب يدلونني على يهود من المتعذر تمييزهم بسخناتهم.

ويعامل اليهودي في البلاد العربية المستقلة عن نفوذ الأوروبيين بأسوأ مما يعامل به الحيوان، وإليك كيف وصف مسيو كوت في سنة ١٨٥٥ حال اليهود في مراكش: «يحرم على اليهودي أن يلبس غير الثياب السود التي هي رمز اللعنة والشقاء، ويحظر عليه ركوب الخيل، وإذا مر أمام مسجد أو زاوية أو ولي أو مرابط أو شريف — وجب عليه خلع نعليه وحملهما بيده، ويمتنع على اليهودي أن يدخل مقابر المسلمين، وتجسد العريفة المسلمة اليهودية في الأماكن العامة لأتفه الأسباب، وإذا ما ضرب مسلم يهوديًا وجب على اليهودي ألا يدافع عن نفسه بغير الفرار أو الاستعطاف، وألا أمكن قتله، وما أكثر ما يرجم صبيان العرب شباب اليهود، ويضربونهم بالعصى ويصفعونهم ويعضونهم ويخدشونهم، وشباب اليهود يركعون ويتلونون ويتلمسون الخلاص، ويرجون النجاة من غير أن يقدروا على ضرب أحد من أولئك الصبيان أو جرحه»

وما تقدم، وإن كان يقع في داخل مراكش، لا يحدث مثله في طنجة حيث يقيم كثير من قناصل الدول الأوروبية الذين يحتفى اليهود بهم على العموم، ولما أتيت تلك المدينة العجيبة، وزرت واليها، وصحبنى ترجمان القنصلية البلجيكية اليهودي لاقى هذا الترجمان من الوالي كل رعاية.

تمكنوا به من مقاومة الفراعنة، والرجوع لمدة أربعين سنة إلى حياة البادية، وما كانت حياة اليهود لتختلف، إلى زمن داود، عن حياة الصّحاري التي ألفتها قبائل البدو العربية في فلسطين وجزيرة العرب.

(٤) تنوع شعوب العرب

يعدُّ أكثرُ الأوربيين العرب عرقاً واحداً على العموم، وكلُّ مسلم، عند هؤلاء الأوربيين، يسكن بقاع آسية وإفريقية الممتدة من مراکش إلى جزيرة العرب، هو عربي، وذلك كما يعد العرب جميع الأوربيين من إنكليز وألمان وطلانية وروس أمة واحدة يُسمونها الإفرنج.



شكل ٢-٣: عربيان حضريان من سورية (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف بدمشق).

والحقُّ أن ممثِّل الأوربيين للعرب على هذا الوجه هو من عدم الصحة كتُمثِّل العرب للأوربيين، وذلك أنه يوجد بين العرب ممثِّل كالتي تُشاهد في أوربة، وأن العرب قد انتهوا، بما صادفهم من البيئات، وبما اختلطوا به من الأمم، إلى أمزجة كثيرة معقدة إلى الغاية.

وعلى ذلك أصبح عربُ مكة، بعد أن كان يتألف منهم عِرْق خالص في الماضي، مزيجًا من أبناء مختلف الشعوب المنتشرين فيما بين المحيط الأطلنطي ونهر السند والذين يَحْجُونَ مكة في كُلِّ سنة منذ زمن محمد، وقُلْ مثل هذا عن عرب إفريقية وسورية الذين اختلطوا بالفينيقيين والبربر والترك والكلدان والتركمان والفرس والأغارقة والرومان، ولا تستثن من هذا أجزاء جزيرة العرب الوسطى المنعزلة، كبلاد نجد، التي اختلط أهلها بالزنج على نِسْبٍ واسعة منذ قرون.

واستوقف تأثيرُ الزواج في سكان جزيرة العرب نظرَ جمع السَّيَّاح الذين ارتادوها، ومن ذلك أن روى رُوتا وجود بقعة في اليمن صار سكانها من أصحاب الجلود السُّود على وجه التقريب، مع أن سكان الجبال من أهل اليمن الذين قَلَّ اختلاطهم بالآخرين ظلوا بيضًا، وإن قصَّ هذا السائح، في معرض الكلام عن أسرة أحد رؤساء تلك البقعة، أنه «يوجد في أبنائها جميع الألوان التي تترجح بين الأسود والأبيض تبعًا للعروق التي تنتسب إليها أمهاتهم، ومن ذلك أن رأى والينُ قبائلَ من العبيد السود في الجوف، وأنه يوجد زنجٌ في نجد وفي بقية جزيرة العرب من غير اكتراثٍ للون وللتوالد، ومن ذلك أن رأى بلغريف مقاليدَ مدينة القطيف النجدية المهمة بيد زنجيٍّ، ومما قاله بلغريف: «إنني رأيت في الرياض أناسًا من الخلاسيين^{٣٢} يحملون سيوفًا ذات مقابض فضية ويخدِّمهم عربٌ خلص من أبناء إسماعيل وقحطان.»

وعجبتُ ليدي بلنت من عدم الاكتراث لأمر اللون أيضًا، وذلك في رحلتها إلى بلاد نجد في سنة ١٨٧٨، فَرَوَتْ أن حاكم مدينة سكاكة النجدية زنجيٌّ أسودُ كرية الملامح كزنج إفريقية، ثم قالت: «إن مما لا يصدقُه العقل أن يحيط بهذا الحاكم الزنجي، الذي لا يزال

^{٣٢} الخلاسي: الولد من أبوين أبيض وأسود.

عبدًا، رهطٌ من الندماء البيض الخالصي العروبة يمثلون أوامرهم، ويتسمون استحسانًا لأفأكهه التافهة.»

واختلاطٌ مختلف العروق أظهر ما يكون لدى أهل الحضرم من العرب، وبباهي كلُّ عربي بوجود نسوة من مختلف الألوان في دائرة حريمه، ويتجلى صفاء العرق في سكان الجبال وأهل البدو من العرب أكثر مما في غيرهم، وذلك مع ملاحظة وجود أناسٍ من أهل بادية الشام الشرقية، القرية من تدمر على الخصوص، شقِر زُرَق العيون بسبب اختلاطهم بأهل الشمال على ما يُلوح.

(٥) وصف الفوارق بين العرب

إن الفارق الأساسي الوحيد بين العرب هو ما أيده تقاليدهم وطُرُق معاشهم، وهو تقسيمهم إلى أهل حضر وأهل بدو، ويجب ألا يغيب هذا التقسيم الجوهري عن البال حين البحث في تاريخهم، فأما أهل البدو، وهم الأعراب الموزعون فيما بين المحيط الأطلنطي وخليج فارس، فلهم طُرُق معاش وعادات وطبائع لا تزال كما كانت عليه منذ آلاف السنين، ويحتمل أن تبقى هكذا إلى الأبد، وهم مقسّمون، كما في العصر الإسرائيلي، إلى قبائل ترتحل عن الأماكن المقيمة بها عندما تستنفد مواشيتهم ما عليها من الكلاء، وأما أهل الحضرم من العرب فهم، على العكس، يتغيرون بتغير الأماكن والشعوب التي يخالطونها.



شكل ٢-٤: عربي حضري سوري (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في دمشق).
وإن تقسيم العرب إلى أهل حضر وأهل بدو يطابق ما في الرواية التي قالت بتقسيمهم إلى ثلاثة عروق: العرق الذي باد وعفا أثره قبل الإسلام، والعرق المؤلف من أبناء قحطان الذين استقروا ببلاد اليمن والذين هم أقحاح العرب، والعرق المؤلف من ذرية إسماعيل الذي هو ابن جارية إبراهيم المصرية.
وتعلم مما قلناه أنفاً عن العرب المعاصرين الذين هم وليدو توالد مختلف أنه يتعذر وجود مثال خالص خاص بالعرب؛ بسبب ما تعرّض له العرب من التمازج كتعذر وجود مثال فرنسي أو إيطالي.

وأحسنُ وصفٍ قيل في مثال العرب الجثنائيّ، الذي يطابق فريقًا كبيرًا من العرب الخُلص، هو ما ذكره الجراح الأول السابق في الجيش المصري، لاري، في الكلمات الآتية، وهي:
هم مربوعو القامة، ذوو تكوين حَسَنٍ، ومَرَاةٌ ضُلْعٌ سَفْعٌ،^{٣٣} وجوههم بيضٌ سَمَرٌ، وجُبُّهم عريضةٌ عالية، وحواجبهم سود منفصلة، وعيونهم كُحْلٌ لامعة، وأنوفهم معتدلة، وأفواههم جميلة، وأسنانهم مُنْضِدة عاجية البياض، وآذانهم حسنة الشكل غير كبيرة مائلة قليلاً إلى الأمام، وخُرُوتهم ١٠ محاذيةً تمامًا لأجفانهم، وفي المرأة العربية محاسنٌ كثيرة كما في أخواتها في الأمم الأخرى، ونحن نُعْجَب، على الخصوص، باستدارة أعضائها اللطيفة، وتناسب يَدَيها، واعتدال رِجليها، وهَيْف قامتها وتبخترها ... إلخ.

ويُقَسَّم أهل البدو أو الرعاة من العرب إجمالاً إلى قبائل كثيرة مُوزَّعة في أطراف الأراضي الخصبة القريبة من البادية، وتُقيم القبائل بمضارب وخيام تُنْقَل من مكان إلى آخر عند الضرورة، وعلى ما بين أبناء القبائل العربية والعرب المتمدين من الشَّبه نرى أبناء القبائل العربية يُمَيِّزون بتألق عيونهم وغموض ملامحهم، واعتدال قامتهم وسرعة عدوهم، وضمورهم وقوَّتهم، وتوثُّبهم وخيلائهم وعتقهم، وحذرهم وبأسهم ونجدتهم ولباقتهم، وذكائهم النادر وفُرُوسيتهم ورمائتهم، واستعدادهم العظيم لاحتراف مختلف المِهَن والصناعات.»

وأشدُّ ما استوقف نظري من الأوصاف التي وصف لاري بها العرب هو ما شاهده، على الخصوص، من التمازج عيون صبيانهم، وبياض أسنانهم، ودقَّة أيديهم وأرجلهم، وهيف قامتهم ... وما إلى ذلك مما لا يُرى اليوم في غير عرب البادية.

٣٣ الأسف: من لفحته الشمس لفحاً يسيراً فغيرت لون بشرته.

وإذا عَدَوْتُ ذلك التقسيم الأساسي وجدت أن الفارق العملي الوحيد الذي بين العرب المولَّدين هو ما يقوم على البحث في سكان كلِّ قطر يسكنه العرب، وهذا ما نفعله حينما نَصِفُ بالتتابع عربَ جزيرة العرب وسورية ومصر وإفريقية والصين، وصفاتُ هؤلاء النفسية، لا صفاتهم الجثمانية، هي أكثر ما نبحت فيه، مع أن نَشَرَ صورنا الفوتوغرافية أنفع في تَمَثُّلِ هذه الأمثلة من أيِّ بيانٍ مفصل كان.

(١-٥) عرب جزيرة العرب

عرب البقاع الوسطى من جزيرة العرب، ولا سيما الأعراب، هم، مع اختلاطهم بأناسٍ من الزنوج، أكثرُ العرب مشابهةً لأجدادهم الأقدمين، وهم الذين سنبدأ بالبحث فيهم. ويتألف من الأعراب، الذين يَظُنُّ الكثيرون أن جزيرة العرب لا تشتمل على غيرهم، عِرْقٌ جَلِيفٌ بعيد من التمدن عاطلٌ من أيِّ تاريخ كان، ونحن إذا ما استثنينا الدين نرى أنه لم يتبدل فيهم شيء منذ أُلوف السنين، وعلى من يودُّ أن يعرف ما كانوا عليه منذ ثلاثة آلاف سنة أن ينظر إلى حاضرهم، وهم الذين لم يطرأ على ما وصفهم به هيرودتس أو التوراة شيءٌ، وهم الذين قُدِّرَ عليهم ألا يتحوَّلوا، وإذا كان من فضل البقاع الخصبية، كاليمين، أن تُنشِئَ أهلَ حضرٍ، فإنَّ رمال الصحراء القاحلة لا تصلحُ لغير الأعراب.



شكل ٢-٥: عرب من مصر العليا (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف بالقرب من طيبة).

وسكان البدو من العرب مُقسَّمون، في كلِّ زمن، إلى قبائل صغيرة تخضع كل واحدة منها لشيخ أو أمير، ويقتصر سلطان هذا الشيخ أو الأمير، تقريباً، على قيادة المحاربين في الغزوات، وتقسيم الغنائم، والصدارة في بعض الحفلات. والغزو وتربية الحيوانات هما كلُّ ما يعتني به الأعراب، ولا نهاية لما يشتعل بين القبائل العربية من الحروب لأتفه الأسباب، ما عملت بمبدأ الثأر والقصاص الإسرائيلي القائل: إن العين بالعين والسن بالسن والنفس بالنفس، وما تبع كلِّ حادث قتل يقع بينها حادث قتل مثله انتقاماً، ولا ترضى القبيلتان العربيتان المتعاديتان بالدية بدلاً من القصاص إلا بعد أن ينهكهما الجهد ويعتريهما الوهن.

وتنشأ عيوب أهل البدو من العرب ومحاسنهم عن طراز حياتهم، قال هيردر:
لا يزال الأعراب محافظين على طبائع أسلافهم البدوية، وهم، على ما في الأضداد من
غربة، يتصفون بسفك الدماء وحقنها، وباعتقاد الخرافات وردّها، وبالإيمان والإحاد،
وهم، على ما يظهر، ذوو فتوة خالدة يقدرّون بها على القيام بجليل الأعمال عندما يؤمنون
بمبدأ جديد، وهم أحرار كرام شُمّ الأنوف غِضابٌ مقاديم، يجمعون في مثالهم بين
الفضائل والمساوي الخاصة بقومهم.

والأعرابي نشيطٌ، ويعود نشاطه إلى وجوب كسب عيشه بنفسه، وهو صبورٌ، ويرجع
صبره إلى ما لا محيص عنه من احتمال الآلام والمحن، وهو محبٌ للحرية، والحرية هي
الأمر الوحيد الذي اتفق له أن يتمتع به، وهو محارب، ومحارب حاقداً كلّ من يحاول
استعباده، وهو قاسٍ على نفسه صارمٌ ولّوع بالانتقام في الغالب.

ونرى الأعراب متمائلين في أمور العزّ والشرف؛ لتماثل أحوالهم ومشاعرهم، ويقوم
فخرهم على السيف والقِرَى والبلاغة، فبحدّ السيف يصونون حقوقهم، وبالقِرَى يتجلى
كرم أخلاقهم، وبالبلاغة يحسمون ما لا يقدر عليه السلاح من الخصام.

وقال ديفرجه: «قد يكون أظهر ما في الأعراب هو أنهم جِماعُ الأضداد، فالنهب والكرم،
والسلب والجود، والقسوة والنبيل ... وغير ذلك من الصفات التي تدعو إلى المقت
والإعجاب في وقت واحد مما نراه في الأعراب، وليس في هذا ما يُعذر به الأعراب لو لم
نلاحظ أنهم محكوم عليهم بالاكْتفاء بما تنتجه بلادهم المعتزلة التي هي أكثر أراضي العالم
جُدوبةً، ويعتذر الأعرابُ عن النهب بأنهم محرومون، لفقر بلادهم، طيبَ العيش ووفرة
الغلات والكلأ مما لم تعرفه أمة أخرى، وبأنهم يُزيلون هذا الحيف المقدّر بأسنة رماحهم
معتقدين أن من الحلال دَهَمَ القوافل وسلبَ ما بأيديها تعويضاً لهم مما لم تقدر أن تجود

عليهم به أراضيهم القاحلة، وبأنهم يَعُدُّون قطع السابلة، وسلب ما بأيدي الناس ضربًا من حقوق الفتح والفخر كتدوين مدينة أو ولاية، وذلك لعدم تفريقهم بين الحرب والكمون.

ومساوئ مثل هذه لا تُغتفر لو لم يكن عند الأعراب من الفضائل ما يُشفع لهم به، ومن هذه الفضائل أن الأعرابيَّ المحارب، المتعطش للنهب والانتقام، والذي يفعل عند مَسِّ كرامته ما لم تسمع به أذن من ضروب القسوة، مضيافٌ كريم أنيسٌ في مِضرِّه، ومنها أن الهضم الذي يضع نفسه تحت حماية الأعرابي، ولو كان من أعدائه، أو الذي يصبح في جواره، يُعدُّ من أفراد أسرته، فلا يستطيع أحد بعدئذ أن يعتدي على حياته المقدسة التي يدافع عنها ذلك الأعرابيُّ أكثر من أن يدافع عن نفسه، وإن ظهر أن هذا الغريب من أعدائه الذين تمنى زوالهم مائة مرة.

وليس بمستبعد أن يأخذ الأعرابيُّ المضيافُ جمل جاره طوعًا أو كرهًا ويصنع منه طعامًا؛ ليمعن في إكرام ضيوفه، والكرمُ أفضلُ فضائل الأعراب، ويعده الأعراب أخص ما اتصفت به أمتهم.

وأضيف إلى ما تقدم أن الأعراب من سكان جزيرة العرب وسورية وإفريقية يحبُّون الحرية حبًّا جمًّا لا يقدر الأوربي أن يتصوره، وهم يزدرون أبناء المدن ويعُدُّونهم من الأرقاء لذلك، ويتضمن الارتباط في الأرض عندهم معنى توديع الحرية والخضوع لسيد، ويرى الأعراب الذين لا يملكون سوى حريتهم أن هذه الحرية أغلى شيء، وقد حافظوا عليها بتوالي الأجيال، ولم يقدر جميع الفاتحين من الأغارقة والرومان والفرس وغيرهم من الأمم التي دوَّخت العالم أن يُعبِّدوهم، وكل قهر للأعراب لا محالة زائل، والقهر إذا ما وقع كان على أيدي أعراب آخرين، فلا يفُلُّ الأعراب إلا الأعراب.

ويرجع حبُّ الأعراب للحرية إلى أقدم عصور تاريخهم، فقد روى ديودورس الصقليُّ أن الأنباط، وهم من أعراب بلاد الحِجَرِ العربية (بطرا)، كانوا ممنوعين من بَذْرِ القمح وغرس الأشجار المثمرة، وبناء البيوت لما في هذه الأعمال من التضحية بالحرية طوعًا، ولذا لم يستذِلَّ الأعرابُ أحد، وهم الذين لم يُعطوا ملوكَ فارس الجزية، وقد أعطاهَا أهلُ فنيقية وفلسطين كما ذكر هيرودتس.

ويُلقي الأعراب الرعب في قلوب جيرانهم المتمدنين؛ لما فُطروا عليه من الرغبة في النهب وحب القتال، ويُعد هؤلاء المتمدنون الأعرابَ من قُطَاعِ الطرق، وينظر الأعراب إلى المسألة من ناحية أخرى، أي يفخرُ الأعراب بسلب القوافل فخر الأوربيين بضرب المدن بالقنابل أو افتتاح الأقطار أو ما إلى ذلك، ويحترم الأعرابُ رؤساءهم احترام الأوربيين لأعظم القادة، وإن لم يقيموا لهم تماثيل.

وأصبح أعراب جزيرة العرب، بما كان عندهم من غرائز النهب والقتال، محارين أشداء أيام خلفاء محمد فدوخوا العالم بسرعة، ولم تتغير غرائزهم بتغير ما لاقوا من الأحوال الجديدة، بل تجلَّت على صور أخرى ما كان الثباتُ من الغرائز، فأصبح حبُّهم للنهب حبًّا للفتح، وتحول كرمهم إلى ما أخذته أوربة عنهم مؤخرًا من طبائع الفروسية، ثم إن ما بينهم من التفاخر والمنافسة لم يلبث أن جاوز الحدود المعقولة فكان سببًا في خسرانهم بعد أن كان حافزًا لهم على العمل الصالح في البداءة.

وكان يتألف من الأعراب قسمٌ كبير من جيوش خلفاء محمد، وقام الأعراب الفاتحون بأجلِّ الخدم لأولئك الخلفاء، وإن كان العلماء وأرباب الفن الذين ازدهرت بهم حضارة أتباع النبي لم يظهروا من بين الأعراب.

ويستخف الأعراب بسُلطان الحضارة، ويُفَضِّلون عليها عَيْش البادية، وهذه من المشاعر الموروثة التي ترى مثلها عند هنود أمريكا ولا يُؤثِّر فيها أي دليل، ورفض الأعراب، في سورية على الخصوص، كلَّ أرضٍ عُرِضت عليهم ليستقروا بها، وَيَعْرِف هؤلاء الأعراب، الذين يستوقف نُبلُهم وبأسهم نظرَ كل سائح، كيف يستغنون عن نَعَم الحضارة المصنوعة، وعن جبروت كل أمير إقطاعي كأمرء القرون الوسطى، ولا تخلو حياة البادية من السحر والجمال مع ذلك، ولا أتردَّد ثانية في ترجيحها على حياة المصانع التي يقضي العامل فيها اثنتي عشرة ساعة من كلِّ يوم.



شكل ٢-٦: عربيتان من جوار القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

وعندي أن أهل البدو من العرب، مع بقائهم على الفطرة وعدم تحولهم قِيَدَ أنملة عن الحال^{٣٤} الابتدائية التي كانوا عليها منذ أقدم العصور، أفضلُ من جميع أمم الرعاة في العالم،

^{٣٤} الأنملة: بتثليث الهمزة والميم، رأس الإصبع، وقيل المفصل الأعلى الذي فيه الظفر.

وقد أتيح لي أن أحادثهم غير مرة، فظهر لي أن مبادئهم في الحياة تعدلُ مبادئ كثير من الأوروبيين العريقين في الحضارة، وسنرى أن الأعراب الأجلاف بعاداتهم شعراءً بتصوراتهم، ويندر أن يكون الأعرابيُّ غير شاعر.

والأعرابي، وهو شاعر، صبيٌّ في خُلُقهِ، وينطوي تحت دعوته الظاهرة من التقلب ما لا يشاهد مثله إلا في الأولاد والنساء، وهو كهؤلاء لا يتأثر إلا بعامل الساعة التي يكون فيها، ولا تستهويه سوى ظواهر الأمور، ويبهِّره الضجيج والضوضاء والبهرج، وفي فتنه سرُّ اجتذابه.

وأمرٌ مثلُ هذا يشاهد في العروق، والأمم الفطرية، وما إليها من النساء والصبية الذين هم عنوان أدوار التطور البشري الأولي، والحقُّ أن الأعرابيَّ جلفٌ ذكي لم يصعد درجةً في سُلَّم الحضارة منذ ألوف السنين، ولم يُعانِ ما عاناه الرجل المتمدن من التحول المتراكم بتوالي الأجيال، وإذا صحَّ ما نعتقده من أن اختلاف السجايا الخلقية يكفي لوجود فروق بعيدة العُور بين الناس أمكننا أن نقول: «إنه يتألف من العرب المتحضرين والأعراب عرقان تفصل بينهما هوة عميقة.»

ويختلف عرب الجزيرة الحصريون، الذين نبحت في أمرهم الآن، عن أولئك الأعراب اختلافًا كبيرًا، فأهل الحضر من عرب الجزيرة لم يكونوا أجلافًا كما يُعتقَد على العموم، وعند بلغريف أن السياح الذين لم يزوروا سوى بعض الأماكن الساحلية التي لا أهمية لها في جزيرة العرب الواسعة هم مصدر هذا الرأي الفاسد، وينظر بلغريف إلى أهل عُمان بعين التقدير والإعجاب حيث يبحث في ثقافتهم، ولا يصعب، كما يرى، وجودُ أناس من أهل نجد قادرين، كالإنكليز، على صنع الآلات ومدَّ الخطوط الحديد، وليس من المجهول

شأن جامعة زبيد وجامعة ذمار اليمينيتين اللتين، وإن كانتا دون جامعة الأزهر المصرية أهمية، تساعدان مثلها على نشر العلم القويم بين أولي البصائر من الأهلين.

ومن دأبنا في الوقت الحاضر أن ننظر إلى عرب الجزيرة من خلال المثل الكثيية التي نراها في سورية ومصر والجزائر، والتي لا تنم إلا على أناس أحطتهم ضروب الاختلاط والعبودية، وعلى الباحث الذي يرغب في استيبار العرب أن يسبح في مهد العروبة، وأن يدرس أحوال العرب فيها عن كثب، فقد عد بلغريف عرب الجزيرة الذين عاش بينهم زمناً طويلاً من أعظم أمم الأرض كرمًا ونبلاً، قال بلغريف:

إن أهل الحضرة من العرب من أنبل شعوب الأرض وأكرمهم، وهم جديرون بهذا المديح، وقد أكثرت من السياحة في أنحاء العالم، وكانت لي صلات وثيقة بمختلف الأمم الإفريقية والآسيوية والأوربية، فظهر لي أن الأمم التي يُفضّل أفرادها على سكان جزيرة العرب الوسطى قليلة إلى الغاية.

ويتكلم أولئك الحضريون العرب بلغة الأعراب مع ذلك، ويجري في عروقهم ما يجري في عروق الأعراب من الدماء، وما أبعد المسافة بين الفريقين!



شكل ٢-٧: مسلمون من النوبة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وذكرنا أن الفروق التي بين أهل الحضر من العرب الساكنين في مختلف البلدان كالفرق التي بين الأمم المتمدنة، وتُشاهدُ مثلُ هذه الفروق بين سكان جزيرة العرب نفسها، فالفرق بين سكان القطر النجدي، الذي هو أوسع من كثير من الممالك الأوربية، وبقية سكان جزيرة العرب لا يقلُّ عن الفرق الذي بين سكان شمال أوربة وسكان جنوبها، والوهابيون، الذين هم أكثر نشاطاً من العرب الآخرين وأقلُّ اندفاعاً وراء عوامل الزمن، أشدَّ العرب مكرًا وغيرةً، قال بلغري في وصف الوهابيين:

يَقْلُ الوهابيون عن العرب الآخرين كرمًا وإقدامًا ومرحًا وصراحة، ويزيدون عليهم صبرًا وحكمةً، ويندُر أن يدل كلامهم على سرائرهم، وهم حَزَمَةٌ بعيدو الهمة جابرةٌ ذوو انتقام، قساةٌ نحو أعدائهم، مشكوكٌ في مودتهم لغير بني قومهم، ولذا فهم جديرون بأن يُسمَّوا، من غير تحجُّنٍّ ومع كل تحفظ، بإسكتلنديي جزيرة العرب.

ووجوههم ذات صُلُود وعبوس مما لا يُرى مثله في وجوه عرب الشمال الطليقة، ولا يُؤخذون بدوافع الساعة العتيدة، وإذا ما ساروا فبعد تفكير وإنعام نظر.

ويقدرّون بإرادتهم القوية وثباتهم وجلدهم على تنظيم شؤونهم الاجتماعية والسيطرة على جيرانهم مع ما فيهم من الذكاء المحدود، ولا ريب في أنهم سينتصرون، بفضل اتحادهم المتين، على أعدائهم الذين أضعفهم انقسامهم، وأن سيادة القسم الأعظم من جزيرة العرب ستكون لدولتهم الوهابية، وأن أطماعهم وآمالهم ستتحقق في أقرب وقت.

وتتجلى أخلاقهم في أدق شؤون حياتهم الأهلية، ويجب على من يرغب في مفاوضتهم ألا يسترسل في كلامه، وأن يزن حركاته كما يفعل عندما يحدث أعداءه.

(٥-٢) عرب سورية

عرب سورية، كعرب الجزيرة، أهلٌ حضر يسكنون المدن، وأعرابٌ يقيمون بالبادية، ولم يكن في السيطرة المتتابعة التي أصابت سورية ما يتوجَّع منه أعرابها الذين لا يزالون يعتمدون في معاشهم على النهب وتربية المواشي منذ ثلاثة آلاف سنة، ونحن إذا ما استثنينا المدن نرى سورية قبضتهم بالحقيقة، فهم يهاجمون فيما وراء نهر الأردن، وفي أبواب دمشق نفسها، السياح والقوافل التي لم تؤدِّ إليهم الفِدَى في مقابل خَفَرها وحمايتها والسماح لها بالمرور، وتجتمع في أعراب سورية صِفَةُ الشَّرِّه وصفَةُ الكرم المتناقضتان اللتان ألمعنا إليهما فيما تقدم، ويقدِّسون الضيف ما دام نزيلهم.

ولم يقدر أحدٌ على إلزام أعراب سورية بترك البادية التي تعودوا العيش فيها منذ قرون، وقد رفضوا كل أرض عُرضت عليهم ليستقروا بها، وامتنعوا عن أي عمل زراعي. ونرى في سورية، بجانب الأعراب الذين يدينون بدين محمد، قبائل ذات شعائر وعقائد مختلفة يسهل تمييز بعضها من بعض؛ لعدم توالدها فيما بينها، وأهمها المتاولة والنصيرية والموارنة والدروز.

فالمتاولة: قبائل عربية جبلية تعيش في اعتزال، وهم من مسلمي الشيعة المتعصين الذين يأبون تناول الطعام مع أي أجنبي كان، ونرى من أوصافهم أنهم مزيجٌ من المغول والعرب والفرس، مع أن بعض الباحثين يظن أنهم منحدرون من بعض القبائل الكردية. والنصيرية: قبائل جبلية أيضًا، وهم يدينون بديانة مشتقة من الإسلام بعيدة منه كلّ البعد، ويرى أن النصيرية من القائلين بالتناسخ، ويعبدون الشمس والقمر... إلخ. وللموارنة: مع قريتهم من السوريين، طابعٌ خاص، وهم أتباع طائفةٍ مسيحية ذات عجبٍ صاخبةٍ لم تكن على شيء كبير من البسالة كما أثبتت الحوادث ذلك.

والدروز: يُشبهون الأعراب، وتتألف منهم طائفةٌ إسلاميةٌ عاتية حرة انفصلت عن السوريين والعرب منذ قرون، وتوجد بين الدروز الشجعان ذوي الصَّولة وموارنة لبنان عداوةٌ متأصلة.



شكل ٢-٨: مسلمتان من النوبة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

ويتألف من سكان مدن سورية وقراها مزيجٌ من المصريين والفينقيين واليهود والبابليين والفرس والأغارقة والرومان والعرب والمغول والشركس والصليبيين والترك ...

وغيرهم من الأمم التي استولت بالتتابع على سورية كلّها أو بعضها، ولذا يشاهد السائح في سورية مثلاً كثيرة التباين، ويتصف سكان المدن من السوريين بالذكاء ولين العريكة والمكر والمخادعة على العموم، وقديماً نعت الرومان السوريين بأنهم وُلدوا للعبودية، والسوريون، وقد رَضُوا بكلّ حكم أجنبي أصابهم منذ قرون كثيرة، لم يبقَ من نشاطهم سوى منازعاتهم الدينية، وقد عُرِفُوا، فيما لا يَمَسُّ عقائد الدين، بإذعانهم التام، وانقيادهم المطلق لكل ذي سلطان مما لا يتصوره أوربيٌّ، ويمكن القارئ أن يقف على ذلك من القصة الآتية التي رواها مسيو دوفوغويه عن أوربي كان في سورية أيام القمع الذي وقع بعد ملاحم سنة ١٨٦١ :

روى ضابطٌ معلّمٌ أوربيٌّ كان في خدمة الترك أنه شاهد الأمر الآتي، وهو: أن أحد الجلادين الكثيرين في ذلك الوقت كاد يُتِمَّ عمل نهاره، وأن الكلاب كان عاليًا والكرسي واطنًا فلا يوصل إليه به، وأن مسلمًا مُسنًا مرَّ من هنالك راكبًا حمارًا حاملًا قطعة لحم، فأمره الجلاد بالوقوف فأطاعه فترجّل ماذًا عنقه للشنق طائعًا ظانًا أن أجله جاء، فأفهمه الجلاد أنه لم يقصد شنقه، وإنما يريد حماره؛ ليصعد فيه رجل محكوم عليه بالموت، ويُوضَعَ الحبلُ في عنقه، فلما وضع الجلاد الحبل ونَحَسَ الحمار هوى ذلك المحكوم عليه بالموت، فركب الشيخ الهرم حماره بعد أن حمل قطعة اللحم لائذًا بالفرار.

وإنني أقول مكرراً: إن ذلك الإذعان لا يتجلى إلا في الأمور التي لا تَمَسُّ عقائد الدين، ولم يطرأ على الهدوء العميق الذي تتمتع به دمشق شيء من جرّاء الاضطرابات التي وقعت حديثاً في مصر، وعَجِبْتُ من السهولة التي كان يضرب بها جندي واحدٌ جموعاً زاخرة ويدحرها لتُفَسَّحَ المجالَ لمرور أحد الأعيان أو السياح، ومع ذلك فقد سمعتُ في دمشق والقدس غير مرة أن أقلّ نجاح لُعْرابي كان نذير قتل لنصارى سورية الذين يَحْمَرُّ الوجه

خجلاً من جُبنهم، وهؤلاء النصارى هم الذين كانوا يُذَبِّحون في سنة ١٨٦١ كالضأن من غير أن يُنذَروا أقل مقاومة؛ وهم الذين يكونون، لا ريب، جُبناءً آنذاً لو حدث في سنة ١٨٨٢ من الإِثْخان فيهم ما كان يتوقعه المملأ.

(٣-٥) عرب مصر

عربُ مصرَ نتيجةُ تولدِ سكانِ مصرِ الأصليين والعربِ الذين فتحوا مصرَ في سنة ٦٤٠ بقيادة عمرو بن العاص، وعربُ مصرَ ليسوا عرباً بدمهم، وإن كانوا عرباً بلغتهم ودينهم، فقد دَلَّنَا علمُ وصفِ الإنسانِ على أن العنصرَ العربيَّ الغالبَ لم يَلْبَثْ أن طغى عليه العنصرُ المصريُّ المغلوبُ الأوفرُّ عدداً والأكثرُ احتمالاً لجوِّ مصرَ المهوب، وأن العناصرَ المتداخلةَ لم تَلْبَثْ أن توارت، وأن المصريَّ الحضريَّ العربيَّ بدينه ولغته رَجَعَ ابنًا لقدماء المصريين في زمن الأهرام، أي ذا سَعَةٍ في كَتِفِهِ ووجهه، وَغِلَظٍ في شَفَتَيْهِ وَنُتُوٍ في وَجْتَيْهِ ومشابهةً للمُثَلِّ المنحوتة في قديم الآثار.

ولم يكن عرب النيل الحضريون أبناءً لقدماء المصريين بتقاطيعهم فقط، بل وَرِثُوا عن هؤلاء أخلاقهم ولُطْفَهُمْ وأدبهم الجَمَّ أيضاً، وهم يَحْشُونَ؛ لما عَانُوا من ضروب الاستعباد منذ قرون، جميعَ السادة، ولا سيما الأوربيون، فقد استطعتْ، حين ذاعت الأنباء في القاهرة بأن مصر العليا مضطربةٌ بالعصيان والملاحم، أن أجول منفرداً في القرى القائمة على ضِفْتَيْ النيل من غير أن يصيبني أذى.

واحْتِياجَاتُ الفلاح المصري قليلة جداً، وهو إذا ما مَلَكَ بُلْغَةً كان سعيداً، وهو يعيش من غير تفكيرٍ في المستقبل والوقت والأبعاد، ويكون جوابه «لا أعلم» حين سؤاله عن أشياء كان يجب أن تكون التجاربُ المتكررةُ قد هدته إليها، ولا يعرف مدةَ السفر بين قريته وإحدى القرى المجاورة ولا المسافة بينهما، ولا يرى له مصلحةً في معرفة هذا.

ونشاهد في مصر مثلاً ما نشاهد في جزيرة العرب وسورية من الأعراب والحضرين، ونرى الفرق بين أعراب مصر وحضريةها أعظم مما في أيّ قطر آخر؛ لاختلاف العرقين في مصر، فضلاً عن اختلافهما في المعيش، وإذا كانوا عرب المدن قد تحولوا بفعل التوالد المستمر إلى مصريين، فإن أعراب مصر لم يختلطوا بسواهم نظراً إلى طُرُق معاشهم الخاصة، وهؤلاء الأعراب يُشبهون، بقنّا أنوفهم ورقّة شفاههم وطول وجوههم البَيضِيَّة وعيونهم اللامعة، مثال العربيّ البدويّ في زمن محمد.

والأعرابُ، فقط هم أهل الحرب والنّزال المرهوبون في مصر، وهم الذين يجب أن يخافهم الإنكليز في غزوهم الحديد لوادي النيل إذا لم يشتروا حيادهم بأيّ ثمن، كما أخبرنا به العارفون غير مرة.

ويَنصِب أهل البدو من عرب مصر خيامهم في الصّحاري الرملية القريبة من ضفتي النيل، وهم قلما يخشون جانبَ الحكومة، ولا صِلَة بينهم وبين الفلاحين الذين يُبغضونهم. ومعاشُ هؤلاء الأعراب كمعاش عرب البادية، فالعربي البدوي هو هو أينما حل وحيثما اتّجه.

ونرى في مصر، عدا العرب، عناصر كثيرة أخرى كالترك والأقباط والسوريين والزنوج والأغارقة والأوربيين وغيرهم من العناصر التي يندُر أن تتوالد هي والفلاح المصري، وذلك فضلاً عن أن جو مصر القتال لا يصلح لتناسل الأجانب، ومنهم الترك، في أكثر من جيلين، وأصولُ العرب، لا غيرها، هي التي استطاعت أن تثبت في مصر.

ومن تلك الشعوب نذكر الأقباط الذين، وإن كانوا لا يُعدّون حفدةً خلّصاً لقدماء المصريين، يُرى بينهم أشخاصٌ مشابهُون؛ لما في النّواويس القديمة أكثر مما بين سواهم، ويدين الأقباط بالنصرانية، ولم يختلطوا بالعرب، ويقطنون في مصر العليا، ولا سيما ببعض

القرى والمدن كإسيوط، وتُشبه لغتهم لغة قدماء المصريين، وتوصّل شانيوليون، بدرسها إلى إيضاح الكلمات الهيروغليفية كما هو معلوم، ومع نصّ كثير من المؤلفات على أنه لا يتكلم أحدٌ باللغة القبطية في الوقت الحاضر سمعتُ أقباطاً يتكلمون بها فيما بينهم على لهجاتٍ مختلفة، ويكتب الأقباط لغتهم بالحروف اليونانية في الزمن الحاضر.

ويُقدّر الأقباط المقيمون بمصر بمئتي ألف نفس، وإن قالوا لي مؤكدين إن عددهم يزيد على خمسمائة ألف، ويلوح لي أن الصورة المحزنة التي تُصوّر بها سجيّتهم لا تمتُّ إلى الحقيقة بصلة، وكل ما في الأمر أنهم أفضل في الثقافة من عرب الوقت الحاضر، ومن الترك على الخصوص، وأنهم، وإن كانوا لا ينالون أعلى المراتب بسبب دينهم، يُعطون المناصب الإدارية التي تتطلب جهداً ودراية.

وأما الترك الذين حلّو محل العرب في مصر سياسةً فإن تأثيرهم في تكوين العرق المصري صِفراً، وتتألف منهم الآن طبقة أريستوقراطية لا تختلط بالسكان، ولا يزيد عددهم على عشرين ألفاً.

(٥-٤) عرب إفريقية

إننا إذا استثنينا مصر التي تُعدُّ من الشرق عادةً نرى أنه يسكن شمال إفريقية أناسٌ منتشرون إلى ما بعد خطّ الاستواء من بعض النّقاط، يدينون بدينٍ واحد وإن لم تُجرِ دماء العرب في عروقهم بصورة مطلقة، متمازجون من البربر والعرب والزنوج، وفي مراكش، على الخصوص، يتجلى هذا التمازج الذي يزيد كلما دنونا من خط الاستواء.

ويختلف بربر إفريقية عن العرب كثيراً، وستكلم عنهم مفصلاً في الفصل الذي خصصناه للبحث في تاريخ عرب إفريقية، فلا نبحت فيهم الآن.

وعربُ إفريقية أهلٌ بدوٍ وأهل حضر كعرب الأقطار الأخرى الذين تكلمنا عنهم، وهم نتيجةُ اختلاط أعقدَ مما في أيِّ مكانٍ آخر، وأهل مدنها الساحلية الذين ننعثهم بالعرب هم، على الخصوص، مزيجٌ من القرطاجيين والرومان والوندال والأغارقة والبربر والعرب والترك والأوربيين والزنوج وغيرهم من الآدميين الذين تلاقوا في تلك السواحل والبقاع، وشاهدتُ في سواحل إفريقية الشمالية جميع المثل التي تترجّح بين زنوج السودان والخور العين، وليس من الصواب أن يُنَاطَ عربُ الجزائر بمثل واحد أو ببضعة مثل كما فعل ذلك حديثاً أحدُ علماء وصف الإنسان الذي لم يأتِ بغير بحث سطحي عنها.



شكل ٢-٩: متسولان مراكشيان (من صورة فوتوغرافية).

ولم يكن العربي الجزائري غير مُؤكِّدٍ بالحقيقة^{٣٥} ونرى فيه أحطَّ صفات المولدين، وحضريو العرب من سكان مدن الجزائر نتيجة تمازج تلك الأمم، وقد حطتهم سيطرة الأجنبي المتتابة، وأعرابهم متمردون على كل حضارة كأهل البدو في كل قطر، وهم أقل تمازجاً وانحطاطاً من حضريي العرب.

ويُجمع أولئك الحضريون والأعراب على مقت الأوربيين القاهرين لهم وحقدهم الشديد عليهم، ويُضحِّي الجزائري، الذي نصفه بالخلي المتردد المكسَّال القانع الوضيع المتزَيِّد، بهاله ونفسه، ويشترك في كل عصيان وتمرد؛ للخلاص من حكم الأجنبي الذي فتح بلاده، وقد تَتِمَّ إبادة عرب الجزائر بوسائل منتظمة كالتي اتخذها الأمريكيون لإبادة أصحاب الجلود الحُمْر، ولكن الذي أعتقده هو أن الفرنسيَّ لن يستطيع حمل الجزائري على التفرنس، وأن من المتعذر أن يسود السلام في قطرٍ واحد بين العرب والفرنسيين الذين يتنسبون إلى عرقين مختلفين، وقد سمعت هذا الرأي، الذي يُجْتَنَّب تدوينه في الكتب عادةً، من جميع أولي البصائر في الجزائر، وإني أوافق عليه موافقة تامة.

(٥-٥) عرب إسبانية

جميع العرب الذين ذكرناهم آنفاً من الأحياء الذين يصلحون أن نتمثِّلَ بهم أجدادهم مع ما طرأ عليهم من التغير، وغير ذلك أمرُ عرب إسبانية الذين بادوا ولم يتركوا من الذراري من نَتَنُورَ بهم أجدادهم، ونحن مع جهلنا حقيقة مثالهم نراه كان مختلفاً عن مثال العرب السابقين الذين فتحوا إسبانية، فقد تغيَّرَ المثال العربيُّ الأصليُّ بتوالده هو والموالي من النصراني وبربر إفريقية الذين أغاروا على إسبانية، ونتج عن هذا التوالد الذي دام ثمانية قرون عِرْقٌ جديد يختلف مثاله عن مثال الغُزاة الفاتحين اختلافاً محسوساً كما تشهد بذلك

^{٣٥} يرى مسيو كارتز أن عدد العرب المحض في الجزائر مننا ألف من ٢٥٠.٠٠٠ مسلم (عربي وتركي وبربري)، وعنده أن البربر أكثر سكان الجزائر عدداً، ويبلغون نحو مليون وأربعمائة ألف.

السنن الأنثروبولوجية التي بيّناها في بدء هذا الفصل، وتشهد آثار حضارة العرب في إسبانية بسمو ذكاء هذا العرق الجديد المولّد، ويدل تاريخهم على علوّ فروسيته وبسالته، ويثبت صراعُه الأهلي الذي كان عِلَّةَ زواله اتصافَه بسجاياء العرب الأصلية، ونحن، إذ لا نستطيع أن نستدل على عرب إسبانية الذين انقرضوا إلا بدراسة حضارتهم وتاريخهم، نحيلُ القارئ إلى الفصول التي خصصناها للبحث في تلك الحضارة وذلك التاريخ.



شكل ١٠-٢: سقاء مراكشي في طنجة (من صورة فوتوغرافية).

(٥-٦) عرب الصين

أخذ خلفاء العرب وملوك الصين يتبادلون السفراء بعد أن أقام العرب دولتهم، وسترى في مكان آخر من هذا الكتاب أن صلات العرب والصين التجارية كانت منتظمة براً وبحراً.

ولم يلبث الإسلام في الصين، كما في كل بلد دَخَلَه العرب، أن صار له أتباع، ويقدرُ مسيو دابري دوتيرسان عددَ مسلمي الصين بعشرين مليون نفس، وذلك في كتاب نشره حديثاً عن الإسلام في الصين، ويرى هذا المؤلف أن دماء عربية تجري في عروق مسلمي الصين وإن لم يكونوا عرباً حَضَرًا، وأنه يتألف منهم عرقٌ مزيج من العرب والترك والصينيين، ثم يقول: «إن المسلمين في الصين متحدرون من الكتيبة المؤلفة من أربعة آلاف جنديٍّ الذين أمدَّ بهم الخليفةُ أبو جعفر الإمبراطورُ سوتسونغ في سنة ٧٥٥م حين شقَّ أنلوشين العصا، والذين سمح هذا العاهل لهم بالإقامة بأهم مدن الصين مكافأةً لهم على ما قاموا به من الخِدم فتزوجوا صينيَّاتٍ، وكان بهم أصلُ مسلمي الصين.»

وقال ذلك المؤلف، بعد أن استشهد برأي أندرسن الذي يرى أن شرفهم يفوق الوصف، وذلك مع الاستشهاد بملاحظاته الخاصة:

إنهم يتصفون بروح الصدق والشرف على العموم، وإن من يتقلد منهم بعض مناصب الدولة يحترمه الأهلون ويحيُّونه، وإن من يتعاطى التجارة منهم يتمتع بالسمعة الطيبة، وإنهم يؤتون الصدقات كما يأمر الدين، وإن الناظر إليهم يُحِبُّ إليهم أنهم يؤلفون أسرةً كبيرة واحدة يشد بعضها أزرَ بعض.

وإنهم، مع طابعهم الخاص، استطاعوا بفضل نباهتهم وإخائهم الديني وتسامحهم أن يلائموا بيئتهم وأن ينموا ويكثروا، وذلك خلافاً لدعاة الأديان الأجنبية الأخرى الذين أرادوا أن يكون لهم شأنٌ في الصين فلم يتقدموا خطوة حتى الآن.

ونشأ عما فُطِرَ عليه مسلمو الصين من التسامح والروح الحرة واحترامهم عادات الصين وشرائعها ومعتقداتها أن يتمتعوا بما للصينيين من الحقوق، وأن يكون منهم حكامٌ وقواد ومقربون من الإمبراطور.

أسهبت في هذا الفصل في بيان بعض المسائل التي أغفلها المؤرخون مع ما لها من الأهمية الكبرى في إيضاح ارتباط حوادث التاريخ، ونَعُدُّ سجايا العرق الخُلُقِيَّة والذهنية أقوى العوامل في تطور الأمم، فالسجايا الخُلُقِيَّة التي تنتقل بالإرث هي التي تُعَيِّن اتجاه السير، ولا يستطيع أحد أن يتخلص من سلطانها، وعالم الأموال هو الذي يُملي على الأمة اتجاهها.

وفي الماضي تنضج عوامل سَيْرِنَا الحاضر، وفي الحاضر تنضج عوامل سير أبناء المستقبل، والحاضر، وهو عبدُ الماضي، سيدُ المستقبل، فيجب على من يرغب في معرفة المستقبل أن يدرس الحاضر.

الفصل الثالث

العرب قبل ظهور محمد

(١) الوهم في همجية العرب قبل ظهور محمد

رأى الكثيرون أنه لا تاريخ للعرب قبل ظهور محمد، وحجّتهم في ذلك أن العرب قبل ظهور محمد، إذ كانوا مؤلّفين من قبائل متنقلة عاطلة من العنّعات، كانوا من الأجلاف الذين لم تَع ذاكرة الإنسان شيئاً عنهم.

وإلى مثل هذا الرأي ذهب بعض الأذكياء المعاصرين، ومنهم مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير، رينان، الذي قال: «لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذي صار به العرب أمة فاتحة مبدعة، ولم يكن لجزيرة العرب شأنٌ في القرون الأولى من الميلاد حين كانت غارقة

في دياجير ما قبل التاريخ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد». وعندنا أن هذا الرأي فاسدٌ أول وهلة، ولو لم نعلم شيئاً عن ماضي العرب، فإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بغتة على مسرح التاريخ لا يكون هذا إلا نتيجة نُضجٍ بطيء، فلا يتم تطور الأشخاص والأمم والنظم والمعتقدات إلا بالتدريج، ولا تُبلّغ درجة التطور العالية التي تبدو للعيان إلا بعد الصمود في درجات أخرى.

وإذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قلنا إن هذه الحضارة ثمرة ماضٍ طويل، ولا يعني جهلنا لهذا الماضي الطويل عدم وجوده، وتؤدي مباحثُ العلم في الغالب إلى عرض هذا الماضي للناظرين.

ولم يكن أمر حضارة العرب قبل ظهور محمد غير ذلك، وإن عُسّر علينا أن نقول كيف كانت هذه الحضارة، فقد أثبتت الآثار والوثائق التي بأيدينا وجودها، وأنها لم تكن —

على ما يحتمل — دون حضارة الآشوريين وحضارة البابليين اللتين ظهر شأنهما حديثاً بفضل علم الآثار بعد أن كانتا مجهولتين.

ولم ينشأ وهُم الناس في همجية العرب قبل ظهور محمد عن سكوت التاريخ فقط، بل نشأ، أيضاً، عن عدم التفريق بين أهل البدو وأهل الحضرة من العرب. والأعراب، قبل محمد وبعبده، أجلافٌ كأجلاف الأمم الأخرى الذين لم يكن لهم تاريخ ولا حضارة.

وليس الأعرابُ غيرَ فرعٍ من فرعي الأرومة العربية، فيوجد بجانبهم العربُ المتحضرون المقيمون بالمدن والماهرون في أمور الزراعة، ويسهل علينا أن نُثبت وجود حضارة عظيمة لهؤلاء المتحضرين من العرب وإن كنا لا نعرف تفاصيلها.

ولم يكن التاريخ صامتاً إزاء ثقافة العرب القديمة صمته إزاء الحضارات الأخرى التي رفع العلم الحديث عنها التراب، ولو كان التاريخ صامتاً إزاء حضارة العرب لقطعنا، مع ذلك، بوجودها قبل ظهور محمد بزمان طويل، ويكفي لتمثيلها أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد آدابٌ ناضجةٌ ولغةٌ راقية، وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم، فاستطاعوا في أقل من مائة سنة أن يقيموا حضارةً من أنضر الحضارات التي عَرَفَهَا التاريخ.

والحق أن الآداب واللغة من الأمور التي لا تأتي عفواً، وهي تُتخذ دليلاً على ماضي طويل، وينشأ عن اتصال أمةٍ بأرقى الأمم اقتباسها لما عند هذه الأمم الراقية من التمدن إذا كانت أهلاً لذلك.

وقد أثبت العرب أنهم أهل للاقتباس، ولا ريب في أن العرب، الذين استطاعوا في أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة، وبيدعوا حضارة عالية جديدة، من ذوي القرائح التي لا

تتمُّ إلا بتوالي الوراثة، وبثقافةٍ سابقةٍ مستمرة، وبالعرب، لا بأصحاب الجلود الحمر أو الأوسترايين، أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التي ظلت ثمانية قرونٍ مراكزَ للعلوم والآداب والفنون في آسية وأوربة.

أجل، استطاعت أممٌ كثيرةٌ غيرُ العرب أن تهدم دولاً عظيمة، ولكنها لم تقدر مثلهم أن تبذل حضارة؛ لما لم يكن عندها ما عند العرب من ثقافة سابقة كافية، وكل ما قدرت عليه هو أنها استفادت، بعد زمن طويل، من حضارة الأمم التي قهرتها، ومن ذلك أن البرابرة، الذين قوّضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية، قاموا بجهودٍ عظيمة دامت قرونًا كثيرة قبل أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضارة اللاتينية، ويخرجوا من ظلمات القرون الوسطى. ونحن، قبل أن نوضح — بما لدينا من الوثائق والآثار الضئيلة — ما كانت عليه حضارة العرب قبل ظهور محمد، نرى تلخيصَ ما نعرفه عن تاريخهم القديم بما يأتي.

(٢) تاريخ العرب قبل ظهور محمد

للعرب ما قبل تاريخهم مثل ما للأمم الأخرى. أثبت البحث فيما تركه الأجداد في طبقات الأرض من بقايا الأسلحة والأدوات والمساكن أنه وُجد قبل الزمن القصير الذي يبحث التاريخ في حوادثه ملايين السنين التي جهل الإنسان فيها أمر المعادن والزراعة وفنّ ترويض الحيوان، والتي لم يكن له فيها غير الصَّوان سلاحًا، ويسمى ذلك الدور الكبير بالعصر الحجري، وعثر علماء الآثار القديمة في جزيرة العرب وأوربة وأمريكا، وفي كلِّ مكانٍ على آثار لذلك العصر الحجري. ودلّت تلك البقايا التي وُجِدَت في طبقات الأرض على تماثل الأمم في العصر الحجري؛ وبذلك البقايا يسهل تصوير طرق المعيشة والتفكير عند أجدادنا الأقدمين، وقد أفضت في درس هذا الموضوع في كتابي الأخير، فلا أرى الآن فائدة في العودة إليه.

ولا ترجع أقدم روايات جزيرة العرب إلى ما قبل إبراهيم، ولكن علم اللغات يثبت أن
أما ذات لغة واحدة كانت تسكن البقاع الواقعة بين القفقاس وجنوب جزيرة العرب،
وإن لم يكن عرق هذه الأمم واحداً، ودلّ درس اللغات السامية على أن لغات تلك الأمم،
وهي العبرية والفنيقية والسريانية الآشورية والكلدانية والعربية، وثيقة القربى متحدة
الأصل.

ونحن نجعل درجة تأثير البيئات وطرق المعاش في اختلاف تلك الأمم مع اتحاد عرقها
الذي تكلمنا عنه، ولا نستطيع غير تقرير قرابتها من العرب، والعرب وحدهم هم الذين
نبحث الآن في شؤونهم.

ومصادر تاريخ العرب قبل ظهور محمد هي كتب العبريين، وروايات العرب والنصوص
القليلة التي وردت في كتب بعض مؤرخي اليونان واللاتين، وما جاء في الخطوط
الآشورية، وما أسفرت عنه الاكتشافات التي تمّت في موقع الصفا القريب من دمشق.
وتعترف كتب العبريين بقرابة العرب من العبريين، وتعدّ العرب أقدم من العبريين،
وتقصّ علينا الشيء الكثير من أنباء نزاع العرب الدائم، وتكاد تطفح من أخبار العمالة،
ومديانيي جزيرة سيناء، وأهل سبأ الذين كانوا يقيمون بجنوب جزيرة العرب.

ويروي العرب وكتب اليهود مصدر روايتهم، أن قحطان وإسماعيل ابن هاجر، جارية
إبراهيم المصرية، هما والدا العرقين اللذين عمّرا جزيرة العرب في الأصل، أي والدا أهل
الحضر في الجنوب والأعراب في الشمال، ويروون أن بني قحطان أقاموا دولة سبأ والدولة
الحميرية باليمن، وأن بني إسماعيل سكنوا الحجاز القريبة من فلسطين، وأن بني إسماعيل
كانوا أصحاب مكة التي تنازعت هي وصنعاء اليمن عنوان عاصمة جزيرة العرب.

وعلى ذلك يكون الأنباط والأدوميون والموءابيون والعمالقة والعمونيون والمديانيون وغيرهم من القبائل التي تَرَدَّد اسمها كثيرًا في التوراة من بني إسماعيل، ويُظنُّ أن هذه القبائل من العمالقة تحالفوا هم وأعراب سورية، واستولوا على مصر سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وعُرفوا بالرُّعاة ودام سلطائهم قرونًا كثيرة.

وتجمَّع العمالقة والأدوميون والموءابيون والعمونيون في بلاد الحجر العربية (بطرا) وفي جزيرة العرب الصحراوية، وصار من دأبهم محاربة العبريين، وحالوا دون دخول العبريين أرض كنعان زمنًا طويلًا، ولم يتمَّ إخضاعهم نهائيًا، ولوقت قصير، إلا في زمن داود وسليمان.

ولم تُحدَّثنا التوراة عن غير أعراب حدود فلسطين، ولم نخبرنا بشيء عن عرب اليمن المتحضرين خلا ما جاء فيها عن زيارة ملكة سبأ للملك سليمان.

وتحدَّثنا آثارُ الآشوريين عن عرب الشمال فقط، أي عرب سورية وما جاورها، وذكَّر العربُ قبل الميلاد بتسعمائة سنة في بلاغ سلما نصر الثاني، وأدَّت ملكتان عربيتان فروض الطاعة إلى تيغلاتفا نصر قبل الميلاد بنحو ثمانمائة سنة، ورفع أسر حدون أميرة عربية نشأت في بلاد نينوى على أحد العروش، واستعان أخو آشور بانيبال بجيوشٍ عربية عندما رفع راية العصيان.

وعلى ما في تواريخ العرب من غموضٍ ومبالغاتٍ تجعل الاعتماد عليها أمرًا صعبًا نراها وحدَّها قد قصَّت علينا أنباء جزيرة العرب الماضية، وأيدت ما رواه مؤلفو اليونان واللاتين عن عظمة اليمن، ومما جاء في هذه الأنباء العربية أن اليمن كانت مقرًّا لأقوى دول الأرض، وأن حُكم ملوكها دام ثلاثة آلاف سنة، وأنها غزت بلاد الهند والصين من المشرق، وبلغت بغزواتها مراكش من المغرب.

ولا يرجع ما علمناه من مؤلفات اليونان واللاتين من الأنباء الصحيحة عن تاريخ بعض جزيرة العرب إلى ما قبل الإسكندر، ويمكن تلخيصه فيما يأتي: عزم الإسكندر على فتح جزيرة العرب التي كان الأغارقة يعرفون غنى سكانها قبل الميلاد بأربعة قرون، وكانت الغزوة التي قام بها نيارك حول جزيرة العرب نذير تصميم الإسكندر على غزوها، ونجّت جزيرة العرب من غزو الإسكندر بسبب موته، وأضحت البقاع القريبة من حدود مصر وفلسطين، والتي كان العرب يسكنونها، من نصيب بطليموس حين قُسمت دولة الإسكندر، وشايح الأنباط بطليموس على أنتيغون الذي فتح أحد قُواده الماهرين بلاد الحجر (بطرا) بغتةً بعد أن أصبح سيد سورية وفنيقية، وأباد الأنباط بعدئذٍ جيش أنتيغون المؤلّف من ٤٦٠٠ جندي فساق إليهم جيشاً آخر بقيادة ابنه ديميتريوس، وخاطب عرب بلاد الحجر (بطرا) — كما روى ديودرس الصقليّ — الأمير ديميتريوس عند بلوغه

ديارهم بما يأتي: «لماذا تحاربنا أيها الملك ديميتريوس، ونحن من سكان الصحاري التي لا تُسدُّ فيها خَلَّةٌ، ترانا نقطن في هذه البقاع القاحلة فرارًا من العبودية، اقبل هديتنا وارجع إلى حيث كنت، سنكون من أوفى الأصدقاء لك، ولكنك إذا رغبت في حصرنا حُرمت كل هناة، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل طرق حياتنا التي تعودناها منذ نعومة أظفارنا، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد واحدًا ممن أسرت يستطيع أن



يألف حياة غير التي أَلِفناها.»

شكل ٣-١: أعراب من بادية الشام (من صورة فوتوغرافية).

هنالك رأى ديميتريوس أن يقبل هدية الأنباط، وأن يرضى بالمآب خاتماً بالسلم حرباً أبصرها مملوءة بالمصاعب.

وكانت قبائل البدو، حتى التاريخ الميلادي، تنضم في الحروب الكثيرة، التي تهلك الحرث والنسل في تلك البقاع، إلى المصريين تارة وإلى السوريين تارة أخرى، ثم أثارت غاراتهم وقطعهم للسوابل غضب قياصرة الرومان الذين كان سلطانهم يمتد إلى الفرات، فجردوا على عرب بلاد الحِجر (بطرا) حملات كثيرة لم تُنتِج غير حملهم على دفع الجزية أو وقف العداء إلى حين، وكانت طريقة أولئك الأعراب في الغزو مثل ما يفعلون اليوم، أي كانوا يُغيرون على العدو بغتة ثم يفرّون إلى البادية عند المطاردة.

وإذ كانت خيالات الأغارقة والرومان تتأجج طمعًا في ثروة جزيرة العرب ساق أغسطس إلى اليمن جيشًا لم يلاق غير الحبوط التام، وفي عهد طيباريوس وحده استطاع الرومان أن يفتحوا من بلاد العرب جزيرة سيناء التي كان سكانها من الأعراب تقريبًا، فأضحت مدينة الحِجر (بطرا) بذلك بلدة رومانية زاهية كما تدل عليه بقاياها.

وكان للعرب أثر في الحروب التي تقع بين الرومان والفرس، وبلغ نفوذ العرب في الدولة الرومانية شأوا بعيدًا، حتى إن أحدهم فليب العربي نُصب قيصرًا رومانيًا في سنة ٢٤٤م، وكان العرب يهددون سلامة آسية الصغرى ذات حين، ولم يُقَصَّ العرب عن مجاورة آسية الصغرى إلا بهدم تدمر في عهد أوريليانوس سنة ٢٧٢م، وتحويل سورية إلى ولاية رومانية، واتباع بعض سكانها ملوك الغساسنة العرب الذين كانوا تحت حماية القياصرة.

ولما صارت القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية نازع العرب الفرس والأغارقة سيادة الفرات، وسبق ذلك أن توطنت قبائل من عرب اليمن تلك البقاع وأنشأت، سنة ١٩٥م، في جنوبها، وعلى ضفتي الفرات وبالقرب من المكان الذي أقيمت عليه مدينة الكوفة فيما بعد، مدينة الحيرة الشهيرة التي انقلب ملوكها العرب ينافسون أكاسرة الفرس وقياصرة الروم في الترف والعظمة، «وكانت قصور الحيرة مؤثثة بأثمن الأثاث، وكانت حدائقها

مكسوة بأعزّ الأزهار، وكانت قواربها الأنيقة الساطعة الأنوار تشقّ الفرات ليلاً حاملةً أغنى الأمراء وأمهر الموسيقيين، وأطلق العرب لأنفسهم عُننَ الخيال؛ فقصّوا علينا أنباء القصور الساحرة العجيبة التي أضحت، لا ريب، أجملَ مساكن الشرق وأطيبها.»

وعاشت دولة الحيرة أربعمئة سنة، أي مدّة تُعدّ طويلة لدولة، ولم ينته إلينا من أنبائها إلا الشيء القليل، وخضعت في سنة ٦٠٥م للدولة الساسانية، وظلت مرزبةً فارسيةً إلى أن جاء محمدٌ بعد قليلٍ زمن، ودكّ خلفاؤه دولة الأكاسرة، واستولوا على بلاد فارس.

ظهر مما تقدم أن جزيرة العرب نجت من غزو الأجنبي خلا ما أصاب حدودها الشمالية، وأن عظماء الفاتحين من مصريين وأغارقة ورومان وفرس وغيرهم ممن انتهبوا العالم لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب التي أوّصت دونهم أبوابها.

نعم، إن جزيرة العرب كانت حين ظهور محمد تحت خطر الغزو الأجنبيّ المرهوب، وإن الأحباش استولوا في سنة ٥٢٥م على اليمن التي لم تدنْ لغير ملوك العرب فيما مضى، وإن الأحباش حاولوا أن يحملوا العرب على التنصّر؛ فاستطاعوا تنصير بعض القبائل العربية، وإن الفرس طردوا الأحباش من اليمن في سنة ٥٩٧م، أي قبل ظهور محمد بقليل؛ فأضحى للفرس مَرَاذِبُهُ في اليمن وحضرموت وعمّان، غير أن ذلك كله كان لأجل قصير، ولم يُصِبْ بلاد نجد والحجاز الواسعة منه شيءٌ.

إذن، من الصواب قولنا: إن القسم الأكبر من جزيرة العرب هو القسم الوحيد الذي لم تطأه أرجل الفاتحين من بلاد العالم المتمدن على ما يحتمل.

(٣) حضارة جزيرة العرب قبل ظهور محمد

يقصّ علينا بنو إسرائيل بعض الأخبار عن تجارة العرب ومدنهم، ولا سيما مدينة سبأ في اليمن، ولكن قصصهم خالية من الأسانيد، وإن دلت على وجود مدن عربية عظيمة في أقدم العصور.

ووصف هيرودتس، قبل المسيح بنحو أربعمئة سنة، بلاد العرب السعيدة بأنها من أغنى بقاع العالم، وأنه كان في مأرب، أو سبأ التي ورد ذكرها في التوراة، قصورٌ نَضرة ذاتُ أبواب عسجدية، وآنية من ذهب وفضة، وسُرر من المعادن الثمينة.

ولم يروِ إسترابون غير ما رواه هيرودتس، واستند إسترابون في روايته عن مدينة مأرب إلى أرتيميدور، وقال: «إن قصورها ذاتُ سقف مزخرفة بالذهب والعاج والحجارة الثمينة، وذات أثاث فاخر وآنية منقوشة»، ورأى إراتوستين أن بيوتها تشابه بيوت مصر في مجموعها.

وهناك مطابقة بين ما رواه قدماء المؤلفين وما جاء في تواريخ العرب التي أجمعت على امتداح غنى اليمن، واسمع ما قاله المسعودي حين تكلم عن مأرب:

ذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن، وأثرها وأغدقها، وأكثرها جناناً وغيطاناً، وأفسحها مروجاً، بين بُنيان وجسر مقيم، وشجرٍ موصوف، ومساكب للماء متكاثفة، وأنهارٍ متفرقة، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجتد على هذه الحال وفي العرض مثل ذلك، وأن الراكب أو المارّ كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا يرى جهة الشمس، ولا يفارقه الظل؛ لاستتار الأرض بالعمارة والشجر، واستيلائها عليها، وإحاطتها بها، فكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه وأهنأ حال وأرغده، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء، وصفاء الفضاء، وتدفق المياه، وقوة الشوكة، واجتماع الكلمة، ونهاية المملكة، فكانت بلادهم في الأرض مثلاً، وكانوا على

طريق حسن من اتباع شريف الأخلاق وطلب الفضائل على القاعد والمسافر بحسب الإمكان، وما توجده القدرة من الحال، فمضوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار لا يعاندهم ملكٌ إلا قَصَمُوهُ، ولا يوافيهم جبار في جيش، فذلّت لهم البلاد، وأذعن لطاعتهم العبادُ؛ فصاروا تاج الأرض.

ويظهر أن أسداد مأرب كانت سبب ثراء بلاد اليمن، والأسداد جدرانٌ ثخينة قائمة في عرض الأودية لحجز السيول، حتى إذا امتلأ ما بينها تكوّنت بحيرةٌ واسعة ذات منافذ تجري منها المياه لريّ الأراضي، ويروي مؤرخو العرب أن الملكة بلقيس التي زارت سليمان، على زعمهم، هي التي أنشأت تلك الأسداد، ونشأ عن خراب أسداد مأرب في القرن الأول من الميلاد فقر بلاد اليمن وتفرّق سكانها.

ويكفي تطابق تلك الروايات لإثبات مماثلة مدن اليمن في نضارتها لمدن مصر وتقدّمها الكبير في ميدان الحضارة، ولا تزال بقاياها مطمورةً تحت التراب، وهي تنتظر البَحَاثَة الذي يزيله عنها كما أزيل عن نينوى وبابل.

ومن الأدلة على ازدهار مدن اليمن في القرون القديمة ما كان لها من الصلات التجارية الواسعة بالبلاد الأخرى، وبما أن من الصعب أن نعثر في التاريخ على أمة ذات شأن كبير في التجارة من غير أن تكون متمدنة، وبما أن علاقات العرب التجارية العالمية استمرت ألفي سنة، وقد ورد ذكرها في التوراة، فإننا نقول: إن العرب ضربوا بسهمٍ وافرٍ في ميدان الحضارة، وإنه كان لمخازنهم من الأهمية ما لمخازن البندقية في إبان عظمتها.

وكان العرب واسطة بين قدماء الأوربيين وبقاع الشرق القاصية، ولم تقتصر تجارة العرب على منتجات بلادهم، بل كانت تشمل السلع التي كانوا يجلبونها من إفريقية والهند أيضًا،

وكانت النفائس، كالعاج والعطور والأفاويه والحجارة الكريمة والتبر والأرقاء... إلخ، أهم ما يتاجر به العرب.

واستعان العرب بالفنيقيين، القرييين منهم لغة، زمنًا طويلًا لبيع سلعهم، وكان الفنيقيون يخرُّون سلع العرب في مدنهم الكبيرة كمدينة صور، ثم يبعثون بها إلى الخارج لبيعها. وكان العرب والبابليون يتنافسون في الاتجار مع الهند، وكان البابليون يصلون إلى الهند بطريق البر أو بطريق البحر من خليج فارس، وكانت قوافل البابليين تنقل السلع إلى سورية؛ لتوزعها على العالم، مارة في طريقها إلى دمشق من تدمر وهليوپوليس (بعلبك) المهمتين اللتين لا تزال بقاياهما الماثلة في الصحراء تثير عجب السياح.

فبمثل تلك العلاقات التجارية التي دامت مئات السنين نتصور ما كانت عليه مدن جزيرة العرب، ولا سيما مدن اليمن النُصرة التي اغتنت بالتجارة وألفت أطيب النفائس، وندرك سرَّ إجماع مؤلفي اليونان واللاتين والعرب على امتداح ازدهار تلك المدن العجيب. ولم يسطع نجم حضارة العرب قبل محمد في اليمن وحدها، فما جاء في أقدم روايات التاريخ عن حضارة الحيرة والغساسنة يثبت، أيضًا، درجة استعداد أتباع محمد للقيام برسالتهم في عالم المدنية.

وقد تحدثنا عن الحيرة التي مجدها العرب، وقلنا إنها كانت تنافس القسطنطينية وعاصمة الفرس، ولم تقل عنها أهمية مملكة غسان التي أسسها عرب اليمن بعد ظهور المسيح بزمان قليل، والتي دام سلطانها نحو خمسمائة سنة، واشتملت على ستين مدينة محصنة كما جاء في كتب التاريخ.

وظهرت عظمه حضارة مملكة غسان من حل الكتابات الحميرية المنقوشة على آثارها التي اكتشفت بالقرب من عاصمتها القديمة بُصْرَى الواقعة على حدود سورية، ومن بقايا قنواتها التي تشهد بما كان عند سكانها من الاستعداد الكبير للقيام بالأعمال العظيمة. وإذ كان عرب الحيرة وغسان متصلين بالفرس والرومان كان تأثير هؤلاء في حضارة أولئك كبيراً، وغير ذلك أمر حضارة اليمن العربية التي هي أقدم من حضارة الرومان، والتي يجب أن يُبحث فيها عن بقايا حضارة العرب القديمة، والتي نأسف على بقائها بعيدة من يد البحث والتنقيب حتى الآن، فيظلّ اطلاعنا على أمر مدن اليمن القديمة ناقصاً نقصان اطلاعنا السابق على آثار الآشوريين التي كانت مطمورة تحت رمال الصحراء.

وتدلّ جميع الدلائل على أن كل تنقيب في بلاد اليمن يأتي بأحسن النتائج، فقد حَدَّث مسيو هاليفي، الذي جاب بلاد اليمن منذ بضع سنين، ولم يسطع أن يقوم بأي حفر كان، أن العرب يعثرون أحياناً على تُحف ذهبية وفضية بين خرائب اليمن، وأنه وُجِدَ بجوار الحرم غير البعيد من صنعاء مسلات ذات كتابات كثيرة، وأنه اكتشف بابٌ معبدٍ حميري منقوشة على حجارتها صور حيوانات ونباتات.

واشترى مسيو شلونبرجر في القسطنطينية حديثاً منّي قطعة من نقود ملوك اليمن التي اكتشفها عربيٌّ في صنعاء فترجع في قَدَمها إلى ما قبل الميلاد، ولهذه النقود، التي لم يُوجد منها قبل ذلك سوى قطعتين أو ثلاث قطع في جميع المتاحف الأوروبية، أهمية خاصة، فعلى أحد وجهيها صورةٌ جانبية لملك مُتَوَجٍّ يذُكّرنا شعره المصفور بصفائر ملوك الرعاة الذين خرجوا من بلاد العرب وملكوا مصر زمناً طويلاً، والذين اكتشف مسيو ماريت بعض تماثيلهم المعروضة اليوم في متحف بولاق، وعلى الوجه الآخر صورة بومة، ويظهر أن

رسّام تلك النقود اقتبس رسومها من النقود الإغريقية التي كانت تتداولها أمم البحر المتوسط ذات العلاقات التجارية الكثيرة بالعرب.

ومهما تكن الآثار التي ألمعنا إليها أنفًا ناقصة فإنها مما تتمُّ به روايات قدماء المؤلفين، ومما نُبصر من خلاله ازدهار حضارة العرب الغابرة التي نسيها الناس في الوقت الحاضر فتتظر من يكشف الغطاء عنها، والتي نرتدع، بما نعرف عنها من العلم القليل، عن عدِّ العرب همجًا، والعرب هؤلاء قد ظهرُوا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة، وأنشأُوا المدن العظيمة، وكانت علاقاتهم بأرقى شعوب الأرض وثيقة.

(٤) أديان جزيرة العرب القديمة

كانت عبادات القبائل العربية قبل ظهور محمد كثيرة إلى الغاية، وكانت عبادة الشمس وأهم النجوم أكثرها انتشارًا، وأخذت القبائل العربية عن الأمم التي كانت تتصل بها



كثيرًا من آلهتها، فكان زوئها^{٣٦} جامعًا لشتى الأصنام كالألننيا الإغريقية الرومانية.

^{٣٦} الزون: الموضع تجمع فيه الأصنام.

شكل ٣-٢: أعرابيات من بادية الشام (من صورة فوتوغرافية).

وتدل كتابات الآشوريين التي رُسمت قبل ظهور المسيح بسبعمئة سنة أو ثمانمائة سنة، وما اكتُشف في الصفا، على أن العرب كانوا مشركين، وأنهم كانوا يقيمون لألهتهم تماثيل، وإليك، مثلاً، ما جاء في إحدى الكتابات الآشورية التي تشير إلى عودة أسِرْحَدُون من غزوه لجزيرة العرب الصحراوية:

أتى الملك العربيُّ فلانٌ إلى عاصمتي نينوى ومعه هدايا كثيرة، وقبّل قدمي طالباً أن أعيد إليه تماثيل آلهته، فرق له قلبي، وأعدتها إليه بعد أن أمرت بإصلاحها ونقش تمجيد ربي آشور عليها وتوقيعها، وجعلتُ الأميرة العربية طَبَّوَة التي نشأت في بلاطي ملكةً، وأعدتها إلى بلادها مع آلهتها.

ووجد في ثنايا تلك العبادات المختلفة بذور توحيد مما تعهّد محمد إناءه فيها بعد، وقد بنى إبراهيم الكعبة في جزيرة العرب كما روى العرب، وجعل العرب منها موضع تكريم وحج منذ القديم، وكان فيها حين ظهور محمد ٣٦٠ صنماً وصورة، وكانت صورة المسيح ومريم العذراء من هذه الصور — كما جاء في تواريخ العرب — وكان من دواعي الفخر عند العرب تزيين الكعبة التي كان اليهود شديدي التعظيم لها أيضاً، وكانت سدانتها بيد



قبيلة قريش التي نالت بذلك نوعاً من السيادة الدينية بين العرب.

شكل ٣-٣: جبالان من بلاد الحجر العربية (بطرا).

ووجد بين العرب، فضلاً عن النصارى واليهود الذين لم يكن عددهم قليلاً في جزيرة العرب، من يعبدون إلهًا واحدًا، وُسْمِي هؤلاء بالحنفاء، وكان محمد يحب هذا الاسم، وليست عقيدة التوحيد، التي هي من أهم مبادئ القرآن، كل ما عند الحنفاء، بل قالوا أيضًا، كما قال القرآن فيما بعد، إن على الإنسان أن يُسَلِّمَ بقضاء الله وقدره تسليم إبراهيم حينما رأى ذبح ابنه إسحق، ولذا لم يكن من الخطأ إخبار محمد في القرآن بوجود مسلمين قبل ظهوره.

ونشأ عن وَحْدَةِ لغة العرب وحشر آلهتهم في الكعبة إمكانُ صهر عبادات هذه الآلهة وتحويلها إلى عبادة إله واحد، ومما يسر هذا الصهر تكلُّمُ عَبَادِ هذه الآلهة الكثيرة بلغة واحدة.

والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حَلَّ، وهذا ما عَرَفَهُ محمد، وفي الوجه الذي عرفه فيه سر قوته، وهو الذي لم يفكر قط في إقامة دين جديد خلافًا لما يقال أحيانًا، وهو الذي أنبأ الناس بأن الإله الواحد هو إله باني الكعبة، أي إله إبراهيم الذي كان العرب يُجَلُّونه ويُعَظِّمونه.

وعلائمُ اتجاه العرب أيام ظهور محمد إلى الوَحْدَةِ السياسية والدينية كثيرة، وما حدث من الثورة على الأوثان في عهد قياصرة الرومان حدث مثله في جزيرة العرب حيث ضَعُفَت المعتقدات القديمة، وفقدت الأصنام نفوذها، ودبَّ الهرم في آلهتها، والآلهة مما يجب ألا يهرَمَ.

الباب الثاني: مصادر قوة العرب

الفصل الأول

محمد: نشوء الدولة العربية

(١) فتوة محمد

وُلِدَ محمد في مكة في اليوم السابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠م، وكان أبوه عبد الله، الذي تُوِّفِّي قبل ميلاده بشهرين، ابن قطب من أقطاب الكعبة الشهيرة، وكانت أمه آمنة بنت زعيم إحدى القبائل.

ورأى العرب أن يقرنوا ميلاد زعيمهم الأعظم بالآيات، فرَوَوْا أن العالم اهتزّ لولادته، وأن نار المجوس المقدسة خَبَتْ، وأن شياطين الشرّ دُحِرَتْ من أعلى الشُّهْب، وأنه تصدع من أبراج إيوان كسرى «ملك الملوك» أربعة عشر برجًا إيدانًا بقرب انهيار دولة الفرس العظمى.

ورَضَعَ محمدُ أمَّهُ في البداية، ثم دفعت به إلى قبيلة في البادية وفق عادةٍ لا تزال تُصادَف حتى اليوم، فلما بلغ الثالثة من سنه، ورأى أبواه من الرضاعة ما رأيا من الخوارق التي كانت تلازمه، على زعم كتب السيرة، خافا مغبة الأمر، ولم يريدوا بقاءه عندهما. ولم تلبث أمُّه أن ماتت وهو صبيٌّ تاركةً أمر رعايته لجده عبد المطلب، فغالى جدُّه هذا في الاهتمام به.

ولكن ملائكة الرحمة، التي أرادت مُضِيَّ محمد قُدُمًا، صَبَّت عليه، وهو صغير، أنواع المصائب التي يُصاب بها الإنسان عادةً درجةً درجةً، فقد مات جده بعد وفاة آمنة بستين، وكَفَّلَه عمه التاجر الذي كان يسافر، ولم يجد محمد له غير نفسه حاميًا بعد قليل.

وتقول القصة إن محمدًا سافر مع عمه إلى سورية مرةً، وتعرّف في بُصرى براهب نسطوري في دير نصراني، وتلقى منه علم التوراة.

ولما بلغ محمد العشرين من عمره اشترك في حربٍ بين قريش وقبيلة أخرى، فأظهر فيها، كما قيل بصيغة التأكيد، براعة حربية تجلّت فيه بعد زمن.
ونال محمد شهرةً فائقة، وعُرفَ برفقه وصدقه، فلقبته قريش بالأمين.



شكل ١-١: منظر المدينة (من صورة فوتوغرافية).

وإذا أضيف إلى شهرته حُسن صحّته عَلِمْنَا السر في عطف خديجة، التي كانت أرملة غنيّ، عليه وتفويضها أمور تجارتها إليه، وتهيأ له السفر إلى سورية بذلك، والاجتماع مرة ثانية بالراهب الذي أطلعه على علم التوراة سابقًا، وتزوج بعد رجوعه من سورية، وكان عمره خمسًا وعشرين سنة، خديجة الأيّم المثرية البالغة من العمر أربعين سنة، وخديجة هي أولى زوجاته، ولم يتزوج امرأة أخرى في حياتها.

ولم يخبرنا التاريخ عن سيرة محمد في السنين الخمس عشرة التي انقضت بعد زواجه بخديجة، ويُفترَض، وإن لم يُقَمِّ دليل على ذلك، أنه كان يفكر في أنثائها في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه، ولم يَبْدُ منه في تلك السنين أي نفور من عبادات العرب مع ذلك، كما أنه لم يقع فيها ما يدلُّ على تفكيره في قلب تلك العبادات رأسًا على عقب.

(٢) رسالة محمد

لم يتكلم محمد عن بعثته إلا بعد بلوغه الأربعين من عمره، فبعد أن كان قائماً يتحنث^{٣٧} على جبل حِراء، الذي يبعد ثلاثة أميال من مكة، مثل ما كان يفعل في كل سنة، جاء خديجة ممتقاً وأخبرها، كما روى مؤرخو العرب، بأنه بينما كان تائهاً في الجبل إذ سمع جبريل يقرع أذنيه بقوله: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ يا محمد! أنت رسول الله وأنا جبريل»، كما أخبرها بأن هذا كلامٌ إلهي، وبأنه يشعر في نفسه بقوة نبوية.

ولم تتردد المرأة المطيعة، خديجة، في تصديق بعثة زوجها النبوية، وانطلقت إلى ابن عمها ورقة، وكان على جانب من العلم، وقصّت عليه ما سمعت، فقال: «قدّوس»، والذي نفس ورقة بيده لئن صدّقْتَنِي يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران، وإنه لنبيُّ هذه الأمة.

ورجعت خديجة إلى محمد، وأخبرته بقول ورقة، واطمأنت نفسه، فطاف بالكعبة سبع مرات، ثم انصرف إلى منزله، ثم تواتر الوحي عليه كما ذكر أبو الفداء.

ولم يُنذِر محمد، في السنين الثلاث الأولى من بعثته، غير عشيرته الأقربين الذين كانوا، على العموم، من ذوي النفوذ والوجاهة بسبب مقامهم وأعمالهم، فلما اطمأنَّ إلى جوارهم جَهَرَ بدعوته، وأخذ يحمل على الإشراك الذي كان مركزه في بيت آلهة جزيرة العرب المقدس، الكعبة، كما ذكرنا ذلك.

ولم يُكتب له التوفيق في بدء الأمر، وكان الناس يسخرون منه، ولكن سخرية سدنة الكعبة، قريش، لم تلبث أن انقلبت إلى غضبٍ على محمد، وتهديد له ولمن والا به بالقتل.

^{٣٧} يتحنث: يتعبد.

ولم يَقُلْ ذلك من عزم محمد، وقد قال، كما ذكر أبو الفداء: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر.»

هنالك فَكَّرَتْ قريش في اضطهاد محمد، ولم يمنعها من القضاء عليه غيرُ ما تعودته الأسر العربية من إجارة أبنائها، وما كانت تراه من تعريض قريش لآثار عشيرة محمدِ الأقربين الكثيرين.

ولذلك أمكن محمدًا أن يواصل دعوته، وأن يزيد عددَ أصحابه من غير أن يصيبه أذى كبير، ثم هاجر هؤلاء الأصحاب إلى الحبشة، لِمَا لم يلاقوا من جَوَارٍ كما لاقى محمد. وروى مؤرخو العرب أن ملك الحبشة سأل هؤلاء المهاجرين عن دينهم الجديد، فأجابه جعفر ابنُ عم محمدٍ بما يأتي:

كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نَعْرِفُ نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدَّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حُرِّم علينا وأحللنا ما أُحِلَّ لنا.

وكان محمد يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسعة الصدر، وكان في كل يوم يجتذب أصحابًا آخرين ببلاغته، والتجأ محمد إلى عمه أبي طالب ذي الجاه الكبير راغبًا في السلامة.

ومضت عشر سنين ومحمدٌ لم يفترُ ثانيةً عن الدعوة إلى دينه، فلما بلغ الخمسين من عمره أصيب بمصيبتين كبيرتين: وفاة عمه أبي طالب الذي كان يحميه، ووفاة زوجته خديجة التي كان أقرباؤها من الأعيان النافذين.

وترك النبي مكة حين أضحى غيرَ قادرٍ على مقاومة أعدائه، وذهب إلى الطائف القريبة، ودافع أمام أهلها عن صدق بعثته، ولم يصغوا إليه، فاضطرَّ إلى العودة.

ولم يلبث الأمر أن تبدَّل، ولم يلبث الزمن أن تبسَّم لمحمد بعد عبوس، فقد اغتنم محمد موسم الحج، ودعا إلى دينه أناسًا من اليمن كانوا ينظرون إلى مكة بعين الغيرة، وكانوا ينتظرون، كما شاع بينهم، ظهور نبيٍّ، وقد استهواهم حديثُ النبي، واعتقدوا أنه هو النبي المنتظر، وقد حدَّثوا بذلك أهل يثرب التي كانت تأكلها الغيرة من مكة أيضًا، وقد جاءه من هؤلاء رجالٌ كثيرٌ؛ ليستمعوا إلى دينه البسيط الواضح، فلم يطلب منهم غير الإيذان بإله واحد وبالأخرة حيث يجازى الأشرار ويكافأ الأبرار، وغير إطاعة أمر الله، والصلاة صباح مساء مع الطهارة بالوضوء والتحليَّ بجميع الفضائل، والإقرار بأن محمدًا رسول الله وإطاعته، وقد أخذ هذا الدينُ بمجامع قلوبهم؛ فأمنوا به وصدَّقوه وبايعوه، ثم انصرفوا للدعوة إلى دينه.

ولما علمت قريش ما أصاب محمد من النجاح غضبوا وسخطوا، وهم الذين لم يستطيعوا أن يُغضُّوا على دين جديد قد يضرُّ بمصالحهم، فأتمروا بمحمد ليقتلوه.

ولم يعلم محمد بالأمر إلا بعد أن حاصر المؤتمرون منزله، واستطاع محمد، مع ذلك أن يتسلل ليلاً من بين المؤتمرين، وأن يتفلَّت من مطاردة قريش له، وأن يصل هو وصديقه أبو بكر إلى يثرب التي سُميت بالمدينة بعدئذ.

وكانت هذه الهجرة في سنة ٦٢٢ م، واتخذها العرب مبدأً لتاريخهم.

(٣) محمد بعد الهجرة

دخل محمد المدينة دخول الظافرين، وأظل أصحابه رأسه بسُعُوف النخل، وصارت الجموع تترمي على قدميه.

وشرع محمد، منذ وصوله إلى المدينة، ينظم شؤون دينه، وأخذ القرآن، الذي كان في دور التكوين، يكتمل بفضل تواتر نزول الوحي على محمد في جميع الأحوال الصعبة خلا مبادئه الأساسية التي كانت قد عُرِضَتْ.

ووضعت شعائر الإسلام بالتعاقب، فسُنَّ الأذان لدعوة المؤمنين إلى الصلوات الخمس، وفُرض صوم شهر رمضان، أي الامتناع عن الطعام من الفجر إلى غروب الشمس شهراً كاملاً، وفُرضت الزكاة التي يُعين المسلم بها الدين الذي أُقيم.

وصار محمد، بعد وصوله إلى المدينة، يقود الغزوات بنفسه، أو بواسطة أحد أصحابه، وغزوة بدر التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة هي أولى الغزوات المهمة؛ ففيها هُزم جنود محمد، الذين لم يزيدوا على ٣١٤ مقاتلاً، والذين لم يكن بينهم سوى ثلاثة فرسان، أعداءهم الذين كانوا ألفي مقاتل، فكانت هزيمة أعداء النبي التامة في بدر فاتحة شهرته الحربية.

وتوالت الوقائع بين محمد وجيرانه، وكانت كل مصيبة تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب، وكان يبدو رابط الجأش إذا ما هُزم، ومعتدلاً إذا ما نُصر، وهو لم يقسُ على أعدائه إلا مرة واحدة حين أمر بأن تُضرب رقابُ سبعائة معتقل يهوديٍّ خانوه.

وعظم شأن محمد في عدة سنين، وأصبح لا بد له من فتح مكة حتى يُعمَّ نفوذه، ورأى أن يفاوض قبل امتشاق الحسام وصولاً إلى هذا الغرض، فجاء إلى هذا البلد المقدس ومعه ١٤٠٠ من أصحابه، ولم يُكتب له دخوله، وقد دُهِش رسل قريش من تعظيم أصحابه له،

فقال أحدهم: «إني جئت كسرى وقصر في ملكهما فوالله ما رأيت مَلِكًا في قومه مثل محمد في أصحابه...»

ورأى محمد بعد ذلك الإخفاق أن يُرَوِّح أصحابه، فخَفَّ بهم إلى مدينة خيبر المحصَّنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي، والبعيدة منها مَسِيرَة خمسة أيام، والتي كانت تقطن فيها قبائل يهودية، والتي كانت مقرَّ تجارة اليهود، ففتحتها عَنوةً، وشعر محمدُ بدنو أجله بعد خيبر، وذلك أن زينب اليهودية أهدت إليه شاةً مسمومةً، فأخذ منها قطعة ولاكها، ثم لفظها بعد أن ذاق طعمًا غريبًا فيها، وقال: «تخبرني هذه الشاةُ أنها مسمومة»، ثم دعا بزینب الإسرائيلية فاعترفت اعترافًا دقيقًا، ونجت من العقاب حين قالت: «لقد بَلَّغَتْ من قومي ما لم يخفَ عليك، فقلتُ: إن كان مَلِكًا استرحْتُ منه، وإن كان نبيًّا فسيُخَبَرُ»، ولم تزل أكلهُ خيبر تعاوده مع حماية الله له، فتوفي بتأثيرها بعد ثلاث سنين كما روى المؤرخون.



شكل ١-٢: خيم حجاج بالقرب من المدينة (من صورة فوتوغرافية).

ولما أحسَّ محمدٌ نموَّ سلطانه عَزَمَ على فتح مكة، وألَّفَ جيشًا من عشرة آلاف محارب، أي ألف جيشًا لم يسبق أن جمع مثله، وبلغ محمد أسوار مكة، وفتحها به من غير قتال، وذلك بقوة ما تم له من النفوذ.

وعامل محمدٌ قريشًا، الذين ظلوا أعداءً أشداءً له عشرين سنة، بلطف وحلم، وأنقذهم من سَورة أصحابه بمشقةٍ، مكتفياً بمسحِ صُور الكعبة وتطهيرها من الأصنام (ال ٣٦٠) التي أمرَ بكبِّها على وجوهها وظهورها، وبجعل الكعبة معبدًا إسلاميًا، وما انفكَّ هذا المعبد يكون بيت الإسلام.

ودخل أكثر القبائل المجاورة في الدين الإسلامي على أثر فتح مكة، وحاولت بعضُ القبائل أن تقاوم، فهُزمت شر هزيمة.

وهناك بلغ محمد أوج مجده، فعزم على غزو سورية التي كان يعتقد أن أصحابها الروم يهددون حدوده.

واستطاع محمد أن يجمع جيشًا مؤلفًا من ثلاثين ألف مقاتل، ووُجد عشرة آلاف فارس بين هؤلاء المقاتلين، ولما وصل إلى تبوك الواقعة في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق عَلِم أن الروم أقلعوا عن غرضهم، فلم يتابع سَيْرَه، ولم يُحْلُ زحفه هذا من فائدة، إذ نَتَج عنه أن خضع للنبي أمراء البلاد العربية المجاورة لمصر وسورية.

ورغب محمد في زيادة نفوذه حتى قبل فتح مكة، فأرسل كُتُبًا إلى جميع الجهات، وإلى أقوى ملوك الأرض أيضًا، يدعو فيها إلى الإسلام، وساق إلى ملك غسان الذي كان من عُمَل الروم جيشًا صغيرًا لم يُكْتَب له غيرُ الفرار، وكانت هذه الغزوة، وهي الوحيدة التي وقعت خارجَ جزيرة العرب في أثناء حياته، ذات نفع، فلم يلبث العرب الذين وُكِّل إليهم أمر حفظ الحدود أن انحازوا إلى النبي حين أخر هرقل عنهم رواتبهم.

ولم تُثْمِر كتب محمد إلى الملوك، وقد قَصَّ التاريخ علينا أن رسولَ محمدٍ وصل إلى كسرى حين كان السفراء يُمضون معاهدة السِّلْم بين كسرى وهرقل، وأنه عندما أُلْقِيَ كتاب محمد إلى كسرى، ورأى فيه اسم محمد قبل اسمه ووَجَد، وهو ملكُ الملوك، أن هذا يتضمن أفضليةَ محمدٍ عليه — وَفَّق رأي الشرقيين — مَزَّق الكتاب غاضبًا قبل أن يقرأه، وداسه تحت قدميه، وقال: «يكاتبني بهذا وهو عبدي»، وأن النبي لما بلغه ذلك قال: «مَزَّق الله مُلكه كما مَزَّق كتابي».

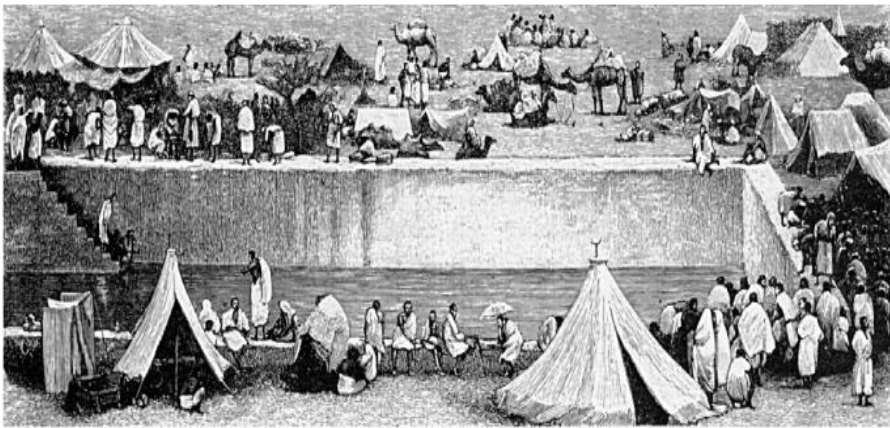
وقد قُبِلت دعوة النبي، فمَزَّق خلفاؤه ملك كسرى كُلَّ مُمَزَّق من فورهم.

ولم يكتفِ كسرى بتمزيق كتاب محمد، بل بعث إلى عامله باليمن: «أن ابعث إليّ هذا الرجل الذي يزعم في الحجاز أنه نبيّ»، ولكن ابن كسرى قتل أباه هذا قبل أن يقوم عامل اليمن بتنفيذ ذلك الأمر الصعب.

ومضى على الهجرة عشر سنين، فخرج النبي حاجاً إلى مكة، وكان هذا آخر حج قام به، قال أبو الفداء: «ثم رجع إلى المدينة، وبدأ به مرضه وهو في بيت زينب بنت جحش، وكان يدور على نسائه حتى اشتدّ مرضه وهو في بيت ميمونة بنت الحارث، فجمع نساءه واستأذنهن في أن يُمرّض في بيت إحداهن، فأذنّ له في أن يُمرض في بيت عائشة، فانتقل إليه.»

وشعر محمد بدنو أجله، وأراد أن يودّع قومه فجمعهم وشكر الله توفيقه لإكمال رسالته، ثم قال: «أيها الناس من كنتُ جَلَدْتُ له ظهرًا فهذا ظهري فليستَقِدْ مني، ومن كنت شتمْتُ له عِرْضًا فهذا عِرْضي فليستَقِدْ منه، ومن أخذت له مالًا فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخش الشّحناء من قبلي؛ فإنها ليست من شأني.»

فادّعى عليه رجلٌ ثلاثة دراهم، فأعطاه عوضها، ثم قال: «ألا إن فُضّوح الدنيا أهون من فُضّوح الآخرة»، ثم صلى على الذين قاتلوا معه، ثم أُعيد إلى بيت عائشة.



شكل ١-٣: الوضوء من بئر زمزم المقدسة في موسم الحج بمكة (من صورة فوتوغرافية).

وأراد محمد، قبل وفاته بثلاثة أيام، أن يُنقل إلى المسجد ليُصلِّي، ولم يحتمل محمد هذا النقل، فأمر بأن يقوم أبو بكر مقامه، فعَدَّ المسلمون هذا دليلاً على أن الخلافة لأبي بكر بعد النبي. وتوفيَّ محمد بعد مرضٍ دام خمسة عشر يوماً، وكانت وفاته في السنة الحادية عشرة من الهجرة حين كان عمره ثلاثاً وستين سنة.

وكانت جزيرة العرب، حتى عُمان، قد صبأت قبل وفاة محمد إلى الإسلام، وقد رضي بالإسلام مشركو العرب ومسيحيوهم ويهودهم، وأصبحوا بذلك أمةً واحدةً ألهبتها المعتقدات الجديدة، وغدت مستعدةً لفتح العالم بعد زمن قليل بقيادة زعمائها الماهرين.

(٤) حياة محمد وأخلاقه

تكلمنا عن حياة محمد العامة فيما تقدم، والآن نبحث في أخلاقه وحياته الخاصة، مستعينين بأسانيد العرب وآثارهم، قال المؤرخ العربيُّ أبو الفداء في وصف محمد مستنداً إلى ما روي عن أصحابه: «وَصَفَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ — رضي الله عنه — فقال: كان النبي ﷺ ليس بالطويل ولا بالقصير، ضَخَمَ الرَّأْسُ كَثَّ اللَّحْيَةِ شَتَنَ الْكَفَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ضَخَمَ الْكَرَادِيسَ مُشْرِبًا وَجْهَهُ حَمْرَةً، وَقِيلَ: كَانَ أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ سَبَطَ الشَّعْرَ سَهْلَ الْخَدَيْنِ كَانَ عُنْقُهُ إِبْرِيْقُ فِضَّةٍ، وَقَالَ أَنَسٌ: لَمْ يَشْنُهُ اللَّهُ بِالشَّيْبِ، كَانَ فِي مُقَدِّمِ لَحْيَتِهِ عَشْرُونَ شَعْرَةً بِيضَاءً، وَفِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ شَعْرَاتٌ بِيضٌ ...»

وكان ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً، يُكثر الذكر، ويُقل اللغو، دائم البشر، مطيل الصمت، ليِّن الجانب، سَهْلَ الْخُلُقِ، وكان عنده القريب والبعيد والقوي والضعيف

في الحق سواء، وكان يُحب المساكين، ولا يُحقرُ فقيرًا لفقره، ولا يهاب مَلِكًا مُلكه، وكان يؤلف قلوب أهل الشرف، وكان يؤلف أصحابه، ولا يُتفرِّهم، ويصابر من جالسه ولا يَحِيد عنه حتى يكون الرجل هو المنصرف، وما صافحه أحد فترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يترك يده، وكذلك من قاومه حاجة يقف رسول الله ﷺ معه حتى يكون الرجل هو المنصرف، وكان يتفقَّد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، وكان يَحْلِب العنز، ويجلس على الأرض، وكان يَخْصِف النعل وَيَرْقَع الثوب وَيَلْبِس المخصوف والمرقوع، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يَشْبَع من خبز الشعير، وكان يأتي على آل محمد الشهر والشهران لا يُوقَد في بيت من بيوته نارٌ، وكان قوتهم التمر والماء، وكان رسول الله ﷺ يَعْصِب على بطنه الحجر من الجوع.

ويضاف إلى الوصف السابق ما رواه مؤرخو العرب الآخرون من أن محمدًا كان شديد الضبط لنفسه، كثير التفكير، صَمُوتًا حازمًا، سليم الطويَّة، عظيم العناية بنفسه مواظبًا على خدمتها بالذات حتى بعد اغتنائه.

وكان محمد صبورًا قادرًا على احتمال المشاق ثابتًا بعيد الهمّة لِن الطبع وديعًا، فذكر أحد خدمه أنه ظل عنده ثمانِي عشرة سنة وأنه لم يُعزِّره قط في هذه المدة ولو مرة واحدة. وكان محمد مقاتلاً ماهراً، وكان لا يهرب أمام المخاطر، ولا يُلقِي يديه إلى التهلكة، وكان يعمل ما في الطاقة؛ لإنهاء خلق الشجاعة والإقدام في بني قومه.

ويقال: إن محمدًا كان قليل التعليم ونُرجح ذلك، وإلا لَوَجَدَت في تأليف القرآن ترتيبًا أكثر مما فيه، ونرجح أيضًا أن محمدًا لو كان عالمًا ما أقام دينًا جديدًا، فالأميون وحدهم هم الذين يعرفون كيف يُدرَك أمرُ الأميين.

وكان محمد عظيم الفطنة سواء أكان متعلماً أم غير متعلم، وتذكرنا حكمته بما عزّته كتب اليهود إلى سليمان.

شاءت الأقدار أن يكون محمد، وقد كان شاباً، حكماً بين أقطاب قريش الذين كادوا يقتتلون، حين اختلفوا في مَنْ يضع في أحد جوانب الكعبة ذلك الحجر الأسود الشهير الذي كان العرب يعتقدون أن ملكاً جاء به من السماء إلى إبراهيم، فقال محمد الشاب أمام الخصوم الذين أوشكوا أن يلجأوا إلى السلاح: «هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا»، فأُتي به فنشره، وأخذ الحجر الأسود، ووضعه بيده فيه، ثم قال: «ليأخذ كبيرُ كل قبيلة بطرفٍ من أطراف هذا الثوب»، فحملوه جميعاً إلى ما يحاذي موضعَ الحجر من البناء، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه في موضعه، وانحسم الخلاف.

وضغفُ محمد الوحيد هو حبسه الطارئ للنساء، وهو الذي اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره، ولم يُحَفِّ محمد حُبَّهُ للنساء فقد قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: الطَّيِّبُ، وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قَرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

ولم يبالِ محمد بسِنِّ المرأة التي يتزوجها، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين، وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين من سنها.

وأطلق محمد العنان لهذا الحب، حتى إنه رأى اتفاقاً زوجة ابنه بالتبني وهي عارية، فوقع في قلبه منها شيء، فسَرَّحَهَا بَعْلُهَا ليتزوجها محمد، فاغتمَّ المسلمون، فأوحي إلى محمد، بواسطة جبريل الذي كان يتصل به يومياً، آيات تُسَوِّغُ ذلك، وانقلب الانتقاد إلى سكوت.

وتزوج محمد أربع نِسوة في سنة واحدة، وبلغ عدد من تزوجهنَّ خمس عشرة امرأة، واجتمع منهن إحدى عشرة في وقت واحد، وقد يرى الأوروبي أن هذا العدد كبير، ولكن

الشرقيين لا يرون إفراطاً فيه ما رَأَوْا أنه يمكن النبي أن يتزوج نساءً أكثر من أولئك لو سمح لنفسه أن يسير على غرار الملك سليمان العظيم الذي هو أكثر ملوك التوراة حكمة. ولم يثبت، تماماً، وفاء زوجات محمد الكامل له، ويظهر أن محمداً لاقى من المكاره الزوجية ما ينذر وجوده عند الشرقيين ويكثر وقوعه لدى الأوربيين، وكانت عائشة موضوع قلق له على الخصوص، وأصبحت ذات مرة موضع قالة سوء فشهد بعصمتها جبريل المحب للخير دائماً، ودُوِّنت شهادته في هذه المسألة الحساسة في القرآن، وحُظِرَ الشك.

وعرف محمد في آخر الأمر، ما ينجم عن زيادة عدد الزوجات من المفساد والشرور، وحرّم محمد على المسلم أن يجمع أكثر من أربع زوجات، ولم يكن محمد هو الذي أباح تعدد الزوجات بين العرب، فتعدّد الزوجات مما عرفته أمم آسية على اختلاف مللها ونحلها قبل النبي، ولا يزال تعدد الزوجات شائعاً بين هذه الأمم.

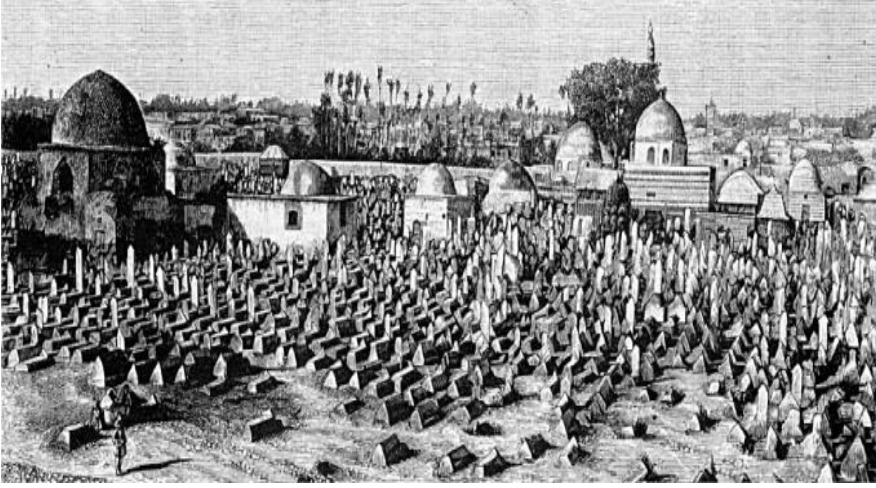
وكان محمد قليل المسامحة نحو النساء مع ميّله الشديد إليهن، ومع أن محمداً لم يبلغ في شدّته درجة رجال التوراة وصَفَهُنَّ في القرآن بأنهن يُنشَأْنَ في الحلية ويُحَاصِمْنَ من غير سبب، وقال: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»، وروى أبو الفداء أن محمداً ذكر أنه كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكْمُلَ من النساء سوى أربع: امرأة فرعون: آسية، وأم عيسى: مريم، وزوجة النبي: خديجة، وبنت النبي: فاطمة. وأولاد محمد هم من زوجته الأولى خديجة التي هي ثلاثة نساء العالم الأربع الكاملات، وثلاثة ذكور من أولاده السبعة ماتوا صِغاراً، ولم يبقَ له سوى أربع بنات تعدُّ أشهرهنَّ فاطمة.

ومات محمد عن تسع أيام، وحرّم عليهنّ الزواج بعد وفاته احتراماً لحظره مهما كان عزاءهن.

ولم يقل محمد إنه يأتي بالخوراق مع إيمانه برسالته، وعزا المسلمون إليه خوارق كثيرة مجازاةً للنعنات الشائعة القائلة إنه لا نبوة بغير خوارق، وإليك قول مسيو كاز يميرسكي الوجيه:

انشق القمر بطلبه فرقتين على مشهدٍ من الملاء، ووقفت الشمس بدعوته على الجبال والأرض حتى يؤدي على صلاة العصر بعد أن أفاق النبي من غفوته ورأسه على ركبتي علي الذي أخبره بأنه لم يؤدها حرصاً على راحته، وكان يظهر، وهو المعتدل القامة، أطول من كل شخص يسير بجانبه، وكان النور يسطع من وجهه، ويشع من بين أصابعه حين يضع يده على وجهه، وكانت الحجارة والأشجار والنباتات تسلم عليه وتنحني أمامه، وكانت الحيوانات، كالظباء والذئاب والضباب، تكلمه، وكانت الجديان تخاطبه وهي مشوية، وكان الجن يخافونه ويؤمنون برسالته لما له من السلطان المطلق عليهم، وكان يزد البصر للعمي ويشفي المرضى ويحيي الموتى، وأنزل من السماء مائدة لعلي وأسرتة حين جاعوا، وأنبا بأن ذرية فاطمة سينالها جور وعدوان، وبأن ملك بني أمية سيدوم ألف شهر، فحدث كما أخبر... إلخ.

وفضلاً عن ذلك فإنه أثبت للمسلمين الصالحين أنه أسري بمحمد ليلاً على ظهر حيوان خيالي يسمى البراق، والبراق دابة مجنحة لها وجه المرأة وجسم الفرس وذنب الطاوس، ويعتقد المسلمون أن محمداً اخترق السماوات السبع في معراجته حتى بلغ عرش الإله.



شكل ١-٤: ضريح فاطمة بنت محمد في المقبرة الكبرى بدمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وقيل: إن محمدًا كان مصابًا بالصرع، ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي، وكل ما في الأمر هو ما رواه معاصرو محمد، وعائشة منهم، من أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقانٌ وجهيٌّ فغطيّ فغشيان، وإذا عدوت هوس محمد،^{٣٨} ككل مفتون، وجدته حصيفًا سليم الفكر.

ويجب عدُّ محمدٍ من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح، وذلك كأكثر مؤسسي الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولو الهوس وحدهم، لا ذوو المزاج البارد من المفكرين، هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس، ومتى يُبحث في عمل المفتونين في العالم يُعترف بأنه عظيم، وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول وأثاروا الجموع وقادوا البشر، ولو كان العقل، لا الهوس، هو الذي يسود العالم؛ لكان للتاريخ مجرى آخر.

^{٣٨} هذه العبارات من نبرات المستشرقين، ولا تتفق مع كرامة النبي محمد، ولا شاهد لها من الواقع.

ولا يقف أيُّ قولٍ بخداع محمد ثانية أمام سلطان النقد كما يلوح لي، ومحمد كان يجد في هوسه ما يحفزُه إلى اقتحام كل عائق، ويجب على من يود أن يفرض إيمانه على الآخرين أن يؤمن بنفسه قبل كل شيء، ومحمد كان يعتقد أنه مؤيَّد من الله، فيتقوى، ولا يرتد أمام أي مانع.

وجمع محمد قبل وفاته كلمة العرب، وخلق منهم أمةً واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى.

ومن العبث أن نبحث في: هل كانت هذه النتائج التي بَلَغها محمد مما توخَّاه قَبْلًا؟ ونحن إذ لم نُؤثِّ سوى علمٍ قليل عن عِلَل ارتباط الحوادث التي نُذعن لحكمها طوعًا أو كرهاً ترانا مضطرين إلى مجارة المؤرخين في رأيهم أن ما بلغه أعظم الرجال، ومنهم محمد، من النتائج هو مما كانوا يَسْعَوْنَ إلى تحقيقه، ورأيي مثل هذا، وإن كان لا يُسَلِّم به على عِلَّاته، لا نخوض في نقضه؛ لما في ذلك من الخروج عن موضوع هذا الكتاب.

ومهما يكن من أمر فإن مما لا ريب فيه أن محمدًا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تُصَبِّ مثلها جميعُ الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك كان فضل محمد على العرب عظيمًا، ويتجلى هذا الفضل العظيم في جواب رسل عمر بن الخطاب إلى كسرى حين سأله عن أعمال النبي، قال هؤلاء الرسل:

فأما ما ذكرتَ من سوء حالنا فما كان أحد أسوأ حالًا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجُعَلان والعقارب والحيات، فكنا نرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فكانت ظَهَر الأرض، ولم نلبس إلا ما غَزَلْنَا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، كان ديننا أن يَقْتُل بعضنا بعضًا ويغير بعضنا على بعض، وكان أحدنا يدفن ابنته وهي حيَّة كراهية أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرنا لك، فبعث الله إلينا

رجلاً معروفاً نعرف نَسَبَهُ ونعرف وجهه ومولده، فأَرْضُهُ خير أرضنا، وحَسَبُهُ خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، فقذف الله في قلوبنا التصديق له، وأتباعه، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: «إن ربكم يقول: إني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنتُ إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء وإليَّ يصير كلُّ شيء، وإن رحمتي أدركتكم فبعثتُ إليكم هذا الرجل لأدُلَّكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأُحِلَّكم داري دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق.

وإذا ما قيسَت قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب يُنصفون محمداً مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله. قال العلامة بارتلمي سنت هيلر: «كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاءً وأشدَّهم تديناً وأعظمهم رافة، ونال محمد سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم، ونَعُدُّ دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيلاً النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته.»

فما سر هذا الدين الذي خضع لحكمه ملايين من الناس؟ وما الحقائق التي أرشد العالم إليها؟ ذلك ما نبحت فيه عمَّا قليل.

الفصل الثاني القرآن

(١) خلاصة القرآن

القرآن هو كتاب المسلمين المقدس، ودستورهم الديني والمدني والسياسي الناظم لسيرهم، وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط مع أنه أنزل وحيًا من الله على محمد، وأسلوب هذا الكتاب، وإن كان جديرًا بالذكر أحيانًا، خالٍ من الترتيب فاقد السياق كثيرًا، ويسهل تفسير هذا عند النظر إلى كيفية تأليفه، فهو قد كُتب تبعًا لمقتضيات الزمن بالحقيقة، فإذا ما اعترضت محمدًا مُعضلة أتاه جبريل بوحى جديد حلًا لها، ودُوّن ذلك في القرآن.

ولم يُجمَع القرآن نهائيًا إلا بعد وفاة محمد، وبيان الأمر أن محمدًا كان يتلقّى في حياته عدة نصوص عن الأمر الواحد، فلما انقضت عدة سنين على وفاته حُكَل خليفته الرابع^{٣٩} على قبول نص نهائي للقرآن مقابلًا بين ما جمعه أصحاب الرسول.

والقرآن مؤلّف من مائة وأربع عشرة سورة، وكل سورة مؤلفة من آيات، ومحمد هو الذي يتحدث فيها باسم الله على الدوام.

ويعدّ العرب القرآن أفصح كتاب عرّفه الإنسان، ومع ما في هذا من مبالغة شرعية نعتف بآن في القرآن آيات موزونة رائعة لم يسبقه إليها كتاب ديني آخر.

^{٣٩} أحيل القارئ الذي يرغب في الوقوف على فلسفة بدهة، وتاريخ تطور الأديان إلى المجلد الثاني من كتابي: «الإنسان والمجتمعات»، ففيه يجد أن البدهية، التي لها من الأتباع ما للأديان الأخرى مجتمعة، قائمة على إنكار كل ألوهية إنكارًا تامًا، وأنها تدعو الناس، مع ذلك، إلى التحلي بأطيب الأخلاق، كما اعترف به أحد علماء النصرانية المتشددتين المشهورين مكس مولر الذي قال: «دعا إلى الأخلاق الفاضلة، قبل ظهور المسيح، أناس اعتقدوا أن الآلهة أشباح باطلة فلم يقيموا هيكلًا حتى للرب غير المعروف.» [لقد رجع المؤلف عن رأيه هذا في كتابه «حضارات الهند» الذي ترجمناه إلى العربية، فقال بعد أن ساح في الهند: إن البدهية تقول بتعدد الآلهة] (المترجم)

وتقرب فكرة الكون الفلسفية في القرآن مما في الديانتين الساميتين العظيمتين اللتين ظهرتا قبل الإسلام، أي اليهودية والنصرانية، وزُعم أن العنعنات الآرية الفارسية أو الهندية ذات نصيبٍ ظاهر في النصرانية والإسلام، ونحن نرى النفوذ الآري في الإسلام ضعيفًا جدًا. ولم يكن محمد فيلسوفًا كبيرًا، أي من المفكرين المتبحرين الذين يقاسون بمؤسسي البرهمية والبُدْهيَّة، فهو لم يُنكر سببَ الأسباب كما أنكره البُدْهيُّونَ، ولم يَقُلْ مثلهم بأن الكون موجود بالضرورة ذو انحلال وتركيب دائمين، ولم يتصف بنصف ما عند مؤلفي كتب البراهمة المقدسة من الشك، ولم يُدخل إلى القرآن مثل التأملات الآتية التي تجدها في كتب الويدا: «من أين أتى هذا الكون؟ أهو من صنع خالق أم لا؟ يَعْلَمُ ذلك من ينظر من فوق الفلك، وقد لا يعلم.»^{١١}

ولكن أقوالًا مجردة مثل هذه لا تنفع غير الفلاسفة، ومحمد لم يزعم أنه يكتب من أجل الفلاسفة، وكان من مقاصد محمد أن يقيم دينًا سهلًا يستمره قومه، وقد وُفِّقَ لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يُفكِّرْ محمد في إبداع دين جديد قط، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياء بني إسرائيل من إبراهيم إلى عيسى قائلًا إن ما أوحى إليهم صحيحٌ، والحقُّ أن اليهودية والنصرانية والإسلام فروعٌ ثلاثة لأصل واحد، وأنها ذات قُرْبَى وشيعة.

والدين الذي دعا النبيُّ إليه الناس سهل جدًا، وقد عَرَفَه محمد بالكلمات القليلة الآتية حين أتاه جبريل بزَيِّ العرب وسأله عنه، وهي: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»، وهذا التعريف الذي قَبَلَه جبريل تامُّ كما هو واضح.

^{١١} الخنس: الكواكب السيارة التي ترجع إلى أول البرج، وسميت خنسًا لتأخرها.

ويُلَخِّصُ المسلم الإسلام في هاتين الكلمتين اللتين لا يُنْكَرُ إيجازُهما، وهما: «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله».

وإنني أنقل من القرآن بضع آيات في كل موضوع مهم، وأرتب ما نقلته من آياته على حسب الموضوعات نظرًا إلى أن ما ورد من الآيات في الموضوع الواحد مبعثر فيه اتفاقًا. وإنني أبدأ بها جاء في القرآن عن مصدره وعن قُرْبَاه الوشيحة بالكتب المقدسة التي أتت قبله:

"لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ" (من سورة الرعد)

"ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" (من سورة البقرة)

"وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ" (من سورة الشعراء)

"كَلَّا إِنَّمَا تَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ" (من سورة عبس)

"فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ^١ * الْجَوَارِ الْكُنُوسِ^٢ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ^٣ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ" (من سورة التكوين)

"وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِّلْمُحْسِنِينَ"

^١ الجوار الكنس: الكواكب السيارة الغيب؛ لأنها تجري مع الشمس والقمر، وترجع إلى أول البرج حتى تختفي تحت ضوء الشمس.

^٢ عسعس: أقبل بظلامه أو أدبر، وهو المناسب لقوله: إذا تنفس.

^٣ الشفع: ليالي ذي الحجة العشر، ووترها عرفة، والشفع هو الزوج، والوتر هو الفرد.

(من سورة الأحقاف)

"شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ"

(من سورة الشورى)

وإله محمد واحد في السماء، واسمع تعريف النبي له:

"يَدْعِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"

(من سورة البقرة)

"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ"

(من سورة البقرة)

"شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"

(من سورة آل عمران)

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِّفُ الرِّيَّاحُ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"

(من سورة البقرة)

وإله القرآن الواحد، وإن لم يكن شديدًا شدة إله التوراة، جبارٌ عزيزٌ ذو انتقام يفعل ما يشاء، ولا يُسأل عما يفعل، جاء في القرآن:

"وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ"

(من سورة الرعد)

"وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ"

(من سورة الفجر)

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ"

(من سورة آل عمران)

"وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ"

(من سورة هود)

"هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ"

(من سورة الرعد)

وما جاء في القرآن من نص على خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وخلق آدم والجنة، وهبوط آدم منها، ويوم الحساب مقتبس من التوراة.

وإليك وصف محمد ليوم الحساب:

"فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ ۖ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ"

(من سورة عبس)

٤٤ الحجر: العقل.

٤٥ جابوا الصخر: قطعوه.

٤٦ الصاخة: القيامة، لأنها تصخ الأذان أي تصمها.

٤٧ طحاها: بسطها.

"إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ"

(من سورة الانفطار)

"وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا * وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا"

(من سورة الشمس)

"يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ"

(من سورة إبراهيم)

"وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ"

^{٤٨} دساها: أخفاها.

^{٤٩} مقرنين في الأصفاد: مشدودين في القيود.

^{٥٠} الصور: البوق.

(من سورة الزمر)

وفي النار ضروب العذاب كما يرى محمد، ومن ذلك:

"وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا^{٥١} فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ"

(من سورة محمد)

"وَأَصْحَابُ الشَّالِ مَا أَصْحَابُ الشَّالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ^{٥٢}"

(من سورة الواقعة)

"كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحدى الْكُبرى"

(من سورة المدثر)

وفي الجنة ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، ومن ذلك:

"مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ^{٥٣} فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ^{٥٤} وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ"

(من سورة محمد)

"وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ^{٥٥} إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ"

(من سورة الطور)

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهَّجٍ"

(من سورة القمر)

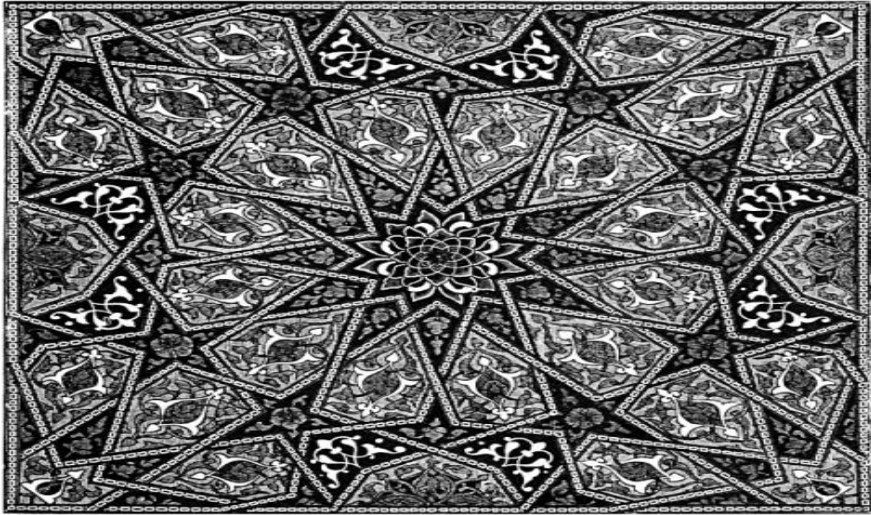
^{٥١} الحميم: الماء الحار لا يستساغ شربه.

^{٥٢} يحموم: أسود، أي دخان مكفهر.

^{٥٣} غير آسن: غير متغير الرائحة والطعم.

"مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَانَتُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ"^{٥٤} وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
 * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئْهُنَّ^{٥٥} إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
 كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمَنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَمَّتَانِ^{٥٦} *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ^{٥٧} * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا
 وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ"

(من سورة الرحمن)



شكل ١-٢: من زخارف مصحف قديم في القاهرة (من إبير).

^{٥٤} إِسْتَبْرَق: الديباج الثخين النسيج، والديباج ما كان سداً ولحمته حريراً.

^{٥٥} لم يطمئنهن: لم يمسسهن.

^{٥٦} مدهماتان: سوداوان.

^{٥٧} نضاحتان: فوارتان.

"وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ^{٥٨} * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٌّ
مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ"
(من سورة الواقعة)

وكان محمد كثير المسامحة لليهود والنصارى خلافاً لما يُظن، لا للملحدين ولا للمشركين
الذين يُوصي بمقاتلتهم، وإليك قوله عنهم:
"إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"
(من سورة الأنفال)

"إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا
غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"
(من سورة يونس)

"لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ"
(من سورة البقرة)

"وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ
فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ
الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"
(من سورة المائدة)

"وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا"
(من سورة المزمل)

^{٥٨} مخضود: لا شوك فيه.

^{٥٩} قفينا على آثارهم: اتبعنا وأرسلنا.

"لَكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ ۖ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ"

(من سورة الحج)



شكل ٢-٢: اسم محمد كما جاء في كتابة قديمة بجامع ابن طولون أظهرها مسيو مارسيل.
 "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"
 (من سورة البقرة)

"وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"
 (من سورة آل عمران)

"وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"
 (من سورة العنكبوت)

ولم أجد في القرآن ما يُعاب به الشرقيون، وما يمكن أن يعاب به كذلك، كثير من العلماء المعاصرين من الجبرية المزعومة فيُجَوَّز أن يُعد به محمد أكثر جبرية مما في التوراة، وإليك، مع ذلك، ما استطعت أن أجده جوهرياً في القرآن حول هذه المسألة:

"وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"

(من سورة التكوين)

"يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۚ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ"

(من سورة آل عمران)

"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۚ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ۚ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ"

(من سورة الأنعام)

"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۚ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ"

(من سورة الأعراف)

"مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ"

(من سورة المؤمنون)

"لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ"

(من سورة سبأ)

"وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ"

(من سورة فاطر)

"إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"

(من سورة نوح)

"مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ"

(من سورة التغابن)

"وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا"

(من سورة النساء)

(٢) فلسفة القرآن — انتشاره في العالم

إذا رَجَعْنَا القرآن إلى عقائده الرئيسية أمكننا عدُّ الإسلام صورةً مبسطةً عن النصرانية، ومع ذلك فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد، الذي دعا إليه الإسلام، مهيمٌ على كل شيء، ولا تُخَفُّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يُفَرِّضُ تقديسهم، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أولُ دين أدخل التوحيد إلى العالم.

وُثِّقَتْ سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرُّ قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهلٌ، خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى وبأباه الذوق السليم، غالباً، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها، وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرُّد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل.

وساعد وضوح الإسلام البالغ، وما أَمَرَ به من العدل والإحسان كلَّ المساعدة على انتشاره في العالم، ونُفِّسَ بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نُفِّسَ السبب في عدم تنصُّر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا، سواء كانت هذه الأمة غالبية أم مغلوبة.

ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني ألا ينظر إلى قواعده الفلسفية الضعيفة على العموم، بل إلى مدى تأثير عقائده، والإسلام إذا ما نُظِرَ إليه من هذه الناحية وَجِدَ من أشد الأديان تأثيرًا في الناس، وهو، مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة ... إلخ، يُعَلِّمُ هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف، فضلًا عن ذلك، أن يصب في النفوس إيمانًا ثابتًا لا تزعزعه الشبهات.

ولا ريب في أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيمًا إلى الغاية، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفةً من إمارات مستقلة وقبائل متقاتلة دائمة، فلما ظهر محمد ومضى على ظهوره قرنٌ واحد كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانية، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع المَدُن التي خَفَقَتْ راية النبي فوقها.

والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهديدًا للنفوس وحملًا على العدل والإحسان والتسامح، والبُدْهيَّة، وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفةً، تراها مضطرة أن تتحول تحولًا تامًّا لتستمرئها الجموع، وهي لا شك، دون الإسلام في شكلها المعدَّل هذا.

وجرت حضارة العرب، التي أوجدها أتباع محمد، على سنة جميع الحضارات التي ظهرت في الدنيا: نشوء فاعتلاء فهبوط فموت، ومع ما أصاب حضارة العرب من الدُّثور،

كالحضارات التي ظهرت قبلها، لم يَمَسَّ الزمن دين النبي الذي له من النفوذ ما له في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطانٍ كبير على النفوس، مع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تُحسر كلَّ يوم شيئًا من قوتها.

ويدين بالإسلام في الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون شخص، واعتنقته جزيرة العرب ومصر وسورية وفلسطين وآسية الصغرى وجزء كبير من الهند وروسية والصين، ثم جميع إفريقيا إلى ما تحت خط الاستواء تقريبًا.

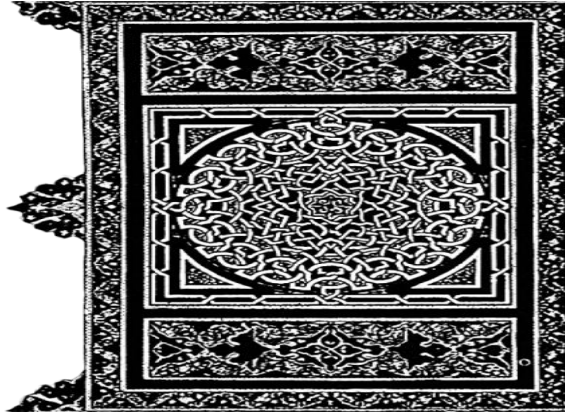
وتجمّع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورًا لها وحدة اللغة والصّلات التي يُسفرُ عنها مجيء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامي.

وتحب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان، واللغة العربية هي، لذلك، أكثر لغات العالم انتشارًا على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يُمكن جمعها به تحت عَلم واحد في أحد الأيام.

وقضى أعداء الإسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار القرآن العظيمة فعزّوها إلى ما زعموه من تحلُّل محمد وبطشه، ويسهل علينا أن نثبت أن هذه المزاعم لا تقوم على أساس، فنقول: إن من يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرى من الصرامة، وإن ما أباحه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريبًا على الشعوب المسلمة التي عرّفته قبل ظهور محمد، وإن هذه الشعوب لم تجد نفعًا جديدًا في القرآن لهذا السبب.

وما قيل من دليل حول تحلُّل محمد نقضه العلامة الفيلسوف بيلٌ منذ زمن طويل، وقال بيلٌ، بعد أن أثبت أن ما أمر النبي بالتزامه من قيود الصيام وتحريم الخمر ومبادئ الأخلاق هو أشد مما أمر به النصارى:

إن من الضلال، إذن، أن يُعزى انتشار الإسلام السريع في أنحاء الدنيا إلى أنه يُلقى عن كاهل الإنسان ما شق من التكاليف والأعمال الصالحة، وأنه يُبيح له البقاء على سبيل الأخلاق، وقد دوّن هونتجر قائمةً طويلةً بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين، فأرى، مع القصد في مدح الإسلام، أن هذه القائمة تحتوي أقصى ما يمكن أن يُؤمر به إنسانٌ من التحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن العيوب والآثام.



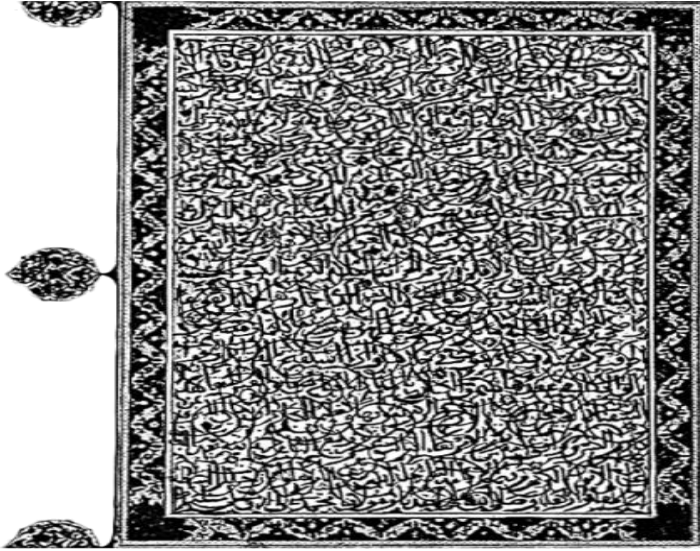
شكل ٢-٣: صوان مصحف قديم في مكتبة الإسكوريال (المتحف الإسباني).

ومما نبّه إليه العلامة بيل أن ملاذ اللجنة التي وُعدّ بها المسلمون لا تزيد على ما وُعدّ به النصراني في الإنجيل، جاء في الإنجيل: «لم ترَ عينٌ ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب إنسان ما أعدّه الله للذين يُحِبُّونه.»

وسيرى القارئ، حين نبحت في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العربُ المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم؛ فذلك لما رآوا من عدل العرب

الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.^{٦٠}

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عربَ الأندلس فضّل هؤلاء القتل والطرْد عن آخرهم على ترك الإسلام.



شكل ٢-٤: آخر صفحة من مصحف قديم في مكتبة الإسكوريال (المتحف الإسباني).

١٠ رأينا من أي القرآن التي ذكرناها أنفًا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصًا بنا، قال روبرتسون في كتابه «تاريخ شارلكن»: «إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم، مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية». وقال ميشود في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية»: «إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد ألقى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضراب، وحرّم محمد قتل الرهبان؛ لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، فنبح الصليبيون المسلمين وحرّقوا اليهود بلا رحمة وقتلوا دلوها»، وقال الراهب ميشود في كتابه "رحلة دينية في الشرق": «ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الاحسان بين الأمم، واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة».

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها، ويزيد عدد مسلمي الهند يومًا فيومًا مع أن الإنكليز، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يجهّزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تبعًا إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى.

ولم يكن القرآن أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أيّ جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلامية فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونًا في الوقت الحاضر.

وليس فيما يوصم به الإسلام من الجبرية ما يزيد خطرًا على ما رددنا عليه، وليس في أي القرآن التي ذكرناها أنفًا من الجبرية ما ليس في كتب الأديان الأخرى كالتوراة مثلاً، وهنالك فلاسفة وعلماء لاهوت يعترفون بأن مجرى الحوادث تابع لسُنّة لا تتبدل، قال المصلح الدينيّ القدير لوثر: «يُحتجُّ على اختيار الإنسان وإرادته بنصوص الكتاب المقدس التي لا تُحصى، وإن شئت فقل بكل ما ورد في الكتاب المقدس».

وكتبُ جميع الأمم الدينية مفعمة بالجبرية التي يسميها القدماء بالقدر، ووضع القدماء القدر، الذي لا رادَّ لحكمه، على رأس كل أمر عادين إياه سلطةً مطلقةً لا مناص للناس والآلهة من إطاعتها، وحاول إديب، غير جدوى، أن يَضْرَعَ إلى هاتف الغيب الذي أخبره بأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه فلم يستطع ردًّا لحكم القدر الجبار.

ولم يكن محمد، إذن جبريًّا أكثر من مؤسسي الأديان الذين ظهروا قبله، ولم يسبق محمد في جبريَّته علماء الوقت الحاضر الذين أيّدوا مع العلامة لا پلاس رأي الفيلسوف لبيتر في

القول: «إنه إذا وُجد ذكاءٌ يَعرف، لوقتٍ، جميع قوى العالم ومواضع ما فيه من الموجودات، ويستطيع أن يحللها، ويحيط بمحركات أعظم أجرام العالم وأصغر ذراته، فإنه لا يبقى عنده شيء غير مُعَيَّن، ويصبح الماضي والمستقبل حالاً في نظره.»

والجبريةُ الشرقية التي قامت عليها فلسفة العرب، ويستند إليها كثير من مفكري العصر الحاضر هي نوع من التسليم الهادئ الذي يعلم به الإنسان كيف يخضع لحُكم القدر من غير تبرُّم وملاومة، وتسليم مثل هذا هو وليد مزاج أكثر من أن يكون وليدَ عقيدة، وقد كان العرب جبريين بمزاجهم قبل ظهور محمد، فلم يكن لجبريتهم تأثيرٌ في ارتقائهم كما أنها لم تؤدِّ إلى انحطاطهم.

الفصل الثالث فتوح العرب

(١) حال العالم في زمن محمد

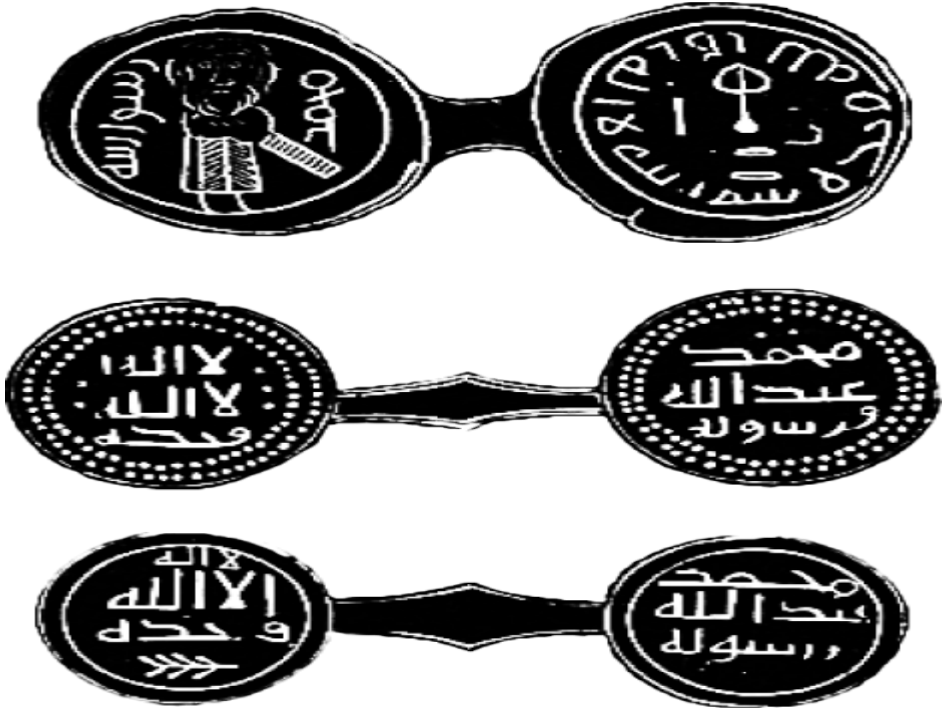
كان يتنازع سيادة العالم حين وفاة محمد دولتان عظيمتان: إحداهما: دولة الروم التي كانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت صاحبة السلطان على جنوب أوربة والشرق الأدنى وشمال إفريقيا الممتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطي، والأخرى: دولة الفرس التي كان سلطانها ممتدًا إلى مكان بعيد من آسية، وكان شمال أوربة وغربها فريسة للبرابرة الذين كانت أمورهم فوضى، وكانوا يتقاتلون على أسلاب الرومان وغنائمهم.

وكانت دولة الروم التي نهكتها محارباتها لدولة الفرس، والتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة، في دور الانحطاط، ولم تكن غير هيكلي نخر يكفي أقل صدمة لتداعيه. وكذلك كانت علائم الانقراض بادية على دولة الفرس التي أوهنتها تلك الحروب أيضًا. وأثقل الحكم الروماني كاهل مصر وإفريقية، وكانت القسطنطينية تستغل شعوبها من غير أن تحسن سياستهما، وكانت الاختلافات الدينية ومظالم الحكام تقوض دعائمهما.

ولم تكن أوربة أحسن حالًا، فكان الحكم في إسبانية، التي ستصبح مقرًا لدولة زاهرة تحت الحكم العربي، بيد القوط المسيحيين الذين لم يستطيعوا أن يتمدّنوا، والذين أكلتهم الانقسامات الدينية فاستغاثوا بقيصر الروم، فلم يُعتم حلفاؤهم أن صاروا أعداء تجب محاربتهم، وفقدت رومة الإيطالية نفوذها القديم، وأصبح اسم الروماني محتقرًا في كل مكان، وصار البرابرة يتناوبون السيطرة عليها.

ولم تكن الفوضى ظاهرة في مكان ظهورها في سورية التي هي أول قطر استولى عليه العرب، وكان همّ المدن السورية، التي لم تنلها أيدي التخريب في الحروب الرومية الفارسية الدائمة، والتي لم تزل على شيء من النضارة، مقتصرًا على المعاملات التجارية

والمجادلات الدينية، ولم تبالِ بما كان يقع خارج أبوابها، وكانت تُهَجَرُ أريافها، ولم يكثرث أهلها لشيء من المبادئ القومية، وكانوا مستعدين لتلبية نداء أي فاتحٍ يعدُّ بإطعامهم، وكان الأريستوقراطيون من سلالة فاتحي سورية، الذين أفسدهم توالدُّهم والأُمَمُ الآسيوية، قد انحدروا إلى الحضيض فخسروا قيمتهم ونفوذهم.



شكل ٣-١: ثلاث قطع من نقود الخلفاء الأولين (أخذت صور هذه النقود والنقود التي تليها من مجموعة مسيو مارسيل).

ونحن، عندما بحثنا في كتابنا السابق عن مختلف العوامل التي تؤثر في تطور المجتمعات، قلنا: إن المثل الأعلى هو من أهمها، وذكرنا أن عبادة الوطن والمعتقد الديني وحب الاستقلال والمجد والأمة والمدنية ... وغيرها من المثل العليا هي من الخيالات من الناحية الفلسفية، وأن مثل هذه الخيالات هي التي تقود الناس دائماً، وأن أمر النظم

السياسية والاجتماعية التي وَقَّتِ البشرَ حتى الآن قد استقام بفضلها، وأن عظمة الرومان قامت على عبادة رومة على الخصوص، وأن رومة كانت سيدة العالم حين كان الروماني يُصَحِّي بنفسه في سبيل زيادة سلطانها.

وكانت الأمم الإغريقية الرومانية والآسيوية، وقت ظهور محمد، قد فَقَدَت مُثْلَهَا العليا منذ زمن طويل، فلم يبقَ لحبِّ الوطن، وعبادة الآلهة أثرٌ في نفوس أبنائها، وكانت الأثرَةُ كُلُّ ما في قلوب هؤلاء الأبناء، والأثرَةُ إذا كانت دليلَ قومٍ عجزوا عن مقاومة قومٍ آخرين مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل معتقداتهم.

وقد استطاع محمدٌ أن يُبدع مثلاً عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص، وذلك المثلُّ الأعلى الجديد هو من الخيالات لا ريب، شأنُ المثلِّ العليا التي ظهرت قبله، ولكنك لا تُجد من الحقائق ما هو قويٌّ قوةَ هذه الخيالات، ولم يتردَّد أتباع النبي في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثلِّ الأعلى طامعين في الجنة التي لا يعدُّها شيءٌ من متاع هذه الحياة الدنيا.

ولم يلبث الإسلام أن منَّ على جميع الشعوب التي خضعت لسلطانهِ مثل ما منَّت به عظمةُ رومة على الرومان، فمنح تلك الشعوب مصالحَ مشتركةً، وآمالاً مشتركةً موجَّهاً بذلك جهودها نحو غرض واحد مع أنها كانت ذاتَ مصالحَ مختلفةٍ قبل ذلك.



شكل ٣-٢: قطعة من نقود الخليفة الأموي هشام، بدمشق (١٠٨هـ / ٧٢٥م).



شكل ٣-٣: قطعة من نقود الخليفة المهدي (١٦٢هـ / ٧٧٩م).



شكل ٣-٤: قطعة من نقود الخليفة المأمون (٢١٨هـ / ٨٣٣م).

وإن وحدة المصالح والمعتقدات، وإن كانت تؤدي إلى تجانس الأمة، لا تعطيها من الوسائل ما تقدر به على الفتح العالمي، ولو كانت أركان العالم متداعية كال الدولة الإغريقية الرومانية والدولة الفارسية في زمن ظهور محمد، فقد كانت تانك الدولتان مرهوبتين مع ما كان يبدو من وهنهما، فكان لا بد للأمة التي تريد محاربتها من أن تكون ذات صفات حربية عظيمة، فضلاً عن معتقداتها التي تُوجّه جهودها إلى غرض واحد، ولم يحتاج العرب

إلى ما يتطلبه مثل هذا العمل الجليل من الشجاعة وحب القتال ما ورثها العرب أباً عن جدٍّ، مضافاً ذلك إلى ما نشأ عن إيمان العرب الحديد من حرصهم على الشهادة حباً للجنة التي وُعدوا بها.

ولكن العرب كانوا يجهلون فنَّ الحرب جهلاً تاماً، ولا تقوم الشجاعة مقام هذا الفن، وكان اقتتال العرب فيما بينهم من نوع اقتتال البرابرة الذين يَنْقُضُونَ على أعدائهم بلا نظام، ولا يحارب كلُّ واحد إلا من أجل نفسه، وكان غير هذا أمرُ الفرس والروم الذين كانت معرفتهم لفنِّ الحرب عظيمةً جداً كما ظهر من اشتباكهم الأول بالعرب، ولم يلبث العرب أن عَلموا من الهزائم التي أصابتهم في سورية ما كان يُعوِّزُهم، وأن اقتبسوا من قاهرهم كثيراً من شؤون الحرب، وأخذوا عمن التحق بهم من الرجال الذين اجتذبهم الإيمان الجديد ما كانوا يجهلون من فنون تعبئة الجيش والنظام وأعتدة الحرب، وقد تم استعدادهم في بضع سنين، وقد بُهِت الروم حين حاصر العرب دمشق، ورأوهم مجهزين بمثل ما كان عندهم من الآلات الحربية الكاملة الجيدة.

(٢) طبيعة فتوح العرب

لم تَقُلْ براعة الخلفاء الأولين السياسية عن براعتهم الحربية التي اكتسبوها على عَجَلٍ، وذلك أنهم اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذين كان ينبغي عليهم قاهروهم منذ قرون كثيرة، والذين كانوا مستعدين لأن يستقبلوا بترحاب وحبور أي فاتح يخفُّ وطأة الحياة عنهم، وكانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة، فعرفوا كيف يُجِجَمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يبتعدون عن إعمال السيف فيمن لم يُسَلِّم، وأعلنوا في كلِّ مكان أنهم يحترمون عقائد

الشعوب وعُرفها وعاداتها، مكتفين بأخذهم، في مقابل حمايتها، جزيةً زهيدةً تقل عما كانت تدفعه إلى ساداتها السابقين من الضرائب.



قطعة من نقود ابن طولون (١٥٧هـ / ٨٧٠م).



قطعة من نقود الخليفة الرضي (٣٢٧هـ / ٩٣٣م).

وكان العرب، قبل أن يَسْعُوا إلى فتح بلد، يرسلون رُسُلًا حاملين إليه شروطًا للوفاق، وتكاد هذه الشروط تكون مماثلةً للشروط التي عرضها عمرو بن العاص على أهالي غزة حين حصاره لها في السنة السابعة عشرة من الهجرة، وللشروط التي عُرِضت على المصريين وأهل فارس، وتلك الشروط التي عرضها عمرو بن العاص هي — كما رواه المؤرخ العربي — المكين، ما يأتي: «أمرنا صاحبنا أن نقاتلكم إلى أن تكونوا في ديننا فتكونوا

إخوتنا، ويلزمكم ما يلزمنا فلا نتعرض إليكم، فإن أبيتم أعطيتكم الجزية في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتكم، ونقاتل عنكم من ناوأكم إن تعرض إليكم في وجه من الوجوه، ويكون لكم عهدٌ علينا، فإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا السيف فنقاتلكم حتى تفيثوا إلى أمر الله.»



شكل ٣-٥: قطعتان من نقود الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٤٢ و ٤٦٥ هـ/ ١٠٥٠ و ١٠٧٢ م).

ويُثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العربُ الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، فلم يُرد عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عددٍ قليل من أصحابه، وطلب من البطرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى الأهليين الأمان، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم، وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعتهم.١



شكل ٣-٦: قطعة من نقود صلاح الدين ضُربت بدمشق سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وعلى أحد وجهيها اسم الخليفة العباسي ببغداد.

ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقلّ رفقا من ذلك فقد عَرَضَ على المصريين حرية دينية تامة، وعدلاً مطلقاً واحتراماً للأموال وجزيةً سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكاً عن كلّ رأس بدلاً من ضرائب قياصرة الروم الباهظة، فرضيَ المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفاً، وقد بالغ العرب في الوقوف عند حد هذه الشروط، والتقيّد بها؛ فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيّما إقبال. ونتائج مثل هذه لا تُنال بالقوة كما قلت غير مرة، ولم يظفّر بمثلها من مَلِكٍ مصر من الفاتحين قبل العرب.

وللفتوح العربية طابعٌ خاص لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، وبيانُ ذلك أن البرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمة، لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقةٍ من حضارة الأمم التي قهروها، وعكسُ ذلك أمر العرب الذين أنشأوا بسرعةٍ حضارةً جديدةً كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، والذين تمكنوا من اجتذاب

أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم فضلاً عن حضارتهم الجديدة، واتصلت بالعرب أممٌ قديمة، كشعوب مصر والهنود، واعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفنَّ عمارتهم، واستولت بعد ذلك الدور أمم كثيرة على الأقطار التي فتحها العرب فظلَّ نفوذ العرب فيها ثابتاً، ويلوح لنا رسوخُ هذا النفوذ إلى الأبد في جميع البقاع الآسيوية والإفريقية التي دخلوها، والتي تمتد من مراكش إلى الهند، والإسبان وحدَّهم هم الذين استطاعوا أن يتخلصوا من الحضارة العربية، ولكنهم لم يصنعوا هذا إلا ليقعوا في الانحطاط العُضال كما يأتي بيانه.

(٣) خلفاء محمد الأولون

لم يكن عمل محمد حين وفاته في سنة ٦٣٢م في غير دور التكوين، وكانت ضروب الأخطار تنذرُ بزواله إلى الأبد، وكانت وُحدة بلاد العرب السياسية التي نمت على يده نتيجة الوحدة الدينية التي أنشأها، وكان من الممكن أن تنقضي هذه الوحدة الدينية بانقضاء موجدتها.

أجل، استطاع العرب أن يدينوا لرسولٍ من الله، ولكن لم يدلَّ شيءٌ على وجوب نصب خليفة بعده، وهنالك قبائل كثيرة، ضحَّت بحريتها ونزعت ما فيها من حقد على أي سلطان إجابةً لدعوة رسول الله، لم ترَ أن تخضع لحكم خلفاء لم يُحدِّث عنهم حتى يدعوا ممارسةً مثل سلطانه.



شكل ٣-٧: قطعة أخرى من نقود صلاح الدين.

وكانت هنالك أخطارٌ أخرى أعظمُ من تلك تُهدِّدُ بخنقِ عملِ محمد في مهده، فقد ظهر متهوسون كثيرون هزَّهم ما نال محمد من التوفيق، ورأوا أن يدَّعوا النبوة أيضًا، فاستطاع أحدهم أي يجعل سكان نصف اليمن من أتباعه، ولولا قتل بعض المؤمنين إياه لخسر الإسلام أحسن ولاياته، واقتصر متهوسٌ آخر على إضافة بعض السُّور إلى القرآن، وبلغ من النفوذ، لزم من معين، ما يقرب من نفوذ الخلفاء الأولين.

إذن، كانت أمام دينِ محمدٍ عوائقٌ كثيرة اقتُحمت بفضل عبقرية أصحابه الذين اختاروا خلفاء لم يفكروا في غير تنفيذ شريعة القرآن واحترامها، ولم يُطعهم العرب في الظاهر، بل أطاعوا شريعة ذات مصدر إلهي لم يجادلوا فيه.



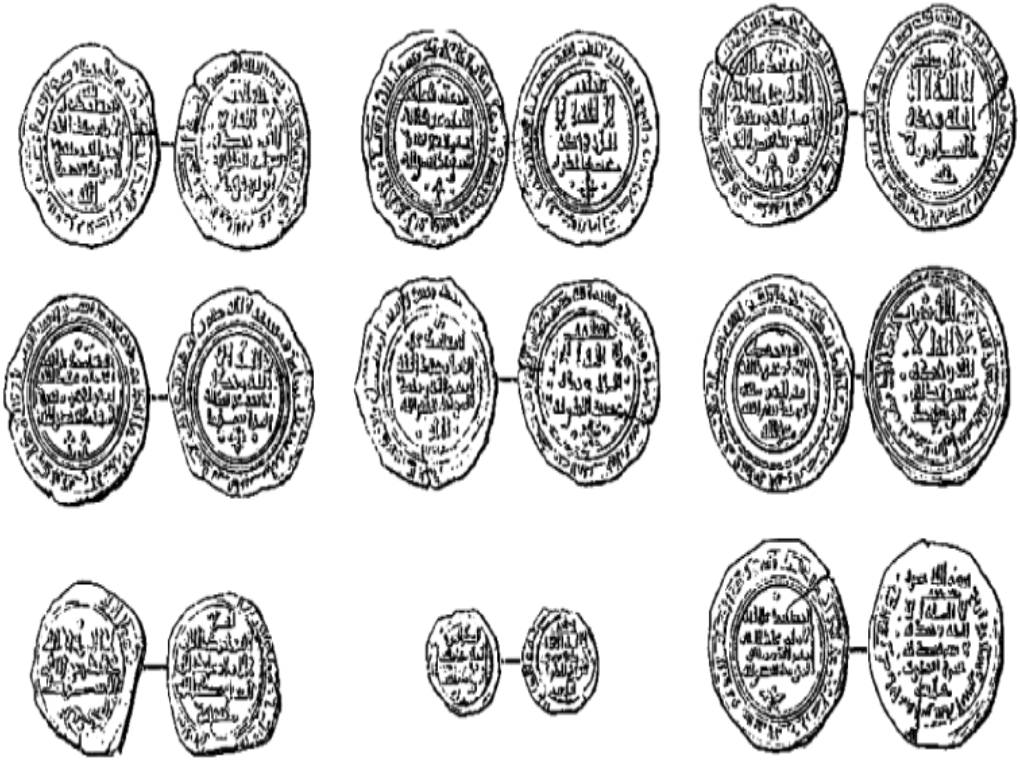
شكل ٣-٨: قطعتان من نقود الملك الكامل ضُربتا في أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، وعلى أحد وجهيها اسم الخليفة العباسي ببغداد.

وكان الخلفاء الأولون، وهم أبو بكر (٦٣٢م-٥٣٤م) وعمر (٦٣٤م-٦٤٤م) وعثمان (٦٤٤م-٦٥٥م) وعلي (٦٥٥م-٦٦٠م)، من صحابة محمد، وقد اقتدى هؤلاء الخلفاء بمحمد في زُهدِه وبسيطِ عاداته، فلم يترك أبو بكر حين وفاته غير ثوبه الذي كان يُلْبَسُه، وبعيره الذي كان يَرْكَبُه، ومولاه الذي كان يَخْدُمُه، ولم يأخذ من بيت المال في حياته سوى خمسة دراهم مُياومةً ليعيش بها، وكان عمر يلبس ثوبًا مُرقعًا، وينام على درج المسجد بين المساكين مع اقتسامه هو وجنودُه مغانم كثيرة.

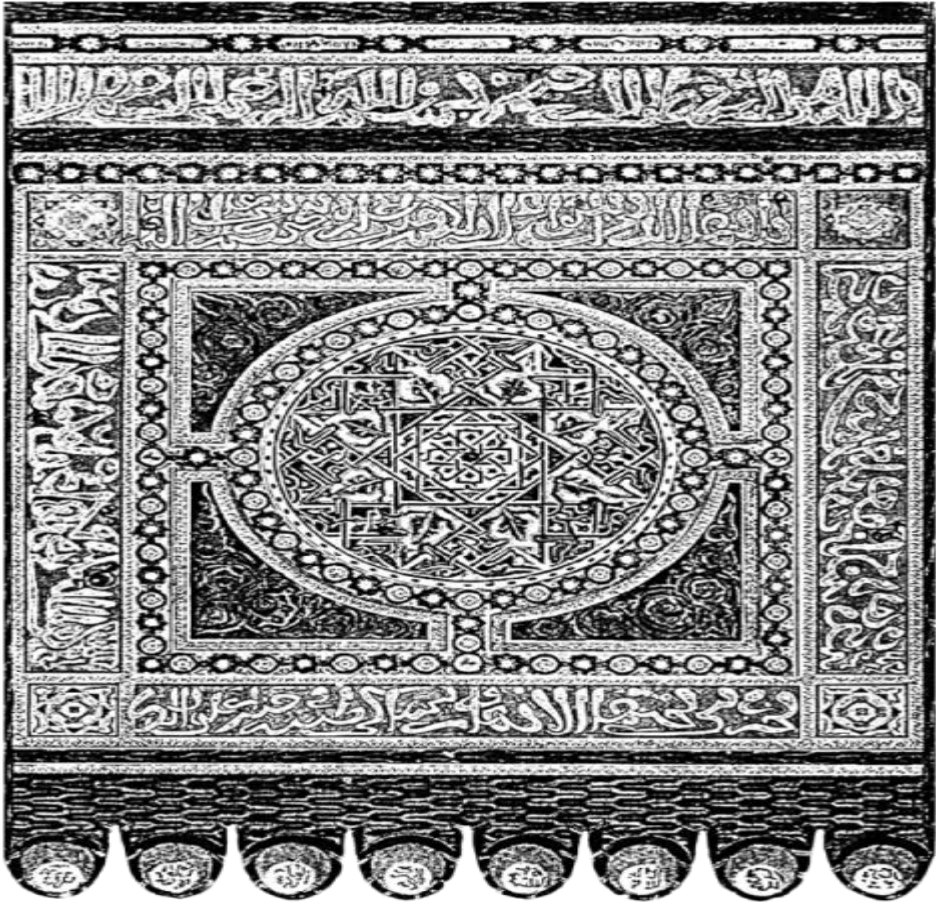


شكل ٩-٣: قطعة من نقود السلطان بيبرس.

ولم ينتقل العرب من النظام الديمقراطي إلى النظام الملكي إلا بالتدريج، وكانت المساواة تامة في عهد الخلفاء الأولين، وكانت الشريعة للجميع على السواء، فمثّل عليّ بين يدي القاضي لمقاضاة من اعتقد أنه سارق سلاحه، وأتى ملك غسان وقومه الذين اعتنقوا الإسلام مكة للاجتماع بعمر، ولطم عربياً وطيّ إزاره واشتكى العربيّ إلى عمر، ورأى عمرُ العملَ بما تأمر به الشريعة من إقامة الحد، فقال الملك: «كيف ذلك يا أمير المؤمنين، وأنا ملكٌ وهو سوقة؟» فقال عمر: «إن الإسلام جمعكما، وسوّى بين الملك والسوقة في الحد.»



شكل ٣-١٠: تسع قطع من نقود عرب الأندلس (متحف العاديات الإسباني).
ولم يَدُم ذلك العدل زمنًا طويلًا، فقد صار الخلفاء ملوكًا مستبدين، وإنما بقي العرب
متساوين أمام القرآن حتى الزمن الحاضر.

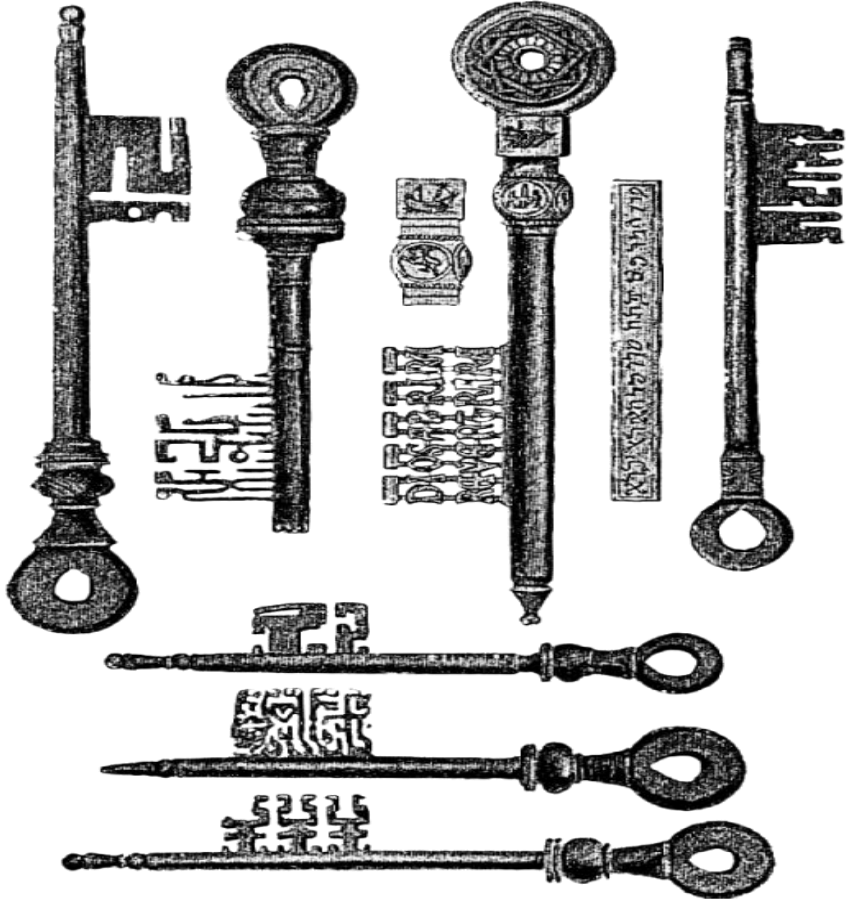


شكل ٣-١١: شعار الموحدين العربي (متحف العاديات الإسباني).

وأبو بكر هو خليفة النبي الأول، وكان محمدٌ قد أمره، ذات مرّة، أن يقوم مقامه في الصلاة فكان هذا عاملاً في انتخابه خليفةً، وصار الانتخاب عاملَ شقاق، وأخذ هذا الشقاق يحدث عند نصب الخلفاء، وروى مؤرخو العرب أن أول خطبة لأبي بكر، بعد مبايعته بالخلافة، كانت ما يأتي:

أيها الناس، قد وليتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء

الله، والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ... أطيعوني ما أطعت
الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ...



شكل ٣-١٢: مفاتيح عربية لبعض المدن والقصور (متحف العاديات الإسباني).
وكان أبو بكر مضطراً إلى مقاومة الطامعين في الخلافة، وإلى محاربة القبائل التي امتنعت
عن أداء ما فرض القرآن من الزكاة، ولم يلبث أبو بكر أن رأى أن أحسن وسيلة لمعالجة
انقسام العرب هو أن يوجّه العرب إلى البلاد الأخرى كيما يمارسون عاداتهم في الحرب
والقتال، وسار الخلفاء الذين أتوا بعده على هذه السياسة الرشيدة التي انتشر بها الإسلام.

وأخذ العرب يتقاتلون بعد أن خلا العالم من بلد يفتحونه، وحلّت ساعة تفرّق كلمتهم، ودخلوا دور الانحطاط، وقوّضوا كيانهم بسلاحهم أكثر مما قوّض بسلاح الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وبدأت الفتوحات الكبيرة في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فقط، أجل، إن العرب نالوا عدّة انتصاراتٍ في سورية في خلافة أبي بكر، ولكن مهارتهم الحربية كانت ضعيفة مع شجاعتهم العظيمة — كما قلنا — فكان يتخلّل تلك الانتصارات نوازلٌ إلى أن حذقوا صنع السلاح كأعدائهم.

وكان عمر بن الخطاب قائدًا بارعًا وسياسيًا ماهرًا، وكان عنوان العدل والإنصاف، وقد روى مؤرخو العرب أنه علا المنبر بالمدينة حينما أفضت إليه الخلافة وقال: «يا أيها الناس، والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعفُ عندي من القوي حتى آخذ الحقّ منه.»

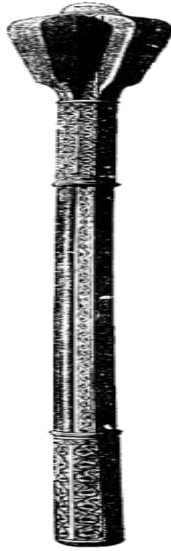
والحقُّ أن الدولة العربية العظمى بدأت في خلافة عمر بن الخطاب، وأما القيصر هرقل الذي أكره على مغادرة سورية والالتجاء إلى عاصمته القسطنطينية فقد أدرك أن العالم سيكون له سادة جدد.

(٤) خلاصة تاريخ العرب

نلخص فيما يأتي تاريخ وقائع العرب الحربية المهمة في القرون الثمانية التي دامت فيها حضارتهم:

القرن الأول من الهجرة: كانت فتوحات خلفاء محمد الأولى في بلاد العراق الخاضعة لدولة الفرس، وفي بلاد سورية الخاضعة لقيصر القسطنطينية هرقل، وكان بدء فتح هذين

القطرين في زمن الخليفة الأول الذي لم يلبث أن تُوفي فواصله عمر الذي دخل القدس بنفسه فحسّر الروم، في سبع سنين، بلاد سورية التي ظلوا حاكمين لها سبعمئة سنة. ودوّخ جنود عمر بلاد العراق وفارس من فورهم، أي كفى لثلّهم عرش بني ساسان وهدمهم الدولة الفارسية العريقة في القدم حروب شهرين. ونالت كتائب عمر، التي كان يقودها المجاهد الشاعر عمرو بن العاص، في الغرب انتصارات سريعة، واستولت على بلاد مصر والنوبة، وكانت الدولة العربية التي وُلدت منذ عشرين سنة على جانب كبير من الاتساع حين وفاة عمر في سنة ٦٤٤ م. وداوم الخليفة الثالث عثمان، الذي بلغ الثمانين من عُمره، على الفتوح، وأتمّ قُواده فتح بلاد فارس، ووصلت جيوشه إلى بلاد القفقاس، وأخذت ترتاد الهند.



شكل ٣-١٣: دبوس أمير عربي في مصر على الطراز الفارسي العربي (هذا السلاح والسلاح الآتي من تصوير باريس الأفيني).

وكان الخليفة الرابع عليّ، وهو صهر النبي (٦٥٥م)، هدفًا للدسائس التي كادت الدولة العربية تنهار بسببها، وقُتل عليّ بعد خلافة دامت خمس سنين، فختم بوفاته دور الخلفاء الأولين الذين كانوا من أصحاب محمد السابقين المعدودين آباء الإسلام. وفتّح دور خلفاء بني أمية بمعاوية (٦٦٠م)، ونقل هؤلاء مقرّ الخلافة إلى دمشق، وصاروا يسIRON على نمط ملوك آسية.

وأرسل الخليفة الجديد كتائب إلى شمال إفريقيا الذي جعل منه حكومة منفصلة، ولم يُعقّ زحفها غير المحيط الأطلنطي، وجاب البحر المتوسط أسطولاً مؤلف من ١٢٠٠ قطعة، فاستولى على جزّره وأغار على صقلية. وحوصرت القسطنطينية سبع سنين على غير جدوى، وعبر نهر جيحون، ورَفَع قُوَادُ الخليفة رايته حتى سمرقند.

ومات معاوية (٦٨٠م) بعد حُكم دام عشرين سنة. وثابر بنو أمية على الفتح، وبلغت جيوشهم حدود الصين من الشرق والمحيط الأطلنطي من الغرب، وجاوز العرب مضيق جبل طارق في سنة ٧١٢م، ودخلوا إسبانية، ووفّقوا لنزعها من مملكة القوط النصرانية، وأقاموا فيها مملكة خَضَعَت لسلطان العرب نحو ثمانية قرون.

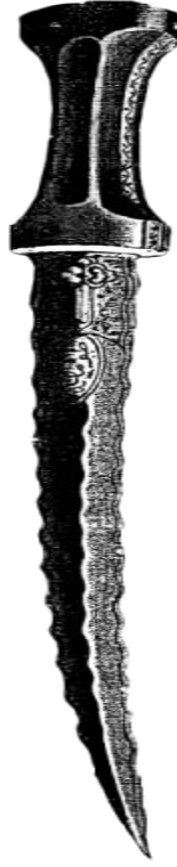
ولم ينقضي القرن الأول من الهجرة حتى كانت راية النبي تخفق من الهند إلى المحيط الأطلنطي، ومن القفقاس إلى الخليج الفارسي، وغدت إسبانية، التي هي إحدى الممالك النصرانية الكبرى في أوربة، خاضعة لشريعة محمد.

القرن الثاني من الهجرة: اتسع نطاق الفتوح العربية قليلاً في القرن الثاني من الهجرة، وأصبح هم العرب مصروفًا إلى تنظيم دولتهم العظمى على الخصوص، وتوغلت

جيوشهم في بلاد الغول حتى اللوار حيث دحرها شارل مارتل، واستقروا بجنوب فرنسا إلى أن طردهم شارلمان منه نهائياً.

ونُقِلَ، في القرن الثاني من الهجرة، مقرُّ الخلافة من دمشق إلى بغداد التي أنشأها المنصور في سنة ٧٦٢م، بعد أن تمت الخلافة فيه لبني العباس (عم النبي) الذين هدموا دولة الأمويين في سنة ٧٥٢م، وقتلوهم خلا طريدٍ منهم استطاع أن يفر اتفاقاً، وأن يقيم دولة مستقلة في إسبانية سنة ٧٥٦م.

واتَّسعت رقعة الدولة العربية منذ أوائل القرن الثاني من الهجرة، وبلغت من الحدود ما لم تقدر على مجاوزته باسطةً حكمها من جبال البرنات وجبل طارق إلى الهند، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال الصحراء.



شكل ٣-١٤: خنجر أمير عربي في مصر.

وصار معظم آسية خاضعًا لسلطان الخلفاء الممتد من جزيرة العرب إلى التركستان، ومن وادي كشمير إلى جبال طوروس، وعُبدت بلاد فارس، وصار ملوك كابل وجميع أمراء وادي السند يُعطون الجزية، وأضحى العرب في أوربة مالكين لإسبانية ولجزر البحر المتوسط، وأضحوا في إفريقية مالكين لشمالها ولمصر.

وانتهى دور الفتوح، وبدأ دور التنظيم، وحوّل الفاتحون نشاطهم إلى ميدان الحضارة، وكان عهد بني العباس الأولين عهد ازدهار لحضارة العرب في الشرق، وكان عهدًا اقتبس

العرب فيه ثقافة اليونان، فلم يُعْتَمَدوا أن أبدعوا حضارة ساطعةً ازدهرت فيها الآداب والعلوم والفنون.

ونفضت الفنون والعلوم والصناعة والتجارة بسرعة في زمن هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) على الخصوص، وصار الشعراء والعلماء وأرباب الفن يُشيدون بذكر بطل ألف ليلة وليلة في أقاصي العالم، وأعطته القسطنطينية جزيةً، وأرسل إليه إمبراطور الغرب، شارلمان، وفدًا، ولم يَقلَّ عصر المأمون عن عصر سلفه الرشيد نضارةً.

ولم تكن الروابط بين الأمم التي اجتمعت تحت راية الدولة العربية العظمى متينةً، ولم تلبث هذه الروابط أن انحلت، ولم تلبث هذه الأمم أن أخذت تستقل تبعًا مع دوام الحضارة على سيرها زمنًا طويلًا، وسيكون القرن الثالث من الهجرة شاهدًا على هذا الانقسام الذي أخذ يبدو منذ أواخر القرن الثاني.

القرن الثالث من الهجرة: كان قيام خلافة قرطبة في الغرب قبل ذلك نذيرَ انقسام دولة العرب، فظهرت في بلاد فارس والهند بشرق بغداد إماراتٌ كثيرة، ولم تنشب هذه العاصمة أن أحاط بها أمراء مستقلون.

ويشتري ابنُ طولون استقلاله السياسي بمصر، ويقيم فيها مملكة، ويُلقَى حبل إفريقيا على غاربها، ويملك إسبانية خلفاء مستقلون استقلالًا تامًا.

القرن الرابع من الهجرة: استمرت الدولة العربية على الانقسام في القرن الرابع من الهجرة، وقامت دولٌ مستقلة في كثير من ولاياتها، وخسرت بغداد ما للعواصم من المزايا، وصارت القاهرة قاعدة الإسلام الحقيقية، وأصبحت إسبانية أنضر مقر للحضارة العربية مع دوام عاصمة الخلفاء القديمة على إلقاء أشعتها الساطعة، ويقصد طالبو العلم من

جميع أقطار الأرض، ومنها أوربة النصرانية، جامعات العرب الكبيرة في طليطلة وغرناطة وقرطبة.



شكل ٣-١٥: حربة أمير عربي في مصر.

القرن الخامس من الهجرة: شهد القرن الخامس من الهجرة أمرين مهمين؛ وهما: الحروب الصليبية، وظهور الأتراك السلجوقيين في العالم العربي، وكان قد جيء بهؤلاء السلجوقيين البرابرة من التركستان كأسرى حرب في بدء الأمر، ثم تألف منهم حرسُ الخلفاء ببغداد، فابتلعوا السلطة الحقيقية شيئاً فشيئاً غير تاركين للخلفاء من السلطة سوى المظاهر.



شكل ٣-١٦: فأسا أمير عربي في مصر.

وجعل السلجوقيون مقرهم أمام القسطنطينية بعد أن ملكوا جميع الولايات المجاورة لبغداد، واستولوا على سورية، وأحلوا تعصبهم محل تسامح العرب، ونهوا النصارى عن القيام بشعائر دينهم، وجاروا على حجيجهم، فاضطربت أوربة وثار، بعد أن كانت تخشى تقدم المسلمين منذ زمن طويل.

ونشأ عن مواعظ بطرس الراهب ودعوة البابا أوربان الثاني أن جرّد الأوربيون حملتهم الصليبية الأولى في سنة ١٠٩٥م وانقضوا على فلسطين، واستولوا عليها، وأنشأ غودفروا البويوني مملكة القدس النصارانية الهزيلة.

ومما حدث في القرن الخامس من الهجرة أن طُرد العرب من صقلية، وأن حالف نصارى إسبانية بعضُ التوفيق، فاستولى الأذفونش القشتالي على طليطلة، فكان هذا بداية الفتح الذي لم يتم إلا بعد جهود أربعة قرون.

القرن السادس من الهجرة: أدى انتصار النصارى الأول في الشرق إلى زيادة الحماسة في أوربة، فجرّدت أوربة حملةً صليبية ثانية على الإسلام في سنة ١١٤٧م، فكانت نتيجة هذه الحملة وبالأعلى الصليبيين كآية حملة جردتها أوربة بعدئذ على العالم الإسلامي، فقد استولى سلطان مصر الشهير صلاح الدين الأيوبي على بلاد فلسطين، وطرد منها النصارى، وبقي سيد المدينة المقدمة على الرغم من الحملة الصليبية الثالثة التي جردتها أوربة في سنة ١١٨٩م بقيادة فردريك بار باروس وفليب أوغست وقلب الأسد: ريكاردس.

القرن السابع من الهجرة: جرّد الأوربيون على الإسلام عدة حملات صليبية كان نصيبها الحبوط الذريع، واكتسح الصليبيون في حملتهم الرابعة التي جردوها في سنة ١٢٠٢م مدينة القسطنطينية المسيحية بدلًا من مقاتلة المسلمين، وأقاموا فيها دولة لاتينية شرقية لم يكتب لها البقاء أكثر مما كُتب لدولة القدس، ولم تكن الحملات الصليبية الأربع الأخيرة أوفر حظًا مما تقدمها، وأسر الملك سان لويس في الحملة السابعة، واقتدى نفسه بفدية عظيمة، ومات هذا الملك في الحملة الثامنة بالطاعون حين اقترب من أسوار تونس طامعًا في تنصير أميرها.



شكل ٣-١٧: خوذة أمير عربي في مصر (على الطراز الفارسي العربي).

وكانت هذه الحملة الثامنة آخر الحملات الصليبية، وأدرك العالم النصرانيُّ بها أنه لا يزال عاجزًا عن قهر المسلمين، وعدل عن فتح فلسطين، وظلت الراية الإسلامية تتخفُّ فوقها حتى الآن.

وبينما كان العرب يدفعون نصارى الغرب في أثناء الحروب الصليبية، ويخرجون منها ظافرين — ظهر في الشرق الأقصى عدوٌّ مخيف، فقد قذفت نجود التتر تيار المغول الذي انقض على آسية بقيادة جنكيزخان، واكتسح بلاد الصين وفارس والهند، ثم استولى المغول على بغداد في سنة ١٢٥٨م، وقضوا على العباسيين الذين كان لهم السلطان منذ خمسمائة سنة.

وعلى ما بين الترك والمغول من شَبِّهِ في الهمجية كان المغول أكثر استعدادًا للثقافة، فالمغول وإن لم يكونوا أهلًا لإبداع حضارة جديدة كما أبدع العرب، استطاعوا أن يتنفعوا بحضارة العرب الذين، وإن زال ملكهم في الشرق، ظلت حضارتهم تُهيمن عليه. وانحصر سلطان العرب في مصر وإسبانية بعد أن تكمَّش أمام أولئك الفاتحين.

القرن الثامن من الهجرة: كان القرن الثامن من الهجرة حافلًا باقتتال الترك والمغول على ميراث العرب في الشرق، وقد دَقَّت ساعة انحطاط هؤلاء الآخرين.

القرن التاسع من الهجرة: قُضِيَ على دولة العرب وحضارتها في إسبانية التي ملكوها نحو ثمانمائة سنة، وذلك أن فردياند استولى على عاصمة العرب الأخيرة غرناطة في سنة ١٤٩٢م، وأنه أخذ يمعن في قتلهم وتشريدهم جماعات جماعات، وأن خلفاء ساروا على سَنَّتِهِ، وأنه قُتِل من العرب وشُرد ثلاثة ملايين نفس، فخبث إلى الأبد شعلة حضارة العرب التي كانت تنير أوربة منذ ثمانية قرون.

وكانت خاتمة دولة العرب في القرن التاسع من الهجرة، ولم يبقَ للعرب في الشرق من الشأن الكبير في غير دينهم ولغتهم وحضارتهم، وحاولت الأمم التي قهرت العرب أن تسير على نحو العرب كما صنع البرابرة الذين قهروا الرومان، فأحلتَّ الهلال باسم القرآن محلَّ الصليب في القسطنطينية التي كانت عاصمة الروم، فارتعدت فرائص العالم النصراني فرقًا من ذلك.

ولكن الترك، وإن كانوا أهل حرب وقتال، لم يكونوا أهلًا ليصعدوا في سلم الحضارة، ولم يقدروا على الانتفاع بتراث العرب المغلوبين الثقافي، فضلًا عن إنثائه، ويقول العرب: «لا يَنْبُتُ العشب على أرض يطأها الترك»، والحق أنه لم ينبت، فسترى في فصل آخر دركة الانحطاط التي هبطت إليها دولة العرب القديمة بسرعة بين أيدي سادتها الجدد.

الباب الثالث: دولة العرب

الفصل الأول العرب في سورية

(١) اختلاف البيئات التي لاقاها العرب

وقفنا هذا الفصل وما يليه في فصول هذا الباب على البحث في شأن العرب في مختلف البلدان التي استولوا عليها، وغايتنا من ذلك بيان حضارة العرب بياناً مجملًا، وإيضاح تأثيرهم في الأمم التي عاشروها، وتأثير هذه الأمم فيهم، ونرى أن نُقدِّر حضارة العرب بالبحث في آثارهم في كل بلد افتتحوه، فإذا تيسر لنا ذلك أمكننا أن ندرس، في فصول هذا الكتاب، مختلف العناصر التي تتألف من مجموعها حضارة العرب.

كانت أمم البلاد التي استولى العرب عليها في آسية وإفريقية وأوربة وأقاموا عليها دولتهم العظمى متباينة أشد التباين حين الفتح العربي، فأنت، إذ كنت ترى بينها أمما من أنصاف البرابرة، كالتي في بعض أجزاء إفريقية، كنت ترى منها أمما بلغت الذروة من الحضارة اليونانية والحضارة اللاتينية كالتي في سورية.

إذن، كانت الأحوال التي صاقت العرب مختلفة باختلاف الأماكن، وكان من الحق أن يجد الإنسان تفاوتًا في درجات حضارتهم تبعًا لتفاوت البيئات.

ذلك ما يتجلى لنا في تاريخ حضارة العرب كلما توغلنا في تفصيلاته، وتشتمل حضارة العرب التي دامت ثمانية قرون على درجات كثيرة خلافاً لما ذهب إليه المؤرخون الذين تعودوا، حين البحث في حضارة العرب، أن ينظروا إليها من خلال أمة واحدة ودور واحد، وكان للعمارة والآداب والعلوم والفلسفة والدين درجاتٌ تطوّر مختلفة باختلاف الأقطار التي خضعت لسلطان العرب، ولم يمنع ذلك من أن يكون للعرب تراثٌ مشترك من الناحية الدينية والناحية اللغوية ما دام الإسلام دينهم والعربية لغتهم، ولكن وحدة اللغة والدين لا تعني وحدة حضارة العرب في مختلف البلدان التي خضعت لشريعة

محمد، كما أنك لا تستطيع أن تخلط حضارة الأمم النصرانية في القرون الوسطى بحضارتهم في عصر النهضة أو في الوقت الحاضر.

(٢) استقرار العرب بسورية

كان البلد الغني، سورية، قد أصبح رومانيًا قبل الفتح العربي بنحو سبعة قرون، ويوجد ارتباك وغموض في أخبار المعارك الأولى التي أدت إلى فتح العرب لسورية، فأما مؤرخو العرب، وعلى رأسهم الواقدي الذي يُرجع إليه على العموم، فإنهم مزجوا الحقائق بالخيال، فحط ذلك من قيمة قصصهم، فأنت إذا أنعمت النظر في روايات الواقدي رأيتك يُذكَر، حين بحثه في وقائع العرب الحربية، بأبطال أوميرث مع رفع لقيمة المرأة في تلك الوقائع، وأما مؤرخو الروم فقد التزموا جانب الصمت عن فتح سورية الذي كان كله عارًا على دولة بزنطة القوية.



شكل ١-١: أسوار دمشق (من صورة فوتوغرافية).

ومهما تكن دقائق الفتح العربي لسورية فإن سورية خضعت لحكم العرب بعد حرب سجال بين العرب والروم.

وفتح دمشق من أهم فتوح العرب في سورية، ولم تلبث دمشق الشهيرة أن أصبحت في العهد الأموي عاصمة الدولة العربية بدلاً من المدينة.

وتَمَّ فتح دمشق يوم وفاة الخليفة الأول أبي بكر في السنة الثالثة عشرة من الهجرة (٦٣٤م)، وصرخ هرقل حين آتاه خبر سقوط دمشق قائلاً: «وداعاً يا سورية!»

حقاً لقد خسر الروم سورية، فقد استولى العرب بعد معركة اليرموك الشهيرة، التي دامت ثلاثة أيام وانتهت بانتصار العرب، على جميع مدن سورية، وفتحوا عنوةً تدمر وبلبل وأنطاكية وطبرية وناבלس والقدس وطرابلس وغيرها، وأكره القيصر على مغادرة سورية إلى الأبد بعد أن ملكها أسلافه منذ سبعة قرون.

وكان لفتح القدس دويٌّ عظيمٌ بين المدن التي استولى عليها المسلمون، وكان المسلمون يعلقون أهميةً كبيرةً على فتح هذه المدينة التي كانوا يقدسونها تقديس النصارى لها، ففيها توفي المسيح الذي هو عند المسلمين من أعظم الأنبياء، وفيها الصخرة الشهيرة التي عرج منها محمد في السماء.

هجم العرب على القدس بشدة كالتّي أبدت للدّب عنها، وحث البطرك صفرونيوس الحماة النصارى على الدفاع عن قبر الرب فلم يُجد ذلك نفعا تجاه القدر الذي قضى بأن تحلّ راية الإسلام محلّ الصليب فوق قبر يسوع، ورأى صفرونيوس أن يُدعّن بعد حصارٍ دام أربعة أشهر، واشترط أن يتسلم الخليفة عمر القدس بنفسه فقبِلَ ذلك، فركب عمر بعيراً، وغادر المدينة وحده تقريباً، ولم يأخذ معه من الزاد سوى قربة ماء وجراب شعير وأرز وتمر، وأغذَّ عمر في السير ليل نهار؛ ليصل إلى القدس في وقت قصير، فلما دخل القدس أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أمّنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم، ولم يفرض سوى جزية زهيدة عليهم.

وأبدى العرب تسامحاً مثل هذا تجاه المدن السورية الأخرى كلّها، ولم يلبث جميع سكانها أن رَضُوا بسيادة العرب، واعتنق أكثر أولئك السكان الإسلام بدلاً من النصرانية، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية، وظلت سورية بلدًا عربيًّا إسلاميًّا كما كانت في أوائل الفتح العربي مع تداول كثير من الفاتحين لسيادتها بعد ذلك.

ولما توالى هزائم الروم في سورية استحوذ عليهم خوف عظيم من العرب الذين أمعنوا في ازدرائهم.

ومن الأدلة على ذلك الكتابُ الآتي الذي أرسله عمر بن الخطاب إلى هرقل يطالبه فيه بإطلاق قائدٍ عربيٍّ أسره الروم في إحدى الوقائع:

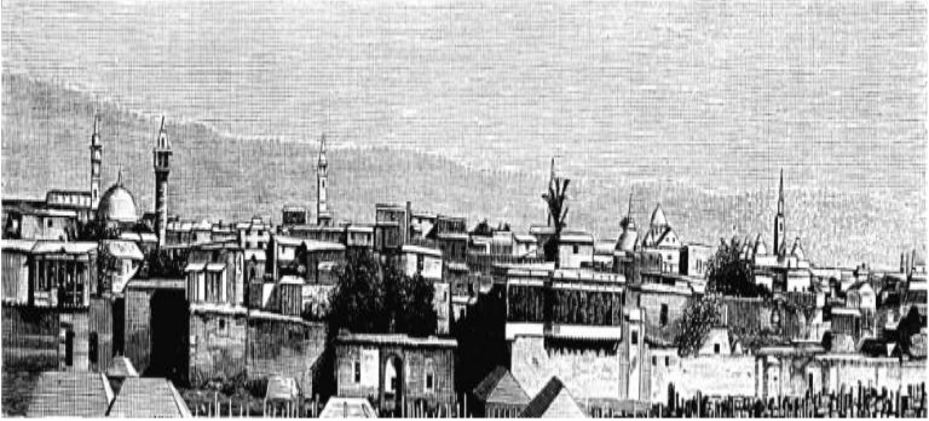
بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم، أطلقوا الأسيرَ المسلم، عبدَ الله بن حذافة، حين وصول كتابي هذا إليكم، فإن فعلتم ذلك رجوت من الله أن يهديكم الصراط المستقيم، وإن لم تفعلوا فإنني أبعث إليكم رجالاً لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن الجهاد في سبيل الله، والسلام على من اتبع الهدى.

ولم يكن القيصر هرقل ليغضب من هذا الكتاب الشديد، فقد أطلق الأسيرَ مصحوبًا بهدية ثمينة إلى الخليفة، وهرقل هذا هو وارث عرش القياصرة الجبارين الذين دوّخوا العالم، فخلف من بعدهم خلف فقدوا المشاعر التي كان فيها سرُّ عظمتهم.

وعاد عمر إلى المدينة بعد أن تم فتح سورية، ونظّم شؤون الدولة الفتية موصيًا قواده بتوسيع رُقعتها، ووَزَعَ عمر الغنائم العظيمة التي أخذها المسلمون من الروم والفرس على أصحابه، وجعل لهم، على حسب قَدَمِ خِدْمَتِهِمْ، رواتبَ سنوية تترجح بين ألف درهم وخمسة آلاف درهم.

(٣) حضارة سورية أيام سلطان العرب

استردت سورية أيام الحكم العربي ما أضاعته من الرِّخاء منذ زمن طويل، وبلغت درجة رفيدة من الرقي في العهد الأموي والصدر الأول من العهد العباسي، وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي، وترك العرب الناس أحرارًا في أمور دينهم، وأظّل العرب أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقًا من الدعة والطُمأنينة، وبلغت الصناعة والزراعة درجة رفيدة في سورية، وازدهرت بسرعة كبريات المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق.



شكل ١-٢: حي الميدان بدمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وكانت سورية من أغنى أقطار العالم دائمًا ما لم تنلها أيدي التخريب، فهي ذات أرض كانت تُنبت البُرّ والقطن والشعير والأرزّ والتوت والزيتون والليمون والبرتقال من غير عناء، وكانت جبال لبنان مستورةً بأعزّ الأشجار، كشجر البلوط والدُّلب^{٦١} والجميز... إلخ، ولولا الإنسان لكان هذا البلد القديم جنة الأرض، واستحقّ تسمية العبريين له بأرض الميعاد، ذلك البلد العجيب الذي وَصَفَ شعراء العرب كل جبل فيه بأنه يحمل

^{٦١} الدلب: شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمرة.

الشتاء على رأسه، والربيع على كتفيه، والخريف على صدره على حين يَرُقْدُ الصيفُ متثاقلاً
على قدميه.



شكل ١-٣: شارع في دمشق (من صورة فوتوغرافية).
ويُستدَلُّ على حضارة سورية أيام سلطان العرب بما رواه الكُتَّاب، وبما لا يزال قائماً فيها
من المباني.

وروى المؤرخون أن سورية لم تلبث أن ازدهرت بعد أن فتحها العرب، فقد جَدَّ العرب في
دراسة كتب اليونان والرومان مثلما جَدُّوا في ميادين القتال، وأنشأوا المدارس في كل
مكان، وصاروا أساتيد من فورهم بعد أن كانوا تلاميذ، وأنهمضوا العلوم والشعر والفنون
الجميلة أيما إنهاض.

ودام رخاء سورية حتى دور الانقسام الذي زلزل دولة الخلافة، وأخذ يُنْقَص، ولم يتم زواله إلا حين غدت سورية تابعة لدولة الترك، فصرت لا ترى فيها شيئاً مما كان في أيام الحكم العربي من النفائس والفنون والصناعة، وأصبحت المدن الكبيرة القديمة، كصيدا وصور، قُرَى حقيرة، وتعرّت الجبال تماماً، وهجر الناس الحقول الغنية بعد ازدهارها فيما مضى، وأضحّت هذه الأماكن الخصبّة لا تُثبت عشباً ما نُقِلَتْ عليها وطأة الترك، قال مسيو دافيد في تاريخه عن سورية:

كان من العبث أن أدّت حضارة الخلفاء في قرنين، كما أدّى الأغارقة والرومان، إلى إنشاء المباني الرائعة، وصنع النفائس الفاخرة، ونشر اللغة الراقية، ووضع طرائف نحوها المنطقية، وقول أشعارها البليغة، وكأنّ من العبث أن سقت دمشق الفولاذ، وغزّلت حلب الحرير اللامع، وكان من العبث أن أزيّنت ربّاً حوران وهضابها بالزرع وأشجار الفاكهة الذهبية، وأن أبدى أهلوها نشاطاً فائقاً، فقد حرّق، عن عمد، أجلاف القفقاس، الذين بزّوا جميع قدماء الفاتحين جهلاً وقسوة وطمعاً، آثّر الفن والعلوم، وهدموا المصانع، وقتلوا العمال، وسحقوا كل شيء لم يستطيعوا نقله.

وعادت سورية لا تكون غير بلاد جدية خربة في الوقت الحاضر، واستوقفت ثدرة نباتها نظري حين طُفّت فيها، ولاح لي أنها بلغت من الفقر ما لا تأتي معه بغير كلاً قليل، ومررت من الطريق الواقعة بين بيروت ودمشق فلم أجد أثراً للنبات في غير ما قُرب من أبواب المدن، وعاد لبنان وما وراء لبنان لا يكونان سوى صحور عارية، وليس الجذب في أبواب القدس أقلّ من ذلك، ولا ترى في كل مكان سوى الحجارة والصخور، ولا تجد شيئاً من الكلا.^{٦٢}

^{٦٢} يعود انحطاط الزراعة في سورية إلى عدة أسباب، ومنها الجفاف الناشئ عن قطع غابها، ومنها غارات الأعراب، ومنها ظلم الباشوات؛ فالفلاح، الذي يعلم أن ما يذخره يكون عرضة للنهب لا محالة،

(٤) المباني التي تركها العرب في سورية

لم تكن المباني التي تركها العرب في سورية كثيرة، وإنما يفيد درسها كثيرًا لِقَدَمها وروعها.



شكل ١-٤: ساحة المسجد الكبير في دمشق (من صورة فوتوغرافية).

ذكرنا آنفًا أنه كان للعرب مُدُنٌ مهمة قبل ظهور محمد، وأنه كان في الكعبة الشهيرة أكثر من ثلاثمائة صنم، وإننا نجهل، مع الأسف، كيف كان فن العمارة العربية قبل الإسلام، وأن ما حدث في الحرم المكي، وهو البناء العربي القديم الوحيد المعروف، من الترميم

يتقاعد عن العمل. ولو قُدر لسورية نوع من الإدارة الرشيدة التي تحمي رعوس الأموال؛ لبلغت زراعتها ما بلغه أغنى بلاد أوربة، ففي سورية ينبت القمح ويربى شجر التوت وينمو الزيتون من غير عناء وبما يثير العجب، ويستدل على ما يمكن أراضي سورية أن تنتجها بالمعلومات الآتية التي جمعتها في أمكنتها، وهي: فكر بعض سكان يافا وصيدا منذ أربعين سنة في زراعة البرتقال، فأصبحت هذه الزراعة من أهم موارد البلاد، ففي يافا وحدها ٣٥٠ حديقة برتقال تشتمل كل واحدة منها على ٢٠٠٠-٣٠٠٠ شجرة، ويترجح ثمن الواحدة منها بين أربعين ألف فرنك وخمسين ألف فرنك، ويترجح دخلها السنوي بين أربعة آلاف فرنك وخمسة آلاف فرنك، وتباع ثمار هذه الحدائق في مصر وتركية وأوربة، ويبلغ ثمن كل ألف حبة برتقال أربعين فرنكًا، ويمكنك أن تقدر المدى الذي قد تبلغه زراعة البرتقال في تلك البلاد إذا علمت أن ثمن الفدان الأملس الواحد (نحو أربعة آلاف متر مربع) الصالح لزراعة البرتقال في جوار يافا ١٢٠٠٠ فرنك، وأنه لا يزيد على بضعة فرنكات في الأراضي التي تبعد منها ساعتين أو ثلاث ساعات، وينتظر أن تعد لزراعة البرتقال الأراضي التي يسهل ربيها من نهر العوجة، والتي لا قيمة لها في الوقت الحاضر.

المتصل يجعل وَصَف ما كان عليه أيام الجاهلية أمرًا صعبًا، وكلُّ ما نتصوره هو أن المسلمين حافظوا على تربيته الأول.

ومهما يكن من أمر فإن مما لا ريب فيه أن مباني الدَّور الإسلامي الأول لم تكن من صنع العرب، وأن عمال البلاد التي دانت لهم هم الذين غيَّروا معالم الكنائس؛ لتكون موافقة لعبادة المسلمين، وأنهم أقاموا مباني العرب بأنقاض الكنائس، وأن عمال الفرس والروم هم الذين أتيح للعرب، على الأكثر، أن يستخدموهم في سورية ريثما يكونون أهلاً لذلك. وكان شأن العرب بالنسبة إلى المهندسين الأجانب الذين استخدموهم في دور الفتح كشأن الرجل الغني الذي يقيم لنفسه بيتًا، فكما أن المهندس الذي يرسم بيتَ ذلك الغنيِّ يراعي فيه، لا ريب، ذوقه نرى مهندسي الروم قد راعوا ذوق العرب فيما أقاموا لهم من المباني الأولى، فتَجَلَّت عبقرية العرب فيها.

ولم يلبث العرب، بعد أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية، أن أصبح لعمارهم من الأشكال والنقوش الخاصة ما صار يتعذر معه خلطها بغيرها، وإن أمكن أن يَرى شيء من الأثر البزنطي أو الفارسي أو الهندي في بعض زخارفها مع محافظة البناء في مجموعة على طابعه العربي.

ولنبحث الآن في بعض المباني المهمة التي تركها العرب في سورية:

(٤-١) جامع عمر

جامعُ عمر الشهير القائم في القدس هو عند المسلمين أقدس مكان في الأرض بعد الحرم المكي والحرم المدني، وقد كان دخوله، حتى السنين الأخيرة، مُحَرَّمًا على كل أوروبي، وإلا قُتل، وقد قضى الصليبيون منه أعظم العجب حين اقتحموا القدس، وقد عدَّوه معبد سليمان، وقد نال شهرةً عظيمةً في أوربة فأقيمت فيها كنائسٌ كثيرةٌ على طرازه، وقد يكون

جامع عمر البناء الدينيّ العالميّ الوحيد المقدس عند المسلمين واليهود والنصارى على السواء.

بُنِيَ جامع عمر على مكان هيكل سليمان الشهير الذي جدّده هيرودس، وأُعجب بأبهته تيطس، ذات ساعة، حين حاول إنقاذه من اللهب، وعلى الصخرة التي أراد إبراهيم ذبح ابنه عليها امتثالاً لأمر الله كما تقول القصة، والأماكن التي تجمع في العالم من الذكريات مثلُ هذا المكان قليلة إلى الغاية ولا تجدُ مكاناً اتفق له من التقديس ما اتفق لهذا المكان لا ريب، ففيه كان سليمان يعبد رب اليهود القادر، وعليه كان الرومان يسبّحون بحمد ملك الآلهة والناس جو پيتر العظيم، وفيه وضع الصليبيون صورة المسيح، والآن يعبد المسلمون فيه إله النبيّ محمد.



شكل ١-٥: مئذنة عيسى في المسجد الكبير بدمشق.

ولم تكن قيمة جامع عمر بما يثير من الذكريات فقط، بل هو من أهم ما شاده الإنسان أيضًا، وهو أعظم بناء يستوقف النظر في فلسطين بالحقيقة. ويقوم جامع عمر في وَسْطِ ساحة فسيحة يبلغ طولها خمسمائة متر، وتُعَدُّ مساحتها ربعَ مساحة القدس تقريبًا، ويحيط بها سورٌ يُطلق العرب عليه اسم الحرم الشريف، وتشتمل على مبانٍ مهمة كثيرة نذكر منها المسجد الأقصى على الخصوص.



شكل ١-٦: مدرسة وأساتذتها وتلاميذها في دمشق (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وأثبتت مباحث علم الآثار الحديثة أن ساحة الحرم القدسي هي ذُرْوَة جبل مُرِّيَّة التي مهَّدها سليمان وسواها وأنشأ عليها هيكله، ووَسَّع ملوك اليهودية، ولا سيما هيرودس، نطاقها مرةً بعد مرة، ونُرَجِّح أن الصخرة المقدسة الواقعة في وسط جامع عمر كانت أعلى نقطة في ذروة جبل مُرِّيَّة؛ فاحترمها سليمان في أثناء تلك التسوية.

وبُني جامع عمر على رُقْعَةٍ من الرخام قائمة الزوايا مرتفعة ثلاثة أمتار من أرض الحرم، وقام جامع عمر على المكان الذي كان فيه هيكل إسرائيل على التحقيق، ويُرقَى إليه بمراقٍ

كثيرة قليلة الدرج تعلوها حنايا مصنوعة على رسم البيكارين قائمة على أعمدة رُخامية ذات تأثير حسن جدًا.

ويُزيّن تلك الرقعة من الحرم منابرٌ للوعظ ومحاريب للصلاة... إلخ، ويُرى بعض هذه الآثار طريقًا إلى الغاية.

ويخطئ الأوروبيون حين يُسمون ذلك المسجد جامع عمر، فهذا البناء ليس مسجدًا في الحقيقة، ولم يُنشئه عمر، وإنما أشار عمر، الذي لم يَمُكث في القدس سوى زمن قصير، إلى المكان الذي رغب في إقامة مسجد عليه، ويرى مسيو دوقوغيه أن بناء هذا الجامع تم بعد وفاة عمر بمدة طويلة، أي في السنة الثانية والسبعين من الهجرة (٦٩١م)، ولا يُسمّيه العرب بغير اسم قبة الصخرة؛ لاشتراكه، بالحقيقة، على الصخرة المقدسة التي تكلمنا عنها.

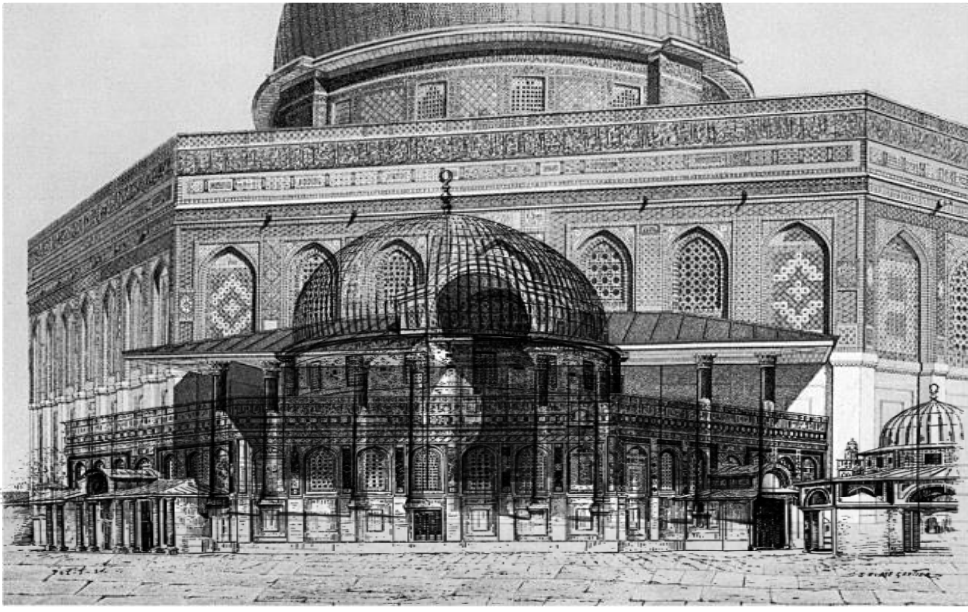
ويُذكرنا ذلك البناء الإسلامي القديم في مجموعه بالطراز البزنطي، ولكن ملوك المسلمين أصلحوه وأتموه في مختلف الأدوار، فاشتمل على نماذج مهمة للفن العربي في تلك الأدوار.^{٦٣}

^{٦٣} إن وصفنا لجامع عمر وغيره من المباني العربية مختصر عن ضرورة، وهو مع اختصاره يكفي لإتمام صور هذا الكتاب الصادقة، ويتطلب وصف كل واحد من أكثر المباني العربية المهمة، التي نذكرها في هذا السفر وصفًا جامعًا، ما لا يقل عن مجلد واحد، فقد خصص مسيو دوقوغيه مجلدًا واحدًا لوصف جامع عمر، وخصص أوين جونز مجلدين مصورين ضخمين لوصف الحمراء وحدها، وخصص پريس الأقبيني ثلاثة مجلدات لوصف مباني القاهرة، وهناك أبنية عربية كثيرة لم توصف مفصلًا بعد، واكتفى المؤرخون بذكرها من غير أن ينشروا صورها في الغالب، وإن في نشر صورة لكل واحد منها ما يعني عن بيان مائة صفحة، ونحن، والحالة هذه، نأمل أن تكون لدى القارئ فكرة جامعة صائبة في مباني العرب بعد إنعامه النظر في الصور التي عرضناها في هذا الكتاب، ونرى أن صورنا الفوتوغرافية، التي هي الأولى من نوعها عن داخل جامع عمر على الخصوص، أصدق من أي رسم جاء عنه في أي كتاب نُشر حتى الآن، فهذه الصورة الفوتوغرافية ظهر ما في داخل هذا الجامع من الدقائق، وذلك مع ما اعترضنا حين التقاط هذه الصور من المصاعب بسبب تفاوت نور داخل هذا الجامع، وتعذر دفع آلة التصوير إلى الوراء عند الاقتضاء، وليس من غير مصاعب كبيرة ما وقفنا لنيله من الصور التي يشتمل عليها هذا الكتاب.

وجامع عمر مُثَمَّن الزوايا، ويُدخَل من أربعة أبواب مقابلة للجهات الأربع، ويكسو الرخام جوانبه السفلية، ويستر الميناء الفارسي الجميل جوانبه العليا التي تمّ تصفيحها به بعد إنشائه بزمان طويل، أي في زمن السلطان سليمان القانوني (سنة ١٥٦١).

ويتألّف ذلك الميناء الجميل كالحجارة الكريمة حين تُلقي الشمس أشعّتها على جامع عمر فيكتسب خارج هذا الجامع منظرًا سحريًا خياليًا لا عهد لجوانب المباني الأوربية الدكن بمثله، والمرء قد يفكر في تلك القصور السحرية التي يبصرها بخياله أحيانًا، ولكن الخيال دون الحقيقة في أمر جامع عمر.

وليس داخل جامع عمر شيء من التعقيد، ففيه نطاقان مُثَمَّنان ذوا مركز واحد، ويحاط هذان النطاقان بسياج مُدور حول الصخرة الشريفة التي هي في وسط هذا الجامع. وزينة داخل جامع عمر غنية إلى الغاية، وسيقان أعمدة نطاقه الأول من الرخام المأخوذ من المباني القديمة والمختلف شكلاً وارتفاعاً، وتختلف تيجان هذه الأعمدة في الشكل أيضًا، ويرجع أكثرها إلى أوائل العصر البنظي، ويستر أعلى جدران هذا الجامع فُسيفساء باهرة ترجع إلى القرن العاشر من الميلاد كما يُظنّ، ويحيط بقاعدة قُبته عصابةٌ عريضة مزينة بآيات قرآنية عن المسيح مكتوبة بخطوط كوفية ذهبية.

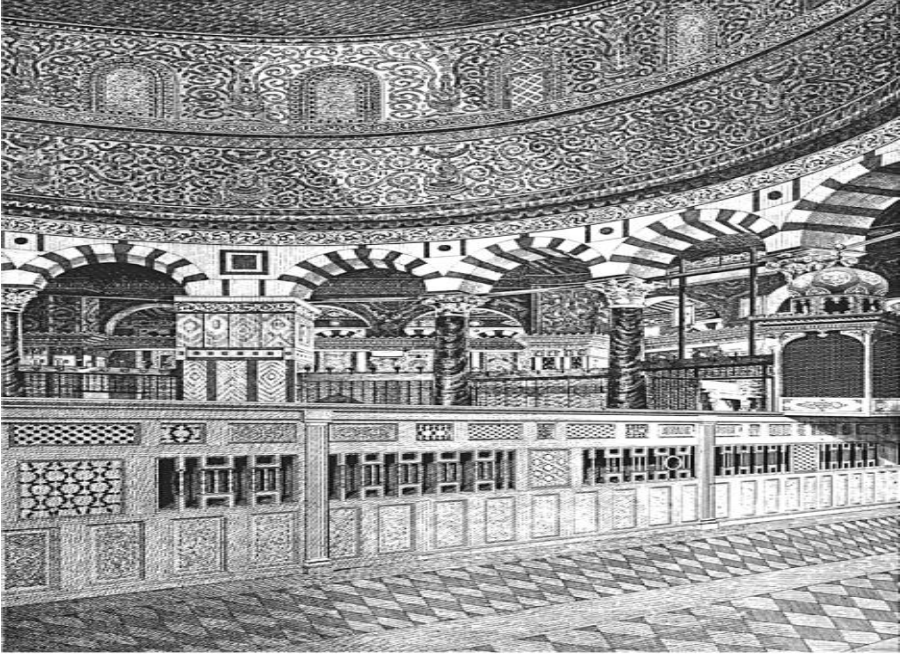


شكل ١-٧: مسجد عمر في القدس (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وجُدِّدت قبة جامع عمر في سنة ١٠٢١م، أي في زمن ازدهار الفنِّ العربي، وهي ذات زخرف داخلي رائع، أي مكسوَّة بالفسيفساء والنقوش والرسوم العربية الجميلة المتشابكة المعقدة إلى الغاية.

وداخل المسجد باهرٌ جميعه، فحواجزه مستورةٌ بالميناء والفسيفساء والرسوم الذهبية وصحائف البرونز المطرقة، ونوافذه مُزينةٌ بقطع زجاجية ملونة في القرن السادس عشر، موصولٍ بعضها ببعض وصلًا منسجمًا بالجصّ، لا بالرصاص كما في أوربة، وينشأ عن هذا الوصل المنسجم ما لا نراه في كنائسنا من الظل والنور.

وتُرى في وسط جامع عمر تلك الصخرة الشريفة التي يقال: إن ملكيصادق وإبراهيم وداود وسليمان كانوا يُضحون بقرايبنهم عليها، ونرى مع ذلك، أن تلك الصخرة هي ذروة جبل مريّة التي احترمها سليمان حين توطئته لهذا الجبل، كما ذكرنا آنفًا، فاتخذها مذبحًا في هيكله لا ريب.



شكل ١-٩: داخل مسجد عمر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

ويبلغ طول تلك الصخرة المقدسة سبعة عشر متراً، ويبلغ ارتفاعها مترين، ويحيط بها سياج حديدي مصنوع في زمن الصليبيين، ويُشار في الغار الذي تحت تلك الصخرة إلى المكان الذي رُوي أن داود وسليمان صليا فيه.

وتقول القصة العربية: إن محمداً ذهب على الدابة الخيالية التي تكلمنا عنها آنفاً من دُروة تلك الصخرة ليكلم الله، وتؤيّد هذه القصة بوجود سرج رُخامي لتلك الدابة لا يزال مرصعاً في قبة الصخرة، وتذهب هذه القصة إلى أن جبريل هو الذي منع تلك الصخرة من مصاحبة محمد في رحلته بعد أن ارتفعت من الأرض بضعة أمتار، وأن تلك الصخرة بقيت معلقة في الهواء منذ ذلك الحين راغبة عن العودة إلى حيث كانت، وهذا ما يردده سَدَنَة جامع عمر للزائرين بإخلاص، ومع ذلك، فقد أتيح لي في أثناء دراستي الطويلة لجامع عمر وحديثي الكثير مع قيّمه أن أسأل هذا القيّم عن رأيه في ذلك فرأيته ضعيف

الإيمان بصحته، وظهر لي أن حاكم القدس العثماني في الوقت الحاضر حذر على سدة ذلك الجامع رواية هذه الأسطورة للنصارى.

ويعلو قبة جامع عمر هلالاً عظيم.

ويُرى في الحرم، أمام جامع عمر، منبر عربي جميل مصنوع من الرخام الأبيض وتعلوه قبة صغيرة قائمة على حنايا مصنوعة على شكل نعل الفرس، ويسمى هذا المنبر منبر عمر وإن أنشئ بعد عمر بزمان طويل، أي في القرن الخامس عشر من الميلاد.

ونذكر من بين الأبنية المهمة القائمة في الحرم البناء المعروف بقبة السلسلة أو محكمة داود، وهذا البناء جَوْسَقٌ حجري أنيق مبني على الطراز البنظي ومستورٌ بالميناء الفارسي، وتقول القصة: إن محكمة داود كانت قائمة هنالك.

(٤-٢) المسجد الأقصى

بُني المسجد الأقصى في الحرم القدسي، وهو قديم أيضاً، وأصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جوستنيان تبجيلاً للعدراء، وحوّلها العرب إلى مسجدٍ بأمر الخليفة عمر، ثم هدم الزلزال المسجد الأقصى، وجُدّد بناؤه في سنة ٧٨٥م، ثم نالته يد الإصلاح وأكسبته مسحةً عربية مع الزمن، ولو في الجزئيات على الأقل، ثم رَمَّمه صلاح الدين في سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، ثم جُدّد في القرن الخامس عشر من الميلاد، بعضُ أجزائه، كزواقه مثلاً.

ويشتمل المسجد الأقصى على أعمدة أخذت من مباني كثيرة، ونرجح أن صحونه المركزية، التي هي على الطراز البنظي، أنشئت في القرن السابع.

وأقواسُ المسجد الأقصى مصنوعة على رسم البيكارين على العموم، وسكّن الصليبيون المسجد الأقصى، واتخذوا دهليزه مستودعاً لأسلحة فرسان الهيكل.

ويحتوي المسجد الأقصى على محرابٍ أنيقٍ مُزَيَّنٍ بالفسيفساء، وتدل كتابته على أن صلاح الدين هو الذي أنشأه في سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، وأقيم مِنبره العجيب المصنوع من الخشب المنقور المرصع بالعاج والصدف في سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م) ويعود زجاج نوافذه التي تعلو محرابه إلى القرن السادس عشر من الميلاد.

ويُرى في جانبي المسجد الأقصى كُوتان طريفتان للصلاة؛ إحداهما: ذات أعمدة مبرومة، وحنايا مصنوعة على رسم البيكارين، وتُدعى محراب عمر على زعم أن عمر صلى فيه، وتُدعى الأخرى: محراب زكريا عادةً.^{٦٤}

(٤-٣) المباني العربية الأخرى في القدس

مباني العرب الأخرى في القدس أقل أهمية مما ذكرناه آنفًا، ونكتفي بأن نذكر منها: باب دمشق الجميل الذي جدد السلطان سليمان بناءه، وإن شئت فقل رُمِّمَه، في سنة (٩٤٤-١٥٣٧م).

ونحن إذا استثنينا المباني الأثرية الأخرى القليلة، ككنيسة القيامة،^{٦٥} لم نَر في القدس غير المباني العصرية، وللنفوذ الأوربي في القدس أثرٌ ظاهر مؤدٌ إلى نزاع طابعها الشرقي بالتدريج، والمرء حينما يقترب من القدس عن طريق يافا، يشعر بتبدد أحلامه، فهو يرى أديارَ الرهبان والمشافي والقنصليات الكثيرة فيظن نفسه في ضاحية إحدى المدن الكبيرة، ومن يرغب في اجتلاء عظمة القدس وجلالها فليصعد في جبل الزيتون على الخصوص،

^{٦٤} رسمت جميع الصور والألواح التي عرضنا بها مختلف أقسام المسجد الأقصى وجامع عمر من الداخل وفق صورنا الفوتوغرافية، ولم تظهر في أي كتاب آخر بعد، وكان لنا بمسيو مالبرتوى عون نافع في تلوين صورنا الفوتوغرافية عن زجاج النوافذ والمحراب حيث هما.

^{٦٥} مقدم كنيسة القيامة العجيب ذو رسوم هندسية وحنايا قوطية قريبة من الحنايا المصنوعة على شكل نعل الفرس، فأعده مختارًا من المباني العربية، أو من المباني التي أثر فيها الطراز العربي على الأقل.

ثم ليرجع البصر ليرى القدس الزاخرة بالقباب والمآذن والأسوار والبروج ذات الشرفات والبيوت ذات الباحات.

وما في القدس من الذكريات يكفي وحده؛ لجعلها موضع تمجيد، ولاجتذاب الحجاج إليها من أقصى أقطار الأرض، ويا لِسحر تلك الذكريات ويا لَرَوْعَتِها في قلوب المؤمنين الذين يزورون القبر المقدس وجبل الزيتون ووادي قدرون ووادي يهو شافاط وضريح العذارى وتربة ملوك اليهودية والطريق المقدس وجبل صهيون ... وما إلى ذلك من الأمكنة التي تكثر في الجوار!

ومهما يكن المرء ملحدًا فإنه لا يستطيع ألا يكثرث للقدس التي هي مَنبِت إحدى الديانات الكبرى، ويُحَيِّلُ إلى الإنسان أن ظِلَّ المسيح يُشرف على القدس التي شهدت وفاته، ولا يزال اسمه يَطِنُ فيها، وليس بجائز أن يُبحث بحثًا عميقًا في أمر هذه الأماكن المقدسة؛ لما في هذا من حطٍّ لنفوذها، والخيال الذي أملاه الإيمان المتين هو الذي دل عليها مع ضياع أثرها منذ زمن طويل، فهل تلك الحديقة هي حديقة الزيتون التي ندب المسيح فيها حظَّه؟ وهل تلك الطريق هي الطريق التي مشى عليها المسيح ليُصلَّب؟ وهل ذلك القبر الذي يُعظمه النصارى هو القبر الذي صَمَّ جُثمان المسيح بعد موته؟

إن علم الآثار الحديث شديدٌ في أجوبته عن هذه الأسئلة، فهو يقول: إن القدس الحاضرة قائمةٌ، عدة أمتار، على أنقاض القدس الماضية التي أمر بهدمها تيطس، فيتعذر رسمُ خِطَّها القديمة، ولكن الإيمان وحده يكفي المؤمن، ولا غرو، فالإنسان لا يقدِّس غير الخيالات، والقديم منها أكثر ما يُكرِّم؛ لأنه أكثر ما أُكرم.

(٤-٤) برج الرملة العربيُّ

أذكر برج الرملة من بين مباني العرب القديمة القليلة في سورية، ويقوم هذا البرج بالقرب من مدينة الرملة الصغيرة الواقعة بين القدس ويافا.



شكل ١-١٠: سقف الرواق الأول الداخلي في جامع عمر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

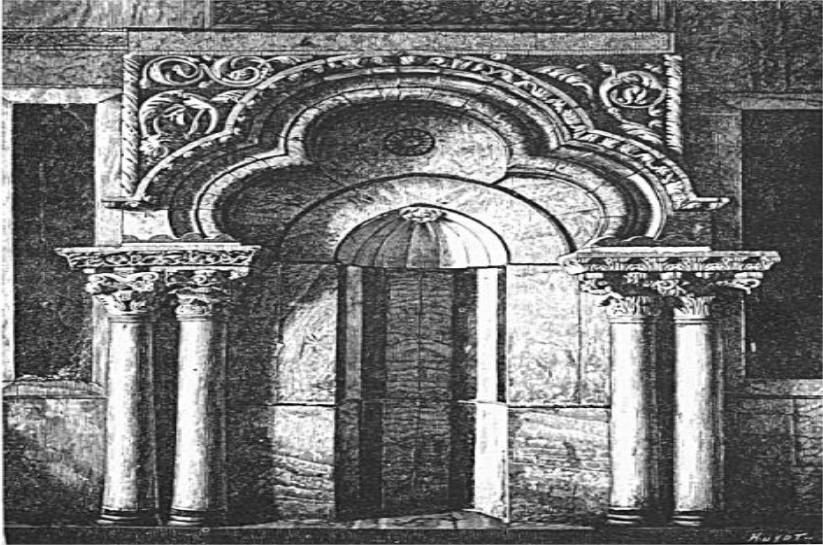
ويُسمَّى العربُ برج الرملة ببرج الشهداء الأربعين، ويؤكد العرب أنه دُفن فيه أربعون شهيداً من المسلمين.

وبرج الرملة مثالٌ جميل لفن العمارة العربية، وهو مربع الشكل، ويدخله النور من نوافذ مصنوعة على رسم البيكارين، وتُبلغ ذروته بمِرقاةٍ مؤلفة من ١٢٠ درجة لا تزال في حالة جيدة خلا الدرجات الأخيرة منها.

وعدّ بعضهم برج الرملة أثرًا صليبيًا، وهو يُذكرنا بالطراز الذي نقله الصليبيون إلى أوربة في الحقيقة، ولكنه لا ينبغي الشك في أصله العربي الثابت بدقائقه وفنّ بنائه، وبالكتابة التي تدل على أنه أُُنشئ في سنة (٧٠٠هـ / ١٣١٠م)، والتي تطابق ما رواه أحد مؤرخي العرب من أن ابن السلطان قلاوون هو الذي بناه، وتُنفي الحالة التي عليها الحجر المنقوشة عليه تلك الكتابة كلّ احتمال بإضافة هذا الحجر مؤخرًا إلى برج الرملة.

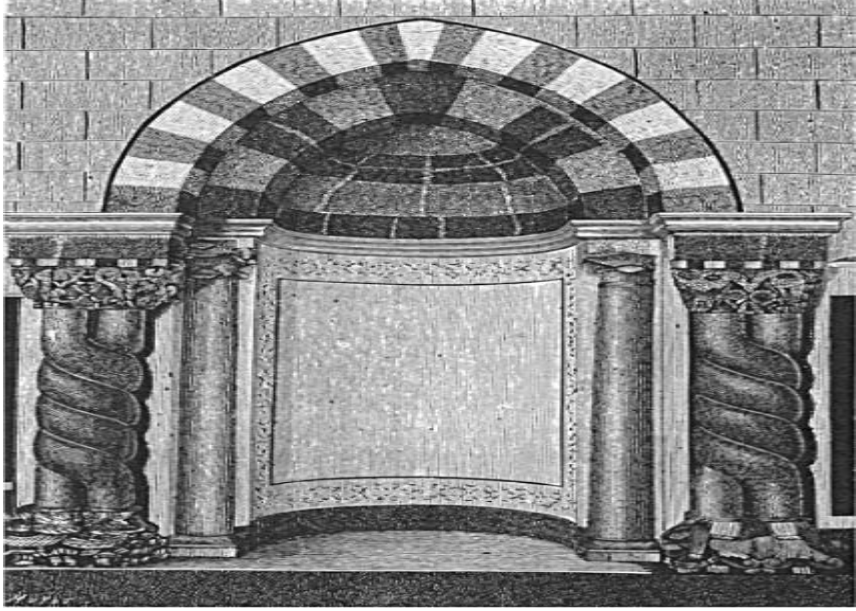
(٤-٥) مباني العرب في دمشق

ذكرنا، حين بحثنا في أحوال العرب قبل ظهور محمد، أن دمشق كانت مستودع تجارة الشرق في فجر التاريخ، وكان العرب يعرفون دمشق قبل ظهور محمد بعدة قرون لجلبهم محاصيل بلادهم إليها، وكانت دمشقُ جنة الدنيا في نظرهم، وكانت دمشق من أروع مدن العالم في غابر القرون كما هي الآن، ودمشقُ هي التي قال القيصر جوستنيان إنها «نور الشرق».



شكل ١-١١: محراب زكريا في المسجد الأقصى (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وكانت دمشق من الأهمية ما اتخذها العرب معه عاصمة لدولتهم بدلاً من المدينة، كما قامت بغداد مقام دمشق بعد زمن طويل.



شكل ١-١٢: محراب عمر في المسجد الأقصى (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف). وظلّت دمشق مركزاً كبيراً للتجارة والعلوم والصناعة في الشرق حتى بعد أن عادت لا تكون عاصمةً لدولة العرب، وكانت لمدرستها الطبية ومرصدها الفلكي وقصورها ومساجدها شهرة عالمية.

وظلت دمشق، التي كانت معاصرةً لدور الأهرام، موجودةً مع استيلاء الآشوريين والميديين والمصريين والفرس والأغارقة والرومان والعرب والترك عليها بالتتابع، ولكن انتهاءها وإحراقها مما أتى على قصورها تقريباً.

والعرب، وإن زالت سيادتهم عن دمشق، يملكونها بدينهم وعاداتهم ولغتهم، وقد تكون دمشق من أكثر مدن العالم اضطباعاً بصيغة العرب، وقد نجت دمشق من النفوذ الأوربي تماماً؛ لعطلها من مكان للأوربي إلا نادراً، وذلك خلافاً لبقية سورية، وليست دمشق

كالقاهرة التي تفرنج كل يوم مع أن العرب هم الذين أنشأوا القاهرة، وثبت ملكهم فيها عدة قرون، ومع أن القاهرة تشتمل على أبنية عربية أعظم قيمة مما في دمشق.

وعلى من يريد أن يطلع على طبائع الشرق، وأن يرجع إلى منبع التاريخ، ويعيش في الماضي، أن يزور دمشق.

وتبدو دمشق ذات المآذن الجميلة، وغُوطُها للنّاظر من بعيد ذات منظر ساحر أجمع السياح على امتداحه وإن لم أره يعدل منظر القاهرة الفتان من فوق قلعتها، قال مسيو دافيد:

يرى السائح الذي يقترب من دمشق أنه لا شيء يَعْدِل عَظَمَتها وروعها وسحرها، فلدمشق غُوطُها النَّصْرَة التي تقع بين سهل واسع، والتي تتخللها منازل القوم وحدائقهم، والتي تحيط بأغرب ما في الدنيا وأسطع ما فيها من أسوار خلافاً لمعاقل الغرب الشاحبة الكامدة القدرة، وتبدو هذه الأسوار، المؤلفة من حجارة صُفر وسود مدورة ومربعة ومثلثة على ألف شكل مع الانسجام، كَحَلَّة مُوشَّاة بالزبارج كما وصفها شعراء الشرق.

وليس ذلك النطاق كل ما يبدو للأعين، فهناك أسوارٌ في داخل المدينة تفصل بين أحيائها، وهناك أسوار ذات أبراج مربعة قائمة على جوانبها، وهناك أسوار تعلوها زخارف على شكل عمام.

ولكن هذا ليس سوى المرحلة الأولى من المنظر، فصميم المدينة أسنى وأبهى، وهو يتألف من أشجار تَأْلِفُه من بيوت، وذلك أن هنا صفّاً من شجر السرو، وهنا محلاً للنزهة، وهناك أقواساً عربية، وهناك سوقاً للأخذ والعطاء، وهناك نخلاً تَهْرُء وسها الجميلة فوق حوض على شكل نصف دائرة لعين عظيمة، وهناك أشجاراً مثمرة مصفوفة على شكل

رقاع الشطرنج داخل قصر إسلامي، ثم هنالك أكثر من ألف قبة تعلوها الأهلّة النحاسية والمآذن الرفيعة القائمة على جوانبها.

ولتلك الروضة المزهرة أشجارٌ عالية وحدائق جميلة ذات وَقْعٍ في النفوس كأشعة الشمس الوهاجة، ولها شُعْبٌ بَرَدَى السبعِ المُتَلَوِّيةُ الفضية التي تَهَبُ دمشق سحر الألوان أيضًا؛ تلك هي دمشق التي يُسميها العرب بالشام، والشام ما يُسمِّي به العرب بلادَ سورية. والأوربي، حين يدخل دمشق التي يسميها العرب دُرّة الشرق، لا تستهويه أول وهلة، وإنما تؤثر فيه طُرُقٌ مُعَوَّجَةٌ قَدِرَةٌ تقوم على طَرَفَيْها بيوت خَرِبَةٌ ذات جدران مصنوعة من طين وتبن، وتؤثّر فيه أعفازٌ تُعَمِّي الأبصار بما لا يتصوره الإنسان، ولا يزول هذا التأثير السيئ عن الأوربي إلا بعد تألّفها.

وتجارة دمشق الواسعة القائمة بينها وبين بقية الشرق تمنحها حياة عظيمة وطابعًا شرقيًا خاصًا، والقوافل التي تأتي من بغداد تُوصِلُ إليها منتجات فارس والهند، وتَحْمِلُ القوافل إلى ذينك البلدين نساءَها الحريرية المشهورة وبُزُوزَها وجلودها المدبوغة ونحاسها المكفّت بالفضة.

وأقول، مكرّرًا: إنه يجب على من يرغب في اجتلاء الشرق وألوانه اللامعة أن يزور دمشق، وأهمُّ ما يستوقف النظر في هذه المدينة القديمة ويبدو متنوعًا هو طُرُقُها وأسواقها التجارية الطريفة، واستجلاء أمثلة مختلف أمم الشرق في بضع ساعات، ففيها يُرى الفُرس ذوو القلائس القُرُوبية والخناجر الزُنَّارية، ويُرى السوريون ذوو الحُلُل المخطّطة والكوفيات والعُقل الوَبريّة، وتُرى النساء العربيات ذوات المآزر البيض التي تلمع عيونهن المتوقدة من خِلالها، ويُرى الدمشقيون ذوو الطرابيش الحُمْر أو العمام البيض والألبسة الحريرية المخططة بخطوط بيض وسود والمشدودة بزنانير، ويُرى حجاج البيت

الحرام ذوو الثياب الرثة، ويُرى قَوَاسو القناصل ذوو السياط والملابس الموشاة الزُّرق والخطّوات الموزونة، ويُرى الموظفون العثمانيون ذوو الأُردية الرسمية القاتمة، ويُرى فرسان الدروز ذوو العُجب المُنطَقُون بالسلاح والراكبون عِتاق الخيل التي تعلوها سروج جلدية قَرْمِزِيَّة مزينة بقطع لامعة من الذهب والفضة، وتُرى قُطُر الجمال يجرسها تجارٌ آتون من كرمان والأناضول وشواطئ الفرات، ويُرى الأكراد والأعراب والأرمن والموارنة واليهود وروم الأرخبيل، ويُرى في هذه الأخلاط اختلاف في الألوان كالذي يُرى في قوس قُزَح، ويُرى فيها ذوو البياض الناصع وذوو السواد الحالك وذوو الألوان التي بين اللونين.

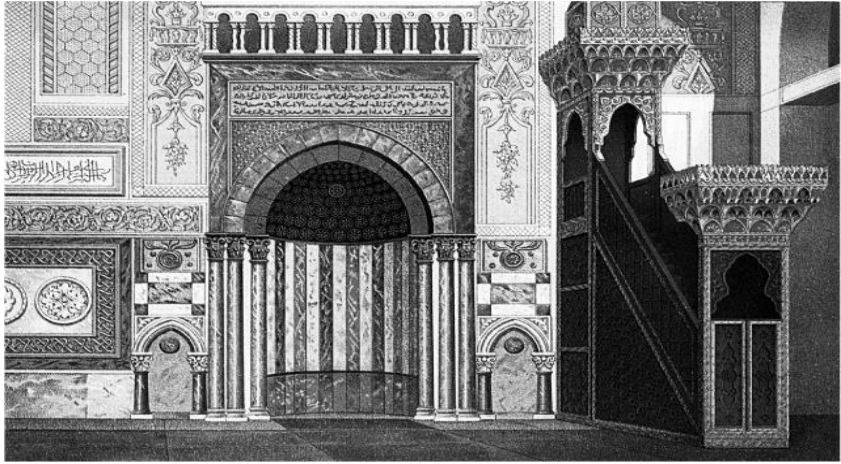
وقد خُيِّلَ إليّ، حينما كنت جالسًا على متكأ في إحدى القهوات العربية بدمشق، وكنت أتأمل أولئك الناس من خلال دُخان نارجيلتي، أي من خلال هذا المنظار السحري الغريب، أن قدرة ساحرة نقلتني من فوري، ولساعة، إلى بيئة حاوية لأمم آسية في غابر الأزمان.

أجل، رأيت، على ما يحتمل، منظرًا مُنوعًا كذلك على الجسر الممتد من غَلَطَّة إلى الضَّفة الأخرى من القرن الذهبي في الأستانة، ولكن العنصر الأوربي هو الغالب هنالك مقدارًا فمقدارًا، ومن ثم أرى أن الشرق عاد لا يتجلى وحده في الأستانة مع ما فيها من الأمثلة المتباينة لمختلف شعوب العالم.

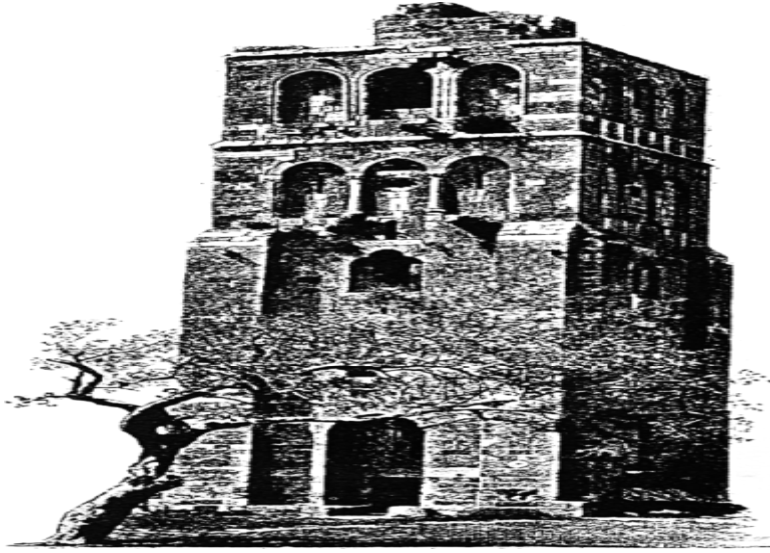
ويستعذب علماء الآثار وهواة التحف ورجال الفن طول الإقامة بدمشق؛ لما يجِدُون فيها من بقايا المباني ما يتطلب وصفه مجلدًا ضخماً، وما يُحسَى أن يزول بعد زمن قليل لتداعيه يوماً بعد يوم، ويُرى في كل خطوة من ضاحية الميدان الواقعة على مدخل طريق مكة أنقاض مساجدٍ وعيونٍ وأبنية أخرى ترجع إلى ما قبل مئتي سنة أو ثلاثمائة سنة، وتشتمل

على ضروب من الزينة القديمة وَفَقَّ تقاليد العرب، ويشاهد في تلك الآثار أثرٌ للفن الفارسي غيرٌ قليل.

ويمكن الباحث أن يلاحظ في دمشق وحدها قصورًا على الطراز العربي القديم مشتملةً على وسائل للراحة والرفاهية مع الذوق لا يُرى مثلها في أرقى مساكن أوربة، ومن دواعي الأسف أن نرى سنة الكون تُجري حكمها على هذه القصور فتزول.



شكل ١-١٣: محراب المسجد الأقصى ومنبره بالقدس (من تصوير المؤلف الفوتوغرافي).
وبما أنني سأتكلم في فصل آخر عن أحد هذه القصور فإنني أكتفي الآن بذكر الجامع الكبير الذي هو أقدم مباني دمشق.



شكل ١-١٤: برج الرملة (من صورة فوتوغرافية).

بُني الجامع الكبير، الذي يرجع قسم منه، على الأقل، إلى ما بعد الهجرة بزمان قليل، على أنقاض معبد وثني حوَّله النصارى إلى كنيسة، ثم التهمته النيران في سنة (١٠٦٩م / ٤٦١هـ) فجُدِّد بناؤه، وهو دون ما كانت عليه حالته الأولى، وأقل أهمية من مساجد القاهرة على الخصوص.

وأقيم جامع دمشق الكبير على هيئة المساجد الإسلامية الأولى، فهو يتألف مثلها من ساحة كبيرة قائمة الزوايا ذات أروقة خُصص بعضها للصلاة، وأقيمت على أركانها مآذن، وسنصف في الفصل الذي نتكلم فيه عن عرب مصر مساجد كثيرة من هذا الطراز. وروى مؤرخو العرب أن الرخام النادر كان يستر أسفل جدران ذلك المسجد الجامع، وأن الفسيفساء كانت تستر أعلاها كما تستر قُبته، وأن سقفه كان مصنوعاً من الخشب المُمَوَّه بالذهب، وأن مصابيحها، وعددها ستمائة، كانت من الإبريز، وأن محاريبه كانت مرصعة بالحجارة الثمينة.

ولم يبقَ من تلك الزينة سوى الشيء القليل، وتُزيّنُ جدرانُه الآن خطوطٌ جميلة، ويُزيّنُ نوافذه زجاج ذو ألوان كثيرة، ويشاهد في مواضع منه أثرٌ للفلسيفساء القديمة. ويشتمل ذلك الجامع الكبير على مئذنتين مربّعتيّ الشكل، وعلى مئذنة ثالثة أنيقة مُثَمَّنَة الشكل ذات أروقة مُنْضَدة ومنتَهِية بِكُرّة وهلال، ومئذنة العروس أقدم هذه المآذن الثلاث، وتَرجع في قِدَمها إلى القرن الأول من الهجرة كما يُعتَقَد، ومئذنة عيسى، وهي إحدى هذه المآذن، مُربّعة الشكل، وتقول القصة العربية: إن عيسى سينزل على ذروتها يوم الحساب لا ريب.

ظهر مما تقدم أن العرب احترموا منذ دور الفتح الأول، آثار الأمم التي ملكوها ولم يفكروا في غير الانتفاع بحضارتها وترقيتها، وذلك خلافاً لكثير من الأمم الفاتحة التي جاءت بعدهم، وأن العرب الذين كانوا أميين في بدء الأمر لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم، وأنهم تعلموا بسرعة ما كانوا يجهلون من فنون الحرب، واستعمال آلات الحصار الرومية؛ فسبقوا أعداءهم في ذلك، وأنهم بعد أن كانوا مبتدئين في العلوم والفنون ماثلوا الأمم الأخرى فيها بفضل ما أنشأوا من المدارس ثم تقدموها، وأنهم، بعد أن كانوا غير عالمين بفنون العمارة، وبعد أن استخدموا مهندسين من الروم والفرس في تشييد مبانيهم، استطاعوا بالتدريج أن يتخلصوا كلّ الخلاص من كل مؤثر أجنبي بما أحدثوا من التغيير والتبديل في فنون العمارة وَفَقَ ذوقهم الفني كما نرى ذلك عمّا قليل.

الفصل الثاني العرب في بغداد

(١) حضارة العرب في الشرق في دَوْرِ الخلافة ببغداد

دَوْرُ الخلافة في بغداد بآسية ودَوْرُها في قرطبة بإسبانية أنضر أدوار الحكم العربي، ولما استقلَّتْ تانك الدولتان بسرعة، وفَصَلَتْ بينهما مساوْفُ عظيمة، كان لهما أصل واحد ودين واحد ولغة واحدة، تَقَدَّمَتَا تقدّمًا متوازيًا عدة قرون، وكانت المدينتان الكبيرتان، بغداد وقرطبة، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للإسلام من مراكز الحضارة التي أضاءت العالم بنورها الوهاج أيام كانت أوربة غارقة في دياجير الهمجية.

ولم يلبث دَوْرُ ازدهار حضارة العرب أن بدأ بعد أن فَرَّغُوا من فتوحهم، وما بذلوا من الجهود في الوقائع الحربية في البُداء وَجَّهُوا مثله إلى الآداب والعلوم والصناعة، فتقدموا في الفنون السِّلْمِيَّة مثل تقدمهم في الفنون الحربية.

ورأينا أن دمشق أصبحت عاصمة دولة الأمويين العربية بعد المدينة، فلما قبض العباسيون على زمام الخلافة في سنة (١٣٢هـ / ٧٤٠م) عزموا على تبديل العاصمة، فأقاموا بالقرب من بابل وعلى شاطئ دِجْلَة، مدينة بغداد التي لم تلبث أن صارت أشهر مدن الشرق.

ولم يبقَ من المباني التي شادها الخلفاء في بغداد مثل ما بقي في سورية، ولكن ما انتهى إلينا من آثار العرب في العلم والأدب في ذلك الدور وما ورد في كتب مؤرخيهم يكفي لتمثيل حضارتهم في القرن التاسع من الميلاد، وما نذكره الآن، وما نَدْرُسُه في الفصول الآتية من تاريخ العلوم والفنون، يُلقِي نورًا على ناحية مهمة من نواحي الحضارة العربية لم نوضحه في الفصل السابق.

بَلَغَتْ بغداد ذروة الرخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشهير (٧٨٦م-٨٠٩م) وابنه المأمون (٨١٣م-٨٣٣م) وصارت أهمَّ مدن الشرق، وذاع صيت

الرشيد، وطَبَّقَ الآفاق، فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رسلاً إلى بلاطه، وأرسل عاهل الغرب الحقيقي وصاحب الحَوْل والشَّوْكة، الإمبراطور شارلمان، الذي كان يملك ما بين المحيط الأطلنطي ونهر الإلب، وهو الذي لم يملك غير أناس من الهَمَج — وفدًا لِيُبلِّغَ الرشيد أطيب تحياته، ويلتمس منه الحماية لحجيج القدس، فأجابه الرشيد إلى سؤاله، ورَدَّ إليه وفده مع هدايا عظيمة، ومن بينها فيلٌ مَجْهَزٌ بأفخر جهاز، والفيل كانت تجهله أوربة تمامًا، ولآلئُ وجواهر وحليٍّ وعاج وعلطور ونسائج حريرية وساعةٌ دَقَّاقةٌ تدل على الوقت، وقد قضى إمبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبررون اللذين لم يكن بينهم من قَدَرَ على إدراك كُنْهها، والذين حاول شارلمان عبثًا أن يَحْمِلَهم على إحياء حضارة الرومان.

وجلس الرشيد على عرش الخلافة في الثالثة والعشرين من سنيه، وكان تنظيم شؤون دولته الواسعة أوَّل ما فكر فيه، فوَصِلَت ولايات الدولة بوسائل نقلٍ منظمة، وأنشئت مرابطٌ؛ لتتمكن البرُد بها من قطع المسافات الكبيرة على عَجَل، وعُني بحمام الرِّاجل لربط ما بين المدن بالرسائل كما هو واقع بين بعض المدن في الوقت الحاضر، وكانت إدارة البريد ببغداد من أهم وظائف الدولة كما في أوربة الحديثة.

وكان الوُلاة على رأس الولايات، وكانوا يمثلون أوامر الخليفة، وكان يقوم مقام الخليفة في الولايات النائية، كشمال إفريقيا، أمراءٌ ورَائيون استقلوا مع الزمن استقلالًا تامًا. وكانت مالية الدولة دقيقةً الضبط، وكان دخل الدولة قائمًا على الجزية والخراج والمكوس وإحياء الموات واستخراج المعادن، ورَوَى مؤرخو العرب أن دخل الخلافة السنوي بلغ مئتي مليون فرنك، أي مبلغًا عظيمًا في ذلك الزمن.

وكان يقوم بأعمال الجباية لجنة تُدعى الديوان، قال ابن خلدون: «إن ديوان الأعمال والجبايات من الوظائف الضرورية للمُلك، وهي: القيام على أعمال الجبايات، وحفظ حقوق الدولة في الدَّخْل والخَرْج، وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قَوْمَةُ تلك الأعمال وقَهَّارَةُ الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخروج مبنيٌّ على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمَّى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العُمَّال المباشرين لها.»

وكانت إدارة الدولة موزعةً بين أربعة دواوين مماثلة لدواوين الزمن الحاضر: وهو ديوان الغنائم ونفقات الجند، وديوان الضرائب، وديوان الجباية، وديوان رَقابة الدخل والخروج. وكانت جميع أوامر الخلفاء تُكتَب في سجل مَصُون؛ ليرجع إليها فيه من يأتون بعدهم. وكان الوزير مرجع شؤون الدولة الأعلى، وكان أكثر الخلفاء يتركون له مقاليد الحكم تمامًا، ويشابه مَنصبه في عصر الخلفاء منصب رئيس الوزراء في أيامنا.

ولم تكن الشرطة في عهد الخلفاء أقلَّ انتظامًا من البريد والمالية، وكانت للتجار نقابة مسئولةٌ لرقابة أمور البيع والشراء ومنع الغش والتدليس.

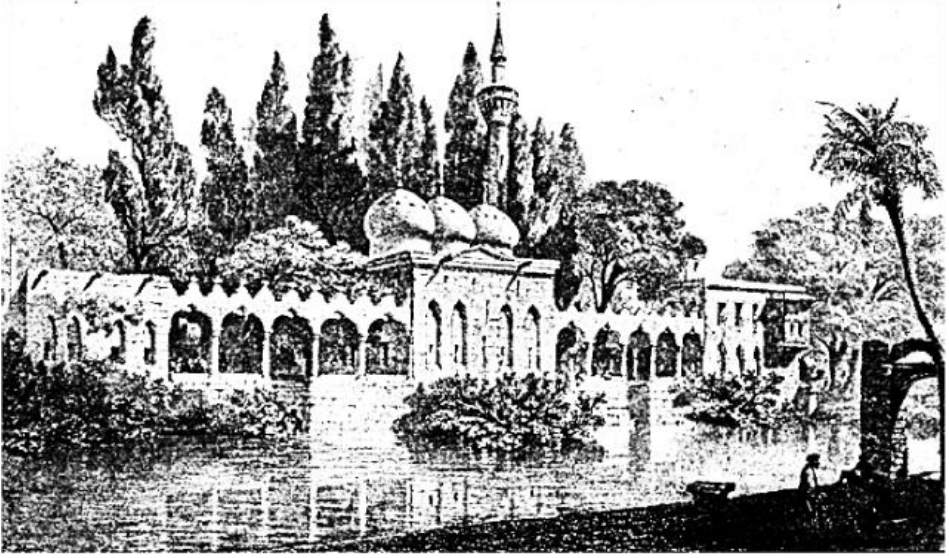
وكانت انتظام مالية الخلفاء سببًا في القيام بأعمال عظيمة تعودُ على الناس بالخير، كتعبيد الطرق وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي والمدارس في جميع نواحي الدولة، ولا سيما بغداد والبصرة والمَوْصِلُ... إلخ.

واتسع نطاق الزراعة والصناعة، واشتهر نبيذُ شيراز وأصبهان، وصار يصدر إلى البلاد البعيدة، وأنشئت مصانعٌ للنسائج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق، وصار العرب يستغلون المالح ومناجم الكبريت والرخام والحديد والرصاص... إلخ، بطرق فنية.

ووسّعت دائرة التعليم العام، واستُدعي الأساتذة من مختلف أقطار العالم، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم، وانتهى إلى نتائج لم يَنته إليها الأوروبيون إلا في العصر الحاضر، كقياس دائرة نصف النهار، ونُقِلت إلى اللغة العربية كتبُ علماء اليونان واللاتين، ولا سيما كتب الفلسفة والرياضيات، وصارت تدرّس في جميع المدارس، وبحث العرب في آثار القدماء، فسبقوا الأوروبيين إلى ذلك ببضعة قرون.

وأقدّم العرب على تلك المباحث، التي لم يكن لهم عهد بها، بشوق ونشاط، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان، وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم كما سترى ذلك في الفصول التي ندرس فيها تفاصيل حضارتهم.

وترى من الخلاصة السابقة أن العرب بلغوا درجةً رفيعة من الثقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمان قصير، ولكن الإدارة الرشيدة والفنون المعقدة كالتعدين وطراز العمارة، والعلوم كعلم الفلك؛ إذ كانت مما لا يأتي عفواً لم يفعل العرب غير مواصلة الحضارات التي ظهرت قبلهم، كالحضارة اليونانية اللاتينية، فكانت لهم مبتكرات فيما ورثوه من علومها وفنونها وطرق حكمها، وكانوا بذلك على نقیض الروم الذين سلموا إلى العرب ثراث تلك الحضارات من غير أن يتفعوا به، والذين سقطوا في أسفل دركات الانحطاط.



شكل ١-٢: مسجد أورفة (العراق، من تصوير فلاندان).

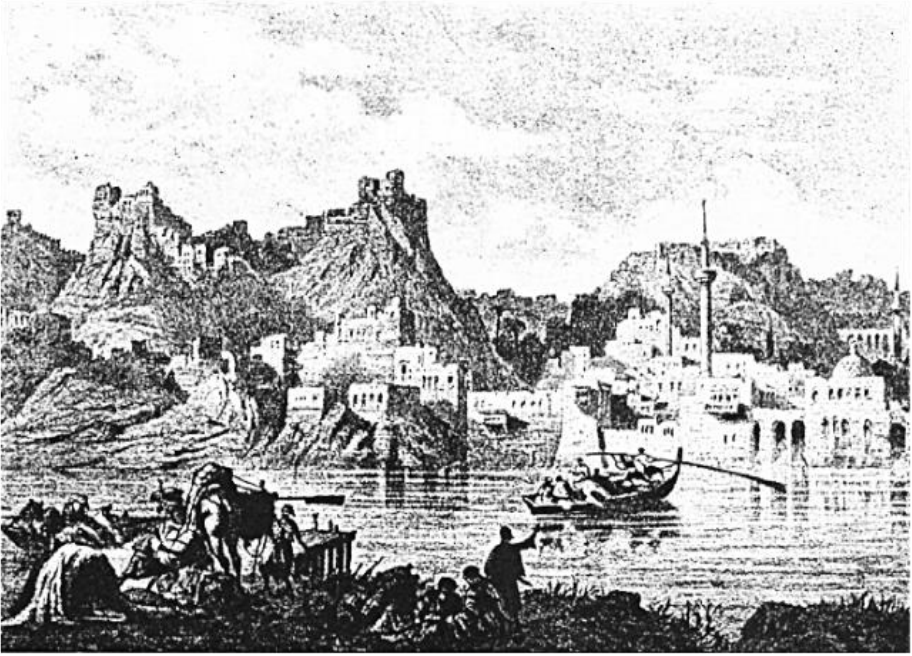
وكان حب العرب للعلم عظيمًا، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقًا لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها، ومن ذلك أن شَهرَ أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم؛ ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد.

وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل، من يونان وفارس وأقباط وكلدان، يتقاطرون إلى بغداد، ويجعلون منها مركزًا للثقافة في الدنيا، وقال أبو الفرج عن المأمون إنه «كان يخلو بالحكماء، ويأنس بمناظرتهم، ويلتذ بمذاكرتهم علمًا منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده... فلهذا السبب كان أهل العلم مصاييح الدجى وسادة البشر، وأوحشت الدنيا لفقدهم».

وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغداد، وكان يمكن هؤلاء الخلفاء أن يَعُدُّوا قصرهم أول قصور العالم وأنصرها، وتتجلى لنا أبهة بغداد الشرقية بالقول الآتي الذي وصف به المؤرخُ العربيُّ، أبو الفداء، استقبالَ أحد الخلفاء العباسيين لسفير قيصر الروم في سنة ٣٠٥هـ.

قال أبو الفداء:

قَدِمَ رُسُلُ مَلِكِ الرُّومِ إِلَى بَغْدَادَ، فَلَمَّا اسْتَحْضَرُوا عُيِّنَتْ لَهُمُ الْعَسَاكِرُ وَصُفِّتِ الدَّارُ بِالْأَسْلِحَةِ وَأَنْوَاعِ الزَّيْنَةِ، وَكَانَ الْعَسَاكِرُ الْمُصَفَّوْنَ حِينَئِذٍ مِائَةَ أَلْفٍ وَسِتِّينَ أَلْفًا مَا بَيْنَ رَاكِبٍ وَوَاقِفٍ، وَوَقَفَ الْغُلَمَانُ ذَوُو الزَّيْنَةِ الْحَجَرِيَّةِ وَالْمَنَاطِقِ الْمُحَلَّلَةِ، وَوَقَفَ الْخُدَّامُ الْخَصِيَانُ كَذَلِكَ، وَكَانُوا سَبْعَةَ أَلْفٍ، أَرْبَعَةَ أَلْفٍ خَادِمٌ أَبْيَضٌ وَثَلَاثَةَ أَلْفٍ خَادِمٌ أَسْوَدٌ، وَوَقَفَ الْحُجَّابُ كَذَلِكَ، وَهُمْ حِينَئِذٍ سَبْعُمِائَةَ حَاجِبٍ، وَأَلْقِيَتِ الْمَرَاقِبُ وَالزُّوَارِقُ فِي دَجَلَةٍ بِأَعْظَمِ زِينَةٍ، وَزُيِّنَتْ دَارُ الْخِلَافَةِ، فَكَانَتِ السُّتُورُ الْمُعْلَقَةُ عَلَيْهَا ثَمَانِيَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفَ سِتْرٍ، مِنْهَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا وَخَمْسُمِائَةَ سِتْرٍ مِنَ الدِّيَبَاجِ الْمُدَهَّبِ، وَكَانَتِ الْبُسُطُ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَلْفًا، وَكَانَ هُنَاكَ مِائَةُ سَبْعٍ مَعَ مِائَةِ سَبَّاعٍ، وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الزَّيْنَةِ شَجَرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ غَصْنًا، وَعَلَى الْأَغْصَانِ وَالْقَضْبَانِ الطَّيُورُ وَالْعَصَافِيرُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ، وَكَذَلِكَ أَوْرَاقُ الشَّجَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ، وَالْأَغْصَانُ تَمَازِيلُ بِحَرَكَاتٍ مَوْضُوعَةٍ، وَالطَّيُورُ تُصَفِّرُ بِحَرَكَاتٍ مُرْتَبَةٍ، وَشَاهَدَ الرُّسُلُ مِنَ الْعِظَمَةِ مَا يَطُولُ شَرْحُهُ، وَأَحْضَرُوا بَيْنَ يَدَيِ الْمُقْتَدِرِ، وَصَارَ الْوَزِيرُ يَبْلُغُ كَلَامَهُمْ إِلَى الْخَلِيفَةِ، وَيَرُدُّ الْجَوَابَ عَنِ الْخَلِيفَةِ.



شكل ٢-٢: عبور الفرات عند بيره جك (من تصوير فلاندان).

وكانت قوة الخلفاء الحربية في بغداد تُناسب أهمية دولتهم، ويمكننا اجتلاء ما كانت عليه من الهيبة في الخارج بما أكره عليه قيصر بزنطة الوارث لعظمة اليونان والرومان من دفع الجزية حين تَمَنَّع عن إعطائها عبثًا، فلما رفض خليفة الإمبراطورة إيرين، القيصر نيقفور، إعطاء الجزية في كتاب أرسله إلى الخليفة هارون الرشيد أجابه هارون الرشيد بالكتاب الموجز العنيف الدالُّ على درجة الاحتقار الذي أضحى عُرضَةً له أبناء اليونان والرومان الضعفاء، وإليكهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافر، والجواب ما تراه، لا ما تسمعه.
رأى «كلبُ الروم» الجواب، فقد خرب هارون الرشيد بلاده تمامًا، وأرغم قيصر القسطنطينية النصراني على دفع الجزية إلى أمير المؤمنين.

ومن الإنصاف أن عُدَّ سلطان العرب السياسي في عصر الرشيد وابنه المأمون أقصى ما انتهى إليه سلطان العرب في الشرق، فقد كانت بلاد الصين حدًّا لدولة العرب في آسية، ودَحَرَ العرب قبائل إفريقية المتوحشة إلى حدود بلاد الحبشة، ودحروا الروم إلى البُسفور، ولم يقفوا في الغرب إلا عند المحيط الأطلطي، والحقُّ أن هؤلاء القوم الشجعان الذين لبُّوا دعوة محمد، وعَدَّوا أمةً واحدةً، أقاموا دولةً بلغت ما بلغت دولة الرمان من الاتساع في أقلَّ من قرنين، وأن هذه الدولة بدت أكثر دول الأرض هيبةً وتمدُّناً.

بيد أن مصير الدول الحربية العظمى المطلقة تابعٌ لاقتدار وُلاة أمورها، فإذا كان هؤلاء الولاة من العباقره، كهارون الرشيد وابنه المأمون، أينعت تلك الدول وتقدَّمت، وإذا لم يكونوا أبناء بَجْدَتِها هبطت بسرعةٍ أعظم من التي قامت بها.

ولم يكن كثيرًا على أعظم الرجال أن يحفظوا للخلافة هيبتها تجاه ما كان يبدو من تَفَرُّق كلمة العرب في أنحاء الدولة، وتجاه الأمم التي دحروها حينًا من الزمن من غير أن يُقَوِّضوا أركانها، وقد استقل البربر بُعَيْدَ استقلال الأندلس، وقد أخذ الترك يَقْبِضُونَ بدسائسهم على السلطة التي سينالونها كاملةً بسلاحهم ذات يوم.

ولم تَحْبُ شُعْلَةُ الخلفاء العباسيين إلا في القرن العاشر من الميلاد، ولكن الخلافة العباسية كانت قد خَسِرَتْ سلطانها منذ زمن طويل حينما غابت عن التاريخ.

لم يكن الترك الذين جيء بهم إلى بغداد من غير الأسرى أو الموالي الذين أعجبت الخلفاء قُدُودُهم ففَوَّضَ الخلفاء إليهم أمر حِرَاسَتهم، ولم يلبث هؤلاء الموالي أن صنعوا كما صنع المماليك بمصر، فانفردوا بالأمر غير تاركين لسادتهم الخلفاء سوى سُلطة اسمية.

ولم يقدر الخلفاء على مقاومة جميع المطامع التي كانت تحيق بهم، فانقسمت دولتهم إلى إمارات مستقلة، فلما توارى آخر العباسيين عادت بغداد لا تستطيع الادعاء بلقب آخر غير كونها الملجأ الأول لعلوم الشرق وآدابه.



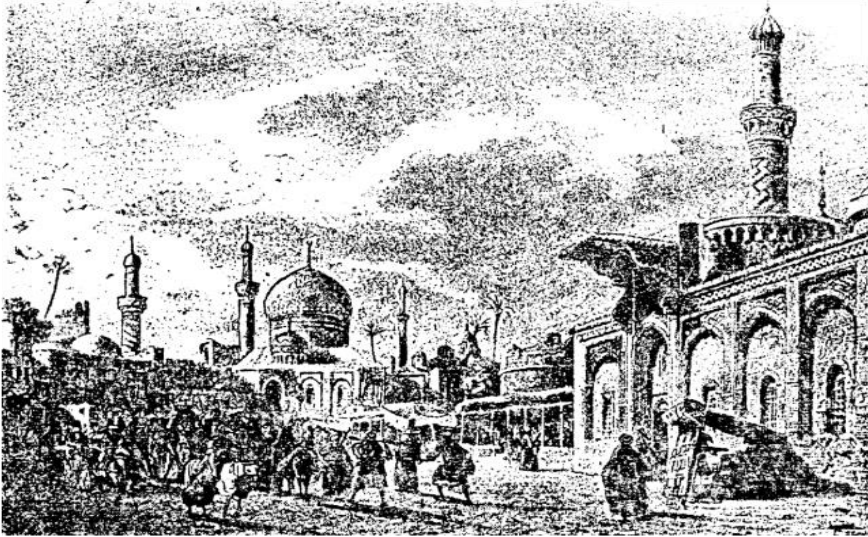
شكل ٢-٣: منظر في بغداد بالقرب من مسجد أحمد كهيا (من تصوير فلانندان).
والمغول هم الذين قَضَوْا على الخلافة العباسية، والمغولُ جيلٌ من الآدميين البدويين يؤلَّف مع الترك عروقًا مختلفة نَعُدُّ منها أجلافَ هضبة آسية الوسطى الواسعة التي تَحُدُّها الجبال الفاصلة لها عن سيبرية من الشمال، والتي تحدها الصين والتبتُ وبحر قزوين من الجنوب، ويرى علماء وصف الإنسان ولا سيما صديقي العالم الأستاذ دالي، أن الترك والمغول والممالك، وأهل التبت على ما يحتمل، من أصل واحد يُدعى الأرومة المغولية، وظاهرة هذه الأرومة هي هيئة وجوهها الخاصة وجلودها المُصَفَّرَة الكامدة وشعورها المُسَنَدَرَة... إلخ، ولا نزال نجد شبهًا بين التركمان والمغول، ومثل هذا الشبه كان موجودًا في غابر القرون بين الترك الخُلَص والمغول لا ريب، فقد ذكر رشيد الدين في

٦٦ المسندرة: المنبسطة.

تاريخه عن المغول، الذي ألفه في القرن الثالث عشر، أن المغول والترك متشابهون تشابهًا يستوقف النظر، وأن اسم هذين الجيلين كان واحدًا في غابر الأزمان.

ومن المستحيل أن ترى اليوم قرابةً بين المغول وترك أوربة، ويرجع ذلك، لا ريب، إلى تزوجهما في قرون كثيرة بنساء من العرق القفقاسيّ كالكرجيات والشركسيات، والفارسيات على الخصوص.

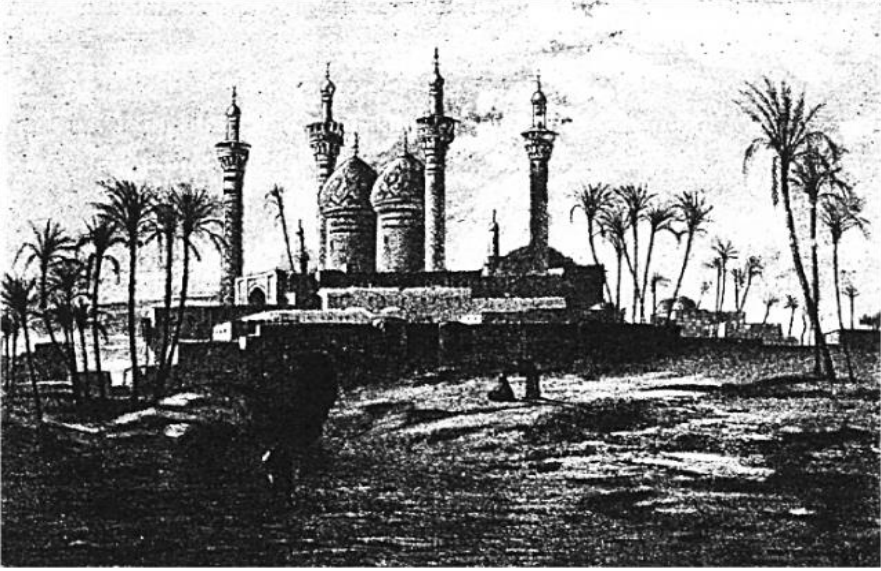
واستولى المغول على بغداد سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) وخربوها تمامًا، وخنقوا آخر العباسيين، المستعصم بالله، بأمر رئيس الغالبيين «هولاكو» ونهبوا ما في بغداد من الأموال، وحرّقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم وألقوها إلى نهر دجلة، فتألف منها جسر كان يمكن الناس أن يمروا عليه رجالًا وركبًا، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها، كما روى قطب الدين الحنفي.



شكل ٢-٤: منظر في بغداد (من تصوير فلاندان).

ولكن أولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني، وأحرقوا الكتب، وخربوا كل شيء نالته أيديهم خضعوا لسلطان حصارة المغلوين بدورهم، حتى إن «هولاكو»

الذي خرب بغداد وأمر بجرّ جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره، فلم يلبث أن صار من حماها، وفي المدرسة العربية تمكّن المغول، واعتنقوا دين العرب وحضارتهم، وشملوا متفني العرب وعلماءهم برعايتهم، وأقاموا في بلاد الهند دولةً قويةً عربيةً من فورهم كما يمكن أن يقال، وذلك لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة، ولأن سلطان حضارة العرب لا يزال مسيطرًا هناك حتى اليوم.



شكل ٢-٥: منظر في بغداد (من تصوير فلاندان).

أجل، قامت بغداد من تحت الأنقاض، ولكن الترك استولوا عليها بعد ثلاثة قرون فأصبحت بانحطاط تامّ، فغابت عنها المكتبات ورجال الفن والعلماء إلى الأبد. واليوم لا تزال بغداد مركزاً مهماً بفضل موقعها التجاري، ولكنها مدينة عصرية لا تجد فيها غير الأنقاض من مباني الخلفاء، وما يصادف فيها اليوم من الأبنية، المتداعية على العموم، حديث نسبياً، وهو فارسي أكثر منه عربياً، قال مسيو فلاندان: «تتوارى تحت

طبقة كثيفة من الغبار أسس المباني، ولا تكاد تجد فيها أثر هارون الرشيد وزُبيدة، وهنا وهناك يُكتَشَفُ في بعض زوايا الأسواق وعلى الشاطئ وبين أنقاض أضاعت اسمها وحوه جدران يُقرأ عليها بصعوبة قِطْع من خطوط كوفية، ومثدنة يشهد خرابها على قَدَمها، وبقايا رِتاَج^{٦٧} ذي ميناءٍ وذي سيفساء لامعة تنفصلُ على أساس البناء المحطَّم.

«ولم يبالِ الترك بضياغ هذه الأدلة على حضارة منافسة لحضارة بزنة، ونحن إذا ما استثنينا تلك البقايا النادرة المجردة من الفائدة معًا كان من العبث إزالة الغبار المتراكم ببغداد، فالحق أن هذه المدينة العظيمة لم يبقَ فيها ما يذكّر بخلفائها الأعزاء كما يُمكن أن يقال.»

هذه هي حال بغداد اليوم، وقد لحقت ببغدادُ الخلفاء، في أعفار الماضي، بطيبة وبابلٍ ومنفيسٍ وكل عاصمة كبيرة كانت سيدة الدنيا، ولكن هذه المدن لم تسيطر على العالم بغير السلاح، وخلفاء بغداد ملكوا العالم بحضارتهم على الخصوص.

ويجب، لتحسين تقدير تلك الحضارة، أن نخرج من دائرة الإجمال، التي التزمناها في هذا الجزء من كتابنا، وأن ندخل دائرة التفصيل، فندرس ما أسفرت عنه من العلوم والآداب والفنون والصناعة، وهذا ما نفعله في فصول أخرى بعد أن نُنِمْ دراستنا المختصرة لتاريخ العرب في مختلف الأقطار التي استولوا عليها.

وكلما تقدمنا في الكتاب بدا لنا، بوضوح، أمران جوهريان لم نفعل غير الإشارة إليهما حتى الآن، وهما: أن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعنين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان، وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها، وقد ظهر لنا أن جميع أمم الشرق الكثيرة التي

^{٦٧} الرتاَج: الباب العظيم.

ساعدت على قهر العرب، ومنها الترك، أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب، وأن أمما
قديمة قَدَمَ العالم، كالمصريين والهنود، اعتنقت ما جاءها به العرب أو وَرَثَتُهم من الحضارة
والدين واللغة.

الفصل الثالث العرب في بلاد فارس والهند

(١) العرب في بلاد فارس

تختلف بقايا حضارة العرب باختلاف البلدان التي استولوا عليها، وإذ كان درس هذه الحضارة يقوم على البحث في آثار العرب العلمية أو الأدبية أو الفنية أو الصناعية، فإننا لا نستطيع أن نسير في فصول هذا الكتاب على نهج واحد، وقد رأيت أننا اعتمدنا في كلامنا عن سورية على الآثار الماثلة، وأننا سلكنا طريقاً آخر حينما بحثنا في أمر بغداد التي لا نجد فيها آثاراً شاخصة، فاقصرنا حين الكلام عنها على التنويه بتنظيم العرب السياسي والمالي والإداري وما إلى ذلك، فإذا ما وصلنا تلك العناصر المختلفة بعضها ببعض أمكننا أن نرسم صورةً جامعةً لحضارة العرب في مختلف الأزمنة.

ولا نعرف إلا القليل عن آثار العرب في بعض البلدان التي دانت لهم، كبلاد فارس على الخصوص، فترانا مضطرين إلى الإيجاز في ذلك، ومع ذلك يُثبت علمنا القليل عنها أن ذلك الشأن كان عظيمًا جدًا.

رأى العرب أنفسهم، حين هدموا دولة بني ساسان الفارسية، تجاه حضارة قديمة قوينة، فاقبضوا الشيء الكثير من فنونها على الخصوص.

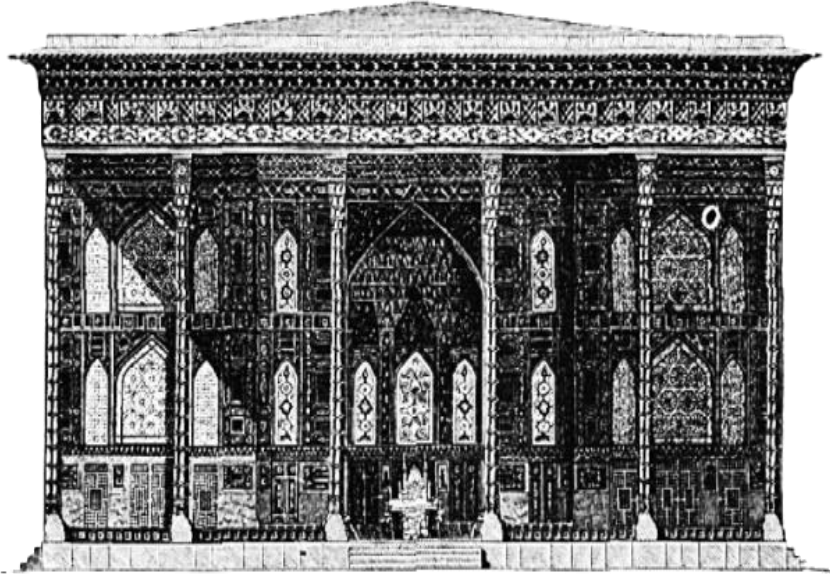
وتَمَّ النصر للعرب على بلاد فارس في الدور الأول من الإسلام، كما اتفق لهم في سورية، واستولوا على أصبهان في خلافة عمر بن الخطاب (٦٤٥م)، ودام السلطان للخلفاء في بلاد فارس مدة ثلاثة قرون، وكان تاريخ بلاد فارس مرتبطاً في تاريخ بغداد بعض الارتباط، ثم تداولت حُكْم بلاد فارس دولٌ مستقلة مؤقتة كان يُدأَل منها، ونَعُدُّ من تلك الدول دولة الترك السلجوقيين الذين قضى المغول على سلطانهم في القرن الثالث عشر، ثم دولة التركمان الذين طَرَدوا المغول من بلاد فارس في سنة ١٤٠٣م.

ونشأ عن تتابع الغزو هدمُ المباني القديمة التي شادها العرب وبنو ساسان في بلاد الفرس وزوال ما كان منها في مدينة أصبهان، على الخصوص، زوالاً تاماً، وما نراه الآن في أصبهان هو من صنع الشاه الفارسي الشهير عباس الذي اتخذها قاعدةً لمملكه في سنة (٩٩٨هـ / ١٥٨٩م) والذي استردَّ من الترك معظم بلاد فارس، ويظهر أن ذلك القطر استرد رخاءه القديم لمدة قرن، فقد قاتل الفرسُ منصورين دولة المغول في الهند سنة ١٥٣٩م، وانتزعوا منها ولاياتٍ كثيرةً واقعة غرب نهر السند، ثم سادت الفوضى والانحطاط بلاد فارس، ونرى اليوم بلاد فارس، الواقعة بين الروس الذين يرغبون في التقدم نحو بلاد الهند والإنكليز الذين يمانعون في ذلك، مهددةً بأن تكون ميدان قتال لـهذين الفريقين، وأن تقع فريسةً للغالب منهما، فكأنه كُتِبَ على بلاد فارس أن تكون مسرح حروب تمهيداً لإقامة الأجنبي الغالب دولةً عالمية كما تمَّ في القرون الغابرة.

وثبت تأثير العرب في الفرس من اعتناق الفرس لدين العرب ونظمهم، ومن شيوع اللغة العربية بينهم شيوع اللغة اللاتينية في أوربة في القرون الوسطى، وذلك من غير أن تكون لغة البلاد الدارجة كما ثبت من استمرار الفرس إلى الوقت الحاضر على تلقي علم التوحيد والتاريخ والعلوم الأخرى من كتب العرب.

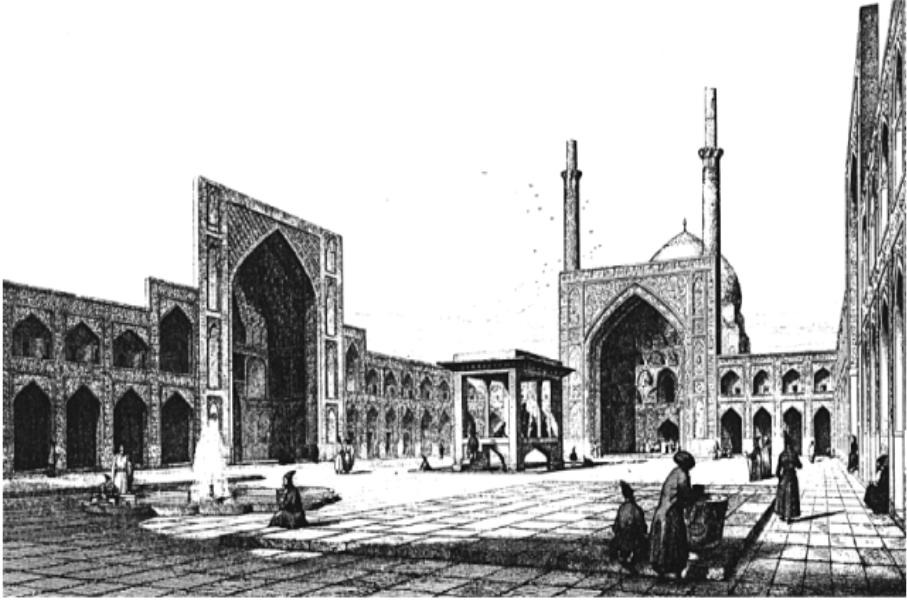
وتبدو بقايا ما تركه العرب من الآثار الماثلة في بلاد فارس من القلّة ما لا تكفي معه لبيان تأثير هاتين الأمتين إحداهما في الأخرى، ولا نعرف حال فن العمارة الفارسي قبل الإسلام بالضبط وفي ظل العرب، وما بحث فيه بعض الرواد من المباني لم يخرج عن حد الانقراض التي يصعب معها بيان الحالة التي كانت عليها فيما مضى، ونقول مع ذلك، وبعد إنعام النظر في تلك البقايا وفيما رواه المؤرخون: إن قصور أكاسرة الفرس قبل الفتح العربي كانت على جانب عظيم من الزخرف والزينة، وإن الفرس كانوا يعرفون إقامة القباب،

ولأنهم كانوا يعلمون كيف يكسون المباني بالميناء، وإن العرب رَضُوا في دور الفتح بفن
 العمارة الفارسي مع قليل من التبديل، وإن أهمَّ ما اقتبسه العرب من مُثَقَّنِي الفرس في
 ذلك الدور الأول هو جزئيات الزخرف واستعمال الميناء على الخصوص، لا طراز البناء
 الذي استعاروه في البُداء، من البنزنيين في سورية ومصر على الأقل.
 ثم تغيرت الأوضاع مع الزمن، فصار العرب يُؤثِّرون في الفرس، فاقتبس الفرس من
 العرب شكل قبابهم والنقوش المتدلّية (المقرنصات) وضروب الزينة كالكتابات، وسنعود
 إلى هذه المسائل في الفصول التي خصصناها للبحث في فنون العرب.

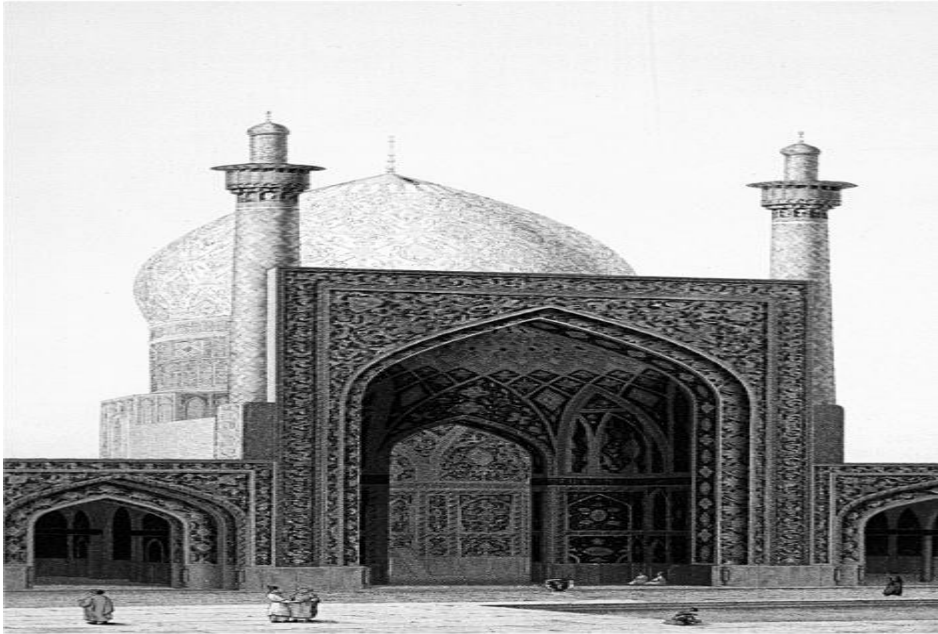


شكل ١-٣: جوسق چهل ستون في أصفهان (من تصوير كوست).
 ولم يبقَ في بلاد فارس من مباني دور خلفاء العرب الأولين سوى عدد قليل، كبقايا مسجد
 همدان التي نشرنا صورتها في فصل آخر، ويظهر أن في مدينة مشهد بقايا من مباني ذلك
 الدور امتزج فيها الطراز العربي بالطراز الفارسي، وهي التي تكلم عنها مسيو
 دوكانيكوف، فتجلى الطراز الفارسي في أقواسها ومينائها ومآذنها المخروطة الشكل التي

لا رُواق لها في غير رأسها، وتجلى الطراز العربي في خطوطها المزخرفة وأعمدتها الهيفِ
ومُتدليّاتها... إلخ.



شكل ٢-٣: داخل مسجد في أصفهان (من تصوير كوست).



شكل ٣-٣: جامع أصبهان الكبير (من تصوير كوست).

وما بين بقايا مباني عصر الخلفاء في بلاد فارس والمباني التي أقامها الشاه عباس في أصبهان مؤخرًا من التقارب يُثبت لنا سير المهندسين على نمط قديم واحد، وسنرى في الفصل الذي ندرس فيه تاريخ فن العمارة العربية، أنه طرأ على ذلك النمط القديم بعض التغيير في الجزئيات المهمة مع الزمن ولا سيما في شكل القباب، فبعد أن كانت القباب منخفضة، ثم ذات نصف كُرّة، صارت مخصّرة بصليّة الشكل.

ومهما يكن من أمر فإن لفن العمارة الفارسي طابعًا خاصًا، ونَعُدُّ المآذن المخروطة الشكل والأبواب العظيمة المفرطة القناطر والجدران المزينة بالميناء الملون من أهم ما اختص به فن العمارة الفارسي ذو التأثير في مباني الهند كما نقطع في ذلك.

وانتحل المغول، بعد أن قهروا العرب، دين العرب وحضارتهم، واستخدموا في بلاد فارس والهند التي استولوا عليها مهندسين من الهندوس والفرس، فمزج هؤلاء المهندسون مختلف الفنون في المباني التي أقاموها كما تراه بعد قليل، وتدلُّ بقايا الآثار في مدينة سمرقند العظيمة، التي اتخذها تيمورلنك عاصمةً لدولته سنة ١٤٠٤م، فأصبحت نصف متداعية اليوم — على المؤثرات الفارسية في فن العمارة، وأعظم من ذلك ما كان للعرب من التأثير في الهند في بدء الأمر على الأقل.

ويظهر أنه صار للمغول فن عمارة خاص، مع أنهم لم يُبدعوا أيَّ عنصر في هذا الفن الخاص، وقد قام هذا الفن على مزج فنون مختلف الأمم التي خضعت لحكمهم فيما شادوا من المباني كما تدل عليه الصور التي نشرناها.

والخلاصة هي أن تأثير العرب في بلاد فارس كان كبيرًا في أمور الدين والعلوم واللغة، وأنه كان ضعيفًا بعض الضعف في العادات وفن العمارة، وأن الفرس، خلافًا للمصريين،

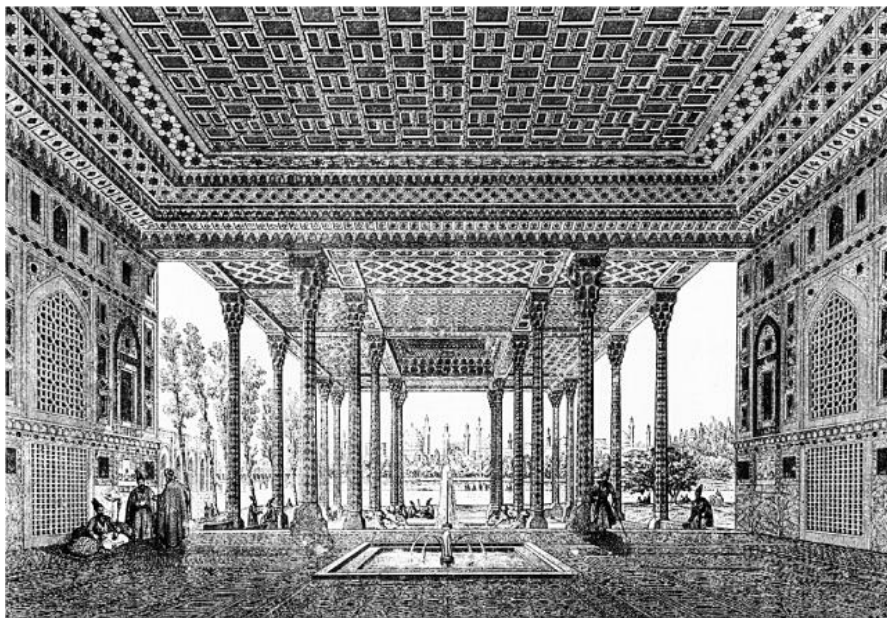
حافظوا على أقسام حضارتهم القديمة الأساسية مع صلتها بحضارة الغالين، وذلك خلافاً للمصريين.

(٢) العرب في بلاد الهند

لم يتفق للعرب في بلاد الهند شأنٌ سياسي أعظم مما كان لهم في بلاد فارس، وللعرب، مع ذلك، تأثير ديني قوي ونفوذ مدني كبير في بلاد الهند منذ القديم، ففي الهند يخضع نحو خمسين مليون نفسٍ لشريعة النبي في الوقت الحاضر.

وبدأ ظهور العرب في الهند منذ السنة الأولى من الهجرة (٦٣٧م)، فقد خرجت أساطيل عربية من عُمان والبحرين، وتقدمت إلى مصابِّ السند، ثم أدى ملك كابل الجزية إلى العرب في سنة ٦٦٤م، وفتح جيش العرب في سنة ٧١١م مملكة السند التي كانت تمتد إلى كشمير من الشرق ونهر السند والبحر من الغرب.

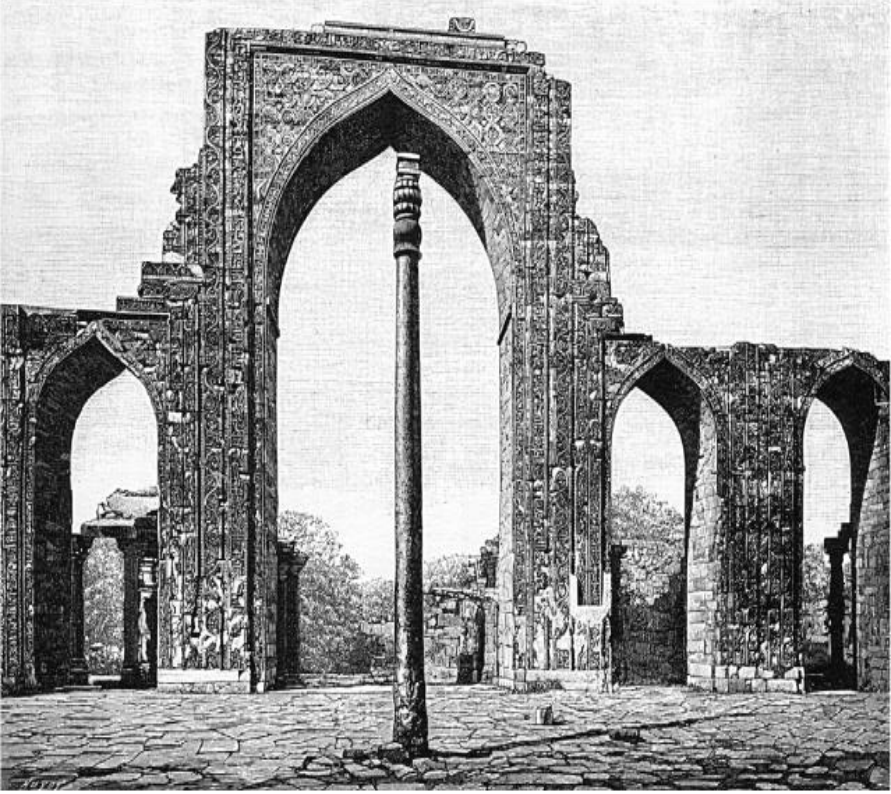
ولم يكن لاستقرار العرب هنالك أهمية كبيرة، فقد انتهى في سنة ٧٥٠م، فاك الحكم فيها إلى ملوكِ من الهندوس، فإلى الترك والمغول الذين اعتنقوا الإسلام.



شكل ٣-٤: جوسق المرايا في أصبهان (من تصوير كوست).

وملوكُ غَزَنَة أَهَمُّ أولئك وأقدمهم. والغزنويون أخذوا يفتحون بلاد الهند حوالي سنة ١٠٠٠م، وانتهى قتالهم في هذه السبيل بعد إحدى عشرة معركة قاموا بها في خمس وعشرين سنة، واستولوا نهائياً على ضَفَّة السند الشرقية وعلى كشمير والپنجاب ولاهور وأجمير، وأعلن الغزنويون عن أنفسهم في كل مكان أنهم دعاة دين العرب وحضارتهم، ومنحهم خلفاء بغداد لقب أيامن المؤمنين، وهكذا خضعت الهند للفاتحين من الأجانب للمرة الأولى منذ زمن الإسكندر.

وكان سلطان الإسلام السياسي والديني قوياً في بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الذين تداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الديني قائماً في بلاد الهند، وإن توارى سلطانه السياسي عنها، وهو يمضي قُدُماً نحو الاتساع. ووجد المسلمون، حين أوغَلُوا في الهند، حضارةً قديمة أرقى من حضارتهم، وعرفوا كيف يمزجونها بها، ومما يستوقف النظر ما استطاعوه في زمن قصير من نشرهم لمعتقداتهم في قسم كبير من هذا القطر الواسع.



شكل ٣-٥: باب مسجد قطب وعمود الملك دهاوا المصنوع من الحديد «بالقرب من دهلي» (من تصوير فريث الفوتوغرافي).

وأعجِبَ غُزاةُ المسلمين بمباني الهندوس المغلوبين، واسمع ما قاله محمود الغزنوي في كتاب أرسله إلى أحد قواده عن مدينة مترا، التي كانت مشهورة أيضًا، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد:

تحتوي مدينة مترا العجيبة على أكثر من ألف من المباني المتينة متانة أهل الإيمان، والمصنوع أكثرها من الرخام، ولا يشتمل هذا العدد على معابد الكافرين، وإذا عُدَّ المال الذي أنفق على إنشاء هذه المباني بلغ ألوف الألوف من الدنانير، فضلًا عن أنه لن يقام مثل هذه المدينة في أقل من قرنين، ووَجَدَ جنودي في معابد المشركين خمسة أصنام من الذهب ذوات

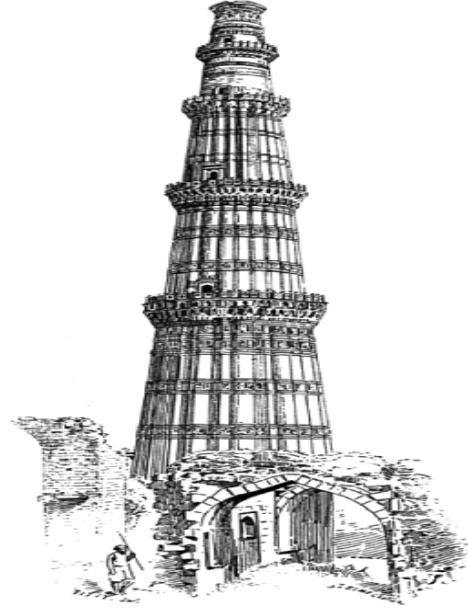
عيون من ياقوتٍ أحمرٍ تساوي قيمته خمسين ألف دينار، ووجدوا فيها صنماً آخر من الذهب مزخرفاً بما زنته أربعمئة مثقال من الياقوت الأزرق، وإذا نَصَمَ بلغ وزنها عند الصهر ثمانية وتسعين مثقالاً من الذهب الخالص، ووجدوا فيها، فضلاً عن ذلك، نحو مائة صنم من الفضة يعدل وزنها حمل مائة بعير.

وقام ملوكُ جُذُدٍ مقام أصحاب غزنة، ثم جاء المغول فحلُّو محلَّهم، وهنا نرى تنبيه القارئ إلى أن الذين تم لهم السلطان على الهند لم يكونوا عرباً بدمائهم، وإنما كانوا من دُعاة دين العرب وحضارتهم.

ويصلُ الباحث، حين يدرس تأثير العرب في الأمم التي اختلطوا بها، إلى إحدى التيجتين الآتيتين، وهما: إما أن تكون حضارة العرب قد حَلَّت محل حضارة الأمة المقهورة كما حدث في مصر، وإما أن تكون قد امتزجت بحضارة الأمة المغلوبة كما حدث في بلاد فارس والهند، وفي بلاد الهند بلغ امتزاج حضارة العرب بحضارة الهند مبلغاً بدت علائمه حتى على المذاهب الدينية، ثم حدث أن أتى بعدئذ عنصر الحضارة الفارسية، فاشترك هذا العنصر أيضاً في ذلك الامتزاج.

ويدلُّ درس المباني في بلاد الهند على درجة تأثير العرب فيها في مختلف الأدوار، وعلى درجة تمازج تلك العناصر الثلاثة، وكان تأثير العرب سائداً لمباني الدور الأول، كباب علاء الدين الذي يكاد يكون أثر الفن الفارسي فيه غير موجود، والذي لا يبدو أثر الفن الهندي في غير تفرعاته؛ لعدم ملاءمة معابد الهند القديمة لمناحي الحضارة الجديدة، فاقصر أتباع النبي على الانتفاع ببعض أجزاء هذه المعابد.

وظل تأثير الفن العربي في تلك المباني واضحًا بضعة قرون أخرى وإن توارى العرب عن مسرح العالم بالتدريج، ثم أخذ المجال يتسع للفن الفارسي فتمَّ له النفوذ على حساب الفن العربي والفن الهندوسي اللذين أخذ نطاقهما يضيق.



شكل ٣-٦: منارة قطب بالقرب من دهلي (من صورة فوتوغرافية).

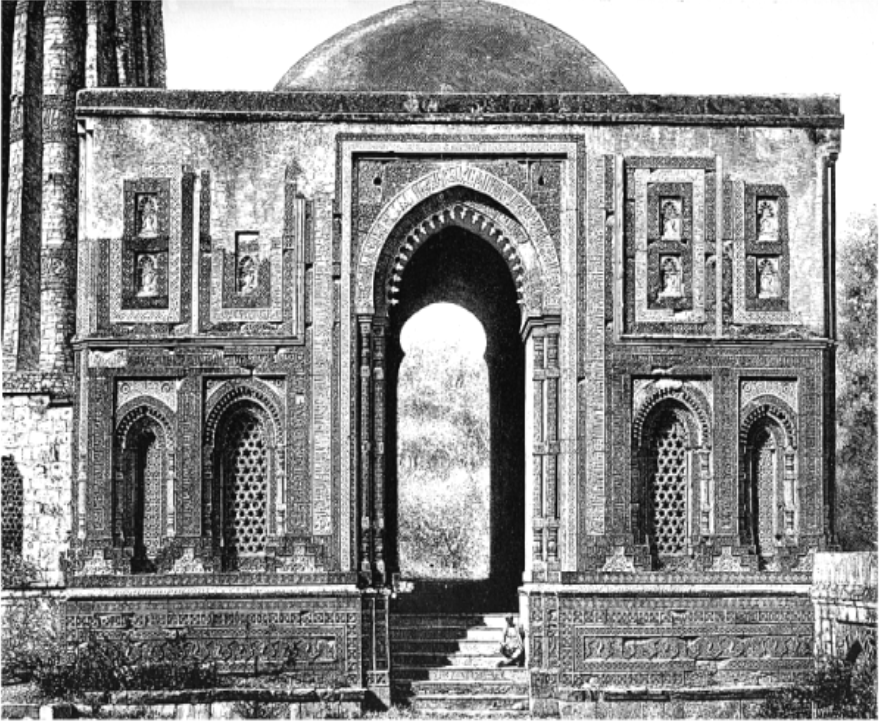
وكان دور تحول مباني الهند بعد الإسلام طويلاً، وتأخر زمن ظهور المباني التي كان للعبقريّة العربيّة أثرٌ فيها، ويرجع سبب هذا إلى أن دعاة شريعة الرسول لم يكونوا من العرب، بل من الترك والمغول المشابهين للبرابرة الذين استولّوا على العالم الروماني، والذين لم يهضموا حضارة المغلوين إلا بعد انقضاء زمن طويل.

حقاً إنهم لم يهضموها إلا بعد زمن طويل، وبهذا البطء يبدو لنا الفرق الأساسي بين الأمم التي تكون على جانبٍ كبير من الذكاء فتتطور بسرعة، كالأمّة العربيّة، والأمم المنحطة التي تتطور ببطء كبرابرة القرون الوسطى الذين قَضَوْا على دولة الرومان، وكأجلاف الآسيويين الذين غمر طوفانهم دولة محمد.

ولقد أبدع العرب من فورهم تقريباً، حضارةً جديدةً أفضل من الحضارات التي جاءت قبلها، وذلك بعد أن استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس، وكانت عقولُ البرابرة عاجزةً عن إدراك كنه الحضارة التي قهروا أهلها، وكان انتفاعهم بها ممسوخاً في بدء الأمر، وهم لم يسيروا بها نحو الرقي إلا بعد أن صُقِلَتْ أدمغتهم، وصارت قادرةً على إدراك معانيها بعد زمن طويل.

والواقعُ أن تقدم أولئك البرابرة الذين هدموا الدولة الرومانية لم يحدث إلا بتوالي الأجيال، وأنهم، لبطء تقدُّمهم، لم يستطيعوا إقامة حضارة جديدة على أنقاض حضارة العالم السابق إلا بعد جهود استمرت قرونًا كثيرة.

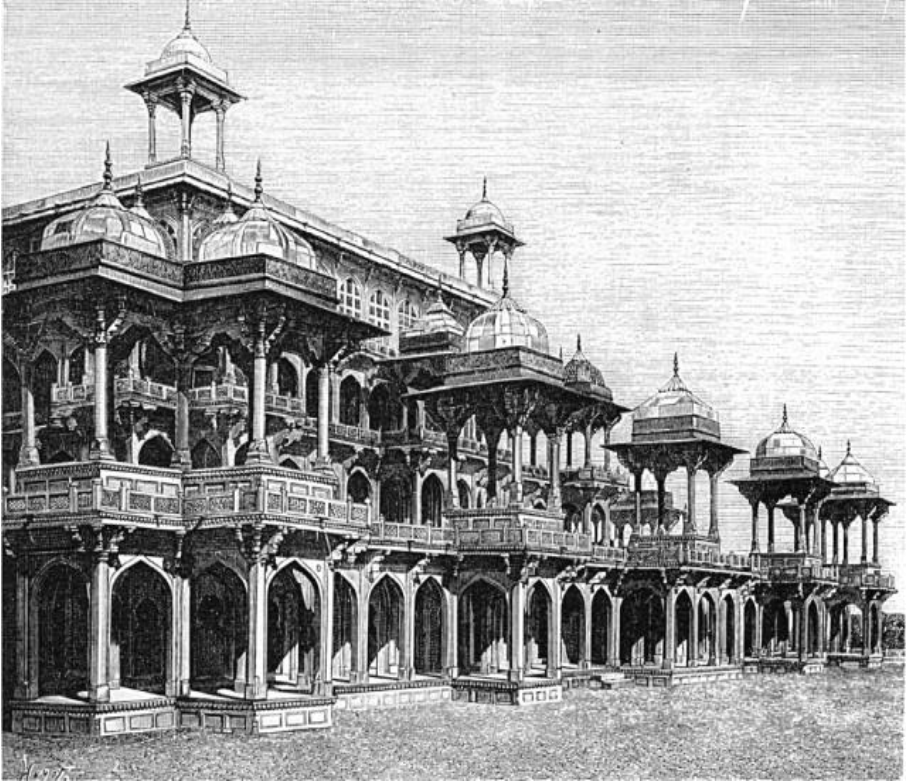
ودام سلطان أصحاب غزنة حتى سنة ١١٨٦ م وحل الغوريُّون، الذين هم من التركمان، محلهم، ونذكر من ملوكهم المشهورين قطب الدين الذي تُوفي سنة ١٢١٠ م، والذي أقام في بلاد الهند مباني ذات قيمة كما سيأتي بيان ذلك.



شكل ٣-٧: باب علاء الدين بالقرب من دهلي (من تصوير فريث الفوتوغرافي).
وأصبحت مدينة دهلي، في سنة ١٢٥٠م، ملجأ لرجال العلم والفن من الغرباء، وصارت
تحدّب عليهم حدّ بـغداد فيما مضى، ثم أتى المغول، وصاروا يغزون الدولة الجديدة،
ونازلهم علاء الدين تحت أسوار دهلي في سنة ١٢٩٧م فوجّد أمامه خمسمائة ألف رجل،
على ما يُروى، فدَحَرهم.

وفتح تيمور لك مدينة دهلي عَنوةً في سنة ١٣٧٨م، ولم يكن أمره غير عابر سبيل، فقد
نشأ عن الفوضى التي أسفرت عنها فتوحه قيام دولة مستقلة مؤقتة هنا وهناك، ولما
حلّت سنة ١٥١٧م استولى ملك كابل، الذي هو من ذرية تيمورلنك، على مدينة دهلي،
وأسس دولة المغول الكبرى التي كُتِب لها البقاء مدة ثلاثة قرون، ثم قضى عليها الإنكليز.

والآن ندرس على طريقتنا أهم ما في الهند من المباني العربية أو المباني التي كان للفن العربي أثرٌ واضح فيها، فما نُقش على الحجارة أفصح مما جاء في الكتب.



شكل ٣-٨: مزار أكبر في سكندرا (من صورة فوتوغرافية).

(١-٢) منارة قطب

يرجع أقدم ما انتهى إلينا من المباني العربية في الهند إلى أواخر القرن الثاني عشر من الميلاد، ونَعُدُّ مسجد قطب — الذي أقيم في سنة ١١٩٠م بالقرب من دهلي — ومنارة قطب من أهم تلك المباني.

ومنارة قطب، ذات الشرف الكثيرة المُخَرَّمة، برجٌ طويلٌ مخطط ذو نقوش عربية مخروط الشكل مشدود بنُطقٍ مُزينة بالكتابة.

ولا نرى ما هو عربي في منارة قطب سوى زخارفها وأروقته، وقد أقامها، أو أتم إنشاءها، قطب الدين، فأضيف اسمها إلى اسمه مع الاختصار، فعُرفت في أوربة باسم منارة قطب.

ويدل شكل منارة قطب الخاص على أن مهندسيها من الهندوس، ويعدونها في الهند من العجائب، قال السيد أحمد خان، الذي عَرَفَ عنه مسيو غراسين دوتاسي مخطوطاً هندوسياً مهماً خاصاً بدهلي: «إن عظمة هذه المنارة وجمالها مما لا يمكن وصفه كما يجب، فهي مما لا نظير له على وجه الأرض»، ويرى ذلك المؤلف أن الملك الهندوسي پيثوره هو الذي بدأ بإنشائها في سنة ١١٤٣م فأتتها قطب الدين.

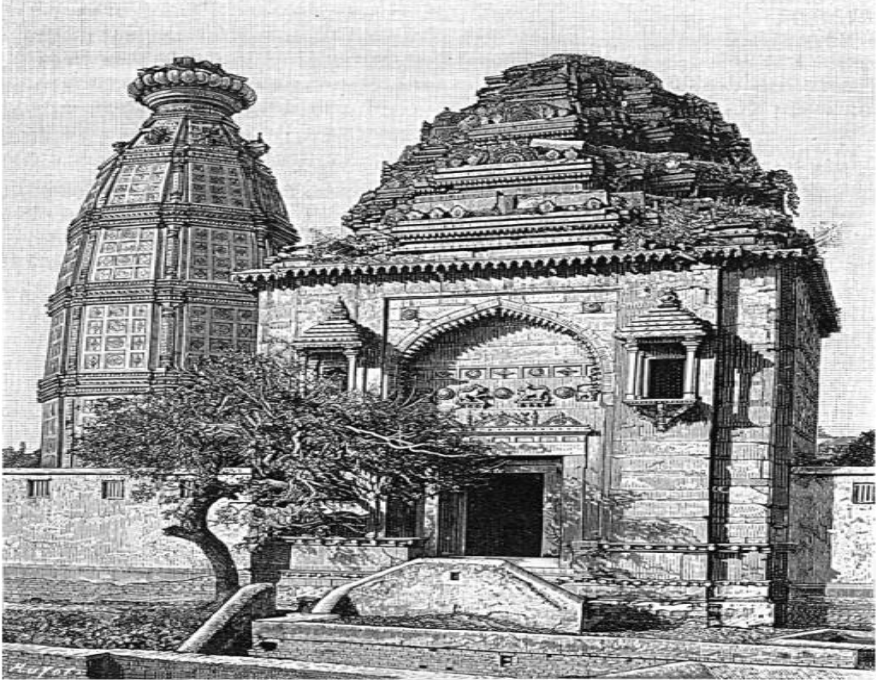
ويشاهد بالقرب من منارة قطب الدين أنقاض معبد هندوسي قديم حُوِّلَ إلى مسجد، ويرجع تاريخ إنشائه إلى (سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م).

(٢-٢) باب علاء الدين

يشتمل ذلك النطاق الذي يحوي مسجد قطب ومنارته على كثير من الآثار المهمة الأخرى كمعبد پيثوره، وأهم تلك الآثار الباب العظيم الشهير الذي أنشأه علاء الدين في سنة ١٣١٠م، والذي يستوقف النظر بجماله الرائع من حيث تاريخ الفن عند المسلمين، والذي هو من أهم آثار الفن العربي التي انتهت إلينا، ولم أشاهد بين الأبواب ما يماثله سوى بعض أبواب الحمراء الداخلية مع ما بينها وبينه من التفاوت في الاتساع كالذي بين الفسطاط والكتدرائية.

وإن القارئ الذي يتأمل صورة ذلك الباب الصادقة التي نشرناها في هذا الكتاب ليعجب من عبقرية المهندسين الذين استطاعوا أن يمزجوا مختلف الفنون، فأقاموا باب علاء الدين

المبتكر المنسجم الذي تبدو أعمدة أطره هندوسيةً، وتبدو قناطره ومعظم دقائق زخارفه عربية، ويكاد باب علاء الدين يذكّرنا في مجموعه بالأبواب الفارسية الضخمة.



شكل ٣-٩: معبد بندرابن بالقرب من مته (من صورة فوتوغرافية).

وثناسب متانة باب علاء الدين ضخامته، فقد قامت حجارته مقام الأجر الذي شيدت به قصور العرب في الأندلس، وحلّت نقوش حجارته محل نقوش قوالب الحمراء السهلة.

(٣-٢) مزار ألتمش

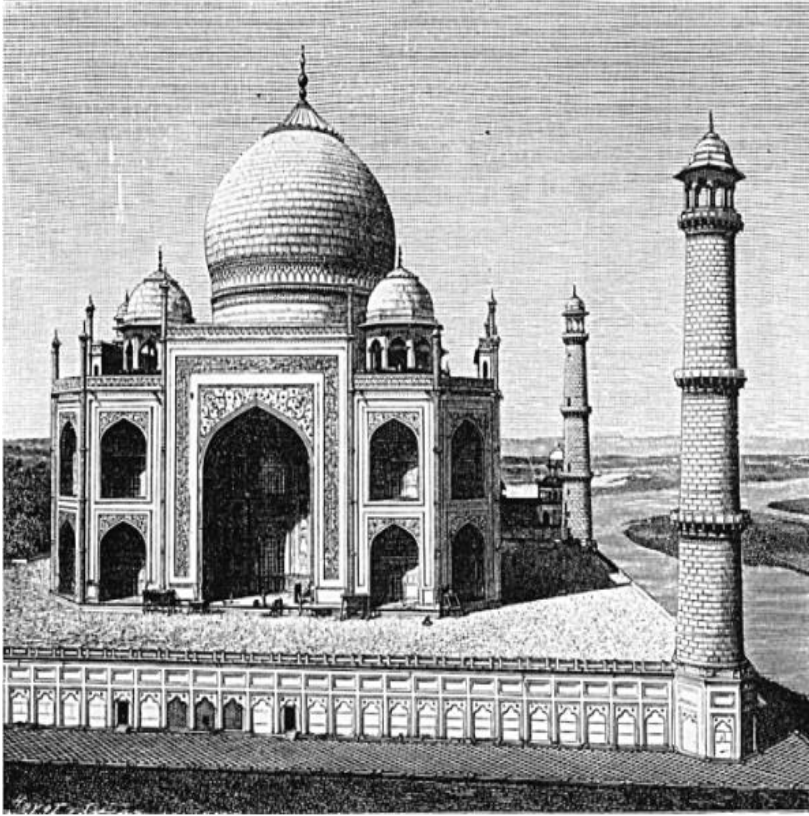
نجد بالقرب من مسجد قطب مزار الملك ألتمش الذي أنشئ في سنة (٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) على طراز البناء المذكور آنفاً، فيُعد من أقدم المباني العربية في الهند.

(٤-٢) معبد بندرابن

كان أول ما تجلّى به تأثير العرب في الهند تطعيم مبانيها القديمة بالفن العربي.

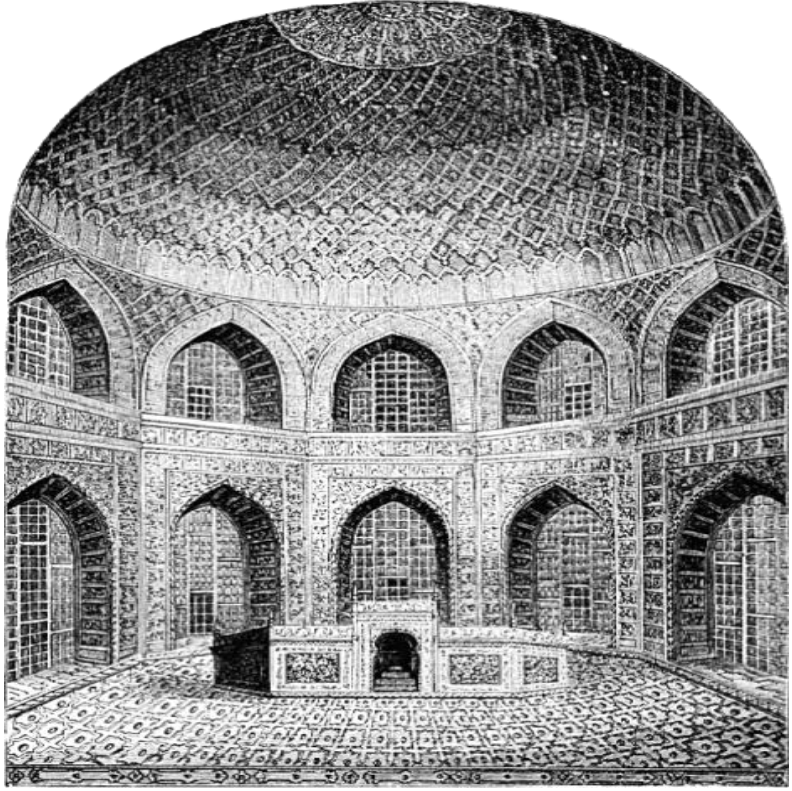
وأقتصر، لبيان ذلك، على نشر صورة لقسم من معبد بندراين الذي بُني على طراز شمال الهند، وأقيمت قنطرة بابه على الطراز الفارسي العربي.

(٥-٢) مزار أكبر في سكندرا



شكل ٣-١٠: تاج محل في أغرا (من صورة فوتوغرافية).

قامت المباني التي نذكرها الآن أيام سلطان المغول، وكان قد انتهى شأن العرب السياسي في الهند، فحُصر نفوذهم في العلوم والفنون والدين، وقد أشال نفوذ الفرس والهندوس كِفَّةً فن العرب، فنشأ عن ذلك امتزاجه بالفنون الأخرى، فصرت لا ترى التأثير البالغ لطراز العرب في مباني الهند كما كان مع بقائه حيًّا فيها.



شكل ٣-١١: قاعة تاج محل المثلثة الكبرى وقبته من الداخل.

ويعد مزار الملك أكبر — الذي أقيم حوالي سنة ١٦٠٠م في سِكنندرا الواقعة بالقرب من دهلي — من أهم مباني ذلك الدور الجديد، وهذا المزارُ شُرع بناؤه في زمن الملك أكبر، وانتهى في زمن شاهجهان.

وكان أكبر — الذي هو من حَفَدَةِ تيمورلنك — من أعظم من عَرَفَتهم بلاد الهند، فقد بلغت بلاد الهند في عهده، الذي دام من سنة ١٥٥٠م إلى سنة ١٦٠٥م، ما لم تعرفه من الرخاء قبله، وكان عصره عصر فن العمارة الذهبي في الهند.

حقاً لقد كان أكبرُ راغباً في شَيْدِ المباني، فقد أقام في عشر سنين، بدأت من سنة ١٥٦٠م، وعلى الصحراء القريبة من أغراء، مدينة فتح پور وقصورها التي تُذكرنا أنقاضها العجيبة

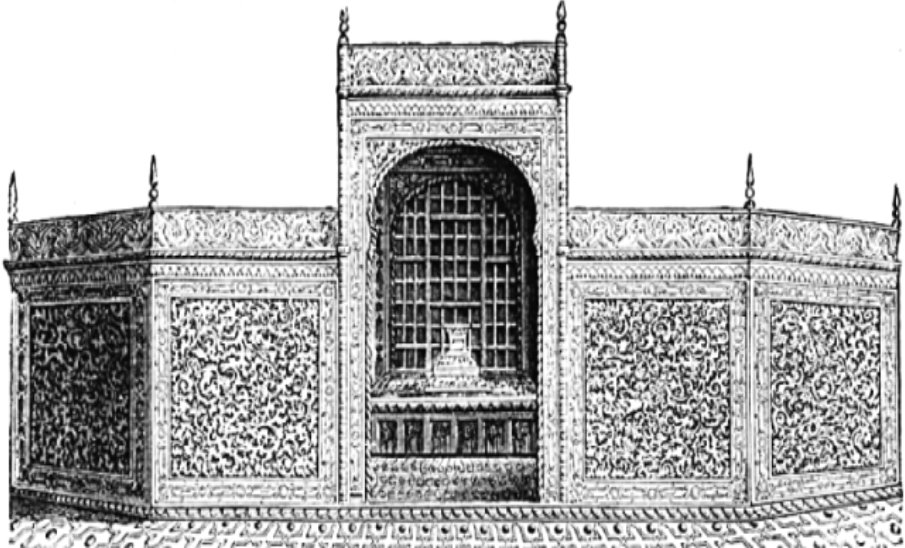
بمدن رواية ألف ليلة وليلة البائدة، ولما أعياه جَوْ هذه المدينة بعد قليل، وهي التي يتمنى بعض الدول الأوربية العظمى أن تكون عاصمةً لها، ارتحل عنها هو وسكانها هاجراً لها ولقصورها ومساجدها التي أصبحت مأوى للنمر وبعض الزهاد بعدئذ.

ولم يقتصر أكبر على إقامة المباني، بل كان يُعنى بشؤون الفلسفة أيضاً، فقد عَنَّ له ذات يوم وهو الذي كان متسامحاً غير متين العقيدة، أن يصهر جميع الأديان في دين واحد، فعقد مؤتمراً من رجال الأديان المعروفة، ومنها النصرانية؛ لِيُسْطَ لهم خطته.

ومن دواعي الأسف أن نسي أكبر أن كل واحد من مستمعيه كان يعتقد أنه على الحق الواضح وأن الآخرين على الضلال المبين، وأن التوفيق بين المؤتمرين من المستحيل، فلم يُسفر ذلك المؤتمر عن غير تشاتم هؤلاء وتلاعنهم.

وأيقن أكبر بذلك أن الملوك، وإن قَدَرُوا مثله على بناء المدن والقصور في الصحراء، لأعجزُ من أن يُبَدِّدُوا الأوهام القوية التي تسيطر على قلوب الناس، فالتاريخ لم يعرف ديانةً قامت على مناقشات باردة أملاها العقل.

(٦-٢) تاج محل في أغرا



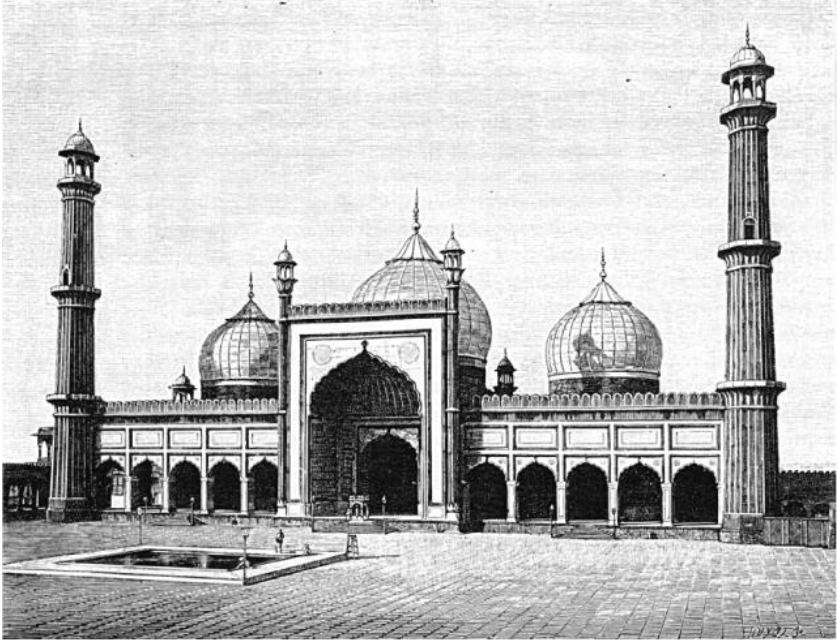
شكل ٣-١٢: حاجز من الرخام الأبيض المنقوش المحيط بقبر شاهجهان وزوجه في تاج محل.

يُرى في مدينة أغرا عدةُ أبنيةٍ مهمةٍ قامت على الطراز الهندوسي الفارسي العربي، ولا سيما مزارُ تاج محل الشهير الذي يتطلب وصفه الكامل أكثر من مجلد. بدأ الملك شاهجهان ببناء تاج محل في سنة ١٦٣١م ليكون ضريحًا لزوجه التي لم يقدر على سَلُوها، فعزم على إقامة أثر لها أجمل من كلِّ ما عَرَفَه بنو الإنسان، ودعا الملك شاهجهان مهندسي الشرق إلى التسابق في وضع رسمه، وحمل أقصى البلاد على جلب أغلى الحجارة وأعزها لرفعه، وأنفق، على ما يقال، ستين مليونًا في سبيل إنشاء ذلك الأثر العظيم، خلا عِوَض أعمال الفَعَلَة الذين كانوا يُسخرون، ورأى تآقِرنه أن إقامة تاج محل اقتضت جهود عشرين ألفًا من العمال في اثنتين وعشرين سنة، فبناء مثل تاج محل لا يقام في أوربة بثلاثة أمثال هذا المبلغ.

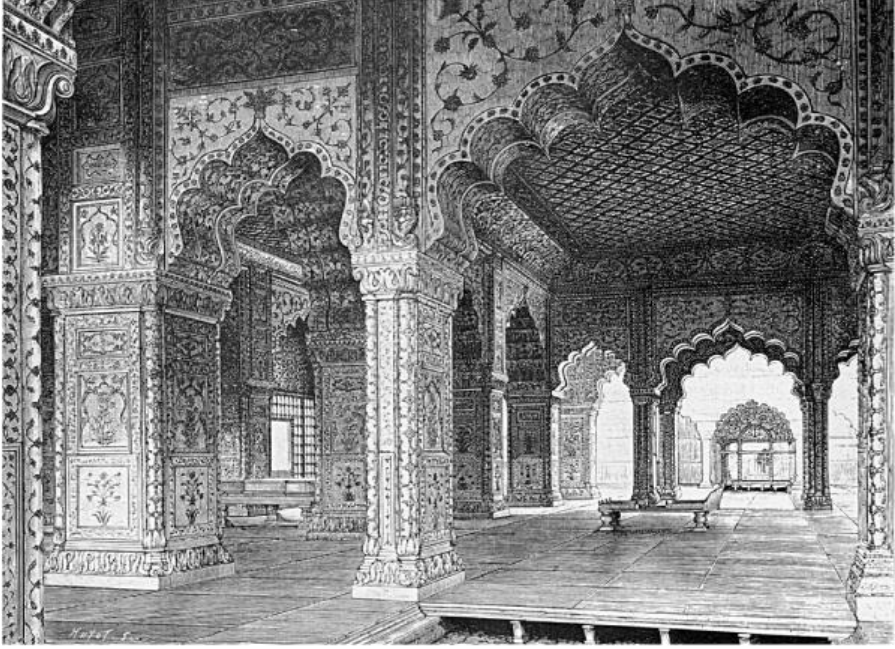
بُني تاج محل الذي نشرنا بعضُ صوره الصادقة في هذا الكتاب، مع عدم كفايتها لإظهار جماله، من المرمَر الأبيض في وَسَط قاعدة فسيحةٍ رخامية تعلو خمسة أمتار عن وجه الأرض، وتمتد مائة متر من كل جانب، ويقوم على زوايا تلك القاعدة الأربع أربعُ مَنَاورٍ، ويلمس ماء النهر أسفل إحدى جنباتها، وتحيط الحدائق ذات النبات الجميل بجنباتها الثلاث الأخرى إحاطةً تأخذ بمجامع القلوب، ويحف حول تلك الحدائق سورٌ ذو شرفات، وتُدخَل من باب كبير أنشئ على الطراز الفارسي.

ولتاج محل أبعادٌ كبيرة، فترفع قبتَه عن سطح الأرض أكثر من ثمانين مترًا، وتُدخَل من أربعة أبواب يبلغ ارتفاع كل واحد منها عشرين مترًا، ويرى في وسط تاج محل ضريح شاهجهان وضريح زوجته المحبوبة.

وَيَعُدُّ السَّيَّاحُ تَاجَ مَحَلٍّ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا، وَإِلَيْكَ مَا قَالَهُ كَاتِبٌ لَمْ يَصْرَحْ بِاسْمِهِ فِي مَجْلَةٍ
الْمَصُورِ مَعَ صُورَةٍ مُقْتَبَسَةٍ مِنْ مِينَاءِ هِنْدِيٍّ صَحِيحَةٍ صَحَّةُ الصُّورِ الْفُوتُوغَرَفِيَّةِ تَقْرِيبًا:
إِنَّ تَاجَ مَحَلٍّ مُصْنُوعٍ مِنَ الْمَرْمَرِ النَّاصِعِ الْمَصْقُولِ، وَيَكَادُ الْبَصَرُ يَخْطِفُ مِنْ نُورِ هَذَا الْبِنَاءِ
الْعَجِيبِ حِينَئِذٍ تُلْقِي الشَّمْسُ أَشْعَتَهَا عَلَيْهِ، وَلِذَا تَجَدُّ نُورُ الْقَمَرِ الشَّاحِبِ أَلْيَقَ بِتَاجِ مَحَلٍّ
الْأَنِيقِ، وَإِنْ كُلُّ مَا يُمْكِنُ الْفَنِّ أَنْ يَجُودَ بِهِ مِنَ الْكَمَالِ صَبَّهُ فِي تَاجِ مَحَلٍّ السَّاحِرِ، فَتَرَى فِيهِ
الْجُدْرَانَ الْمَرْمَرِيَّةَ الْمَنْقُوشَةَ بِهَا لَا يَتَصَوَّرُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَزْهَارِ وَالْأَوْرَاقِ وَالْوَرْدِ
وَالزَّخَارِفِ الْعَرَبِيَّةِ الزَّاهِيَةِ، وَتَرَى فِيهِ الْأَعْمَدَةَ الصَّغِيرَةَ الْهَيْفَ وَالْأُطْرَ الْغَانِيَةَ وَالْأُورْقَةَ
النَّيِّرَةَ وَالنَّقُوشَ الْمُتَدَلِّيَّةَ وَالْفَسِيفَسَاءَ الْمُتَقَنَّةَ الثَّمِينَةَ الْبَاهِرَةَ، تَرَى فِيهِ كِتَابَاتٍ جَمِيلَةً مِنْ
الرُّخَامِ الْأَسْوَدِ، وَتَرَى فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ السَّاحِرِ جَمِيعَ مَا يَسْمَحُ بِهِ الْفَنُّ عَلَى الْوَجْهِ الْفَيَّاضِ
الْأَكْمَلِ.



شكل ٣-١٣: المسجد الكبير في دلهي (من صورة فوتوغرافية).



شكل ٣-١٤: داخل ردهة في قصر ملوك المغول بدهلي (من صورة فوتوغرافية).

وإذا نظرت إلى الضريحين المصنوعين من المرمر الناصع رأيتهما مُثْقَلَيْنِ بالكتابات والزينة الغنية مع عظيم إتقان وظَرْف، وعلمت أن أزهارهما المرصعة بالفسيفساء، والتي تطفح بها من الأسفل إلى الأعلى، من أجمل ما صنع الإنسان، فتتألف كلُّ زهرة من مائة من الحجارة الصقيلة الملونة المتنوعة التي جَمَعَ ما بينها صانع ماهر فأكسبها الصورة التي أرادها، وتلك الحجارة الملونة هي من اللَّازُورْد والزبرجد والعقيق واليَصْب والرُّخام السَّمَاقِيّ والمرمر الأصفر الذهبي ... إلخ، وَزُيِّنَ أسفل الإطار المَثْمَن والغُرْفُ القريبة منه بما ارتفاعه مترٌ و٣٠ سَنَتِمَتِ رَأْسُ الألواح الرخامية الناصعة الكبيرة ذات النقوش البارزة من الفسيفساء على شكل الأزهار وأواني الأزهار، ومثل تلك الألواح مما يشاهد أيضًا في أسفل القباب التي تعلو مداخل تاج محل المزيَّنة بالخطوط العربية المكتوبة بالرخام الأسود.

وتاج محل هو من المباني الإسلامية النادرة التي تَفَلَّت من يد التخريب الإنكليزية المنظمة، والمصادفة هي التي أنقذت تاج محل من عُدوان الإنكليز، فقد رأى الحاكم الإنكليزي لورد بِتِنِك أن تاج محل لا يُدِرُّ شيئاً، فاقترح أن يُهدم وتنزع فضته وتباع قطعه في الأسواق، ولولا ما لتاج محل، الذي هو من أعظم المباني التي شادها الإنسان، من الأهمية العالمية الكبرى التي تكفي وحدها لزيارة الهند لُنُكِبَ العالم بهدمه، والحق أن الذوق الفني مما لا يلائم الطبائع التجارية التي قد يؤدي طغيها على العالم إلى دخوله في دور يُسْتَبَاح فيه تحطيمُ تماثيل كتمثال أفروديت (فينوس دوميلو) لَتُصَنَعَ منه أجرانٌ وهواوين!

(٧-٢) مسجد المعطي أو مسجد اللؤلؤ في أغرا

ومن بين مباني أغرا المهمة أذكر أيضاً «مسجد المعطي» الذي أمر بإنشائه شاهجهان في سنة ١٦٥٨م وفق طراز عهده، وهذا هو المسجد الذي صاح الأُسُفُفُ إبيرت حين رآه قائلاً: إن الخزي ليعتره وقتما يفكر في عجز أبناء دينه عن إقامة مثل بيت الله هذا.

(٨-٢) المسجد الكبير في دهلي

تتضمن مدينة دهلي على كثير من المباني التي أقيمت على الطراز الإسلامي في زمن المغول، والتي نَعُدُّ بعضها باختصار، والمسجد الكبير الذي أقيم في سنة (١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م)، هو أول ما نذكر منها.

بُني هذا المسجد الضخم على ذُرْوَةِ ساحة فسيحة يُوصَل إليها بدرجات عظيمة مؤدية إلى مدخل هائل أنشئ على الطراز الفارسي، وبُني من حجارة رملية حُمْر، ويستر مقدّمه رخام أبيض ورخام أسود متداخلان تداخلاً بديعاً، ولم يَشُدَّ عن طراز تلك المباني التي تمازج فيها الفن العربي والفن الفارسي والفن الهندي، وتجد في الصورة التي نشرناها ما يكفي للوقوف على شكله الخاص.

(٢-٩) قصر المغول في دهلي (أو قلعة شاهجهان)

تمّ بناء هذا القصر، الذي أنشأه شاهجهان، في سنة (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م) وهذا القصر هو أجمل القصور الإسلامية التي أقيمت في بلاد الهند وفارس، وما في رِداهه من الفسيفساء يجعلها قطعاً من الحلي.

ولم ينل هذا القصرُ الشهير (الذي هو من أعجب ما شاهده البشر، والذي ضنَّ به البرابرة الذين دَوَّخوا دهلي غير مرة ونهبوها فلم يُخَرَّبوه) من الإنكليز ما يستحق من العناية، فقد هدموا جميع أجزائه التي رأوا أنهم لا ينتفعون بها، وأقاموا في مكانها ومن أنقاضها نُكَّناً، ولم يحترموا سوى الرِّداه التي رأوا فيها بعض النفع لهم، وذلك مع علمنا أن الإنكليز، الذين حَسَبُوا مقدِّماً نفقةً تنظيف تلك الرِّداه من فسيفسائها وزخارفها الجميلة عند تحويلها إلى إسطبلات ومراقد للجنود، لم يَروا للخلاص من تلك النفقة ما هو أسهل من تكليسها، فسَخِطَ العالم على هذا العمل الهمجي الذي تحمَّر منه وجوه وحوش البرابرة خجلاً، فاضطَّر الإنكليز إلى كَشْط ما جَنَّت أيديهم من عمل حقير، وما أبقاه الإنكليز من ذلك القصر يكفي، مع ذلك، لبيان ما كانت عليه حاله قبل أن تُصِيبَهُ يَدُهُم الهدامة، ويمكن القارئ أن يتمثله بسهولة عند نظره إلى الصورة التي نشرناها في هذا الكتاب عن إحدى رِداهه.

قال مسيو روسله: «إن أُنْبَهَ داخل ذلك القصر مما لم تسمعه أذن، فقد زُيِّنَتْ أساطينه وحناياه وأطُرُقُبتَه بالنقوش العربية العجيبة التي رُسمت بالحجارة الكريمة المرصعة في الرُّخام، وتَهَب الشمس وقتما تُلقَى أشعتها على فسيفساء ذلك القصر من خلال حنياه، الحياة لطاقات زهوره المصنوعة من اللَّازُورد والعقيق واليَصْب، وما لا يُحصى من أنواع الحجارة الثمينة.»

وزار هذا القصر الشهير في إبان عظمته فرنسيان، أحدهما: طبيبٌ اسمه بيرنيه، والآخر: صائغ اسمه تافرنيه، ووصفا دقائق كنوزه في سنة ١٦٧٠م وسنة ١٦٧٧م، وأُذِنَ للصائغ تافرنيه في فحص حجارتِه الكريمة ورسمها، وتجد في كتابه تقديرًا ورسومًا لأهمها، ومما جاء فيه أن في القصر سبعةَ تيجانٍ مُرصعة بالألماس، وأن ثمن أهم هذه التيجان السبعة يُقدَّر بـ ١٦٠٥٠٠٠٠٠٠ فرنك.

وليس من الصعب أن نستعين بما ذكرناه آنفًا، وبما جاء في كتب المتقدمين من الوصف، فتتصور الحال التي كان عليها بلاط ملوك الهند المعاصرين للملك فرنسة لويس الثالث عشر تقريبًا، فالسائحُ الذي يقترب من دهلي يُشاهد في الأفق غابة من القباب والمناور التي تناطح السماء، ثم يمتّع — بعد أن يدخل دهلي — نظره بمئات القصور والمباني الساحرة المكسوة بالميناء الملون الذي لا يُقدّر على الإعراب عن جماله غيرُ التصوير، ويجب عليه، إذا ما رَغِبَ في اجتلاء طلعة سيد تلك العجائب، أن يسأل عن الساعة التي يذهب فيها إلى المسجد، وهو يشاهد، في أثناء انتظاره صابرًا أُرُوفَ تلك الساعة، الرياض العُنَّ ذات الجواسق المُخرَّمة المغطاة بالفسيفساء والمنعكس رُخامها في مياه الفساقى والحياض العميقة والبارزة من بين أزهار الجُلُول ١ والياسمين وشجر البرتقال والليمون والأشجار العطّرة الطيبة الرائحة التي لا تُعرَف بلادنا مثلها.

وبينما يقضي السائح العَجَبَ من تلك العجائب، فيقول في نفسه: إن ملائكة رواية ألف ليلة وليلة لا تستطيع أن تُبدع ما هو أروع منها، يَسْمَعُ أُلُوفَ الصُنُوجِ تُدُقُّ إِيذانًا بمجيء الملك، ويرى أنه يَخرج من باب القصر الهائل جمعٌ كبير من الخَدَم المتسربلين بسرابيل بَرّاقة، ومن الجنود المدججين بالسلاح اللامع، ومن العبيد السُمر ذوي الخلاخل الفضية، والحاملين للمحامل الزاهية ذات المِظَلَّات المخملية، ويرى، في وسط موكبٍ من فرسان

الهندوس والفرس والتركمان الحاملين سيوف الهند المرفعة، ومن أكابر الأمراء والأعيان اللابسين أفخر الثياب المطرزة بالذهب والفضة والحجارة الكريمة، صاحب الجلالة الملك الراكب فيلاً ضخماً مُتَّزَن الحُطَّاء، والذي تُظَلِّلُهُ مِظَلَّةٌ من الحرير المطرز بالألماس والزمرد، ويرى الجمهور وهو يُخَرُّ ساجداً لذلك الملك المطلق الذي هو سيد الهند، وظلُّ الله الحي المرهوب في الأرض، والمالك لخمس عشرة مملكة، والذي هو مَلِك أغرا ودهلي وكابل ولاهور وكجرات ومالوا وبنغال وأجمير، ويرى على جوانبه فريقاً من حاشية الملك يُحَرِّك مراوح من ريش الطاووس ذواتِ أهدابٍ مرصعة بالحجارة الكريمة على حين تُلقِي الشمس أشعتها الذهبية على ذلك الموكب الملكيِّ الشرقيِّ الباهر.

الفصل الثالث

العرب في بلاد فارس والهند

(١) العرب في بلاد فارس

تختلف بقايا حضارة العرب باختلاف البلدان التي استولوا عليها، وإذ كان درسُ هذه الحضارة يقوم على البحث في آثار العرب العلمية أو الأدبية أو الفنية أو الصناعية، فإننا لا نستطيع أن نسير في فصول هذا الكتاب على نهج واحد، وقد رأيت أننا اعتمدنا في كلامنا عن سورية على الآثار الماثلة، وأننا سلكنا طريقاً آخر حينما بحثنا في أمر بغداد التي لا نجد فيها آثاراً شاخصة، فاقصرنا حين الكلام عنها على التنويه بتنظيم العرب السياسي والمالي والإداري وما إلى ذلك، فإذا ما وصلنا تلك العناصر المختلفة بعضها ببعض أمكننا أن نرسم صورةً جامعةً لحضارة العرب في مختلف الأزمنة.

ولا نعرف إلا القليل عن آثار العرب في بعض البلدان التي دانت لهم، كبلاد فارس على الخصوص، فترانا مضطرين إلى الإيجاز في ذلك، ومع ذلك يُثبت علمنا القليل عنها أن ذلك الشأن كان عظيمًا جدًا.

رأى العرب أنفسهم، حين هدموا دولة بني ساسان الفارسية، تجاه حضارة قديمة قديمة، فاقتبسوا الشيء الكثير من فنونها على الخصوص.

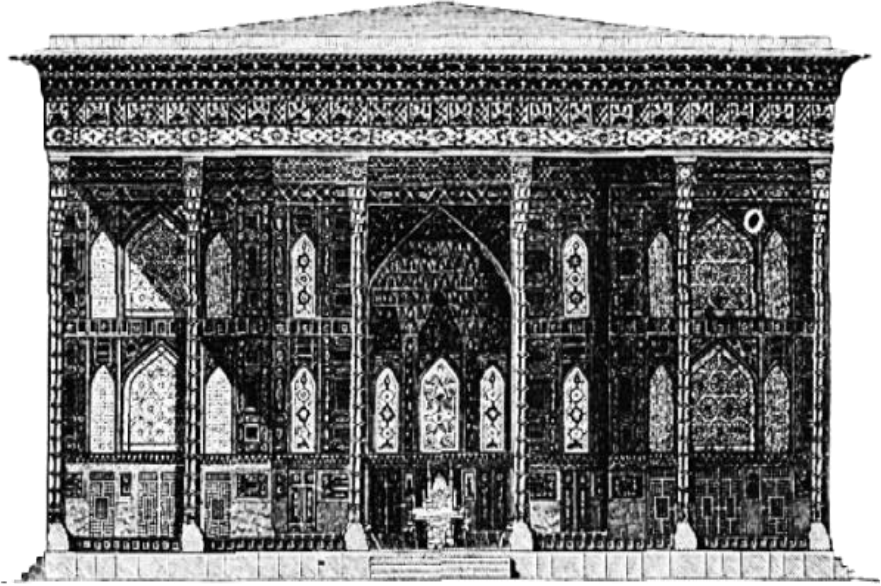
وتَمَّ النصر للعرب على بلاد فارس في الدور الأول من الإسلام، كما اتفق لهم في سورية، واستولوا على أصبهان في خلافة عمر بن الخطاب (٦٤٥م)، ودام السلطان للخلفاء في بلاد فارس مدة ثلاثة قرون، وكان تاريخ بلاد فارس مرتبطًا في تاريخ بغداد بعض الارتباط، ثم تداولت حُكْم بلاد فارس دولٌ مستقلة مؤقتة كان يُدَّأَل منها، ونَعُدُّ من تلك الدول دولة الترك السلجوقيين الذين قضى المغول على سلطانهم في القرن الثالث عشر، ثم دولة التركمان الذين طَرَدوا المغول من بلاد فارس في سنة ١٤٠٣م.

ونشأ عن تتابع الغزو هدمُ المباني القديمة التي شادها العرب وبنو ساسان في بلاد الفرس وزوال ما كان منها في مدينة أصبهان، على الخصوص، زوالًا تامًّا، وما نراه الآن في أصبهان هو من صنع الشاه الفارسي الشهير عباس الذي اتخذها قاعدةً مُلكه في سنة (٩٩٨هـ / ١٥٨٩م) والذي استردَّ من الترك معظم بلاد فارس، ويظهر أن ذلك القطر استرد رخاءه القديم لمدة قرن، فقد قاتل الفرسُ منصورين دولة المغول في الهند سنة ١٥٣٩م، وانتزعوا منها ولاياتٍ كثيرةً واقعة غرب نهر السند، ثم سادت الفوضى والانحطاط بلاد فارس، ونرى اليوم بلاد فارس، الواقعة بين الروس الذين يرغبون في التقدم نحو بلاد الهند والإنكليز الذين يمانعون في ذلك، مهددةً بأن تكون ميدان قتال

لهذين الفريقين، وأن تقع فريسةً للغالب منهما، فكأنه كُتِبَ على بلاد فارس أن تكون مسرح حروب تمهيداً لإقامة الأجنبي الغالب دولةً عالمية كما تمَّ في القرون الغابرة. وثبَّت تأثير العرب في الفرس من اعتناق الفرس لدين العرب ونُظُمهم، ومن شيوع اللغة العربية بينهم شيوع اللغة اللاتينية في أوربة في القرون الوسطى، وذلك من غير أن تكون لغة البلاد الدارجة كما ثبَّت من استمرار الفرس إلى الوقت الحاضر على تلقِّي علم التوحيد والتاريخ والعلوم الأخرى من كتب العرب.

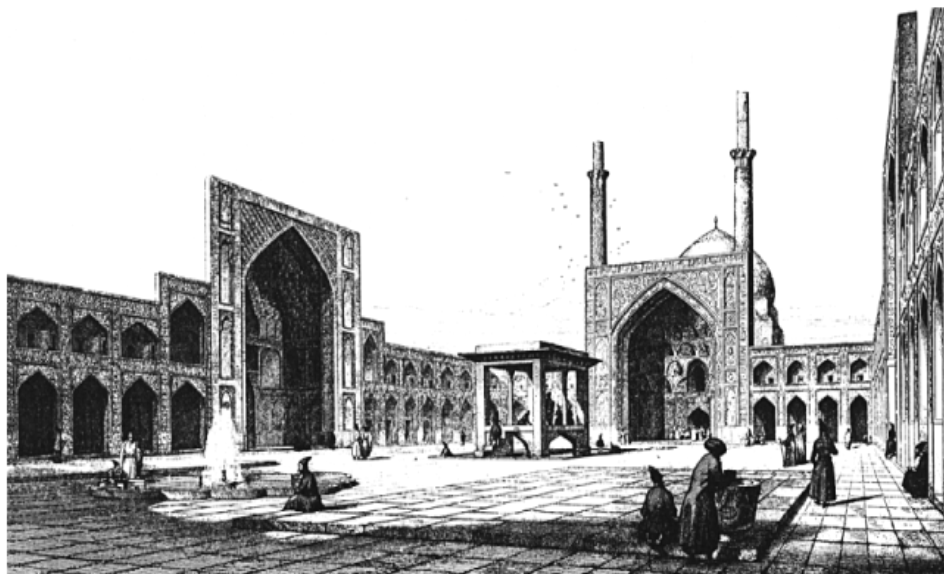
وتبدو بقايا ما تركه العرب من الآثار الماثلة في بلاد فارس من القلَّة ما لا تكفي معه لبيان تأثير هاتين الأمتين إحداهما في الأخرى، ولا نعرف حال فن العمارة الفارسي قبل الإسلام بالضبط وفي ظل العرب، وما بحث فيه بعض الرواد من المباني لم يخرج عن حد الانقراض التي يصعب معها بيان الحالة التي كانت عليها فيما مضى، ونقول مع ذلك، وبعد إنعام النظر في تلك البقايا وفيما رواه المؤرخون: إن قصور أكاسرة الفرس قبل الفتح العربي كانت على جانب عظيم من الزخرف والزينة، وإن الفرس كانوا يعرفون إقامة القباب، وإنهم كانوا يعلمون كيف يكسون المباني بالميناء، وإن العرب رَضُوا في دور الفتح بفن العمارة الفارسي مع قليل من التبديل، وإن أهمَّ ما اقتبسه العرب من مُتَقَنِّي الفرس في ذلك الدور الأول هو جزئيات الزخرف واستعمال الميناء على الخصوص، لا طراز البناء الذي استعاروه في البُداء، من البنزنيين في سورية ومصر على الأقل.

ثم تغيرت الأوضاع مع الزمن، فصار العرب يُؤثِّرون في الفرس، فاقتبس الفرس من العرب شكل قباهم والنقوش المتدلِّية (المقرنصات) وضروب الزينة كالكتابات، وسنعود إلى هذه المسائل في الفصول التي خصصناها للبحث في فنون العرب.

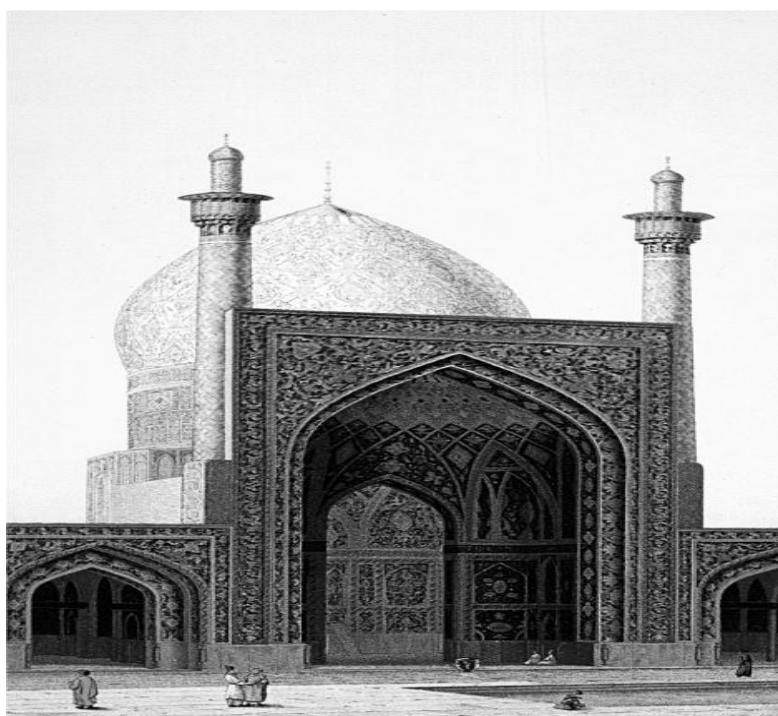


شكل ٣-١: جوسق چهل ستون في أصفهان (من تصوير كوست).

ولم يبقَ في بلاد فارس من مباني دور خلفاء العرب الأولين سوى عدد قليل، كبقايا مسجد همذان التي نشرنا صورتها في فصل آخر، ويظهر أن في مدينة مشهد بقايا من مباني ذلك الدور امتزج فيها الطراز العربي بالطراز الفارسي، وهي التي تكلم عنها مسيو دوكانيكوف، فتجلى الطراز الفارسي في أقواسها ومينائها ومآذنها المخروطة الشكل التي لا رُواق لها في غير رأسها، وتجلى الطراز العربي في خطوطها المزخرفة وأعمدتها الهيف ومُتدليّاتها... إلخ.



شكل ٣-٢: داخل مسجد في أصفهان (من تصوير كوست).



شكل ٣-٣: جامع أصفهان الكبير (من تصوير كوست).

وما بين بقايا مباني عصر الخلفاء في بلاد فارس والمباني التي أقامها الشاه عباس في أصبهان مؤخرًا من التقارب يُثبت لنا سير المهندسين على نمط قديم واحد، وسنرى في الفصل الذي ندرس فيه تاريخ فن العمارة العربية، أنه طرأ على ذلك النمط القديم بعض التغيير في الجزئيات المهمة مع الزمن ولا سيما في شكل القباب، فبعد أن كانت القباب منخفضة، ثم ذات نصف كُرّة، صارت مَحْصَرَةً بِصَلِيلَةِ الشَّكْلِ.

ومهما يكن من أمر فإن لفن العمارة الفارسي طابعًا خاصًا، ونَعُدُّ المآذِن المخرّوطة الشكل والأبواب العظيمة المفرطة القناطر والجدران المزينة بالميناء الملّون من أهم ما اختص به فن العمارة الفارسي ذو التأثير في مباني الهند كما نقطع في ذلك.

وانتحل المغول، بعد أن قهروا العرب، دين العرب وحضارتهم، واستخدموا في بلاد فارس والهند التي استولوا عليها مهندسين من الهندوس والفرس، فمزج هؤلاء المهندسون مختلف الفنون في المباني التي أقاموها كما تراه بعد قليل، وتدلُّ بقايا الآثار في مدينة سمرقند العظيمة، التي اتخذها تيمورلنك عاصمةً لدولته سنة ١٤٠٤م، فأصبحت نصف متداعية اليوم — على المؤثرات الفارسية في فن العمارة، وأعظم من ذلك ما كان للعرب من التأثير في الهند في بدء الأمر على الأقل.

ويظهر أنه صار للمغول فن عمارة خاص، مع أنهم لم يُبدعوا أيَّ عنصر في هذا الفن الخاص، وقد قام هذا الفن على مزج فنون مختلف الأمم التي خضعت لحكمهم فيما شادوا من المباني كما تدل عليه الصور التي نشرناها.

والخلاصةُ هي أن تأثير العرب في بلاد فارس كان كبيرًا في أمور الدين والعلوم واللغة، وأنه كان ضعيفًا بعض الضعف في العادات وفن العمارة، وأن الفرس، خلافًا للمصريين،

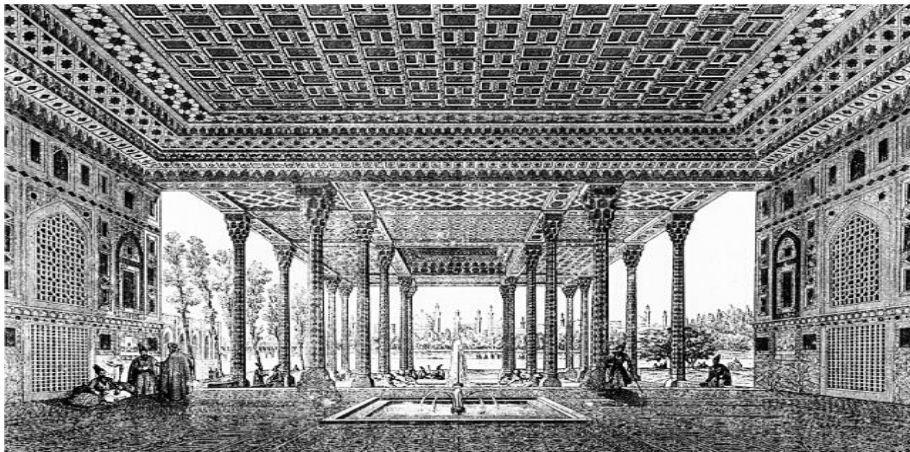
حافظوا على أقسام حضارتهم القديمة الأساسية مع صلتها بحضارة الغالين، وذلك خلافاً للمصريين.

(٢) العرب في بلاد الهند

لم يتفق للعرب في بلاد الهند شأنٌ سياسي أعظم مما كان لهم في بلاد فارس، وللعرب، مع ذلك، تأثير ديني قوي ونفوذ مدني كبير في بلاد الهند منذ القديم، ففي الهند يخضع نحو خمسين مليون نفسٍ لشريعة النبي في الوقت الحاضر.

وبدأ ظهور العرب في الهند منذ السنة الأولى من الهجرة (٦٣٧م)، فقد خرجت أساطيل عربية من عُمان والبحرين، وتقدمت إلى مصابِّ السند، ثم أدى ملك كابل الجزية إلى العرب في سنة ٦٦٤م، وفتح جيش العرب في سنة ٧١١م مملكة السند التي كانت تمتد إلى كشمير من الشرق ونهر السند والبحر من الغرب.

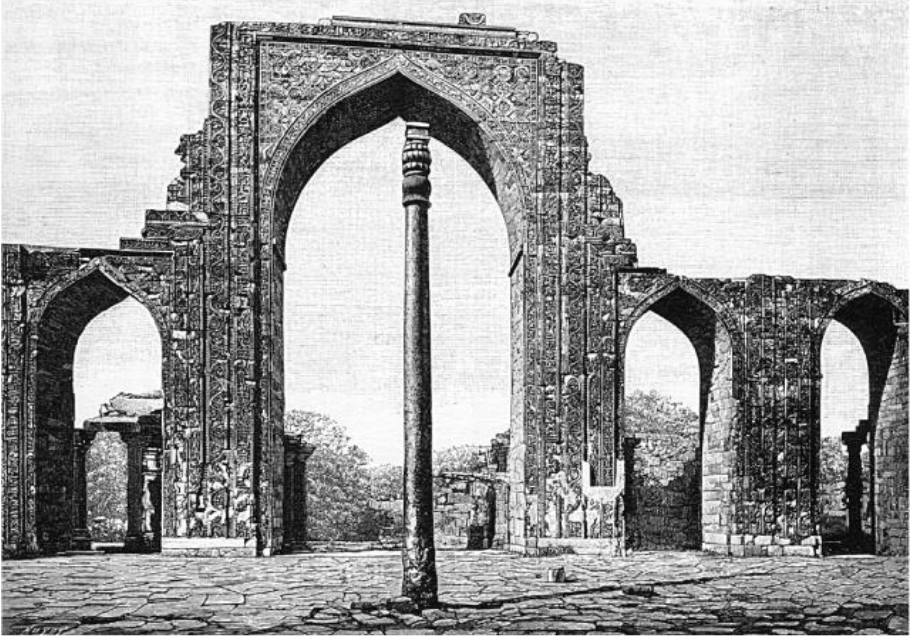
ولم يكن لاستقرار العرب هنالك أهمية كبيرة، فقد انتهى في سنة ٧٥٠م، فآل الحكم فيها إلى ملوكٍ من الهندوس، فإلى الترك والمغول الذين اعتنقوا الإسلام.



شكل ٣-٤: جوسق المرايا في أصبهان (من تصوير كوست).

وملوكُ غَزَنَة أَهَمُّ أولئك وأقدمهم. والغزنويون أخذوا يفتحون بلاد الهند حوالي سنة ١٠٠٠م، وانتهى قتالهم في هذه السبيل بعد إحدى عشرة معركة قاموا بها في خمس وعشرين سنة، واستولوا نهائياً على صَفَّةِ السند الشرقية وعلى كشمير والبنجاب ولاهور وأجير، وأعلن الغزنويون عن أنفسهم في كل مكان أنهم دعاة دين العرب وحضارتهم، ومنحهم خلفاء بغداد لقب أيا من المؤمنين، وهكذا خضعت الهند للفاطحيين من الأجانب للمرة الأولى منذ زمن الإسكندر.

وكان سلطان الإسلام السياسي والديني قوياً في بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الذين تداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الديني قائماً في بلاد الهند، وإن توارى سلطانه السياسي عنها، وهو يمضي قُدُماً نحو الاتساع. ووجد المسلمون، حين أوغَلُوا في الهند، حضارةً قديمة أرقى من حضارتهم، وعرفوا كيف يمزجونها بها، وما يستوقف النظر ما استطاعوه في زمن قصير من نشرهم لمعتقداتهم في قسم كبير من هذا القطر الواسع.



شكل ٣-٥: باب مسجد قطب وعمود الملك دهاوا المصنوع من الحديد «بالقرب من دهلي» (من تصوير فريث الفوتوغرافي).

وأعجب غزاة المسلمين بمباني الهندوس المغلوبين، واسمع ما قاله محمود الغزنوي في كتاب أرسله إلى أحد قواده عن مدينة مترا، التي كانت مشهورة أيضًا، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد:

تحتوي مدينة مترا العجيبة على أكثر من ألف من المباني المتينة متانة أهل الإيمان، والمصنوع أكثرها من الرخام، ولا يشتمل هذا العدد على معابد الكافرين، وإذا عُدَّ المال الذي أنفق على إنشاء هذه المباني بلغ ألوف الألوف من الدنانير، فضلًا عن أنه لن يقام مثل هذه المدينة في أقل من قرنين، ووجد جنودي في معابد المشركين خمسة أصنام من الذهب ذوات عيون من ياقوت أحمر تساوي قيمته خمسين ألف دينار، ووجدوا فيها صنمًا آخر من الذهب مزخرقًا بما زنته أربعمئة مثقال من الياقوت الأزرق، وذا نصمة بلغ وزنها عند

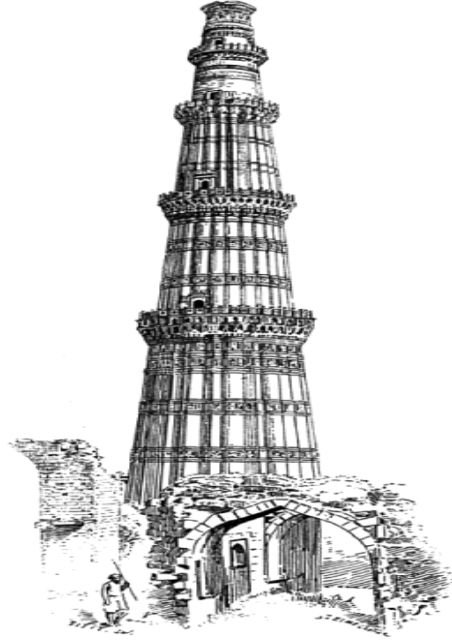
الصهر ثمانية وتسعين مثقالاً من الذهب الخالص، ووجدوا فيها، فضلاً عن ذلك، نحو مائة صنم من الفضة يعدل وزنها حمل مائة بعير.

وقام ملوكُ جُذُدُ مقام أصحاب غزنة، ثم جاء المغول فحلُّو محلَّهم، وهنا نرى تنبيه القارئ إلى أن الذين تم لهم السلطان على الهند لم يكونوا عرباً بدمائهم، وإنما كانوا من دُعاة دين العرب وحضارتهم.

ويصلُ الباحث، حين يدرس تأثير العرب في الأمم التي اختلطوا بها، إلى إحدى التيجتين الآتيتين، وهما: إما أن تكون حضارة العرب قد حَلَّت محل حضارة الأمة المقهورة كما حدث في مصر، وإما أن تكون قد امتزجت بحضارة الأمة المغلوبة كما حدث في بلاد فارس والهند، وفي بلاد الهند بلغ امتزاج حضارة العرب بحضارة الهند مبلغاً بدت علائمه حتى على المذاهب الدينية، ثم حدث أن أتى بعدئذ عنصر الحضارة الفارسية، فاشترك هذا العنصر أيضاً في ذلك الامتزاج.

ويدلُّ درس المباني في بلاد الهند على درجة تأثير العرب فيها في مختلف الأدوار، وعلى درجة تمازج تلك العناصر الثلاثة، وكان تأثير العرب سائداً لمباني الدور الأول، كباب علاء الدين الذي يكاد يكون أثر الفن الفارسي فيه غيرَ موجود، والذي لا يبدو أثر الفن الهندي في غير تفرعاته؛ لعدم ملاءمة معابد الهند القديمة لمناحي الحضارة الجديدة، فاقصر أتباع النبي على الانتفاع ببعض أجزاء هذه المعابد.

وظل تأثير الفن العربي في تلك المباني واضحاً بضعة قرون أخرى وإن توارى العرب عن مسرح العالم بالتدريج، ثم أخذ المجال يتسع للفن الفارسي فتمَّ له النفوذ على حساب الفن العربي والفن الهندوسي اللذين أخذ نطاقهما يضيق.



شكل ٣-٦: منارة قطب بالقرب من دهلي (من صورة فوتوغرافية).

وكان دور تحول مباني الهند بعد الإسلام طويلاً، وتأخر زمن ظهور المباني التي كان للعبقريّة العربيّة أثرٌ فيها، ويرجع سبب هذا إلى أن دعاة شريعة الرسول لم يكونوا من العرب، بل من الترك والمغول المشابهين للبرابرة الذين استولّوا على العالم الروماني، والذين لم يهضموا حضارة المغلوين إلا بعد انقضاء زمن طويل.

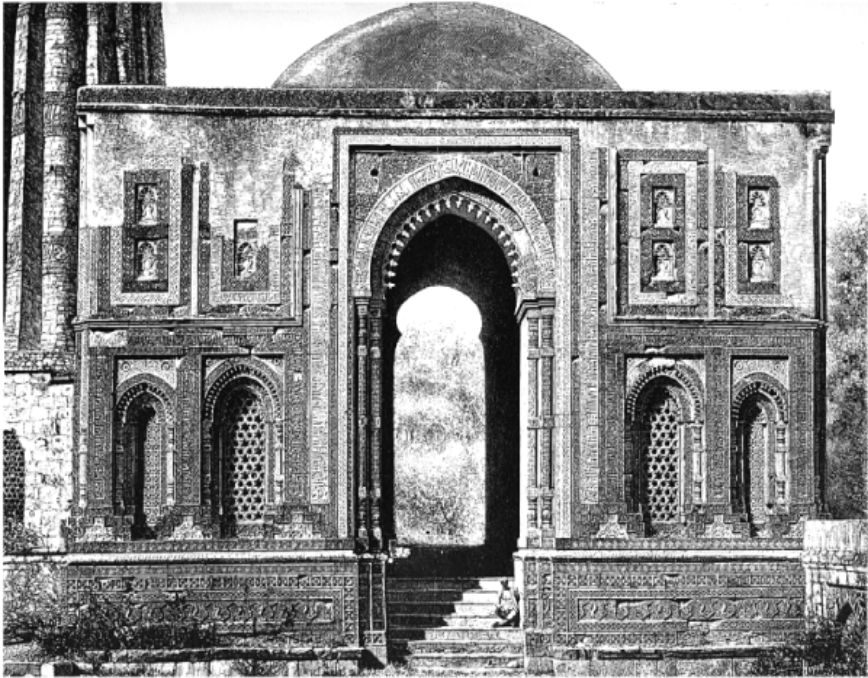
حقاً إنهم لم يهضموها إلا بعد زمن طويل، وبهذا البطء يبدو لنا الفرق الأساسي بين الأمم التي تكون على جانبٍ كبير من الذكاء فتتطور بسرعة، كالأمّة العربيّة، والأمم المنحطة التي تتطور ببطء كبرابرة القرون الوسطى الذين قَضَوْا على دولة الرومان، وكأجلاف الآسيويين الذين غمر طوفانهم دولة محمد.

ولقد أبدع العرب من فورهم تقريباً، حضارةً جديدةً أفضل من الحضارات التي جاءت قبلها، وذلك بعد أن استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس،

وكانت عقول البرابرة عاجزة عن إدراك كنه الحضارة التي قهروا أهلها، وكان انتفاعهم بها ممسوخاً في بدء الأمر، وهم لم يسيروا بها نحو الرقي إلا بعد أن صُقلت أدمغتهم، وصارت قادرة على إدراك معانيها بعد زمن طويل.

والواقع أن تقدم أولئك البرابرة الذين هدموا الدولة الرومانية لم يحدث إلا بتوالي الأجيال، وأنهم، لبطء تقدّمهم، لم يستطيعوا إقامة حضارة جديدة على أنقاض حضارة العالم السابق إلا بعد جهود استمرت قروناً كثيرة.

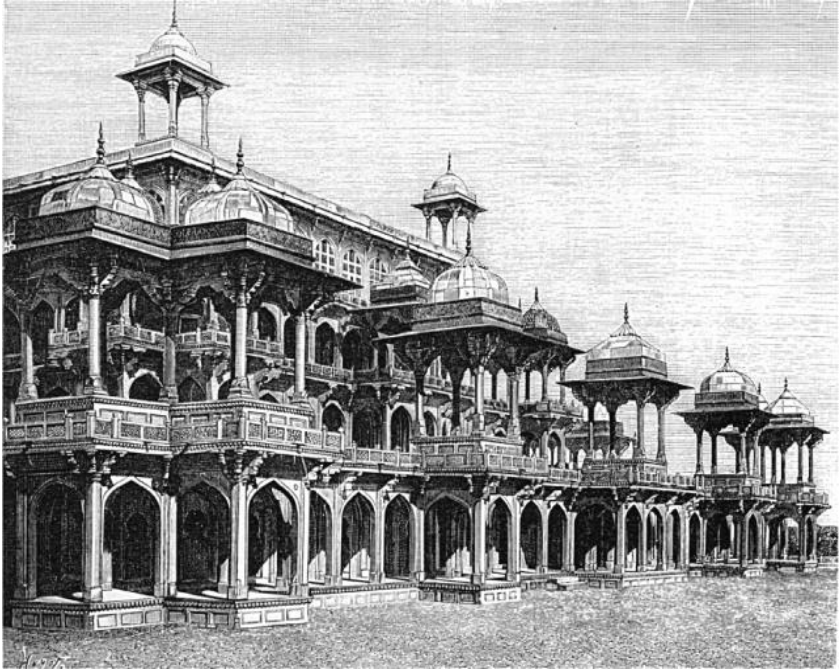
ودام سلطان أصحاب غزنة حتى سنة ١١٨٦ م وحل الغوريون، الذين هم من التركمان، محلهم، ونذكر من ملوكهم المشهورين قطب الدين الذي تُوفي سنة ١٢١٠ م، والذي أقام في بلاد الهند مباني ذات قيمة كما سيأتي بيان ذلك.



شكل ٣-٧: باب علاء الدين بالقرب من دهلي (من تصوير فريث الفوتوغرافي).

وأصبحت مدينة دهلي، في سنة ١٢٥٠م، ملجأ لرجال العلم والفن من الغرباء، وصارت تحذب عليهم حدب بغداد فيما مضى، ثم أتى المغول، وصاروا يغزون الدولة الجديدة، ونازلهم علاء الدين تحت أسوار دهلي في سنة ١٢٩٧م فوجد أمامه خمسمائة ألف رجل، على ما يروى، فدحرهم.

وفتح تيمور لك مدينة دهلي عنوة في سنة ١٣٧٨م، ولم يكن أمره غير عابر سبيل، فقد نشأ عن الفوضى التي أسفرت عنها فتوحه قيام دولة مستقلة مؤقتة هنا وهناك، ولما حلت سنة ١٥١٧م استولى ملك كابل، الذي هو من ذرية تيمورلنك، على مدينة دهلي، وأسس دولة المغول الكبرى التي كُتب لها البقاء مدة ثلاثة قرون، ثم قضى عليها الإنكليز. والآن ندرس على طريقتنا أهم ما في الهند من المباني العربية أو المباني التي كان للفن العربي أثر واضح فيها، فما نُقش على الحجارة أفصح مما جاء في الكتب.



شكل ٣-٨: مزار أكبر في سكندرا (من صورة فوتوغرافية).

(٢-١) منارة قطب

يرجع أقدم ما انتهى إلينا من المباني العربية في الهند إلى أواخر القرن الثاني عشر من الميلاد، ونَعُدُّ مسجد قطب — الذي أقيم في سنة ١١٩٠ م بالقرب من دهلي — ومنارة قطب من أهم تلك المباني.

ومنارة قطب، ذات الشرف الكثيرة المُخَرَّمة، برجٌ طويلٌ مخطط ذو نقوش عربية مخروط الشكل مشدود بنُطقٍ مُزينة بالكتابة.

ولا نرى ما هو عربي في منارة قطب سوى زخارفها وأروقته، وقد أقامها، أو أتم إنشاءها، قطب الدين، فأضيف اسمها إلى اسمه مع الاختصار، فعُرفت في أوربة باسم منارة قطب.

ويدل شكل منارة قطب الخاص على أن مهندسيها من الهندوس، ويعدونها في الهند من العجائب، قال السيد أحمد خان، الذي عرّف عنه مسيو غراسين دوتاسي مخطوطاً هندوسياً مهمّاً خاصّاً بدهلي: «إن عظمة هذه المنارة وجمالها مما لا يمكن وصفه كما يجب، فهي مما لا نظير له على وجه الأرض»، ويرى ذلك المؤلف أن الملك الهندوسي پيثوره هو الذي بدأ بإنشائها في سنة ١١٤٣ م فأتمها قطب الدين.

ويشاهد بالقرب من منارة قطب الدين أنقاض معبد هندوسي قديم حُوِّل إلى مسجد، ويرجع تاريخ إنشائه إلى (سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م).

(٢-٢) باب علاء الدين

يشتمل ذلك النطاق الذي يحوي مسجد قطب ومنارته على كثير من الآثار المهمة الأخرى كمعبد پيثوره، وأهم تلك الآثار الباب العظيم الشهير الذي أنشأه علاء الدين في سنة ١٣١٠ م، والذي يستوقف النظر بجماله الرائع من حيث تاريخ الفن عند المسلمين،

والذي هو من أهم آثار الفن العربي التي انتهت إلينا، ولم أشاهد بين الأبواب ما يماثله سوى بعض أبواب الحمراء الداخلية مع ما بينها وبينه من التفاوت في الاتساع كالذي بين الفسطاط والكتدرائية.

وإن القارئ الذي يتأمل صورة ذلك الباب الصادقة التي نشرناها في هذا الكتاب ليعجب من عبقرية المهندسين الذين استطاعوا أن يمزجوا مختلف الفنون، فأقاموا باب علاء الدين المبتكر المنسجم الذي تبدو أعمدة أطره هندوسية، وتبدو قناطره ومعظم دقائق زخارفه عربية، ويكاد باب علاء الدين يذكرنا في مجموعه بالأبواب الفارسية الضخمة.



شكل ٣-٩: معبد بندرابن بالقرب من مئذنة (من صورة فوتوغرافية).

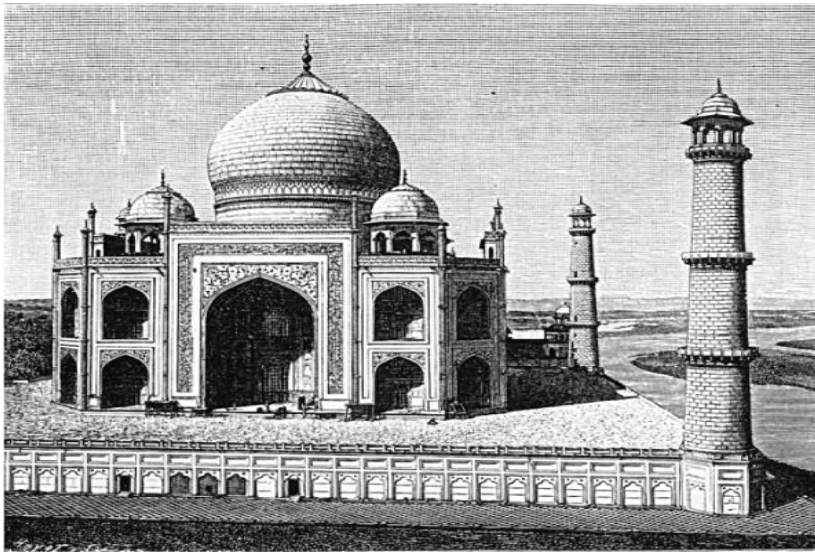
وثناسيب متانة باب علاء الدين ضخامته، فقد قامت حجارته مقام الأجر الذي شيدت به قصور العرب في الأندلس، وحلّت نقوش حجارته محل نقوش قوالب الحمراء السهلة. (٣-٢) مزار الشمس

نجد بالقرب من مسجد قطب مزار الملك أَلتمش الذي أنشئ في سنة (٦٣٣هـ / ١٢٣٥م)
على طراز البناء المذكور آنفاً، فيُعد من أقدم المباني العربية في الهند.

(٢-٤) معبد بندرابن

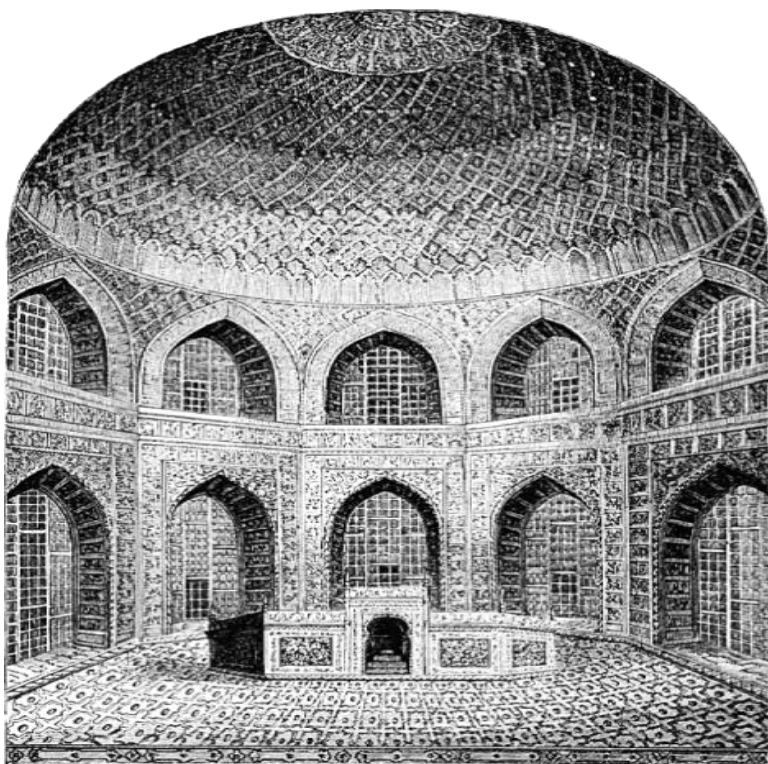
كان أول ما تجلّى به تأثير العرب في الهند تطعيم مبانيها القديمة بالفن العربي.
وأقتصر، لبيان ذلك، على نشر صورة لقسم من معبد بندرابن الذي بُني على طراز شمال
الهند، وأقيمت قنطرة بابه على الطراز الفارسي العربي.

(٢-٥) مزار أكبر في سكندرا



شكل ٣-١٠: تاج محل في أغرا (من صورة فوتوغرافية).

قامت المباني التي نذكرها الآن أيام سلطان المغول، وكان قد انتهى شأن العرب السياسي
في الهند، فحُصر نفوذهم في العلوم والفنون والدين، وقد أشال نفوذ الفرس والهندوس
كفّة فن العرب، فنشأ عن ذلك امتزاجه بالفنون الأخرى، فصرت لا ترى التأثير البالغ
لطرز العرب في مباني الهند كما كان مع بقاءه حيّاً فيها.



شكل ٣-١١: قاعة تاج محل المثلثة الكبرى وقبته من الداخل.

ويعد مزار الملك أكبر — الذي أقيم حوالي سنة ١٦٠٠م في سِكندرا الواقعة بالقرب من دلهي — من أهم مباني ذلك الدور الجديد، وهذا المزارُ شُرع بناؤه في زمن الملك أكبر، وانتهى في زمن شاهجهان.

وكان أكبر — الذي هو من حَفَدَةِ تيمورلنك — من أعظم من عَرَفْتهم بلاد الهند، فقد بلغت بلاد الهند في عهده، الذي دام من سنة ١٥٥٠م إلى سنة ١٦٠٥م، ما لم تعرفه من الرخاء قبله، وكان عصره عصر فن العمارة الذهبي في الهند.

حقاً لقد كان أكبرُ راغباً في شَيْدِ المباني، فقد أقام في عشر سنين، بدأت من سنة ١٥٦٠م، وعلى الصحراء القريبة من أغرا، مدينة فتح پور وقصورها التي تُذكرنا أنقاضها العجيبة بمدن رواية ألف ليلة وليلة البائدة، ولما أعياه جَوْ هذه المدينة بعد قليل، وهي التي يتمنى

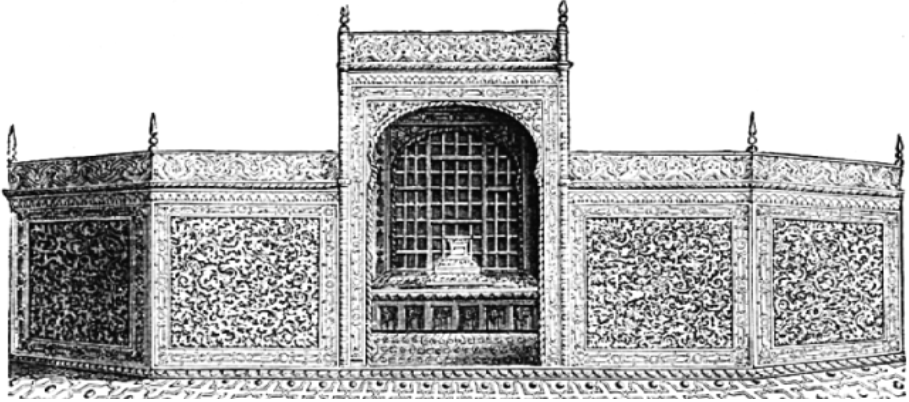
بعض الدول الأوربية العظمى أن تكون عاصمةً لها، ارتحل عنها هو وسكانها هاجراً لها ولقصورها ومساجدها التي أصبحت مأوى للنُّمر وبعض الزُّهاد بعدئذ.

ولم يقتصر أكبر على إقامة المباني، بل كان يُعنى بشؤون الفلسفة أيضاً، فقد عَنَّ له ذات يوم وهو الذي كان متسامحاً غير متين العقيدة، أن يصهر جميع الأديان في دين واحد، فعقد مؤتمراً من رجال الأديان المعروفة، ومنها النصرانية؛ لِيَبْسُطَ لهم خطته.

ومن دواعي الأسف أن نسي أكبر أن كل واحد من مستمعيه كان يعتقد أنه على الحق الواضح وأن الآخرين على الضلال المبين، وأن التوفيق بين المؤتمرين من المستحيل، فلم يُسفر ذلك المؤتمر عن غير تشاتم هؤلاء وتلاعنهم.

وأيقن أكبر بذلك أن الملوك، وإن قَدَرُوا مثله على بناء المدن والقصور في الصحراء، لأعجزُ من أن يُبَدِّدُوا الأوهام القوية التي تسيطر على قلوب الناس، فالتاريخ لم يعرف ديانةً قامت على مناقشات باردة أملاها العقل.

(٦-٢) تاج محل في أغرا



شكل ٣-١٢: حاجز من الرخام الأبيض المنقوش المحيط بقبر شاهجهان وزوجه في تاج محل.

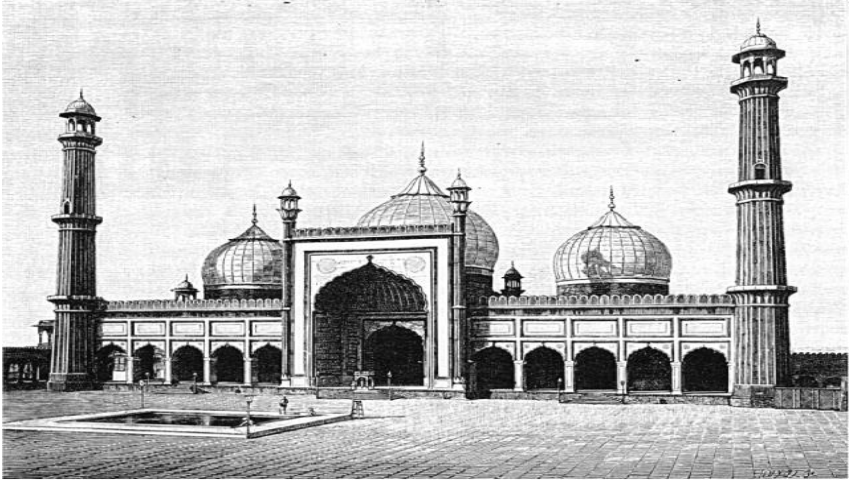
يُرى في مدينة أغرا عدةُ أبنيةٍ مهمةٍ قامت على الطراز الهندوسي الفارسي العربي، ولا سيما مزارُ تاج محل الشهير الذي يتطلب وصفه الكامل أكثر من مجلد. بدأ الملك شاهجهان ببناء تاج محل في سنة ١٦٣١م ليكون ضريحًا لزوجته التي لم يقدر على سَلْوِها، فعزم على إقامة أثر لها أجمل من كلِّ ما عَرَفَه بنو الإنسان، ودعا الملك شاهجهان مهندسي الشرق إلى التسابق في وضع رسمه، وحمل أقصى البلاد على جلب أغلى الحجارة وأعزها لرفعه، وأنفق، على ما يقال، ستين مليونًا في سبيل إنشاء ذلك الأثر العظيم، خلا عَوْض أعمال الفَعَلَة الذين كانوا يُسَخرون، ورأى تافرنيه أن إقامة تاج محل اقتضت جهود عشرين ألفًا من العمال في اثنتين وعشرين سنة، فبناء مثل تاج محل لا يقام في أوربة بثلاثة أمثال هذا المبلغ.

بُني تاج محل الذي نشرنا بعضُ صوره الصادقة في هذا الكتاب، مع عدم كفايتها لإظهار جماله، من المرمم الأبيض في وَسَط قاعدة فسيحة رخامية تعلو خمسة أمتار عن وجه الأرض، وتمتد مائة متر من كل جانب، ويقوم على زوايا تلك القاعدة الأربع أربعُ مَنَاورٍ، ويلمس ماء النهر أسفل إحدى جنباتها، وتحيط الحدائق ذات النبات الجميل بجنباتها الثلاث الأخرى إحاطةً تأخذ بمجامع القلوب، ويحف حول تلك الحدائق سورٌ ذو شرفات، وتُدخَل من باب كبير أنشئ على الطراز الفارسي.

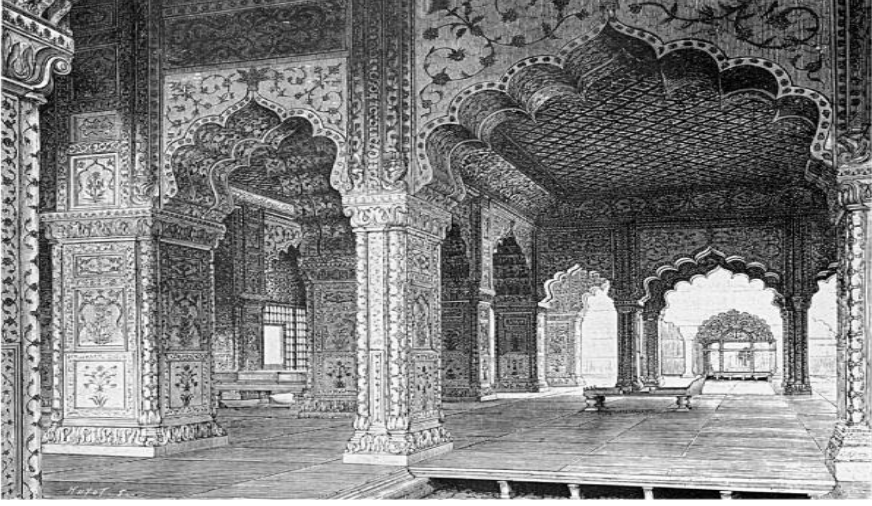
ولتاج محل أبعادٌ كبيرة، فترفع قبته عن سطح الأرض أكثر من ثمانين مترًا، وتُدخَل من أربعة أبواب يبلغ ارتفاع كل واحد منها عشرين مترًا، ويرى في وسط تاج محل ضريح شاهجهان وضريح زوجته المحبوبة.

ويَعُدُّ السياح تاج محل من عجائب الدنيا، وإليك ما قاله كاتبٌ لم يصرح باسمه في مجلة المصوِّر مع صورة مقتبسة من ميناء هندي صحيحةٌ صحةُ الصور الفوتوغرافية تقريبًا:

إن تاج محل مصنوع من المرمر الناصع المصقول، ويكاد البصر يخطف من نور هذا البناء العجيب حينما تُلقي الشمس أشعتها عليه، ولذا تجد نور القمر الشاحب أليق بتاج محل الأنيق، وإن كل ما يمكن الفن أن يجود به من الكمال صبّه في تاج محل الساحر، فترى فيه الجدران المرمرية المنقوشة بما لا يتصوره الإنسان من الأزهار والأوراق والورد والزخارف العربية الزاهية، وترى فيه الأعمدة الصغيرة الهيف والأطر الغانية والأورقة النيرة والنقوش المتدلّية والفسيفساء المتقنة الثمينة الباهرة، ترى فيه كتابات جميلة من الرّخام الأسود، وترى في ذلك المكان الساحر جميع ما يسمح به الفن على الوجه الفيّاض الأكمل.



شكل ٣-١٣: المسجد الكبير في دهلي (من صورة فوتوغرافية).



شكل ٣-١٤: داخل ردهة في قصر ملوك المغول بدلهي (من صورة فوتوغرافية).

وإذا نظرت إلى الضريحين المصنوعين من المرمر الناصع رأيتهما مُثَقِّلَيْن بالكتابات والزينة الغنية مع عظيم إتقان وظَرْف، وعلمت أن أزهارهما المرصعة بالفسيفساء، والتي تطفح بها من الأسفل إلى الأعلى، من أجمل ما صنع الإنسان، فتتألف كلُّ زهرة من مائة من الحجارة الصقيلة الملونة المتنوعة التي جَمَعَ ما بينها صانع ماهر فأكسبها الصورة التي أرادها، وتلك الحجارة الملونة هي من اللَّازُورْد والزبرجد والعقيق واليَصْب والرُّخام السَّمَاقِيّ والمرمر الأصفر الذهبي ... إلخ، وزُيِّنَ أسفل الإطار المثلَّث والغُرْفُ القريبة منه بما ارتفاعه مترٌ و٣٠ ستمتراً من الألواح الرخامية الناصعة الكبيرة ذات النقوش البارزة من الفسيفساء على شكل الأزهار وأواني الأزهار، ومثل تلك الألواح مما يشاهد أيضاً في أسفل القباب التي تعلو مداخل تاج محل المزينة بالخطوط العربية المكتوبة بالرخام الأسود.

وتاج محل هو من المباني الإسلامية النادرة التي تَفَلَّتْ من يد التخريب الإنكليزية المنظمة، والمصادفة هي التي أنقذت تاج محل من عُدوان الإنكليز، فقد رأى الحاكم الإنكليزي

لورد بِنْتِنَك أن تاج محل لا يُدرّ شيئًا، فاقترح أن يُهدم وتنزع فضته وتباع قطعه في الأسواق، ولولا ما لتاج محل، الذي هو من أعظم المباني التي شادها الإنسان، من الأهمية العالمية الكبرى التي تكفي وحدها لزيارة الهند لنُكِبَ العالم بهدمه، والحق أن الذوق الفني مما لا يلائم الطبائع التجارية التي قد يؤدي طغيها على العالم إلى دخوله في دور يُستَباح فيه تحطيمُ تماثيل كتمثال أفروديت (قَينوس دوميلو) لتُصنَعَ منه أجرانٌ وهواوين!

(٧-٢) مسجد المعطي أو مسجد اللؤلؤ في أغرا

ومن بين مباني أغرا المهمة أذكر أيضًا «مسجد المعطي» الذي أمر بإنشائه شاهجهان في سنة ١٦٥٨م وفق طراز عهده، وهذا هو المسجد الذي صاح الأسقفُ إيرت حين رآه قائلاً: إن الخزي ليعتره وقتما يفكر في عجز أبناء دينه عن إقامة مثل بيت الله هذا.

(٨-٢) المسجد الكبير في دهلي

تشتمل مدينة دهلي على كثير من المباني التي أقيمت على الطراز الإسلامي في زمن المغول، والتي نعدُّ بعضُها باختصار، والمسجد الكبير الذي أقيم في سنة (١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م)، هو أول ما نذكر منها.

بُني هذا المسجد الضخم على ذُرْوَةٍ ساحة فسيحة يُوصَل إليها بدرجات عظيمة مؤدية إلى مدخل هائل أنشئ على الطراز الفارسي، وبُني من حجارة رملية حمراء، ويستر مقدّمه رخام أبيض ورخام أسود متداخلان تداخلاً بديعاً، ولم يَشُدَّ عن طراز تلك المباني التي تمازج فيها الفن العربي والفن الفارسي والفن الهندي، وتجد في الصورة التي نشرناها ما يكفي للوقوف على شكله الخاص.

(٩-٢) قصر المغول في دهلي (أو قلعة شاهجهان)

تمَّ بناء هذا القصر، الذي أنشأه شاهجهان، في سنة (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م) وهذا القصر هو أجمل القصور الإسلامية التي أقيمت في بلاد الهند وفارس، وما في رِداهه من الفسيفساء يجعلها قطعاً من الحلي.

ولم ينل هذا القصرُ الشهير (الذي هو من أعجب ما شاده البشر، والذي ضنَّ به البرابرة الذين دَوَّخوا دهلِي غير مرة ونهبوها فلم يُحَرَّبوه) من الإنكليز ما يستحق من العناية، فقد هدموا جميع أجزائه التي رأوا أنهم لا ينتفعون بها، وأقاموا في مكانها ومن أنقاضها تُكَنَّا، ولم يحترموا سوى الرِّداه التي رأوا فيها بعض النفع لهم، وذلك مع علمنا أن الإنكليز، الذين حَسَبُوا مقدِّمًا نفقةً تنظيف تلك الرِّداه من فسيفسائها وزخارفها الجميلة عند تحويلها إلى إسطبلات ومراقد للجنود، لم يَرَوْا للخلاص من تلك النفقة ما هو أسهل من تكليسها، فسَخِطَ العالم على هذا العمل المهمجي الذي تحمَّر منه وجوه وحوش البرابرة خجلاً، فاضطرَّ الإنكليز إلى كَشَط ما جَنَّت أيديهم من عمل حقير، وما أبقاه الإنكليز من ذلك القصر يكفي، مع ذلك، لبيان ما كانت عليه حاله قبل أن تُصَيِّبه يَدُهم الهدَّامة، ويمكن القارئ أن يتمثله بسهولة عند نظره إلى الصورة التي نشرناها في هذا الكتاب عن إحدى رِداهه.

قال مسيو روسله: «إن أُنْبَهَ داخل ذلك القصر مما لم تسمعه أذن، فقد زُيِّنَتْ أساطينه وحناياه وأُطْرِقَّتْهُ بالنقوش العربية العجيبة التي رُسِمت بالحجارة الكريمة المرصعة في الرُّخام، وتَهَبَ الشمس وقتما تُلقِي أشعتها على فُسيفساء ذلك القصر من خلال حنياه، الحياة لطاقات زهوره المصنوعة من اللَّازُورْد والعقيق واليَصْب، وما لا يُحصى من أنواع الحجارة الثمينة.»

وزار هذا القصر الشهير في إبان عظمته فرنسيان، أحدهما: طبيبٌ اسمه بيرنيه، والآخر: صائغ اسمه تافرنيه، ووصفا دقائق كنوزه في سنة ١٦٧٠ م وسنة ١٦٧٧ م، وأُذِنَ للصائغ تافرنيه في فحص حجارته الكريمة ورسمها، وتجد في كتابه تقديرًا ورسومًا لأهمها، ومما جاء فيه أن في القصر سبعة تيجانٍ مُرصعة بالألماس، وأن ثمن أهم هذه التيجان السبعة يُقدَّر بـ ١٦٠٥٠٠٠٠٠٠ فرنك.

وليس من الصعب أن نستعين بما ذكرناه آنفًا، وبما جاء في كتب المتقدمين من الوصف، فتتصور الحال التي كان عليها بلاط ملوك الهند المعاصرين للملك فرنسة لويس الثالث عشر تقريبًا، فالسائح الذي يقترب من دهلي يُشاهد في الأفق غابة من القباب والمناور التي تناطح السماء، ثم يمتّع — بعد أن يدخل دهلي — نظره بمئات القصور والمباني الساحرة المكسوة بالميناء الملون الذي لا يُقدّر على الإعراب عن جماله غير التصوير، ويجب عليه، إذا ما رَغِبَ في اجتلاء طلعة سيد تلك العجائب، أن يسأل عن الساعة التي يذهب فيها إلى المسجد، وهو يشاهد، في أثناء انتظاره صابرًا أُرُوفَ تلك الساعة، الرياض العُنَّ ذات الجواسق المُخرَّمة المغطاة بالفسيفساء والمنعكس رُخامها في مياه الفساقى والحياض العميقة والبارزة من بين أزهار الجُلُول ١ والياسمين وشجر البرتقال والليمون والأشجار العطّرة الطيبة الرائحة التي لا تُعرَف بلادنا مثلها.

وبينما يقضي السائح العَجَبَ من تلك العجائب، فيقول في نفسه: إن ملائكة رواية ألف ليلة وليلة لا تستطيع أن تُبدع ما هو أروع منها، يَسْمَعُ أُلُوفَ الصُّنُوجِ تُدُقُّ إِيذَانًا بمجيء الملك، ويرى أنه يخرج من باب القصر الهائل جمعٌ كبير من الخَدَمِ المتسربلين بسرابيل بَرّاقَةٍ، ومن الجنود المدججين بالسلاح اللامع، ومن العبيد السُّمَرِ ذوي الخلاخل الفضية، والحاملين للمحامل الزاهية ذات المِظَلَّاتِ المخملية، ويرى، في وسط موكبٍ من فرسان

الهندوس والفرس والتركمان الحاملين سيوف الهند المرفقة، ومن أكابر الأمراء والأعيان
اللابسين أفخر الثياب المطرزة بالذهب والفضة والحجارة الكريمة، صاحب الجلالة الملك
الراكب فيلاً ضخماً مُتَّزَن الحُطَا، والذي تُظَلِّلُهُ مِظَلَّةٌ من الحرير المطرز بالألماس والزمرد،
ويرى الجمهور وهو يخرُّ ساجداً لذلك الملك المطلق الذي هو سيد الهند، وظلُّ الله الحي
المرهوب في الأرض، والمالك لخمس عشرة مملكة، والذي هو مَلِك أغرا ودهلي وكابل
ولاهور وكجرات ومالوا وبنغال وأجمير، ويرى على جوانبه فريقاً من حاشية الملك يُحَرِّك
مراوح من ريش الطاووس ذواتِ أهدابٍ مرصعة بالحجارة الكريمة على حين تُلقِي
الشمس أشعتها الذهبية على ذلك الموكب الملكيِّ الشرقيِّ الباهر.

الفصل الرابع العرب في مصر

(١) حال مصر حين الفتح العربي

درسُ شأن العرب في مصرَ ذو فائدة عظيمة، فمصر من البلدان التي طالت إقامة العرب بها، وهي من البلدان التي أنشأوا فيها دولة مهمة، وهي من البلدان التي كان تأثيرهم فيها أعظم مما في أي بلد آخر، ولا شيء يستوقف النظر كحفدة قدماء المصريين الذين قاوموا نفوذ الأغارقة والرومان على الخصوص، ثم اعتنقوا دين العرب ولغة العرب وحضارة العرب الغاليين، وصاروا عربًا خالصي العروبة، وفي فارس والهند امتزجت حضارة العرب بالحضارة السابقة، وفي مصر توارت أمام حضارة أتباع النبي الجديدة حضارة الفراعنة القديمة وحضارة اليونان والرومان التي تنصّدت فوقها في قليل من المدن. وثبتت دراسة آثار العرب الماثلة في مصر أن ذلك الاستبدال كان تامًا، والعرب لم يقتبسوا شيئًا من المباني القديمة الكثيرة التي وجدوها في أنحاء القطر المصري.



شكل ٤-١: من عرب وادي النيل (مصر العليا، من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وتنطوي دراسة العرب في مصر على فائدة عظيمة من الناحية الإثنوغرافية، وقد ذكرنا في فصل سابق أنه لم ينشأ عن توالد العرب والمصريين عِرْقٌ جديد وَسَطٌ بين العرقين، وأن المصريين الذين صاروا عربًا باللغة والدين والحضارة لم يصيروا عربًا بدمائهم، فالشبه الوثيق بين فلاحي شواطئ النيل المعاصرين ووجوه أجدادهم المنقوشة على آثار العصر الفرعوني يدل على أن دَمَ القدماء لا يزال يجري في عروق أهل مصر.

ورأى العرب حينما استولوا على مصر أنهم في بلاد تختلف بطرق معاشها وبيئتها عن جزيرة العرب وسورية، وكان كلُّ شيء في مصر، من حضارة وسكانٍ وأرضٍ وجوٍّ، جديدًا غيرَ مألوفٍ لديهم.

ولا بُدُّ لنا من النظر إلى تاريخ مصرَ وأحوال العيش الخاصة فيها لإدراك أسباب السرعة في استيلاء العرب على مصر، ولفَهْمِ سِرِّ تأثيرهم فيها.

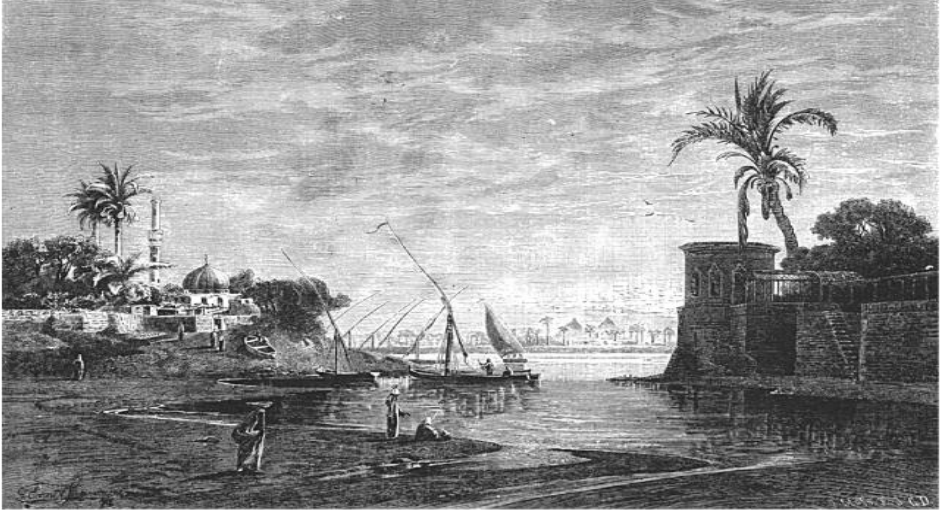
وترجعُ بعض الآثار المصرية القديمة إلى ما قبل سبعة آلاف سنة أو ثمانية آلاف سنة، كما دلَّت عليه المباحث الحديثة، ومهما بَعُدْنَا في الرجوع إلى عصور التاريخ وجدنا المصريين أصحاب حضارة راقية.

ونجهل مصدر حضارة قدماء المصريين تمامًا، وإن كنا نعلم أنها أقدم من جميع الحضارات التي أينعت على شواطئ البحر المتوسط، وأنها قامت على ضِفْتَي النيل قبل أن تقتبس الشعوب الإغريقية منها فنونَها ومعتقداتها بقرون كثيرة.



شكل ٤-٢: نخيل الجيزة (من صورة فوتوغرافية).

وظنَّ العلماء المعاصرون، حين أحيوا بمباحثهم مصر الغابرة، أنها لم تتبدل مع الزمن، ولكن إنعام النظر في آثارها التي تَمَّت في مختلف الأدوار يدل على أنها لم تشذ عن سُنَّة التطور العامة، وإن سارت حضارتها ببطء فيما مضى. ويظهر أن كل شيء ثابتٌ خالد في معابدها ذات الأبواب الهائلة، وفي أهرامها التي تتحدى الدهر، وفي تحنيطها الذي يُزري بسُنَّة الزمن، ونُظُمها التي تُحرِّم كل تغيير وتبديل.



شكل ٤-٣: جزيرة الروضة في القاهرة (من تصوير إيبز).

ولم يسهل، والحالة هذه، على الفاتحين أن يؤثروا في أمة تلك حضارتها، فلقد تتابع غزو الأجنبي لمصر فظلت ثابتة على قديمها، واستولى الأغارقة والرومان على مصر من غير أن يؤثروا فيها، ونرى في المباني التي شادها البطالمة والقيصرية في مصر على طراز فن العمارة المصري القديم من الأدلة ما يكفي لإثبات ثبات الحضارة المصرية القديمة بتوالي القرون. وكانت مصر، حين ظهور العرب على مسرح التاريخ طعمة للغزاة الفاتحين منذ قرون كثيرة، فقد استولى الإسكندر عليها في سنة ٣٣٢ ق.م، وطرد الفرس منها وأقام مدينة الإسكندرية فيها، ثم نادى أحد قواده، بطليموس سوتر، بنفسه ملكاً عليها في سنة ٣٠٤ ق.م، وملكّت أسرة البطالمة مصر مدة ٢٧٤ سنة، وكان آخر من تولّى أمور مصر من تلك الأسرة الملكة كليوباترة الشهيرة، ولما هزم أكتافقيوس كليوباترة وأنطونيوس في معركة أكسيوم في سنة ٣٠ ق.م، أصبحت مصر ولاية رومانية، ولما قُسمت الدولة الرومانية على أثر وفاة ثيودوز في سنة ٣٩٥ م كانت مصر من نصيب دولة الشرق

الرومانية، وظلت مصر تابعة لهذه الدولة حتى سنة ٦٤٠م، أي السنة التي فتحها العرب فيها.

وداومت مصر في زمن البطالة على تقاليدھا القديمة، وعاشت فيه عيش رَغَدٍ ورَخاء، وصارت الإسكندرية فيه مركزاً تجارياً مهماً وملجأ ثقافياً، وأقيمت فيه أبنية عظيمة على الطراز الفرعوني، كما تشهد بذلك بعض تلك الأبنية التي لا تزال قائمة في جزيرة الفيلة، فتُعَدُّ مُصَدِّقَةً لِمَا قلناه من انتحال جميع الفاتحين الجدد لتقاليد المصريين، وأنت إذا ما استثنيت المدن الإغريقية الرومانية التي أقيمت في مصر، كالإسكندرية مثلاً، لم تكد تشعر بأي تأثير كان لأولئك الغُزاة في مصر.



شكل ٤-٤: منظر القاهرة، ويرى مسجد قاغباي في أول الصورة (من صورة فوتوغرافية).

وعندما أصبحت النصرانية دين دولة القسطنطينية الرسمي أمر القيصر ثيودوز، في سنة ٣٨٩م، بهدم جميع تماثيل الآلهة المصرية القديمة ومعابدها وجميع ما يُذَكِّر الناس بها، واكتفى بتشويه كتابات المعابد المصرية التي كانت من المتانة بحيث لم يَقْدِر على هدمها بسهولة.

ولا تزال مصر ملأى بأنقاض ذلك التخريب الذي أملاه التعصب، وتُعدُّ تلك الأعمال من أفظع ما عرفه التاريخ من أثر عدم التسامح والبربرية، ومن دواعي الأسف أن كان من بواكير أعمال ناشري الدين الجديد، الذي حل محل دين الأغارقة والرومان، هدمُ المباني التي احترمها أكثر الفاتحين منذ خمسة آلاف سنة.

وأدَّت هذه الأعمال الوحشية بسرعة إلى إخماء الحضارة المصرية، وزوال دَوْرِ الخط الهيروغليفى الذي حُلَّت رموزه في الزمن الحاضر، وأُكْرِهت مصر على انتحال النصرانية، وهبطت بذلك إلى دَرَكَات الانحطاط مقدارًا فمقدارًا إلى أن جاء العرب.

وكان قيصر الروم هرقلُ سيد مصر حينما حاول العرب فتح مصر بقيادة أحد رجال الخليفة الثاني، وكان أشدُّ البؤس والشقاء مما تعانيه مصر التي غَدَت ميدان قتالٍ للمذاهب النصرانية، وكانت هذه المذاهب تكثرُ في ذلك الزمن وتتلاقى وتتقاتل.

وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية، ونهكتها مظالم الحاكم تحقد أشدَّ الحقد على ساداتها الكثبيين، وكانت تُعدُّ من يُحرِّرونها من أيدي قياصرة القسطنطينية مُنقذين، فحُفِظ هذا الشأن للعرب.

تلك هي حال مصر عند ظهور أتباع النبي، ولتتكلم عن طرق حياتها الخاصة في ذلك الزمن:

يجب أن نتقل إلى وادي النيل؛ لكي نَطَّلِع على أخلاق قدماء المصريين، وطرق حياتهم، ولأرض مصر وجوُّها من الخواص الثابتة بتقادم الزمن ما جعل الحياة فيها غير متحولة، ووصفُ مصرَ الحاضرة وسكانها المعاصرين يتضمن تمثل ما كان عليه وادي النيل وأهلوه عندما ظهر العرب في هذا القطر.

من المعلوم أن مصر هي الوادي الضيق الذي أوجده النيل في سواء الصحراء، ويبلغ طول هذا الوادي مستقيماً من الشلال الأول الواقع على حدود بلاد النوبة إلى البحر نحو مئتي فرسخ، ويبلغ طوله معوجاً من ذلك الشلال إلى البحر أكثر من ثلاثمائة فرسخ.

ويختلف وادي النيل عرضاً، فبينما تراه لا يزيد على خمسة كيلو مترات في مصر العليا تراه يزيد على عشرين كيلو متراً في مصر الوسطى، وهو لا يكون عظيم الاتساع إلا بالقرب من مصب نهر النيل حيث ينقسم إلى ضلعيه اللتين يتألف من ابتعاد إحدهما عن الأخرى شكل ٧، فيسمى السهل الواقع بينهما بالدلتا؛ لمشابهته الحرف اليوناني الذي يحمل هذا الاسم، ويبلغ أكبر طول في المثلث الذي يتألف على هذا الوجه نحو أربعين فرسخاً، ويبلغ أكبر عرض في هذا المثلث، أي من ناحية البحر، ستين فرسخاً.

والغرين^{٦٨} الذي تتألف منه مصر خصبٌ جداً، وهو لا يحتاج إلى أكثر من نضحه بالماء ليُخرج زرعَه، والنيل هو الذي يقوم بذلك حين فيضانه، وفي مصر نظام للري، كالذي كان في زمن الفراعنة لا ريب، يؤدي إلى توزيع المياه بين أقسام الأرض التي لا يصل إليها النيل بنفسه.

وبلغت أقسام كثيرة من تلك الأرضين العجيبة من الخصب مبلغاً تُخرج معه في كل سنة ثلاثة زروع في كثير من الجهات، ويتم زرع تلك الأرضين من غير عناء تقريباً، أي أنها لا تحتاج في الغالب إلى من يُثيرها لبذرهما، وهي تُغلُّ أكثر من أراضي البلدان الأخرى مع ذلك، فبينما تعطى البُرَّة ما يترجح بين خمسة أمثالها وعشرة أمثالها في أخصب أراضي فرنسة تراها تُعطى خمسة عشر مثلاً في أراضي مصر^{٦٩}.

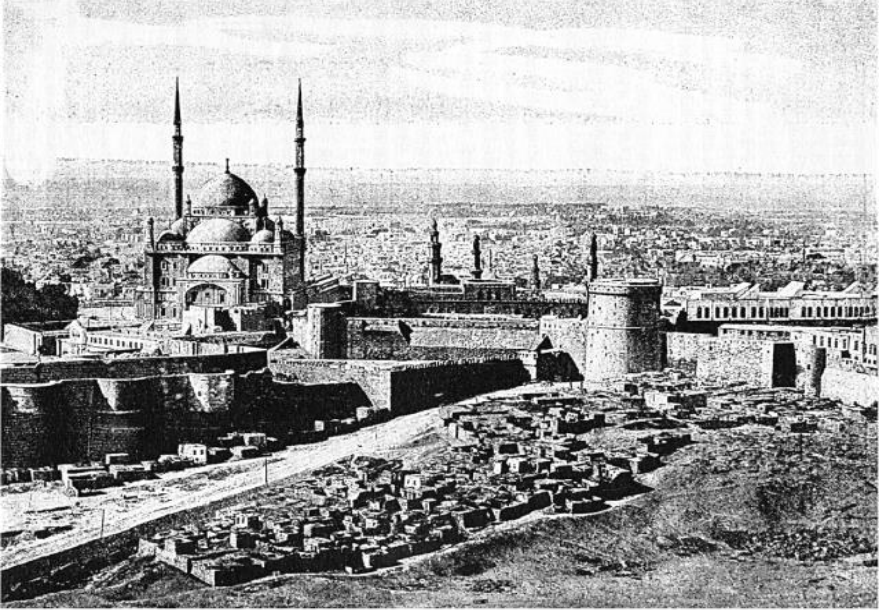
٦٨ الغرين: الطين الذي حمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً كان أو يابساً.
٦٩ ظهر من محادثتي لكثير من التجار في مصر العليا أن متوسط ما تعطيه الأرضون هنالك هو ١٢٪ بعد النفقات، ومع ذلك فإن ثمن الحبوب يكون من الانخفاض ما تقضي المصلحة معه بإصدارها إلى إنكلترة، وإن زادت نفقات النقل على ٣٠٪ من قيمتها.

ولا يحتاج سكان مصر، بسبب جَوها الحار،^{٧٠} إلى وفرة القوت، ولا إلى ثقل الثياب، ولا إلى مُحكم المنازل،^{٧١} فالفلاح المصري يقتصر في طعامه على كِسْر يابسة من الخبز وقليل من الفواكه والبقول، ويسكن كوخًا حقيرًا من تراب النيل المَجبول بالتبن والماء، ويلبس جلبابًا أزرق، وإذا ما كان عمره أقل من أربع عشرة سنة كان من العُرّة، وقد رأيتُ في مصر العليا وبالقرب من حدود النوبة، على الخصوص، عمالًا كثيرين لا يكاد يزيد ثوب كل واحد منهم على زُنَّار عَرَضه بضعة سنتيمترات مشدود على وَسْطِهِ، وترجح جميع نفقات الفلاح المصري السنوية في زماننا، الذي كَثُرَت فيه نفقات الإنسان، بين سبعين فرنكًا و١٢٠ فرنكًا، ويندُر أن تزيد أجرته اليومية على خمسين سنتيًا، وأنبأني دليلي في الأقصر، أحمد، وهو لم يكن من سِفلة الناس، أن نفقاته السنوية، هو وزوجه وأولاده الأربعة، نحو أربعمئة فرنك، وأنه يعيش بهذا المبلغ عيشًا لائقًا كثيرًا.

ولم تتقدم طرق الزراعة والاستغلال في مصر ما كانت عليه في زمن الفراعنة، ولا نرى من الفوائد ما يَحْفِزُها إلى تغييرها ما دام النيل والشمس يُغْنِيان فيها عن الأسمدة والحرث.

٧٠ قلما ينزل المطر في مصر العليا، وتكون درجة الحرارة فيها مرتفعة حتى في الشتاء، وكانت تختلف وقت الظهر من شهر نوفمبر وشهر ديسمبر سنة ١٨٨٢ بين ١٩ درجة و ٢٧ درجة، وذلك في أثناء سياحتي في أسبوط وطيبة.

٧١ ذلك إلى حين انقضااض الترك، والأوربيين مؤخرًا، على الفلاح المصري على الأقل. والترك والأوربيون الذين لم يتركوا للفلاح المصري من غلته غير ما يمسك رمقه، قد جاوزوا الحدود فأخذوا يسلبونه حتى هذا المقدار الضروري، فاضطروه إلى الاقتنيات بالعشب غالبًا، ولا يتمتع الفلاح المصري من نعم الحضارة بغير ما يسمع عما في مدينة القاهرة النائية من الشوارع الجميلة والأغنياء، ولذلك ومع ما اتصف به الفلاح المصري من الدعة والخضوع البالغين، كاد يطير من الحماسة حين بلغه نبأ الثورة التي اعتقد أنها ستسفر عن طرد جميع الأجانب من وادي النيل، وللـفلاح المصري الذي يُساق بالسياط إلى العمل بلا انقطاع في سبيل اغتناء المضاربين من الترك والأوربيين الكثيري الطمع والشره، وللهندي الذي يقاسي ضروب البؤس والشقاء في سبيل سعادة سادته الجدد أن يقول، أحيانًا، إن الشعوب المتقدمة الحديثة لم تفتح البلدان إلا لتستغل سكانها استغلالًا يثير حسد طغاة الفاتحين الذين يصب التاريخ عليهم غضبه.



شكل ٤-٥: منظر القلعة ومسجد محمد علي في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

وتنظيمُ شؤون الرِّي مقدارًا فمقدارًا بزيادة القنّوات والترّع هو كل ما يمكن إصلاحه وما تقضي المصلحة بإصلاحه، فهذا يمكن إنقاذ أجزاء مصر التي يصل إليها ماء النيل من الصحراء، وتحويلها إلى حقول خصبّة.

ولا بد من أن تكون مصر الغنية قد أثرت تأثيرًا حسنًا في العرب الفاتحين الذين جاءوا من صحاري بلادهم، فالكتابان الآتيان اللذان تبادلهما عمرو بن الخطاب وعامله عمرو بن العاص يُثبتان درجة تقديرهما لفتح مصر.

كتب خليفة أبي بكر، عمرو بن الخطاب، إلى عامله عمرو بن العاص يقول له: «أطلب منك يا عمرو أن تصف لي مصرَ وصفًا دقيقًا عند أخذك كتابي هذا؛ لأتمتّل ذلك البلد الجميل والسلام عليك.»

واسمع جواب عمرو بن العاص:

ورد إليّ كتاب أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، يسألني عن مصر، أعلم يا أمير المؤمنين، أن مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يُحطُّ وسطها نهرٌ مبارك الغدوات، مَيْمُون الرُّوحات، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان، يدرُّ حلابه، ويكثرُ عَجاجه، وتَعْظُم أمواجه، فتفيضُ على الجانبين، فلا يمكن التخلص من القُرَى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن المخايل،^{٧٢} أو وُزُقُ^{٧٣} الأصائل، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته وطما^{٧٤} في درّته، فعند ذلك تخرج ملة محقورة يحرثون بطون الأرض، ويبدرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لَقِيَهُمْ ما سَعَوْا من كَدِّهِمْ، فناله عنهم أناس بغير جِدِّهِمْ، فإذا أشرق الزرع وأشرف، سقاء النداء، وغَدَّاه من تحته الثرى، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، فإذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رَقْشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء، والذي يُصلح هذه البلاد ويُقَرِّ قاطنَها فيها أَلَّا يُقَبَّل قولُ خسيسها في رئيسها، وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يُصرف ثلثُ ارتفاعها في عمل جسورها وتُرْعَها، فإذا تَقَرَّر الحال مع العمال على هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله يُوفِّقُ إلى حسن الحال.

وقد يكون نهر النيل الذي فيه سر غنى مصر سببَ بؤسها، فإذا ما كان فيضانه دون الدرجة الكافية صَرَبَت المجاعة أطنابها في مصر، وإذا دام القحط في مصر عدَّة سنين لم يبقَ أمام الكثيرين من الفلاحين سوى الموت جوعاً، ومن ذلك القحطُ الهائل الذي نُكِيتَ به مصر سنة (٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) أيام الحكم العربي، فقد رَوَى مؤرخو العرب أنه حين

^{٧٢} المخايل من السحب: المُنذرة بالمطر.

^{٧٣} الورق: جمع الوراق، أي التي لونها لون الرماد.

^{٧٤} طما الماء: ارتفع وملأ النهر، وطما البحر: امتلأ.

نَقَصَ فيضان النيل عن درجة الكفاية خمسَ سنين متتابة، وتَعَذَّرَ جلب القمح من الخارج بسبب الحروب الكثيرة التي كانت تقع في تلك السنين بلغت المجاعة في مصر مبلغًا صارت تُباع معه البيضة الواحدة بخمسة عشر فرنكًا والهَرَّةُ الواحدة بخمسة وأربعين فرنكًا، وأن الناس أكلوا في أثناء تلك المجاعة جمال الخليفة وأفراسه التي كان عددها عشرة آلاف، وأنهم رَمَوْا في إِبَّانها وزيرَ الخليفة عن ظهر بغلته حينما كان ذاهبًا إلى الصلاة في المسجد فذبحوها وأكلوها على مرأى منه، ثم أكلوا جُثث الذين قُتِلوا بسبب هذا الاعتداء، ودامت تلك المجاعة، وكانت كلما دامت أكل الناس بعضهم بعضًا، فكان يُذبح من يخرج من البيوت من الأولاد والنساء ويؤكل لحمه مع عويله، ومما حدث أن نجت امرأة وكُتِبَ لها حظُّ البقاء حيةً بعد أن أُكِلَ بعضها في تلك الأيام، فكان الناس يشيرون إليها لطويل زمن بعد انقضاء المجاعة.

(٢) استيلاء العرب على مصر

فتح القائد عمرو بن العاص، الذي هو من عمَّال الخليفة الثاني، عمر، بلاد مصر في السنة الثامنة عشرة من الهجرة (٦٣٩م)، وقد ذكرنا ما كان عليه عمرو بن العاص من الحَذق والمهارة نحو سكان مصر، فهو لم يَتَعَرَّضَ إلى ديانتهم، ولا إلى نُظُمهم ولا عاداتهم، ولم يطالبهم بغير جزية سنوية قدرها خمسة عشر فرنكًا عن كل رأس مقابل حمايتهم، فرضي المصريون بذلك شاكرين، ولم يَنِدَّ سوى الروم، أي الجنود والموظفين ورجال الدين الذين أَّبوا أن يخضعوا للغزاة فالتجأوا إلى الإسكندرية، فحاصرها العرب حصارًا دام أربعة عشر شهرًا، وقُتِلَ في أثناءه ثلاثة وعشرون ألفًا من العرب.

وكان عمرو بن العاص سمحاً رحيماً نحو أهل الإسكندرية مع تلك الخسارة التي أصيب بها العرب، ولم يقس عليهم، وصنع ما يكسب به قلوبهم، وأجابههم إلى مطالبهم، وأصلح أسدادهم وتوسعهم، وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم العامة.

وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم؛ فمن الأعمال الهمجية التي تابها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً؟ وهذه القصة دحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتى هدموا بها التماثيل ولم يبق منها ما يحرق.

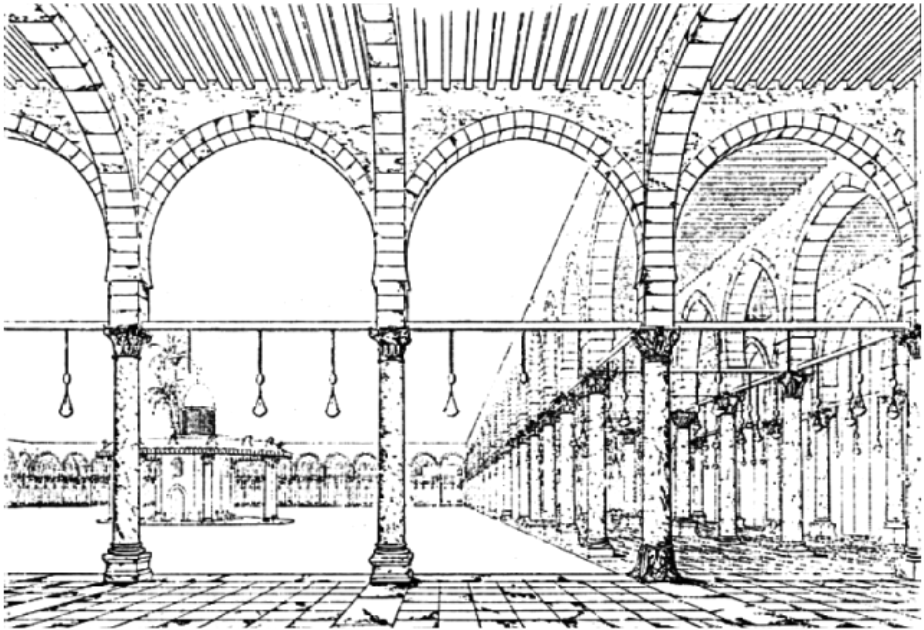
وكان فتح الإسكندرية مهماً لدى العرب كفتح القدس، فقد أسفر عن فتحهم لمصر فتحاً نهائياً، وكان لهم به مصدر ثراء قوي، ونقطة ارتكاز يقدرّون أن يستندوا إليها لقيامهم بفتوح جديدة أخرى.

ونحن، لكي نُقدّر أهمية فتح العرب للإسكندرية ومقدار تأثيره في العالم، نرى أن نوجز ما كانت عليه حين دخول العرب بلاد مصر.

كانت الإسكندرية من أهم مدن العالم منذ أنشأها الإسكندر (سنة ٣٣٢ ق.م) إلى أن فتحها عمرو بن العاص، أي في مدة ألف سنة، وكان يمكن عدّها، وهي مركز لتجارة البحر المتوسط بأسره، ثانية مُدُن الإمبراطورية الشرقية، أي المدينة التي تأتي بعد القسطنطينية، وكان البطالة قد اجتذبوا إليها أشهر علماء العالم وفلاسفته، وكانت تشتمل على أشهر المكتبات والمدارس.

بيد أن ذلك الرقي العلمي لم يدم، فكانت، حين فتحها الرومان بقيادة قيصر (سنة ٤٨ ق.م) قد أخذت في الذبول منذ زمن طويل.

ولم يكّد فتح الرومان لها يتم حتى أخذت تنهض وتنتعش، وصارت ثانية المدن في الدولة الرومانية، ولكن هذا الرّخاء كان مؤقتاً، فهي لم تلبث أن صارت مسرحاً للاختلافات الدينية، وتوالى فيها الثورات والفتن منذ القرن الثالث مع ما قام به القياصرة من أعمال القمع، ولما أصبحت النصرانية دين الدولة الرسمي أَمَرَ القيصر النصراني ثيودوز، لا الخليفة عمر بن الخطاب، بإبادة معابدها وتمثيلها وكتبها الوثنية كما ذكرنا ذلك آنفاً. وحافظت الإسكندرية على شيء من مكانتها التجارية مع ما أصابها من النقص في عهد قياصرة الروم، وكان فيها من البقايا المهمة ما أدهش عامل عمر بن الخطاب. ولم يشاهد العرب مدينةً منتظمةً انتظام الإسكندرية، ونحن، وإن لم يكن عندنا علم قاطع بالحال التي كانت عليها حين الفتح العربي، نعرف بالضبط ما كانت عليه في القرن الثاني من الميلاد، ونحن، إذا ما أغضينا عما أصاب مبانيها من الهدم، رَجَّحنا أنه لم يطرأ على رسمها تبدّل كبير منذ ذلك القرن.



شكل ٤-٦: داخل مسجد عمرو بن العاص (من تصوير كوست).

كانت الإسكندرية مستطيلة الشكل ذات طول ٥٠٠٠ متر وذات عرض ١٨٠٠ متر، وكانت تُقَطَّعُها طرقٌ مستقيمة طويلاً وعرضاً، فتفصلها إحدى هذه الطرق إلى قسمين. ونَعُدُّ من الآثار المهمة، التي كانت في الإسكندرية: دار الصناعة الكبرى، والقصور الفخمة، ومعبد نبتون الذي كانت أساطينه تستوقف نظر الملاحين من بعيد، والتمونيوم الذي رأى أنطونيوس أن يقضي بقية عمره فيه معتزلاً بعد هزيمته في أكسيوم، والسيزاروم الذي أقام به قيصر منذ قيامه بالحصار، والمسَلَّتَيْن، وغيرهما من الآثار الكثيرة، والأمپوريوم القائم على طول الأرصفة حيث كانت تباع السلع العالمية، والموزيوم حيث كانت المكتبة الشهيرة التي هي أعظم مكتبة في ذلك الحين، ولم يكن في ذلك الدور المنحط من العلماء غير أصحاب الكرامات والنُحاة واللغويين ورجال الدين، وكان يقوم على تلٍّ، حيث ينتصب عمود بونيبوس اليوم، معبد السرايوم ذو الأبواب الضخمة والتماثيل الهائلة المصنوعة من الغرانيت.

وكانت جزيرة فاروس تواجه الإسكندرية، وتقوم عليها المنارة الشهيرة التي صُنعت من الرخام الناصع، والتي كان نورها يُرى من مسافة عشرة فراسخ من البحر، فتُعَدُّ من عجائب الدنيا السبع، وكانت تتصل تلك الجزيرة بالبر بطريقٍ مُعَبَّدٍ طولها ١٢٠٠ متر. أقام عمرو بن العاص حاميةً في الإسكندرية بعد الاستيلاء عليها، وأرسل كتائبه إلى داخل مصر، فاخترت مكاناً على شاطئ النيل حيث نَصَبَ فُسْطاطه، وأنشأت أكواخاً مؤقتةً لم تلبث أن بُدِّلَتْ، بعد مدة قصيرة، بيوتاً للجنود وقصوراً للقادة، وكانت هذه الأبنية نواةً لمدينة القاهرة المنافسة القادمة لبغداد، وسُمِّيت بالفسطاط، نسبةً إلى الفسطاط الذي نُصبت عليه.

ورَاق مكانُ الفسطاط عمرو بن العاص، فعزم على جعله عاصمةً له فحصَّنه بالأسوار مقيمًا عليه بيته، وقد ظلَّ ذلك المكان عاصمةً لمصر من زمن عمرو، أي منذ أكثر من اثني عشر قرنًا.

ودل ما قام به عمرو بن العاص من تنظيم مصر على عظيم حكمته، وعامل عمرو بن العاص الفلاحين بما لم يعرفوه من العدل والإنصاف منذ زمن طويل، وأنشأ للمسلمين وحدهم محاكم منظَّمة دائمة ومحاكم استئناف، فإذا كان أحد الخصوم مصريًا حُقَّ للسلطات القبطية أن تتدخل، واحترم عمرو بن العاص نُظُم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم.

ولم يمنع عمرو بن العاص من عادات المصريين سوى عادة اختطاف إحدى العذارى الحسان من أبويها في كلِّ سنة، وقذفها في النيل؛ لكي يَمُنَّ إله النيل على مصر بما تحتاج إليه من ارتفاع الماء وقت الفيضان، وقد استبدل عمرو بن العاص بتلك العادة العادة التي لا تزال موجودة إلى يومنا، وهي قذف تمثالٍ خَزَفِيٍّ، يُدعى العروس، في النيل في يومٍ معين من كل سنة، وإني أرى من المحتمل أن تكون هذه العادة، التي ترجع في القدم إلى ستة آلاف سنة، قد أتت من عادة تقريب القرابين البشرية في الديانة المصرية الأولى.

وسار عمرو بن العاص في مصرَ على غرار عمر بن الخطاب في القدس، فشمل الديانة النصرانية بحمايته، وسمح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطركٍ لهم كما في الماضي، ومن تسامحه أن أذن للنصارى في إنشاء الكنائس في المدينة الإسلامية التي أسسها.



شكل ٤-٧: ساحة مسجد ابن طولون وحوضه ومئذنته (من تصوير إيبز).

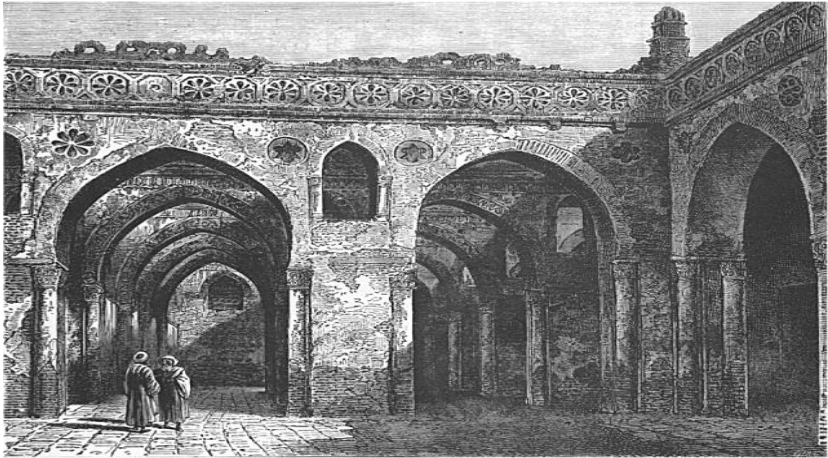
وإذ لم يكن للمسلمين مساجد في مصر، وإذ زاد عدد من أسلم من النصارى، أقام عمرو بن العاص مسجداً جميلاً على طراز الحرم المكي، ولا يزال المسجد الشهير الذي أنشأه قائماً مع عدم اكتراث الحكومة المصرية لتصدّعه.

ولم يكتفِ عمرو بن العاص بفتح مصر الدنيا، بل زحف بجيشه إلى بلاد النوبة، أي أوغل في إثيوبية الرومان القديمة على رأس عشرين ألف جندي، ولم تخرج هذه الحملة عن صفة الغزوات التي لا تُؤدّي إلى تنظيم جُدّي ما دام العرب لم يستقروا ببلاد النوبة استقراراً ثابتاً، بل اقتصروا على غزوها بين وقت وآخر، ومع ذلك فقد اعتنق النوبيون دين العرب ولغتهم كما اعتنقها المصريون، واليوم إذا نظرت إلى النوبيين، وقد أتيح لي أن ألتقط صوراً فوتوغرافية لهم، رأيتهم قوماً مختلفي الألوان والملامح، فمنهم البيض الذين يتسبون إلى

عرب الحجاز، ومنهم سُود الجلود، ومنهم من هم حَسَنو الخِلقة، ومن النوبيات من يشابهن مصريات العصر الفرعوني مشابهةً عظيمة.

وغزا العرب، غير مرة بلاد الحبشة، أو القسم المجاور منها للبحر الأحمر على الأقل، فكان تأثيرهم فيها دون تأثيرهم في بلاد النوبة، فقد حافظ الأحباش، الذين انتحلوا النصرانية منذ القرن الرابع، على دينهم، وإن شاعت اللغة العربية بينهم وصاروا أخلاطاً من الآدميين.

والمدة بين فتح العرب لمصر في سنة ٦٣٩م وفتح الترك لها سنة ١٥١٧م نحو تسعمائة سنة تداولت حكم مصر في أثنائها تسع دول:



شكل ٤-٨: داخل مسجد ابن طولون (من تصوير إيبير).

خضعت مصر لخلفاء المشرق (٦٣٩م-٨٧٠م)، ثم استقل وُلاتها فأسسوا الدولة الطولونية (٨٧٠م-٩٠٥م)، ثم استردَّ خلفاء بني العباس سلطانهم عليها لمدة قصيرة (٩٠٥م-٩٣٤م)، ثم قامت فيها الدولة الأخشيديّة القليلة الأهمية (٩٣٤م-٩٧٢م)، ثم استولى عليها الفاطميون (٩٧٢م-١١٧١م) الذين اشتملت دولتهم على شمال إفريقيا

وجزيرة سردينية وجزيرة صقلية وجزر البحر المتوسط وسورية فبلغت مصر في عهدهم ذروة الرقي والرخاء.

ثم أصاب خلفاء مصر مثل ما أصاب خلفاء بغداد، فقد استحوذ عليهم صنف من المرتزقة الذين عُرفوا في التاريخ باسم المماليك، والذين تألف منهم حرسهم، والذين كانوا يتسبون إلى الشعب الذي ينتسب إليه مرتزقة بغداد، ولم يتركوا لهم شيئاً من السلطة الحقيقية، فلما جاءت سنة ١٢٥٠م استبدَّ المماليك بالحكم نهائياً، وقد دام سلطانهم ٢٦٧ سنة.

وأقام المماليك في مصر دولتين من أصلين مختلفين، فأما الدولة الأولى: فهي دولة التركمان المماليك (١٢٥٠م-١٣٨١م) التي كان قوامها أناس من الترك، كما في بغداد، أُسروا في القفقاس، وفيما جاور بحر قزوين؛ فبيعوا كالأرقاء، فهؤلاء الناس هم من الملاح الأقوياء الذين لاح أنه سيتألف منهم حرس مختار للخلفاء، والذين كانوا ذوي منظر رائع بملابسهم الزاهية، وأسلحتهم الجميلة المرصعة بالأشجرة التي قلَّدهم بها الفرسان الصليبيون فاخترعوا علائم الشرف، والذين تقلد رؤسائهم أعلى المناصب بالتدرج؛ لِمَا نالوا من الحظوة فانفردوا بالملك فأقاموا دولتهم.

وأما دولة المماليك الثانية فهي الدولة المعروفة في التاريخ بدولة الشراكسة المماليك الذين لم يكونوا من ترك آسية العليا؛ بل من بلاد الشركس (١٣٨٢م-١٥١٦م)، والذين طمَّع سلاطين دولة التركمان المماليك في قوتهم؛ ليدروا بهم كيد التركمان الأشرار الذين خان أسلافهم العرب فيما مضى، وقد خيَّب هؤلاء الشراكسة ظنَّهم، فاستبدوا بالحكم، وأقاموا دولتهم التي دامت إلى سنة ١٥١٦م حين قَضَى عليها السلطان سليم الأول، وحَوَّل مصر إلى ولاية تركية.

هنالك حانت ساعة انحطاط مصر، ثم شملها سلطان الأوربيين الحديث الحقيقي فلم يزدها إلا انحطاطاً.

وصارت مصر ولايةً تركية، ولم يلبث المماليك الذين قُهرُوا في بدء الأمر أن عاد إليهم نفوذهم الحقيقي، وكان المماليك من أشد من حاربهم نابليون، ولم تنج مصر منهم إلا بفضل الجبار الذكي محمد علي الذي قتلهم على بكرة أبيهم.

وكان المماليك يُجمَعون بانضمام أناس إليهم من الخارج، أي كان شراكسة مصر يشتركون الموالي من بلاد الشركس؛ لإتمام عددهم ما دام جوُّ مصر القتال لا يلائم تناسل الأجانب، وكان شراكسة مصر ينقادون لفريق من بكواتهم الذين ظلُّوا يختارون أجمل غلمان الشركس لكتائبهم.

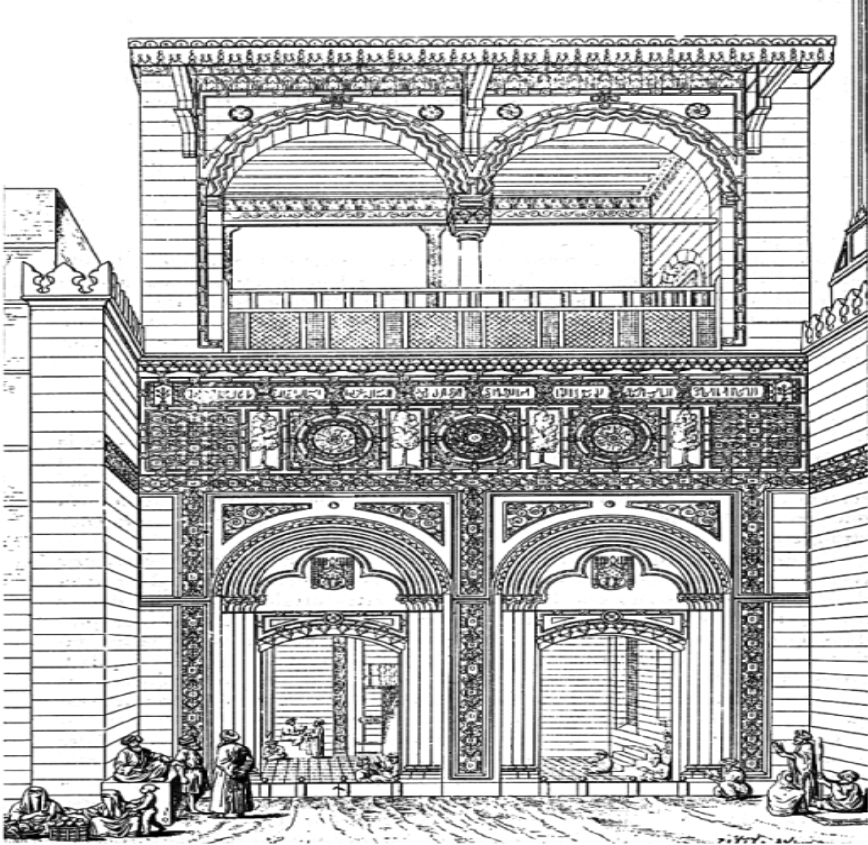
(٣) حضارة العرب في مصر

استتقت حضارة العرب في مصر من الينبوع الذي استتقت منه حضارتهم في سورية وبغداد، وقامت حضارتهم في مصر بعناصرٍ اقتبسوها من البنزنيين على الخصوص، ودلَّت مباني العرب الأولى في مصر على ذلك المصدر، ولم يلبث العرب أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية كما تدلُّ عليه مبانيهم التي أقيمت بعد مباني الزمن الأول.

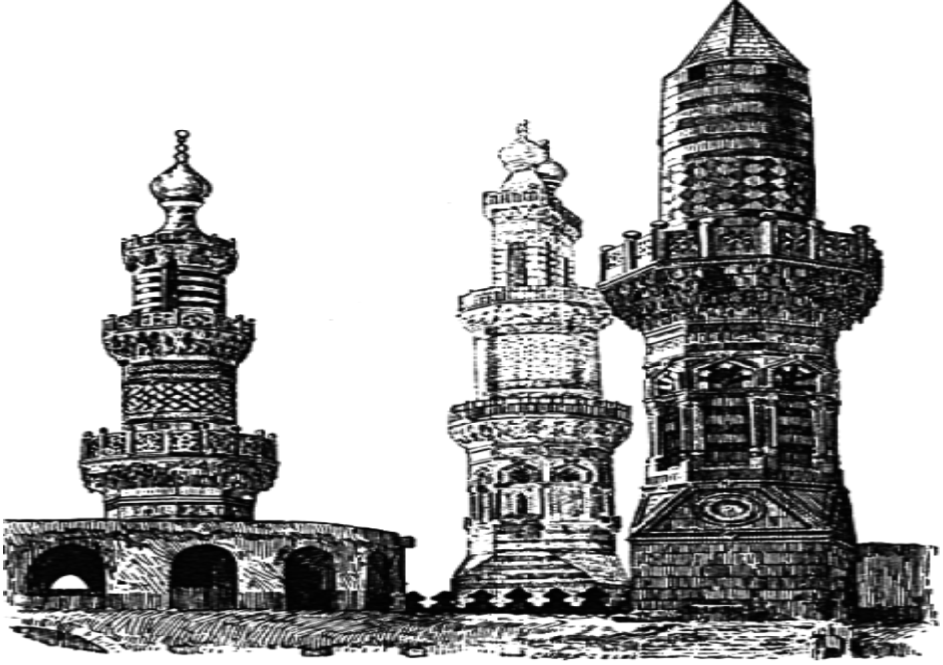
ويتصف عصر الفاطميين، الذي بلغت حضارة العرب فيه بمصر ذروة الرقي، بنضج الفنون، وما تؤدي إليه الفنون من الصناعات، وبآرت القاهرة بغداد في الفنون لا العلوم، فمدارس القاهرة لم تبلغ من الشهرة ما بلغت جامعات بغداد، وسنعود إلى هذا حينها نبحث في النواحي الثقافية من حضارة العرب التي لا نبحث في غير قسمها المادي الآن.

وزاد دخل خلفاء مصر على دخل خلفاء بغداد في نهاية الأمر، وذلك بفضل خصب أرضي مصر وصلاتها التجارية التي ستتكلم عنها في فصل آخر، وكان خلفاء مصر يقفون معظم

ذلك الدخل على أمور الترف وبناء القصور، ولم تكن نفقات الإنشاء في ذلك العهد باهظة في وادي النيل ما دامت أجرة البناء اليومية في أوائل القرن الحاضر ثمانين ستيماً، وأجرة الحفّار خمسة عشر ستيماً، وثمن متر حجر البناء المكعب، ومنه أجرة قَلْعِهِ ونقله، فرنكاً واحداً وعشرين ستيماً.



شكل ٤-٩: باب السيدة بالجامع الأزهر في القاهرة (من تصوير كوست).



شكل ٤-١٠: القسم الأعلى من مآذن الجامع الأزهر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

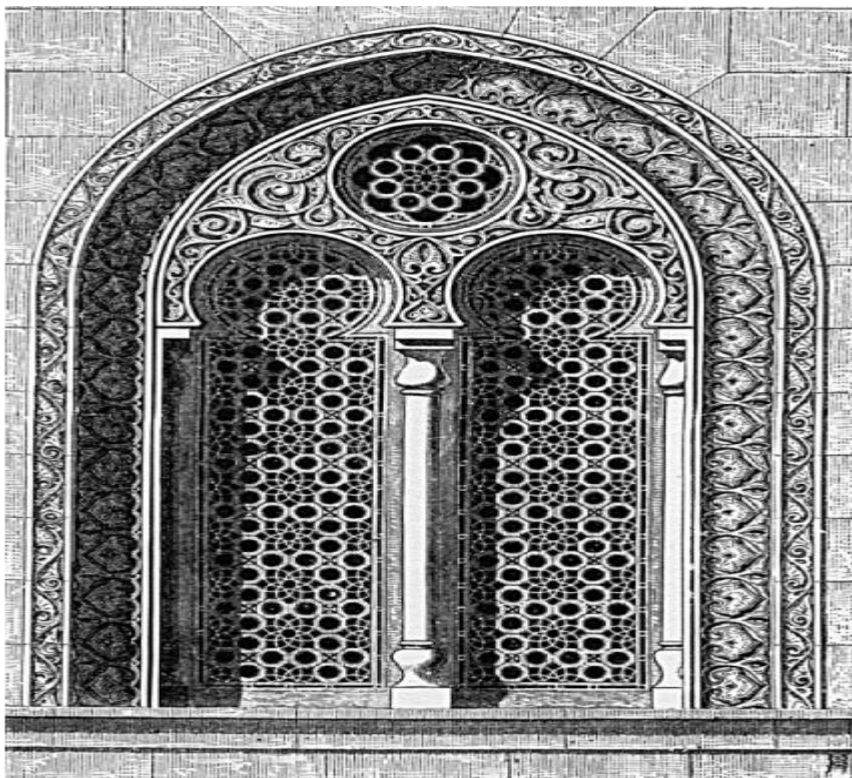
وَصَرَبَتِ الصَّنَاعَةُ وَالصِّيَاغَةُ وَالْحَيَاكَةُ وَالنَّجَادَةُ وَالزَّخْرَفَةُ بِسَهْمٍ كَبِيرٍ فِي الْكِمَالِ فِي زَمَنِ الْفَاطِمِيِّينَ (٩٧٢م-١١٧١م) كَمَا رَوَى الْمُؤَرِّخُ الْعَرَبِيُّ الْمَقْرِيزِيُّ الَّذِي جَاءَ الْبَحْثُ فِي آثَارِ زَمَانِهِ مَصَدِّقًا لِرَوَايَتِهِ، فَكَانَتْ جُدُرَانِ الْبُيُوتِ تُغَطَّى بِاللُّوَّاحِ الْقَاشَانِيِّ الْمَطْلِيِّ أَوْ بِالْمَلَّاطِ الْكَلْسِيِّ الرَّخَامِيِّ الْمَزِينِ بِالزَّخَارِفِ الزَّاهِيَةِ وَالنَّقُوشِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا نَتَمَثَّلُهُ بِسَهُولَةٍ مِنْ بَعْضِ الْقُصُورِ الْعَرَبِيَّةِ الْحَاضِرَةِ فِي الْقَاهِرَةِ، وَكَانَتْ أَرْضُ تِلْكَ الْقُصُورِ تُقَرَّشُ بِالْفَسِيفَسَاءِ، أَوْ الْبُسْطِ الْمَوْشَاةِ، وَكَانَ أَثَانُهَا يُصْنَعُ مِنَ الْخَشَبِ الثَّمِينِ الْمُرْصَعِ بِالصَّدَفِ أَوْ الْعَاجِ، وَكَانَتْ مَتَكَاتُهَا ذَاتَ رِيَّاشٍ مُزِينٍ فِي لَحْمَتِهِ بِصُورِ الْحَيَوَانَ، وَكَانَتْ نَهَارِقُهَا تُكْسَى بِالنِّسَائِجِ الْأَرْجَوَانِيَّةِ الرَّائِعَةِ.

وارتقت الصناعة المعدنية في زمن الفاطميين إلى حدٍّ بعيد أيضًا، كما يشهد بذلك ما انتهى إلينا من الأواني والأكواب والأباريق والأطباق والمصابيح، وغيرها من ألوف المصنوعات التي نشرنا صور نماذج كثيرة لها في هذا الكتاب.

وكانت قصور الخلفاء الفاطميين فخمةً، وبُثت ما نراه في المساجد المصرية القديمة، التي ظلت قائمة، من الزخرف أنه لم يكن في وصف الكتّاب لها شيء من المبالغة.

وقصّ المؤرخون علينا نبأ القصر العربي القديم الذي بناه خمارويه ابن طولون سنة (٢٧١هـ / ٨٨٤م)، أي قبل ظهور الفاطميين، فقد كان يُحيط بذلك القصر، على حسب ما جاء في الأخبار العربية، رياضٌ واسعة ذات زهور على شكل آيٍ من القرآن، وكان يُرى في رِداه الذهبية المُنمّقة^{٧٥} تماثيل لذلك الأمير ونسائه ذات ثياب ثمينة، وكانت له حظيرة جميلة للحيوانات الكثيرة، وكان يوجد تحت أحد أروقاته الرخامية حوض زُئبق عَرَضه ثلاثون مترًا فينعكس عليه نور النهار وأشعة القمر والنجوم، وكان يُشاهد من جَوْسِقٍ أنيق فيه منظرٌ جميلٌ لحدائقه وللنيل والريف.

^{٧٥} المقهاء: مؤنث الأمقه، وهو ما به مقه، وهو بياض في زرقه.



شكل ٤-١١: نافذة في جامع السلطان قلاوون.

ولا تكفي الأوصاف المختصرة التي جاءت في كتب العرب عن القصور العربية في مصر منذ ألف سنة، فترانا مضطرين إلى إتمامها بما رواه أوربيٌّ يُدعى غليوم السوري في كتابه التاريخي عن حروب أمراء النصارى في فلسطين مستندًا إلى ما قصَّه السفراء الذي أرسلوا إلى بلاط ملكٍ مصري، قال غليوم السوري:

نعتمد في وصف قصر الأمير الرائع الذي لم يكن له نظير في زماننا على ما قصَّه أولئك السفراء الذين زاروه فرأوا فيه ما ليس في غيره من الجلال والنضارة والعظمة، فقد وصل أولئك السفراء، بعد أن مروا من مسالك وقاعاتٍ كثيرة، إلى أروقة النزهة، والرياضة ذات العمد المرمية، والسقوف الذهبية الدقيقة الصنعة والبلاط الزاهي الألوان، وبهرهم

جمالاً ما رأوا فُبْهتوا، ولم تشبع عيونهم من النظر إلى تلك البدائع التي لم تكن لتخطر على قلوبهم، ومما شاهدوه: حياض السمك الرخامية، وأنواع الطيور المغردة الملونة البراقة التي لم يسبق لنا علم بها، ثم طاف الخَصِيان بهم في عُرف تفوق ما تقدم حسناً ورُواءاً، ومما رأوا هنالك أنواع ذات القوائم الأربع العجيبة، التي لا يُقدّر على تصويرها سوى ريشة رسامٍ تابع لهواه أو شاعر متحلل أو من يسبح روحه في أحلام الليل، والتي تنتجها بلاد الجنوب والشرق لا بلاد الغرب التي لا تراها، والتي قلما تسمع عنها شيئاً.

ويمكن تصوّر ما كان عليه الخلفاء الفاطميون من الثراء عند النظر إلى قائمة الأموال التي روى المؤرخ المقرئ أن الخليفة المستنصر (٤٢٧هـ / ١٠٣٧م) اضطر إلى بيعها؛ إرضاء لأولئك المرتزقة الذين تكلمنا عنهم آنفاً، وقلنا: إنهم استبدوا بالملك تقريباً، ولا يُطعن في صحة رواية المقرئ الذي استند إلى محضّر وكيل الوزير ناصر الدولة، فالمرء حين يقرأها يرى أن ثروات العالم التقت وتكدّست في مصر منذ قرون كثيرة؛ لكي تُنثر على أخطّ الجنود في آخر الأمر كما قال مسيو مارسيل.

قال مسيو مارسيل نقلاً عن المقرئ:

ذُكر في تلك القائمة العجيبة ما لا حصر له من أُمْدَادٍ الزمرد والياقوت واللالئ والمرجان، وما إلى ذلك من الحجارة الكريمة، وذُكر فيها ١٨٠٠٠ من آنية البلور، ثَمَنُ بعضها ألف دينار (١٥٠٠٠ فرنك)، و٣٦٠٠٠ قطعة أخرى من البلور، وبساط من الذهب وزنه ٥٤ أوقية، وأربعمائة قفص كبير من الذهب، و٢٢٠٠٠ حلية من العنبر، وعمامة مرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠٠٠ دينار (١٩٥٠٠٠٠ فرنك) وديوك وطواويس

^{٧٦} الأمداد: جمع المد، وهو مكيال، والمد رطلان عند أهل العراق ورطل وثلاث عند أهل الحجاز، وقيل: المد هو ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملاهما ومد يديه بهما، وبه سُمي مدًا، قاله الفيروزآبادي، وقال: قد جربت ذلك فوجدته صحيحاً.

وغزلان ذاتُ حجم طبيعي مصنوعة من الذهب ومرصعة باللالئ والياقوت، وموائد مصنوعة من اليَصْب كبيرةٌ يستطيع أن يجلس حولها آكلون كثيرون معًا، ونخلة من الذهب في صُوان من الذهب، وثمار وأزهار ذات حجم طبيعي من اللؤلؤ والياقوت، وحديقة ذات تراب من الفضة المذهبة، وأرض من العنبر، وأشجار من الفضة وثمرات من الذهب والحجارة الكريمة، وخيمة مصنوعة من المُخْمَل والديباج الموشى بالذهب، دائرُتها خمسمائة ذراع (٦٢٥ قدم) وارتفاعها ٦٤ ذراعًا (٩٠ قدمًا) ويُسطها تعدل حمل مائة بعير، وخيمة أخرى مصنوعة من الإبريز قائمة على أعمدة من الفضة، وأخبية وزنها ثلاثة قناطير، وألفان من الزَّرايِّ المزخرفة بالذهب ثمنُ إحداها ٢٢٠٠٠ دينار (٣٣٠٠٠٠٠ فرنك) وثمان أقلها ألف دينار (١٥٠٠٠ فرنك)، وخمسون ألف قطعة من النسائج الحريرية الموشاة بالذهب ... إلخ.

وذلك إلى أن أمين بيت المال ابن عبد العزيز ذكر في قائمته أكثر من مائة ألف سلعة ثمينة وممتي ألف قطعة من السلاح سُلِّمَت أمامه.



شكل ٤-١٢: شارع في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

ويسأل الإنسان، عندما يعلم مقدار تلك الثروات: من أين أتت؟ ومن أي ينبوع كان الخلفاء يأخذون دخلهم الذي استطاعوا أن يجمعوا من الكنوز ما لا يملك مثله أي واحد من ملوك الزمن الحاضر؟

كانت ثروة الخلفاء الفاطميين تستند إلى مصدرين مختلفين: الحاصلات الزراعية والأعمال التجارية، والواقع أن مصر كانت مستودعًا للتجارة بين أوربة والهند وجزيرة العرب، وأن جميع سلع الشرق كانت تمر، مضطرةً، من طريق الإسكندرية إلى الغرب.

وروى فريسكو بالدي الفلورنسي أنه كان يرى من السفن في ميناء القاهرة في زمانه، أي في سنة ١٣٨٤م، أكثر مما في جنوة أو البندقية، وأن عدد الزوارق في نهر النيل كان ٣٦٠٠٠، فتستخدم في الوشق والتفريغ، ويرى من أثمان السلع التي ذُكرت في رحلة أحد أصحاب قاسكودوغاما أن مكاسب خلفاء مصر منها كانت وافرة إلى الغاية، وأن الأباير والتوابل كانت تُباع في القاهرة بثمن أعلى مما عليه في كلكتة خمس مرات.

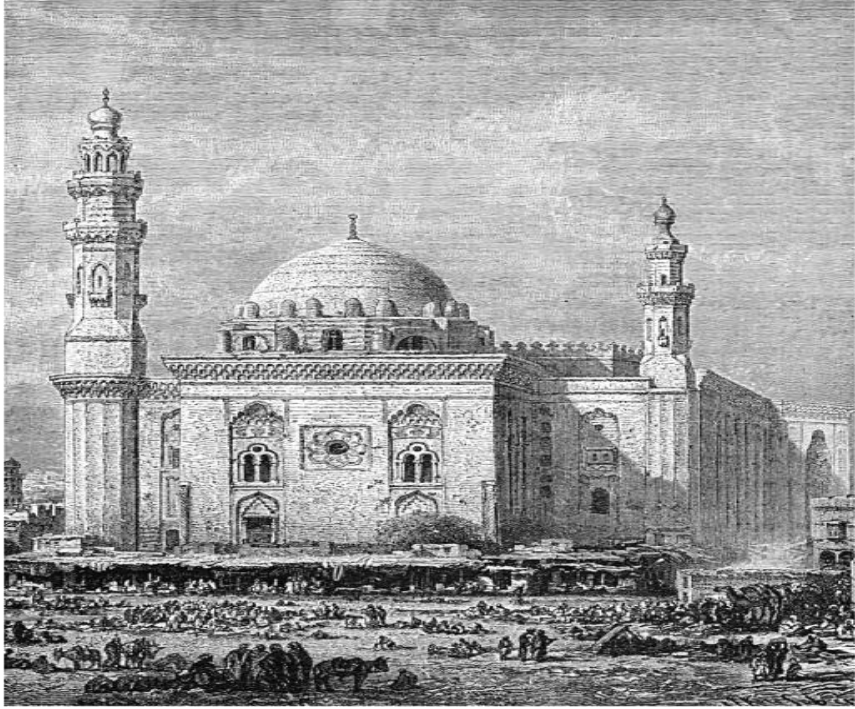
ودام مصدر الثراء الواسع هذا إلى أن جاوز قاسكودوغاما، في سنة ١٤٩٧م، رأس الرجاء الصالح، وبلغ شاطئ ملبار الذي لم يره أوربي قبله، والذي لم يختلف إليه أحد غير العرب حتى ذلك التاريخ.

وكانت الضربة التي نزلت بثروة خلفاء مصر بسبب هذا الاكتشاف عظيمة جدًا، ولم يستطع الخلفاء أن يمنعوا بأساطيلهم البرتغاليين من الاستقرار بالهند، ومن القضاء على تجارة العرب في الشرق الأقصى، أي على المصدر الأصلي لثروة ملوك مصر.

(٤) مباني العرب في مصر

مصر هي البلاد الوحيدة التي تُرى فيها المباني العربية القائمة منذ الدّور الإسلامي الأول، والتي يمكن الباحث أن يدرس فيها تحوّل فن العمارة العربي في مختلف الأدوار.

وإذ كان جميع تلك المباني العربية القديمة القائمة هو من المساجد على وجه التقريب، وكان أهمُّها في القاهرة، كان من السهل درُسُها.



شكل ٤-١٣: منظر جامع السلطان حسن (من تصوير إيبِر). وظلت مدينة القاهرة، وإن شئت فقل أقسامها البعيدة من الأوربيين على الأقل، عربية تمامًا، ولنا بحالها الحاضرة، فكرة عما كانت عليه في عصر الخلفاء. والناظر إلى القاهرة من بعيد يراها ذات طابع شرقي يستوقف النظر، أي يراها ذات طابع لا يشاهد مثله في أية مدينة أخرى على ما يحتمل، فهي مؤلفة من بيوت بيض ذواتِ سقوف مستوية يُشرف عليها مئاتٌ من المآذن الهيف منفصلة عن النخل ارتفاعًا، وتسحر القاهرة من ينظر إليها من أعلى القلعة، ولا أعلم مدينةً تسحر القلوب بمنظرها كالقاهرة.

وشوارع القاهرة ضيقة متلوية غير منتظمة كشوارع كل مدينة شرقية، وتكاد أطناف نوافذ البيوت في أحياء مصر القديمة، على الخصوص، تنماس، والحكمة في ضيق تلك الشوارع هي الاستكثار من الظل واستبقاء الرطوبة، ومن يقطع شوارع القاهرة وميادينها الكبيرة التي أنشئت على النمط الأوربي تحت وهج الشمس يعلم سرّ تفضيل الناس، في مثل ذلك الجو، للشوارع الضيقة المملوءة بالظل على الشوارع الواسعة التي تلهبها نار الشمس على الدوام.

ويستوقف تراحم الأقدام في شوارع القاهرة نظر السائح في كل حين، ويغري منظرها النفوس مع زيارة دمشق، فقد قضينا ساعات كثيرة في تأملها.

قال الدكتور إيزانبر: «يُرى، في الجمهور الأنمر^{٧٧} المتزاحم، الفلاح المتواضع، والبدوي المتبختر، والقبطي أو اليهودي العبوس، واليوناني النشيط اليقظ، والقوَّاس الألباني الثقيل المتزَيِّد، وأصناف الزوج الذين ترجح ألوانهم بين الأبنوسي الخاص بالسوداني واللمعان الخاص بالبربري، ويتألف منظرٌ لا يَمَلُّ منه الأجنبي من القوافل الآتية من نواحي إفريقية وجزيرة العرب، ومن الجمال الوئيدة المشي المتزنة الخطأ، ومن الحمير السريعة الخطو التي يركبها صغار السادة من الشرقيين أو النساء المتحجبات بأزُرٍ قاتمة، ومن الباشوات الذين يمتطون بملابسهم الرسمية صهوة الخيل، ومن السَّقَّاتين الذين يحملون أسقية جلدية لزجة، ومن أنواع الحمامين، ومن السُّوَّاس الصخابين الذين يضربون العربي البليد بسياطهم، ومن الفلاحات البائسات المتباطئات.»

أُنشِئت مدينة القاهرة الجديدة سنة (١٣٥٩هـ / ١٩٧٠م)، وهي تضم مدينة الفسطاط القديمة التي أقامها عمرو بن العاص فقامت مقامها، وعادت مدينة الفسطاط لا تكون

^{٧٧} الجمهور الأنمر: فيه الأبيض وفيه الأسود.

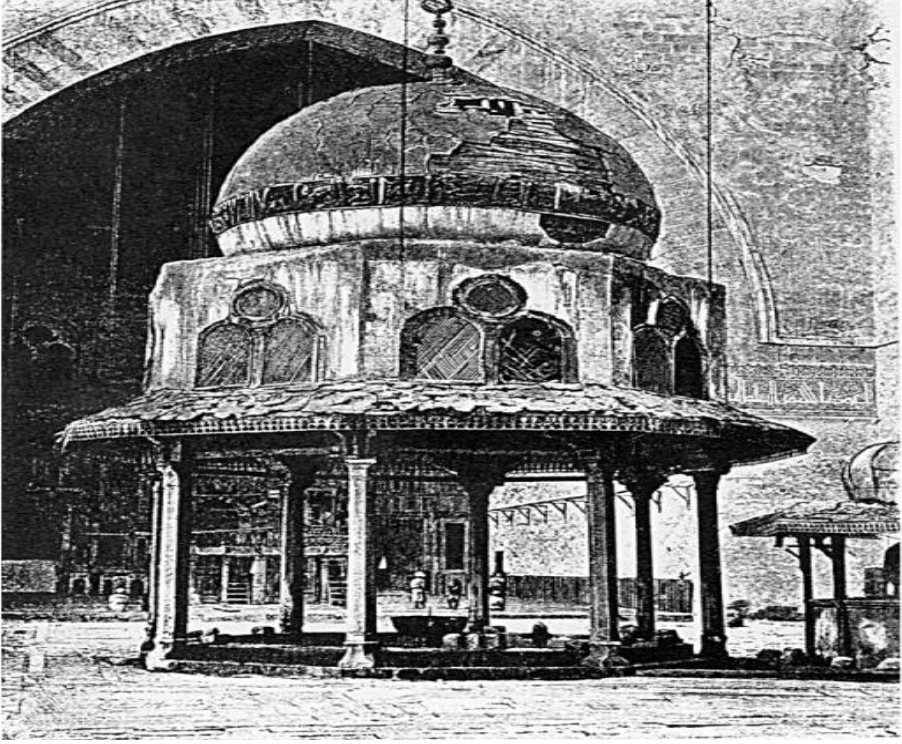
اليوم إلا ضاحيةً لتلك المدينة تُعرَف الآن باسم مصر القديمة، وإن كانت مدينة عمرو بن العاص هذه لم تحمل سابقًا هذا الاسم غير المطابق للأصل.

وتمَّ إنشاء القاهرة بعد أن وُضِع حجرها الأول بثلاث سنين، وأنفق الفاطميون جزءًا كبيرًا من دخلهم الواسع على تجميلها وزخرفتها، ولم يألُ كُلُّ عاهلٍ جُهدًا في أن يسبق سلفه في ذلك، ثم سار المماليك الذين حلَّوا محل الخلفاء العرب على غرار هؤلاء في تزيين القاهرة، ولم ينقطع أمرُ عُمَرانها إلا بعد أن أصبحت مركز ولاية تركية، فقد أهملها الترك، فضلًا عن عدم زخرفتهم لها، واليوم تتدرج مبانيها المهمة إلى الخراب، وصار يُخشى زوالها في المستقبل القريب لعدم إصلاحها، وقد قال لي أحدُ عِلِيَّة القوم في مصر: إنني أصبت في زيارتي لتلك المباني، فقد لا يبقى منها شيء يستحقُّ المشاهدة بعد سنين قليلة.

والآن ندرس، على عَجَل، أهمَّ مباني القاهرة وفق قِدَمِها، وقد اخترنا من مساجد القاهرة، التي تترجح بين أربعمئة مسجد وخمسمئة مسجد، ما هو أدل على تطور فن العمارة في جميع أدوارها، أي منذ إنشائها حتى الأزمنة الأخيرة:

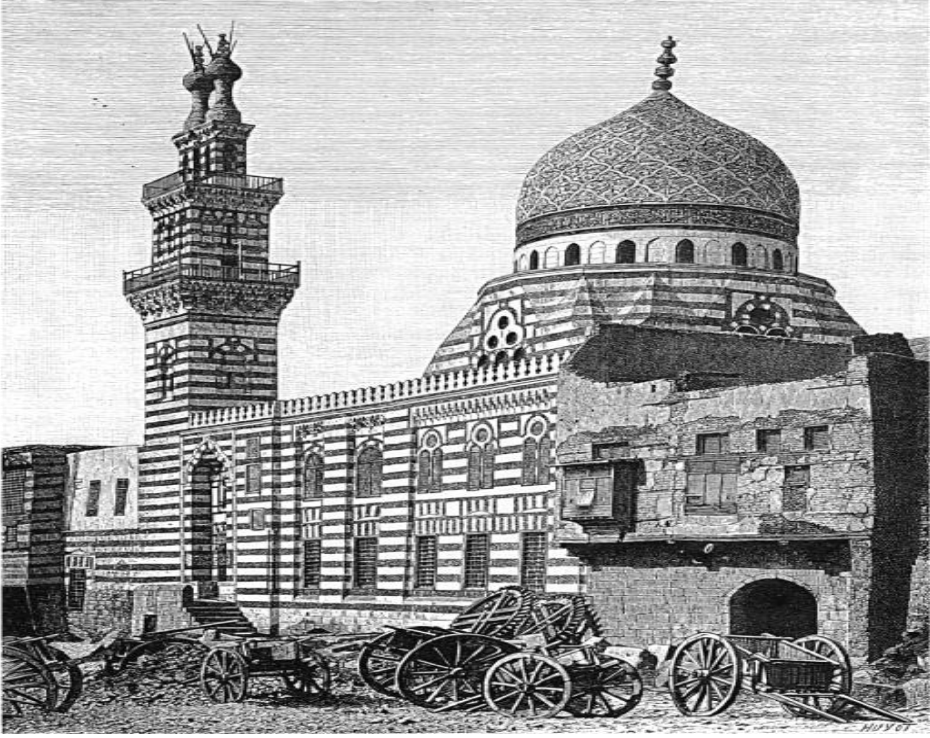
(١-٤) جامع عمرو بن العاص (٢١هـ / ٦٤٢م)

جامع عمرو بن العاص من أقدم معابد المسلمين وأقدسها، وقد شَهِد بناءه ثمانون صَحَابِيًّا.



شكل ٤-١٤: بركة وضوء في جامع السلطان حسن كما هي في الوقت الحاضر (من صورة فوتوغرافية).

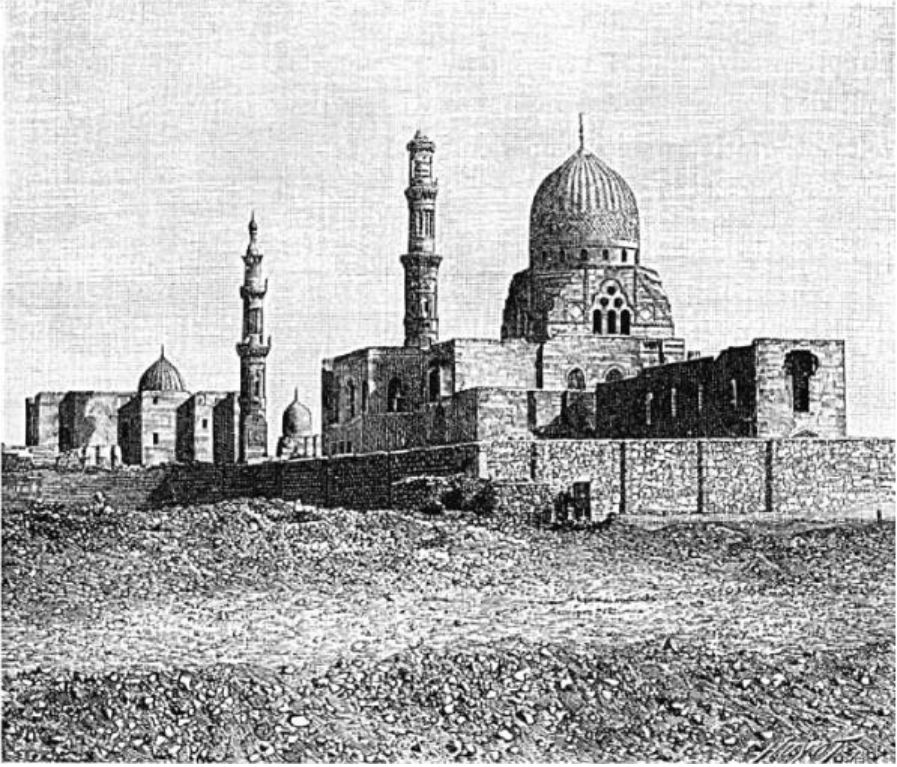
وأنشأ هذا المسجد فاتح مصر عمرو بن العاص فحمل اسمه، وكان المسجد الجامع الوحيد الذي اشتملت عليه مدينة الفسطاط في عهد الخلفاء الأربعة الأولين وفي زمن الدولة الأموية، ثم اتخذ رسمه نموذجاً زمنياً طويلاً ما بدا مثال المساجد الأولى. ورسّم المساجد الإسلامية الأولى بسيط، ومن يُنعم النظر في أحدها يُميّزها كلها، ويتألف كل واحد من هذه المساجد من ساحة مستطيلة محاطة بأروقة واسعة ذات سقوف مستندة إلى صفوف كثيرة من الأعمدة، ويُخصّص أكبر هذه الأروقة الأربعة مكاناً للعبادة، ويقع في وسط هذه الساحة بركة للوضوء، وتقوم على أركان المسجد أبراج مرتفعة تُسمّى مآذن.



شكل ٤-١٥: مسجد آخور في القاهرة (من صورة فوتوغرافية).

ويوجد أمام أكثر المساجد القديمة ساحةٌ محاطةٌ بمساكنٍ للغرباء، وإصطبلاتٍ للخيل والجمال، ومَحَامَاتٍ للعامة، ومناهلٍ للشرب، وذلك أن المساجد الأولى ليست أماكن للعبادة وحدها، بل هي منازل للمسافرين أيضًا.

واستُعيرت أعمدة جامع عمرو بن العاص من مختلف المباني اليونانية والرومانية، وتعلوها أقواسٌ لا تختلف عن الأقواس القديمة إلا بانكسار خفيف في أعلاها، وبأشكالها التي تشابه نعل الفرس في أسفلها والتي أصبحت، بعد تعديل، من صفات فن العمارة العربي مع الزمن، ومَنَحَ شكلُ نعل الفرس، بتطبيقه على قاطع القباب بعد ذلك، هذه القبابَ هَيْفًا وروعةً أسنى مما تجده في فَطَس القباب البزنطية.



شكل ٤-١٦: مسجد برقوق المشتمل على قبور الخلفاء (من صورة فوتوغرافية).

ولم يبقَ لساحة جامع عمرو بن العاص المستطيلة التي تحيط بها الأروقة سوى أعمدة قائمة في جانين متقابلين منها، ويوجد في أحد هذين الجانين صفٌّ واحد من الأعمدة، وفي الجانب الآخر المقابل الذي هو مكان للصلاة ستة صفوف من الأعمدة، وتبلغ أقواس كل واحد من هذه الصفوف إحدى وعشرين قوسًا، ويكون، بذلك، مجموع الأعمدة التي في مكان الصلاة ١٢٦ عمودًا، وإذا نظرنا إلى الصف الأول من مكان الصلاة فرأيناه ذا أعمدة مُضَاعَفَةً كان الحاصل الحقيقي لأعمدة مكان الصلاة ١٤٧ عمودًا.

ويوجد في جامع عمرو بن العاص، كما في كل جامع إسلامي، محراب مُقَنْطَرٌ يَتَّجِه نحو مكة، ويقيم المسلمون أمامه صلواتهم، وفيه منبر للوعظ، والمحراب والمنبر المذكوران بسيطان إلى الغاية.

ومثلها بساطة مئذنتاه القليلتا الارتفاع، اللتان لم يكن لكل واحدة منهما سوى رواق واحد ورأسٍ دقيق.

ولا ترى في جامع عمرو بن العاص شيئاً من الزينة والنقوش البارزة والدقائق التي اتصف بها فن العمارة العربي في المستقبل، ويوجد لجامع عمرو بن العاص روعة مع بساطته وغابة أعمدته وأقواسه، ومن المحزن حقاً أن يعتريه الوهن كما يعترى أكثر المساجد القديمة في القاهرة.^{٧٨}

(٢-٤) جامع ابن طولون (٢٤٣هـ / ٨٧٦م)

قام جامع ابن طولون على الطراز البسيط، وإن كان أكثر زخرفاً من جامع عمرو، فرسمه العام مثل رسم جامع عمرو، وهو، كجامع عمرو، مؤلف من ساحة مربعة تحيط بها الأقواس من كل جانب، وتقوم هذه الأقواس، المصنوع أعلاها على رسم البيكارين، والمصنوع أسفلها على شكل نعل الفرس بما هو أبرز مما في جامع عمرو، على أركان قوية تلتصق بزواياها أعمدة ذات تيجان منقوشة على الطراز البنطي، وذلك بدلاً من أن تقوم على أعمدة كما في جامع عمرو، ويظهر أن هذه الأركان هي المصدر الذي اقتبس منه طراز الأعمدة المنصمة التي ترى في كنائسنا القوطية كثيراً.

وباطن سقف جامع ابن طولون، المستند إلى تلك الأقواس، مصنوع من الخشب كما في جامع عمرو أيضاً، ولا ترى فيه زخارف ونقوش متدلّية، وما في أطنافه ونوافذه وأسفل

^{٧٨} ينقل بعض المؤلفين المحققين «باتيسيه» ما رواه مؤرخو العرب من أنه كان يوقد في مسجد عمرو بن العاص في كل ليلة ١٨٠٠٠ مصباح، وأنه كان يستنفد لهذا الغرض ١١٠٠٠ قنطار من الزيت الصافي يومياً، فأرى أن أقل نظرة تكفي لبيان فساد هذه الرواية، فمن المستحيل أن يستنفد كل مصباح ٦١ كيلو غرام زيت في كل ليلة، كما أن نقل تلك القناطير من الزيت إلى الجامع في كل يوم يستلزم جحفاً من الجمال.

حنياه من الأزهار والأغصان المصنوعة يذكرنا بالطراز البيزنطي مُبَشِّرًا بظهور فن الزينة العربي.

وتُقرأ على أطناف باطن ذلك السَّقْف خطوطٌ كوفيةٌ منقورةٌ في الخشب.

وتعلو جدران ذلك الجامع شُرَف ذات منافذ للضياء.

وبُني ذلك الجامع من الآجُرِّ المكسوِّ بملاطٍ من الكلس والرَّخام، وصُنعت نقوشه وزخارفه من هذا الملاط أيضًا.

ولم يبقَ لذلك الجامع سوى مثذنة واحدة، وهي برج مدرج مربع في أسفله، أسطوانيّ في وسطه مُثَمَّنُ الزوايا في أعلاه.



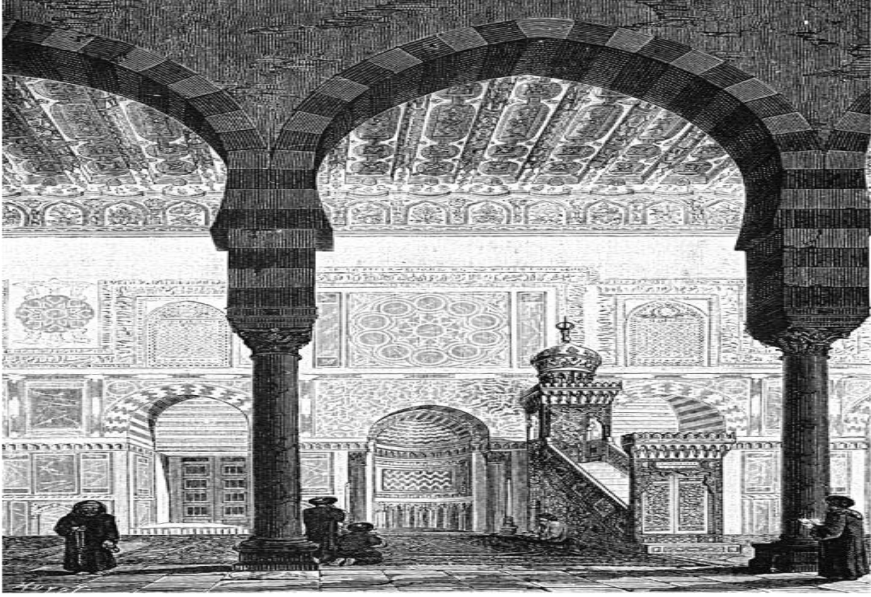
شكل ٤-١٧: سهل القبور في أسفل القلعة وجامع محمد علي (من صورة فوتوغرافية).

ويُرى في ساحة ذلك الجامع حوضٌ جميلٌ مغطّى ذو نوافذٍ مثلثة في أعلى بابه.

وأصاب الوهنُ جامع ابن طولون، ولم تُبالِ حكومة مصر بهذا الأثر الفني العربي القديم، كما أنها لم تُبالِ بغيره من الآثار العربية، ويَرى الناظر سقفه وجدرانه وكل شيء فيه على

شفا الانهيار، ولن تمضي سنون قليلة حتى يُصبح أنقاضًا، وقد اضطررنا لدخوله إلى كسر
أحد أبوابه المُسمَّرة؛ منعًا للناس من زيارته.

(٣-٤) الجامع الأزهر (١٣٥٩هـ / ١٩٧٠م)



شكل ٤-١٨: داخل جامع المؤيد (من تصوير كوست).

الجامع الأزهر أرقى زخرفاً من جامع ابن طولون، ولكنه يجب على من يدرسه أن يذكر أن
كثيراً من دقائقه تم بعد إنشائه بزمان طويل.



شكل ٤-١٩: جامع قايتباي (من صورة فوتوغرافية).

ويتمتع الجامع الأزهر، الذي بدأ بعمله مثل جامعة منذ سنة ٣٧٥هـ، بشهرة واسعة بين المساجد الإسلامية. وللجامع الأزهر الآن تأثير كبير في بلاد الإسلام، والطلاب يقصدونه أفرادًا وأرسالًا من أنحاء العالم الإسلامي، وكيف لا وهو الملجأ الأخير لعلوم العرب في الشرق. وفي الجامع الأزهر أساتذة يقبضون رواتبهم من دخله، ويُدَرِّسون فيه العلوم والآداب والتوحيد والفقه والطب والفلك والرياضيات والتاريخ، وكان عدد طلابه اثني عشر ألفًا فيما مضى، ولا يقل الآن عن هذا العدد كثيرًا، ويقوم بنفقات طلابه الفقراء.

ويشابه رسم الجامع الأزهر رسم المساجد السابقة، وما يحيط به من مختلف المساكن يُفسد رسمه القديم بعض الفساد.

وعلى من يريد أن يَتَمَثَّل طراز الجامع الأزهر القديم أن يدرس صحنه الكبير، فأقواسه الحادة تقوم على ٣٨٠ عمودًا من الرخام السَّماقي والمرمر والغرانيت، وقواعدُ هذه الأعمدة وتيجانُها أخذت من أبنية قديمة، وقوس القناطر حادة أكثر مما في المساجد الأولى، ومآذنه الرائعة أنشئت بعد إقامته بزمان، وقد نَشَرْنَا في هذا الكتاب صورة فوتوغرافية التقطناها لها من أحد أرصفتيه، كما نشرنا أيضًا صورة لمحراب فيه مُزَيَّنٍ بشتى الألوان، وذلك في رَدْهِةٍ اتَّخَذَتْ ضريحًا لرجل عظيم.

(٤-٤) جامع قلاوون (٦٨٣هـ / ١٢٨٣م)

جامع قلاوون مثال لما كاد يَبْلُغُه فن العمارة في أرقى أدواره، ومن دواعي الأسف أن لَطَّخَ الدَّهَّانُونَ بعض أجزاء جُدرانِه وباطن سُقْفِه بحجة الإصلاح والترميم.

ويذكرنا جامع قلاوون في مجموعه بالمباني القوطية الأولى، وقد استوقفت هذه المشابهة أنظار العلماء الذين زاروه كـ«كوست» و«إيبر»، قال إيبر:

وما يستحقُّ الذكر في مُقَدِّم جامع قلاوون ومزاره مشابهُته لمُقَدِّم الكنائس القوطية الأوربية، وما فيه من أقواس الدَّعم الطويلة التي تقوم بينها أقواس صغيرة مستندة إلى أعمدة، وما كان من عدم وجود أفاريز فيه، وما فيه من الأساطين العاطلة من السطوح، وما فيه من الرِّتاج^{٧٩} الذي يزيد المدخل زخرفًا وزينةً، والذي يُرى فيه كثير من الحنايا المتداخلة المرتكزة على أعمدة صغيرة متفاوتة، يُذكرنا في مجموعه الفاقد النظام والانسجام بالمباني التي أقيمت في ذلك الدور في فرنسة وألمانية وشمال إيطاليا، وإننا — مع إضافتنا إلى ذلك الطراز العربيِّ ما تَطَلَّبه جَوُّ أوربة البارد الماطر وعاداتُها الدينية ونقاشة تماثيلها وسقوفُها المرتفعة وسطوحها الحادة الزوايا ومزاربيُّها الناتئة وقباب أجراسها وتماثيلها —

^{٧٩} الرتاج: الباب العظيم، الباب المغلق وفيه باب صغير.

وجدنا أن النقوش البارزة هي زخرف فن العمارة العربي الذي نُقِلَ إلى إحدى الأمم النصرانية في الشمال: وذلك الطراز هو الذي نسميه الطراز القوطي؛ فنرى مثاله الجميل في سنت شانيل الباريسية التي أقيمت في القرن الثالث عشر، أي في القرن الذي بُني فيه جامع قلاوون.

ويُرى في جامع قلاوون مزارٌ مُقَبَّب يضم قبر بانيه، وتقوم قناطر هذا المزار الرائع الطويلة على أركان ذات أعمدة متصلة بزواياها، ويُذكرنا هذا المزار، وتُذكرنا نوافذه المصنوعة على رسم البيكارين، بمباني أوربة التي أقيمت على الطراز القوطي كما يذكرنا جامع قلاوون نفسه بها.

وكان يلحق بجامع قلاوون مشفى، وليس هذا المشفى موجودًا في الوقت الحاضر مع وصفه مطولًا في دليل نُشِر حديثًا في الشرق.

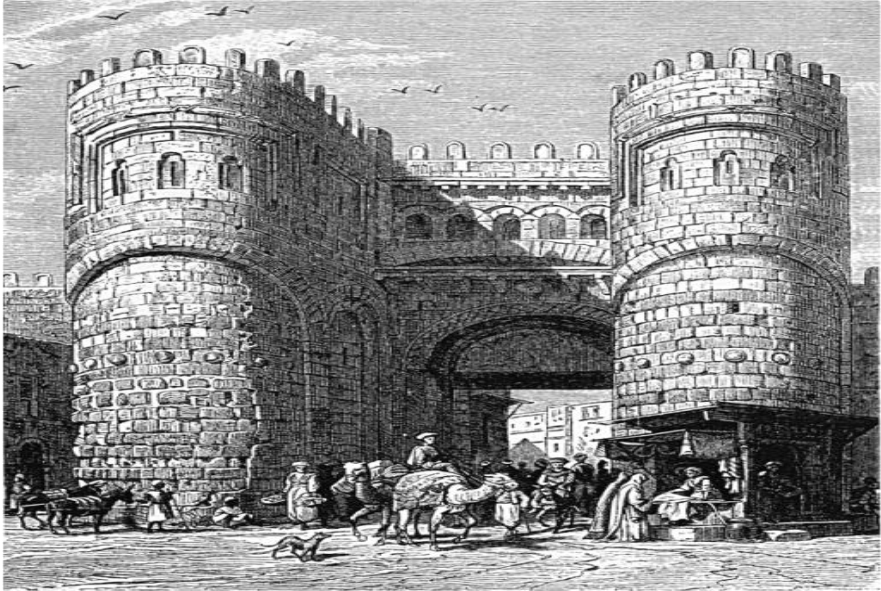
(٤-٥) جامع السلطان حسن (٧٥٧هـ / ١٣٥٦م)

بلغنا أنصر أدوار فن العمارة العربي بالتدريج، وهو ما أقيم فيه جامع السلطان حسن الذي هو أجمل مباني القاهرة.

وتُذكرنا سعة جامع السلطان حسن العظيمة بأكبر كنائسنا، وهو يزيد على كنيسة نوتردام الباريسية حجمًا، ويبلغ ارتفاع قُبَّته العظيمة ٥٥ مترًا، ويبلغ ارتفاع أعلى مآذنه ٨٦ مترًا، أي ضعف ارتفاع عمود قُندوم في باريس، ويبلغ طوله ١٤٠ مترًا وعرضه ٧٥ مترًا، ويبلغ ثخن جدرانه ثمانية أمتار، وقد بُنيت هذه الجدران من الحجارة المنحوتة خلافًا لجدران المساجد القديمة التي بنيت من الآجر والرخام.

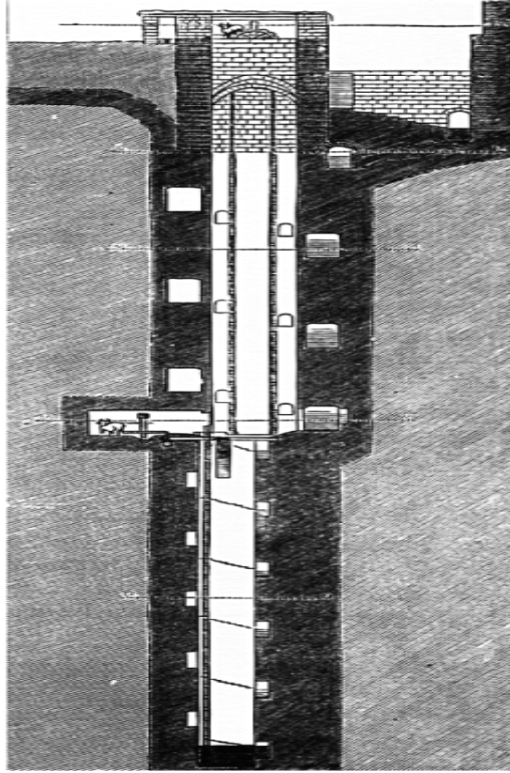


شكل ٢٠-٤: محراب جامع قايتباي ومنبره (من صورة فوتوغرافية).
ولجامع السلطان حسن في مجموعه منظر رائع لا نجد مثله في مساجد الهند الكبيرة التي
تكلمنا عنها آنفًا.



شكل ٢١-٤: باب الفتوح (من تصوير إبير).

ويختلف رسم جامع السلطان حسن العام بعض الاختلاف عن الرسم المعتاد الذي تكلمنا عنه، فهو قائم على شكل الصليب الإغريقي بدلاً من أن يكون مُربَّعاً، وهو، بدلاً من أن يكون محاطاً بالقناطر كما في المساجد السابقة، تجد في كل واحدة من جهات ساحته الداخلية مدخل بهو فسيح ذي قنطرة عظيمة مصنوعة على رسم البيكارين نافذ إليها، وتُقام الصلاة في أكبر أبهائه ذي القبة التي يبلغ ارتفاعها ٢١ متراً، ويشتمل هذا البهو الكبير على محراب ومنبر للوعظ كما تراه في جميع المساجد، وتستتر قواطع الجدران كتابات ونقوش عربية، وتقوم في وسط تلك الساحة بركة رائعة متداعية مع الأسف.



شكل ٤-٢٢: بئر يوسف التي صنعها العرب في القاهرة (من تصوير كوست).

ويشتمل جامع السلطان حسن على قبر بانيه، وهذا القبر في بهو يبلغ عرض قبه ٢١ مترًا مع نقوش متدلية في القاعدة.

وتحيط بالبهو كتابات جميلة منقورة في خشب ارتفاعه مترًا واحد تقريبًا. ونرى أقواسه مُحَصَّرة قليلًا كما في أكثر المساجد السابقة، ولم تُعمَّ الأقواس المصنوعة على شكل نعل الفرس إلا في المباني التي شادها العرب في الأندلس على العموم. ويبلغ ارتفاع الرّناج الشمالي لجامع السلطان حسن عشرين مترًا، وهو مجوّف على شكل نصف الدائرة، ويرتكز نصف القبة التي تعلوه على حجارة متدلية، وتغطّي قواطعه نقوش عربية كثيرة.

ولم ينل جامع السلطان حسن من العناية أكثر مما نالته مساجد القاهرة الأخرى، فما فيه من الفسيفساء والنقوش والروافد^{٨٠} يندثر شيئًا فشيئًا، وقد لا يبقى من هذا الأثر الرائع سوى الجدران بعد سنين قليلة.

وجميع مساجد ذلك الدور تستحق الذكر، فتمثّل، هي والمباني التي أقيمت في القرن الذي جاء بعدها، عصر فنّ العمارة العربي الذهبي بمصر. ومن مباني ذلك الدور أذكر، على الخصوص، جامع الأمير أخور ذا القبة الرائعة، والمباني الآتية.

(٦-٤) جامع برقوق (٧٨٤هـ / ١٣٨٤م)

بني هذا الجامع من مداميك منظّمة حَجَرِيَّة بيض وحمُر، وهو من المباني التي نسميها مزارات الخلفاء، وتعبّر مئذنته، مع مئذنة جامع قايتباي، عن المآذن العربية أحسن تعبير،

^{٨٠} الروافد: جمع الرافدة وهي خشبة السقف التي فوق الجسر، والعامة تسميها الوصلة.

ولقبابه المَحْصَرَة قليلاً هَيْفٌ يشمل النظر، وللقُبة التي هي فوق ضريح برقوق منظرٌ داخليٌّ ذوروعة وجلال، وتمسك أركان البهو المربع هذه القبة بمدليات رائعة. ويشتمل جامع برقوق على منبر عجيب من الرخام المنقوش، ويُعد هذا المنبر، الذي هو تخاريم حجريةٌ بالحقيقة، من روائع الفن العربي، فإهمال مثل هذا المنبر وتعريضه للنهب من الجرائم الوحشية التي لا تُغتفر.

(٧-٤) جامع المؤيد (٨١٨هـ / ١٤١٥م)

جامع المؤيد في مجموعه أقل أهمية من أكثر المساجد التي ذكرناها مع ما فيه من فيض الزخارف، وهو إذا ما نُظر إليه من ناحية زخارفه عُدد من أغنى مساجد القاهرة، وسيصبح أنقاضاً بعد قليل من الزمن لإهمال أمره كما سيصير إليه أكثر المباني التي ذكرناها، وفي هذا الجامع شاهدتُ سقوفاً ذات رقاعٍ منقورة مدهونة ملونة يندر وجودها في القاهرة الآن، وشاهدتُ أبواباً عظيمة ذات أعمدة تعلوها أقواس مُحْصَرَة قليلاً في قاعدتها مصنوعة على رسم البيكارين، وشاهدتُ نوافذ جميلةً مصنوعة أيضاً على رسم البيكارين تُحيط بها كتابات وفسيفساء أنيقة.

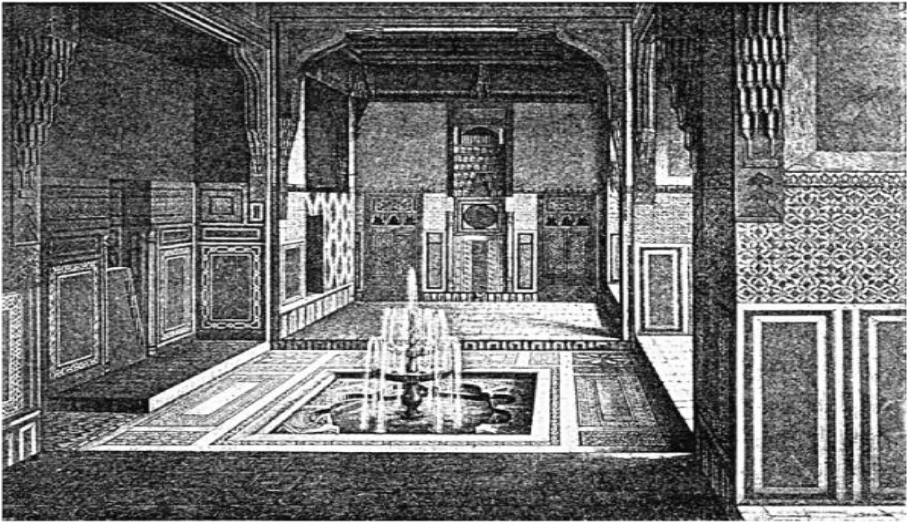
(٨-٤) جامع قايتبائي (٨٧٢هـ / ١٤٦٨م)

يشتهر هذا الجامع بقبته الكاسية بالزينة العربية البارزة النقوش، ويمثّلته الرائعة المثلثة الطبقات المغطاة بالنقوش، والمعدودة عنوان فن العمارة العربي الأخير على ما يحتمل، والناظر إلى هذه المثلثة يشاهد درجة ذوق العرب الفني في الزخرف البارز على الحجارة التي تُصنع منها المساند والأطناف والأروقة الناتئة عن مستوى جدران المآذن، والتي تكتسب بها المآذن منظرًا رائعًا لا ترى مثله في البرج المربع أو البرج الأسطواني.

ويعد جامع قايتباي كما يُعد جامع برقوق، من المباني المتصدعة التي يُسمّيها الناس مزارات الخلفاء، وأقيم أكثر هذه المباني في زمن المماليك الشراكسة، وذلك في سهل رملي قريب من القاهرة، ويتألف من مجموع هذه المباني منظر من أجمل ما رأيت، ويُرى في الناحية الأخرى من القاهرة، وبالقرب من القلعة، سهلٌ آخر ذو مزارات مهمة ممتعة كثيرًا بُنيت في مختلف الأدوار، ويعلو هذه المزارات متنوع المآذن والقباب، ولا أرى أن أفصل أمرها لِمَا في ذلك من الخروج عن نطاق هذا الفصل، ومع ذلك فقد نشرنا صورة فوتوغرافية لهذه المقبرة في هذا الكتاب.

(٩-٤) المساجد التركية في القاهرة

لا أرى بين المساجد والقصور القليلة التي أنشئت منذ أوائل القرن السادس عشر، أي منذ استيلاء الترك على مصر، مسجدًا واحدًا أو قصرًا واحدًا يستحق الذكر، ولو نظرت إلى أهم المباني التركية في مصر، أي إلى جامع محمد علي الضخم ذي القبة الفُطُساء والمآذن الأسطوانية الهزيلة التي تنتهي بما يشبه المطفأة، لرأيت الهوة العميقة التي تفصل بين ذوق العرب الفني وذوق الترك.



شكل ٤-٢٣: ردهة استقبال عربية في القاهرة (من تصوير باريس الأفيني).

نعم، لم يكن العرب حين فتحوا مصر من رجال الفن المتضلعين، ولكن ما فُطروا عليه من الذوق الفني العالي حفزهم إلى ابتداع طراز عمارة جديد من عناصر الفن البنظي، وغير ذلك أمر أولئك الترك الذين لم يكونوا أهلًا للانتفاع بمواهب أساتذة الفن وأمثله، والذين لم يروا، حين أرادوا إنشاء جامع في القاهرة، غير نَسْخِ عمارة أيا صوفية الثقيلة التي كانت كنيسةً بنظية، والتي هي عنوان مرحلة فنية جاوزها العرب منذ زمن طويل، فعند تلك المرحلة وقف الترك، ولم يستطيعوا قطعها.

(٤-١٠) الآثار العربية الأخرى في القاهرة

أبواب المدينة، القلعة، بئر يوسف ... إلخ: أذكر، من بين الآثار العربية التي أقيمت في عصر الخلفاء والتي يَتَجَلَّى فيها فن العمارة العربي، بايين من أبواب القاهرة، وهما: باب النصر وباب الفتوح اللذان أنشأهما الخليفة الفاطمي المستنصر في القرن الحادي عشر من الميلاد.

وأذكر كذلك قلعة القاهرة التي أنشأها السلطان صلاح الدين في القرن الثاني عشر، وتستقي هذه القلعة ماءها من بئر منقورة في الصخر نقرأ يدل على مهارة مهندسي ذلك الزمن، ويبلغ عمق هذه البئر ٨٨ مترًا، ويبلغ مدخلها ثمانية أمتار، وتُقسَّم إلى طبقتين، ويُرفع ماؤها بقوة الثيران التي تحرك دولابها ذا السُّبَحِ والقُلَلِ، ويمكن النزول حتى الطبقة الأولى من هذه البئر بطريقٍ مستديرة سهلة الانحدار ذات قُصْفَانٍ^{٨١} واطئة إلى حد يسهل معه نزول الثيران إليها وصعودها منها.

^{٨١} القصفان: جمع القصفة، وهي مرقاة الدرجة.

ونشاهد في القاهرة آثارًا كثيرة للحضارة العربية، كالمنازل والأسلحة ومختلف المصنوعات وغيرها من الأشياء التي سندرسها في فصول أخرى، فإذا أضاف القارئ درسَ هذه الأشياء إلى درس الآثار التي ذكرناها آنفًا اتضح له أمر الحضارة التي أقامها رجال القرآن في مصر.

الفصل الخامس العرب في إفريقية الشمالية

(١) إفريقية الشمالية قبل الفتح العربي

نقصد بإفريقية الشمالية البلاد التي تشتمل على مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وتمتد إفريقية الشمالية من المحيط الأطلسي إلى غرب مصر الملحقة بالشرق على العموم، وتُحدُّ إفريقية الشمالية بالبحر المتوسط في الشمال وبأقسام الصحراء المجاورة للسودان من الجنوب.

وكان الرومان يُقسِّمون إفريقية الشمالية إلى خمسة أقسام:

(١) بلاد برقة الواقعة في غرب مصر.

(٢) بلاد إفريقية القنصلية (طرابلس الغرب وتونس).

(٣) بلاد نوميديّة (ولاية قسنطينة).

(٤) موريثانية القيصرية (قسم من الجزائر الحاضرة).

(٥) موريثانية الطنجية (مراكش)، وكانت رومة تمارس سلطانها على هذه الولايات بما ترسله إليها من الولاة والمندوبين والحكام.

وسمّى العرب إفريقية الشمالية والأندلس بالمغرب في البُداء، وأطلق اسم إفريقية على تونس وطرابلس الغرب حين استقر العرب بالقيروان وتونس، وصارت كلمة المغرب لا تدل على غير بلاد إفريقية الغربية في نهاية الأمر.

وصار العرب يُسمون البلاد التي تحتوي الآن على الجزائر، تقريباً، بالمغرب الأوسط، والبلاد التي تحتوي الآن على مراكش بالمغرب الأقصى.

واستولت شعوب كثيرة على شمال إفريقية، وكانت لها آثارٌ متفاوتة فيها، وملكها قبل العرب كل من القرطاجيين والرومان والوندال والقوط والبيزنطيين.

ولم يتبدل أهل شمال إفريقية مع كثرة فتوح الأجانب لها، وهؤلاء الأهلون هم البربر الذين حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم خارج المدن على الأقل.

وينطوي تاريخ استقرار العرب بإفريقية على النزاع الذي دام طويلاً بينهم وبين البربر، وكان للبربر من الشأن في إفريقية والأندلس ما يجب درسه؛ لفهم ذلك التاريخ، وتزيد ضرورة ذلك الدرس كلما أمعن العلماء في الغلط حين يتكلمون عن البربر بسبب بلاد الجزائر.

وجميع أمم إفريقية الشمالية التي سمّاها الرومان بالنوميديين واللوبيين والإفريقيين والمغاربة والجيتول... إلخ، من عرق البربر، ويمكن القول بأن من لم يكن زنجياً في شمال إفريقية كان بربرياً، وذلك قبل العرب.

ولا يقل جهلنا للأصل البربري عن جهلنا لأصول أكثر العروق.

بيد أن ما نراه في شواطئ إفريقية العليا من البيض بين الزوج يدلنا على أن البربر نتيجة اختلاط مختلف الشعوب التي هاجرت إلى شمال إفريقية في أقدم القرون، وقد قلنا «أقدم القرون» لما ليس لدينا من الروايات والتاريخ ما يُدَوِّن ذلك، وقد قلنا «مختلف الشعوب» لما نشاهد بين سود الشعور من زُرْق العيون سُقِر الشعور.

ويمكننا أن نأتي بافتراضات معقولة عن الأمكنة التي صدرت عنها تلك الهجرة فنقول: إن أولئك المهاجرين لم يأتوا من الجنوب الذي لا يرى فيه غير الزوج، ولا من الشمال الذي لم يكن إلا بحرًا خَضَمًا لم يفكر الأقدمون في عبوره، وإنما جاء أولئك المهاجرون من الشرق، أي من آسية، مارين من الأرض الضيقة التي تصلها بإفريقية، أو جاءوا من الغرب، أي من مضيق جبل طارق.

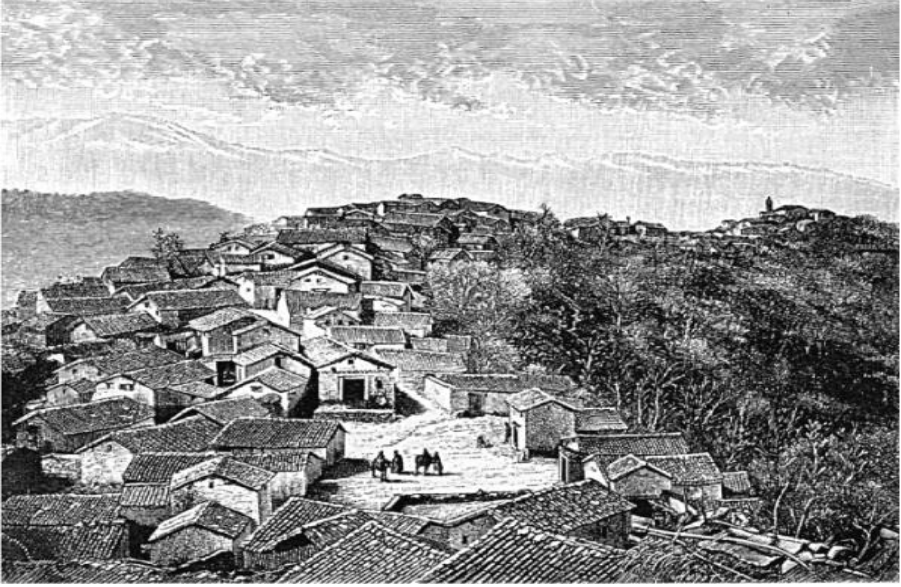
والحق أن المهاجرين السود الشعور أتوا من شواطئ الفرات ومن شمال جزيرة العرب، أو من مكان أبعد منها على ما يحتمل، وأن المهاجرين الشقر الشعور الزرق العيون أتوا من شمال أوربة، ولا ريب في مجيء هؤلاء من شمال أوربة مارين، على الأرجح، من أقصى طرفٍ غربي بإفريقية، وذلك بدليل ما بين آثارهم الحجرية في إفريقية وما بين الآثار الحجرية التي اكتُشِفَتْ في شمال أوربة من المطابقة التي لا ترى مثلها عند مقايسة تلك الآثار بآثار الوندال الذين أوْغَلُوا في إفريقية بعد الميلاد بزمن طويل.

وهناك بعض الأدلة على هجرة شُقر الشعور إلى إفريقية، ففي مصر من المباني التي أُقيمت منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، أو خمسة عشر قرنًا، قبل الميلاد ما رُسمت عليه صور إفريقيين شقر الشعور زرق العيون، وأخبر الجغرافي سلاكس في رحلته التي قام بها في أطراف البحر المتوسط قبل الميلاد بقرنين بوجود شعب من شُقر الشعور قاطنٍ في الولاية التي تُعرف اليوم بتونس، وعدد هؤلاء قليل في الوقت الحاضر، وتراهم الآن شراذم مبعثرة في إفريقية، وترى منهم أشخاصًا بين الطوارق في الصحراء.



شكل ٥-١: منظر تونس (من صورة فوتوغرافية).

وتفوق سُود الشعور على شقر الشعور يدل على أهمية تلك الهجرة من آسية وتغلبها. ودَحَر العرب البربر من الشواطئ، وكان البربر يقطنون قبل ذلك فيما بين البحر المتوسط وبلاد السودان من البقاع الواسعة، وتمازج سكان الجنوب من البربر والزنوج، فنشأت عن ذلك أمثلة من البربر مختلفة يراها من يطوف في مُدن إفريقية، ولا سيما مدن مراكش. ويقسّم العرق البربري من الناحية السياسية إلى عدة فروع لعرق واحد، ومن هذه الفروع القبائل في الجزائر، والطوارق في الصحراء، والشلوح في مراكش. ونقول، مع ما نجد من صعوبة في وصف البربر وصفًا دقيقًا من الناحية الإثنوغرافية: إذا بحثت عن البربر الحُلَص وجدتهم يسكنون الجبال الوعرّة، وأما في المدن وفي المناطق القريبة من الساحل فقد تَحَوَّلوا بفعل توالدهم هم والرومان والأغارقة والوندال وغيرهم، ولا سيما العرب الذين عادلوهم في بعض الأزمان كما نُيِّن ذلك عما قليل.



شكل ٥-٢: قرية بربرية في الجزائر (من صورة فوتوغرافية التقطها جايزر).

ويصعب على الباحث، إذن، أن يبصر المثلال البربري الخالص بعد ذلك التوالد، ونقترب من الصواب إذا قلنا إن المثلال الذي نراه غالبًا بين البربر يختلف عن المثلال العربي بشخه وثقله ووجهه المسطّح العريض الوجنتين الضيق في أسفله، وبشفتيه الغليظتين وأنفه القصير مع قليل فطسٍ وغالب خنس^{٨٢} وبعينه الصغيرتين الدجّتاوين وبسواد شعره، وهذا إلى أنني شاهدت من أمثلة البربر ما يصعب تمييزه من المثلال العربي بسبب ما حدث بين الجيلين من التوالد لا ريب، وذلك كما ذكرتُ.

وللبربر لغة عريقة في القِدَم يحتمل أن تكون مشتقة من الفينيقية، وبهذه اللغة حرّض جوغورته جنوده على ماريوس، وبها تكلم الجيتول.

وإذا استثنينا ما يُسمع في إفريقية الشمالية من اللغات الأوربية علمت أن العربية والبربرية هما اللغتان اللتان يتكلم بهما سكان إفريقية الشمالية، ولكن اللغة العربية هي الأوسع

^{٨٢} الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع في الأرنبة.

انتشارًا، ولا يتكلم أحدٌ بالبربرية في غير الجبال أو البقاع البعيدة جدًا من المدن، وللبربرية لهجاتٌ كثيرةٌ مختلفة فيما بينها اختلاف ما بين الفرنسية والإسبانية أو بينهما وبين الإيطالية، وتعرّبت البربرية، كما تعرّب البربر أنفسهم، نتيجةً لاتصالها باللغة العربية، ويتألف نحو ثلث البربرية التي يتكلم بها سكان منطقة القبائل الكبرى من كلماتٍ عربية، وأمر طريف مثل هذا يثبت لنا مرة أخرى مقدار تأثير العرب العظيم الذي لم يُكتب مثله لأية أمة أخرى، ومن هذه الأمم اليونان والرومان الذين دام سلطانهم في شمال إفريقيا دوام سلطان العرب من غير أن يتفق للغتهم أي أثر في اللغة البربرية.

ويقطنُ أهل الحضرة من البربر بقُرى تقوم في أعالي الجبال على العموم، ويختلف منظرها قليلًا عن منظر القُرى الأوربية، والبربر صُبرٌ على العمل الشاق فلا يرتدون عنه، ويشيرون ما يملكون من الأراضي الضعيفة بجِدٍّ ونشاط، ويكتفون بما يُمسك الرِّمَق لاحتياجاتهم القليلة، وهم ذوو استعداد صناعي يكفي لصنع ما يحتاجون إليه من مختلف الأدوات والنسائج والأسلحة والحلي... إلخ، وهم يرسلون إلى الخارج ما يزيد من مصنوعاتهم، ورأيْتُ بين ما يصنعون من الحلي ما لا يقل دقةً عما تراه في مخازن أكثر الصاغة الباريسيين أُنَاقَةً.^{٨٣}

ولدراسة طبائع البربر المعروفين بالقبائل وعاداتهم التي ثبَّتت مع تعاقب الفاتحين أهمية خاصة: تشتمل كلُّ قرية بربرية على أُسرٍ كثيرة مؤلفة من أناس منحدرين من أصل واحد، ومن أناس انضموا إليهم بالولاء، وتعد كل واحدة من تلك الأسر وحدةً سياسية شرعية قادرة على التملك والبيع والشراء.

^{٨٣} رأيت في مجموعة المصنوعات التي أحضرها مسيو دوويفالفي من آسية الوسطى أشياء مماثلة لما يصنعه البربر المعروفون بالقبائل، فمن المحتمل أن تكون قد اقتبست حين كانت بلاد الهند ذات صلات بإفريقية أيام دولة العرب.

وتتألف القبيلة من اجتماع عدّة قُرى، والقرية، لا القبيلة، هي عنوان الوَحْدَة السياسية البربرية خلافاً لما هو عند العرب، والقرية البربرية هي جمهوريةٌ صغيرة مستقلة يدير شؤونها رئيسٌ منتخب يُسمونه الأمين، وأهم وظائف هذا الأمين أن يرأس جمعية البالغين من أهل قريته، وتتمتع هذه الجمعية بالسلطة الاشتراعية والسلطة القضائية وتقرر شؤون السلم والحرب، وسلطة أمين القرية مقيدة جداً، والوكيل هو الذي يرقّبه، والوكيل هو الذي يشكوه إلى تلك الجمعية إذا أتى عملاً يستحق اللوم والتعنيف، ومن ذلك ترى أن الاستقلال البلديّ الذي يحلم به بعض الاشتراكيين تأمّ عند البربر الذين حرّموا بسببه تأليف أمةٍ في كل زمن.

والامتلاك أمرٌ فرديٌّ عند البربر، ولكن للأسرة البربرية وللقرية البربرية أملاكهما المماثلة لأملاك بلدياتنا، والأسرة البربرية هي الوارثة حين لا يكون للمورث ورثة أو حين يكون ورثته بعيدين.

وقانون العقوبات عند البربر بسيط، وعقوبات البربر فاضحةٌ على الخصوص، ولا يعرف البربر أمر السجن، وتندر عندهم الجرائم، ولا سيما السرقة، ويعيش البربري في غير معزل عن عشيرته؛ فيخشى مَغَبّة الإجماع، ويؤرى للرأي العام سلطان عظيم في تلك الجمهوريات البربرية المِكرسكوبية التي يُعرف فيها كل واحد من أفرادها.



شكل ٥-٣: بربري من الجزائر (من صورة فوتوغرافية).

ويدين البربر في الوقت الحاضر بالإسلام مع فتور، وكان البربر قبل الفتح العربي يعبدون آلهة قرطاجة كـ «عُرْزِيل ومَسْتِيمَان» وغيرهما من الآلهة القُساة، وروى تِرْتُولْيَان أن البربر كانوا يُضْحُون ببعض الأولاد تقريبًا إلى إله الزمن كيوان؛ وكانوا يعبدون النار أيضًا، وانتحل النصرانية كثيرٌ من قبائل البربر المجاورة للمستعمرات اليونانية أيام الحكم المسيحي.

ويقتصر البربري على زوجة واحدة، ولا تتمتع المرأة البربرية بأكثر مما تتمتع به الأوربيات من الحقوق، وإن كانت في وصاية أقل مما هن فيه. والمرأة البربرية على جانب كبير من الحمية، وهي تحارب بجانب زوجها أحيانًا، وخَلَدَ أُوْمِيرُس ذكرها حين تغنى بخبر تلك الملكة والنسوة المترجّلات اللائي فَتَحْنَ بلاد لوبية وبعض آسية الصغرى.



شكل ٥-٤ : امرأة بربرية تصنع الكسكسو (من صورة فوتوغرافية).

ومن النساء البربريات من جَلَسْنَ على عرش المَلِك، ويدل هذا الأمر، الذي يَنفَر منه العرب كثيرًا، على تباينهما في النظر إلى بعض الشؤون.

ولقي العرب الأمرين في دور فتوحهم، وذلك من مقاومة الملكة البربرية الكاهنة التي أَلَفَتْ بين كثير من قبائل البربر، وتسَلَّمَت القيادة، وقاتلت العرب، وكُتِبَ لها النصر في المعركة الأولى وهزمت العرب، واستولت على جميع شمال إفريقيا، ولما عاود العرب الكُرة بجيش عَرَمَرَم عزمت الكاهنة على تخريب البلاد؛ لمنعهم من فتحها ثانية، فهدمت جميع القرى التي كانت بين طرابلس الغرب وطنجة، وكاد مصير شعب هذه السيدة، التي أَلَقَت الرعب في قلوب العرب والروم، يكون غيرَ ما حدث لو لم تُقْتَل في إحدى المعارك.

وانتهى العلماء الذين بحثوا في أمر البربر إلى نتائج متناقضة كثيرًا، ويمكن توفيق ما بين هذه النتائج المتناقضة عند تدبُّر ما قلناه عن أخلاق العرب التي تختلف باختلاف طُرُق حياتهم، فما قلناه عن العرب يصح أن يقال عن البربر الذين تباينت فروعهم فتباينت طبائعهم، وصار ما يقال عن الطوارق البدويين النَّهَّايين الغدارين لا يقال مثله عن سكان الجبال من البربر.

وقد تعد روح البربر قريَّةً جدًّا من روح العرب على أن يقاس حضريو أولئك وبدويوهم بحضريي هؤلاء وبدوييهم.



شكل ٥-٥: أحد أبواب مسجد سيدي عقبة في القيروان (من صورة فوتوغرافية). ولطرق الحياة تأثير كبير في أخلاق جميع الأمم، فإذا تماثلت طرق حياة الأمم تماثلت هذه الأمم في التفكير والسير في الغالب.

والبربري الحضري، كالعربي الحضري، جَلَدٌ على العمل صبور حازم ماهر، والبربري البدوي، كالعربي البدوي، طليقٌ محراب قنوع خفيف طَوَّاقٌ للمَشَاقِّ خَتَّارٌ للأعداء، ولا يختلف البربري عن العربي إلا في أنه أقلُّ من العربي ذكاءً وأشدُّ منه حقداً وطغياناً.

وتجلى غدر البربر منذ أوائل الفتح العربي، فلما سأل الخليفة في دمشق فاتح إسبانية موسى بن نصير عن البربر، أجابه بقوله: «هم أشبه العجم بالعرب لقاءً ونجدةً وصبراً وفروسيةً، غير أنهم أغدرُ الناس، ولا وفاء لهم ولا عهد.»

واشتهر البربرُ قبل الفتح العربي بطويل زمنٍ بأنهم ممن لا يوثق بكلامهم، وقد كان عددهم كبيراً في جيوش قرطاجة، فأوجبوا اشتهاً الحروب اليونانية بسوء السمعة لا ريب.

ولم يكن تقسيم البربر إلى أهل بدو وأهل حضر أقلَّ أهميةً من تقسيم العرب إلى مثل هذا كما يُرى، وإلى هذا انتبه ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي فقال: «هذا الجيل من الأدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البسائط والجبال من ثُلُوه وأريافه وضواحيه وأمصاره، ويتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخُوص والشجر ومن الشعر والوبر، ويظعن أهل العزِّ منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قُرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار المُلس، ومكاسبهم الشاء والبقر، والخيل في الغالب للركوب والتتاع، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النُّجعة منهم، شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفَلَح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والإظعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة.»

وظهر مما تقدم خطأ كثير من المؤلفين المعاصرين الذين رأوا أن يُفرِّقوا بين العرب والبربر، فزعموا أن البربر أهل حَصَرٍ وزراعة وأن العرب أهل بدو، وانتهوا إلى قولهم: إن البربر أهل للتمدن، وإن العرب غير أهل له؛ وذلك عندما تكلموا عن سكان بلاد الجزائر.

ولكن نتيجةً مثل هذه تقوم على أساس باطل، وذلك أن العرب والبربر أهل حضر وأهل بدو على سواء، وأن هذين الطرازين يصدران عن البيئة التي يكونون فيها بالحقيقة، فترى العربي حضرياً دائماً في البقاع الخصيبة من جزيرة العرب ومصر والجزائر، وتراه بدوياً، وبدوياً دائماً، في الصحاري الرملية من تلك الأقطار.



شكل ٥-٦: مئذنة مسجد سيدي عقبة الكبير في القيروان (من صورة فوتوغرافية).
ومن يسكن الصحراء الكبرى من عرب أو بربر أو من أية أمة أخرى لا يكون إلا بدوياً، ومن ذلك أنك تبصر الطوارق الذين هم بربر خُلص من النوميديين عريقين في البداوة، فيقوم معاشهم على الحرب والسلب والنهب خاصة، كأعراب جزيرة العرب، وأنت تُبصر البربر من سكان الجبال، التي تتعذر معيشة أهل البدو فيها، بينون البيوت ويزاولون أمور الزراعة.

وذلك هو شأن البربر قبل فتح العرب لإفريقية وبعده، ويتعذر حمل بدويهم، الذين تأصلت فيهم البداوة بفعل القرون حتى صارت فيهم طبيعة ثانية، على الحضارة والاستقرار ومزاولة الزراعة كما يتعذر منع كلب الصيد من تعقب الطرائد، وقد يتم ذلك، ولكن بعد قرون، لا في يوم واحد.

وإذا ما قيس البربر الحضريون بالعرب الحضريين لم يُرَ ما يُسوِّغ الادعاء بأن البربر أكثر استعداداً للتمدن من العرب، وعكس ذلك ما تثبتته حوادث التاريخ، فلقد بلغ العرب، لا البربر، درجة رفيعة من الحضارة.

وأرى العرب والبربر غير مستعدين في الوقت الحاضر، لهضم طرق حياة الأوربيين ومشاعرهم ونظرهم إلى الأمور، وذلك أن الحضارة عند أكثر الأوربيين هي قضاؤهم لمعظم أوقاتهم، وإن شئت فقل عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة، في المعامل أو المكاتب أو الحقول؛ لنيل عيشهم اليومي على أن يستأنفوا العمل في الغد، وأن عيشاً مثل هذا مما لا يرضاه العربي والبربري اللذان ليس لدهما من الاحتياجات المصنوعة ما عند الأوربي، واللذان يأيان أن يكون لهما مثل تلك الاحتياجات.

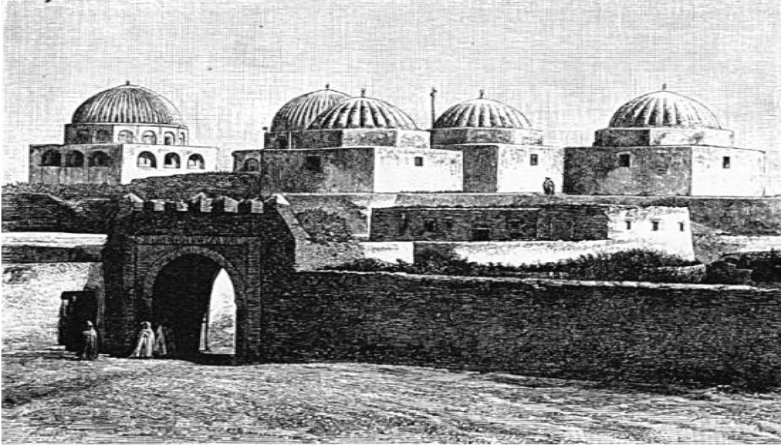
والأوربي في نظر العربي أو البربري سيد يعانيه ما ظلّ مغلوباً على أمره، فإذا سنحت الفرصة للتحرر منه لم يُحجم عن اهتبالها.

(٢) استقرار العرب بإفريقية

لاقى العرب في فتح إفريقية من المصاعب ما لم يلاقوه في فتح مصر، ولم يستقرّ أمرهم بها إلا ببطء شديد، أي أن البربر لم يتوانوا عن مقاتلة العرب، وإنهم استردوا استقلالهم غير مرة.

وخضعت إفريقية الشمالية للوندال، الذين أتوا من إسبانية، أكثر من مائة سنة (٤٢٩م- ٥٤٥م) بعد أن خضعت للرومان عدّة قرون، ثم طردهم منها جيش جوستينيان الذي أرسله بقيادة بيليزير، ثم استولى قوط إسبانية عليها، وكان القوط مالكين لبعضها حين ظهور العرب على مسرح التاريخ.

ويُحيطُ بتاريخ ولايات إفريقية شيءٌ من الغموض أيام الفتح العربي، ونعلمُ مع ذلك، أن إفريقية كانت على شيء من الطمأنينة والهدوء وقتما أراد القيصر هرقل أن يمنع تقدم العرب، فكان هذا القيصر يفكر في السفر بحرًا إلى قرطاجة؛ ليتخذها عاصمةً له بدلًا من القسطنطينية التي كانت تأكلها الفتن.



شكل ٥-٧: مسجد القيروان القديم (من صورة فوتوغرافية).

ولم يكن سكّون إفريقية غير مؤقت، والواقع أن إفريقية كانت ميدانًا لمختلف المذاهب الدينية التي تقيمها وتقعدها فضلًا عن غزو الأجنبي.

نعم، أصبحت إفريقية نصرانية كمصر، ولكن انتحاليًا للنصرانية لم يتمّ إلا بعد أن أريقَت سيولُ من الدماء، وذلك أن قسطنطين، لما جلس على العرش، رأى تلك المذاهب الدينية سبب كل اضطراب وهيجان فلم يرَ غير قهرها بالأسنة والسيوف.

وأنشأ الرومان والبيزنطيون مدناً مهمة في إفريقية، وزيّنوها بمختلف المباني التي لا تزال خرائبها باقية، وكان نفوذهم محلياً، ولم يعد هذا النفوذ حدود المدن، فبدّوا فاتحين لإفريقية أكثر من أن يكونوا مستعمرين لها.

وكانت مقاومة الروم للعرب في شمال إفريقية ضعيفةً كما في مصر، ولولا البربر لتمّ للعرب فتحها بسرعة، ونشأ عن استبسال البربر في مقاومة العرب أن اضطر العرب إلى خوض خمس معارك هائلة، وقعت في نحو نصف قرن؛ ليكونوا سادة شمال إفريقية. وكانت غزوة العرب الأولى في السنة الثالثة والعشرين من الهجرة (٦٤٤م)، وكانت ولاية برقة القرية من مصر أول ما استولوا عليه، ثم فتحوا ولاية طرابلس الغرب، واستولوا على مدن كثيرة في سنة ٦٤٦م، ثم جَلّوا عن البلاد بعد أن أعطوا فديةً، ولم يظهروا ثانيةً إلا بعد عشرين سنة حينما امتشقوا الحُسام، وأوغلوا في البلاد حتى المحيط الأطلنطي.

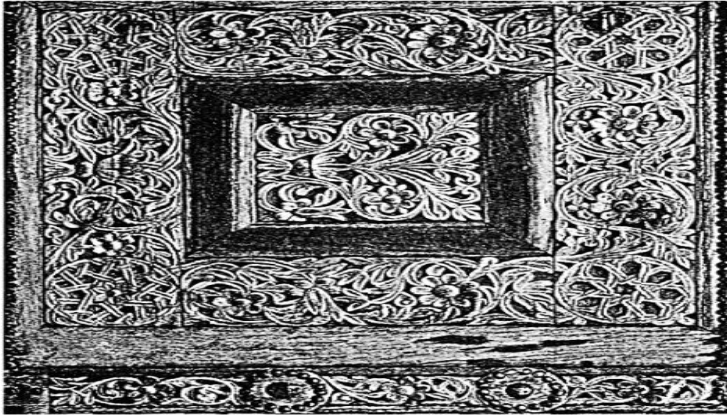


شكل ٥-٨: زخارف من القاشاني المطلي بالميناء في مسجد القيروان (من صورة فوتوغرافية).

وبنى العرب عاصمة إفريقية العربية القادمة، القيروان، في سنة ٦٧٥م، واستولوا على قرطاجة في سنة (٦٩١م / ٦٩هـ)، وهزموا الجيش الكبير الذي جمعه ملكة البربر الكاهنة لمقاتلتهم، وصار لهم في سنة ٧١١م من القوة ما فتحوا به بلاد إسبانية.

وكان يقوم بأمور الحكومة في إفريقية، حتى أوائل القرن التاسع من الميلاد، أمراء بالنيابة عن الخلفاء، فلما صار سلطان الخلفاء هنالك اسمياً منذ عهد هارون الرشيد، انفرد الأمراء بالحكم، واتخذوا القيروان عاصمة لهم.

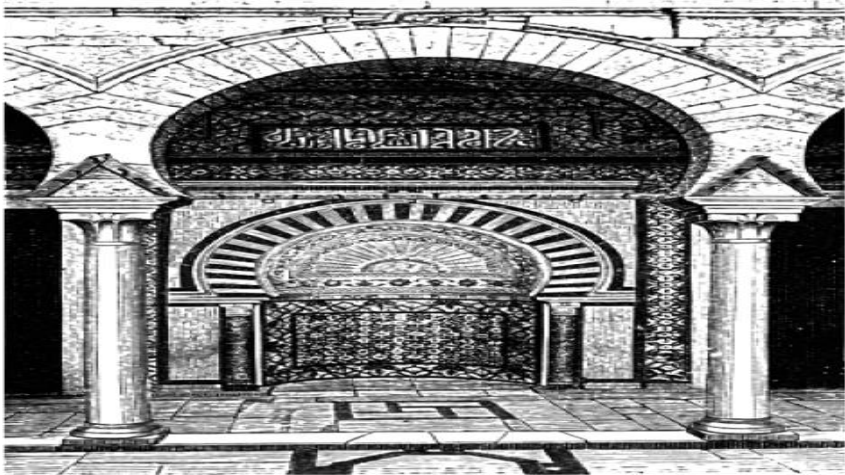
وتداول الحكم في إفريقية من سنة ٨٠٠م إلى سنة ٩٠٩م أحد عشر أميراً من الأغلبة متخذين القيروان عاصمةً لهم، وكان همُّ هؤلاء الأغلبة مصروفًا إلى مزج العرب بالبربر؛ فتمتعت إفريقية في أيامهم بطمأنينة عظيمة، ثم قلب البربر دولتهم، ونصبوا أميراً فاطمياً من أصل بربري خليفةً، فغدت إفريقية مستقلةً عن العباسيين الذين لم تكن إفريقية تابعة لهم إلا بالاسم منذ زمن طويل.



شكل ٥-٩: خشب محفور في مسجد القيروان (من صورة فوتوغرافية).

وقامت بأمور إفريقية دولٌ بربرية مستقلة حتى الفتح التركي الذي وقع في القرن السادس عشر من الميلاد، ولم يلبث ذلك الاستقلال البربري أن صار شؤماً على إفريقية، فقد انقسم

البربر إلى زُمرٍ لا تحصى تبعًا لغريزتهم التي كانت تمنعهم من تأليف أمة كبيرة، وقامت في إفريقية دويلات كثيرة مستقلة متقاتلة قيامًا لم تَرَ إفريقية معه سوى بصيصٍ من الحضارة. ولا يمكننا أن نُقدّر طبيعة تأثير العرب في إفريقية إلا إذا تذكرنا أن لفتوحهم دورين مختلفين كل الاختلاف، وأن لهذين الدورين نتائج إثنوغرافية مختلفة كثيرًا. والدور الأول هو دور الفتوح الأولى التي تمت في القرن السابع من الميلاد، ولم تخرج عن كونها احتلالًا عسكريًا محدودًا جدًا. ولو اقتصر العرب في إفريقية على ذلك الاحتلال؛ لاستغرقتهم جموع البربر في بضعة أجيال كما حدث لهم في مصر، ولكان أثرهم في التمدن لا في الدم. بيد أنه كان للغارة العظيمة الجديدة التي شنّها العرب شأنٌ آخر، فلما حشر العرب جموعًا كثيرة في إفريقية حوّلوا فريقًا كبيرًا من البربر إلى عرب. وتدفق العرب كالسيل على إفريقية في أواسط القرن الحادي عشر، أي في وقت كان البربر قد استردوا فيه استقلالهم تقريبًا، واستقروا بشهاها، ودحروا البربر إلى جبال التل وإلى البقاع الجنوبية.



شكل ١٠-٥: محراب مسجد سيدي الحبيب في القيروان (من صورة فوتوغرافية).

وقام بذلك الغزو أعرابُ الحجاز الذين كانوا يقطنون بمصر العليا في زمن الخلفاء الفاطميين، والذين بلغ ما قاموا به من أعمال السلب والنهب مبلغًا أصبحت الإقامة بها لا تطاق معه، فعزم الخليفة المستنصر على الخلاص منهم بحضهم على بربر إفريقية وإغرائهم بهم.

وكان الأمر غارة أمة، لا غارة عسكرية، فقد ظعن أولئك العرب رجالًا وأولادًا ونساءً وقطاعًا عن مصر، وروى بعض علماء العرب أن عدد الظاعنين كان مليونًا، وروى بعض آخر أن عددهم كان نحو ٢٥٠٠٠٠، والذي أراه أن الغارة الأولى لم تلبث أن ردفتها غارات كثيرة أخرى.

وتمت تلك الهجرة ببطء، ولم يملأ العرب شمال إفريقية إلا بالتدريج، فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنتين، وزحفوا خطوة خطوة، وولجوا في الأودية جماعات على مهل، واختلطوا بالسكان رويدًا رويدًا، وزاد عددهم شيئًا فشيئًا، وفرضوا، بفضل كثرتهم، على البربر عاداتهم ودينهم ولغتهم بعد بضعة أجيال، ولم يتركوا لأمراء البربر سوى سلطة وهمية، ولم يتفككت من نفوذهم غير القبائل التي دُحرت إلى جبال التلّ وبعض البقاع الجنوبية.

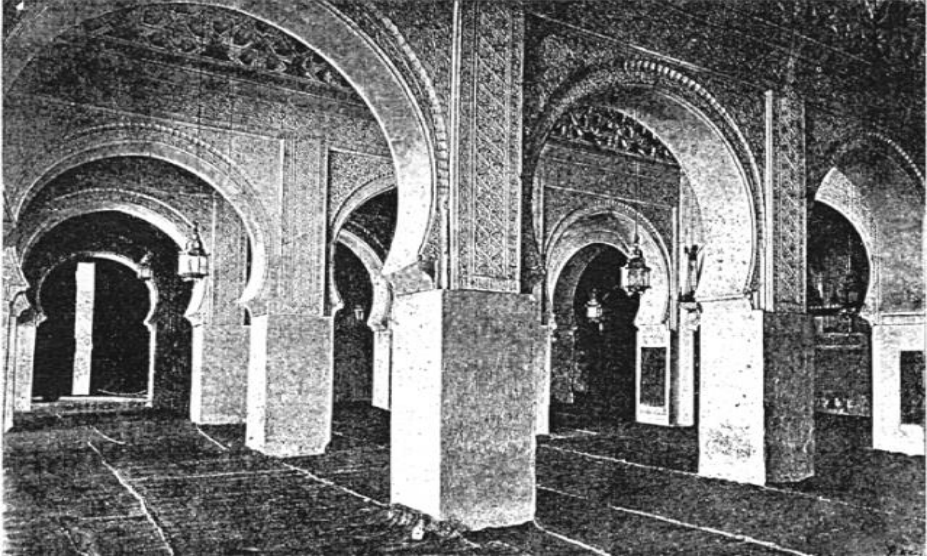
ولم تؤد تلك الغارات إلى نتائج مدنية عمرانية؛ ففي إفريقية حافظ أعراب جزيرة العرب أولئك على جلفهم الذي هو نقيض كل ثقافة جدية، وأخذت تلك الحضارة، التي كادت تلمع، تَدوي بسرعة.

ولم يؤد ما كان يقع بين القبائل من الفتن والفساد، وما كان يقع بين الدويلات المستقلة المتناظرة من القتال، إلى غير الانحطاط السريع، فلما ظهر الترك في القرن السادس عشر أمام الجزائر لم يصعب عليهم فتح شمال إفريقية بسرعة.

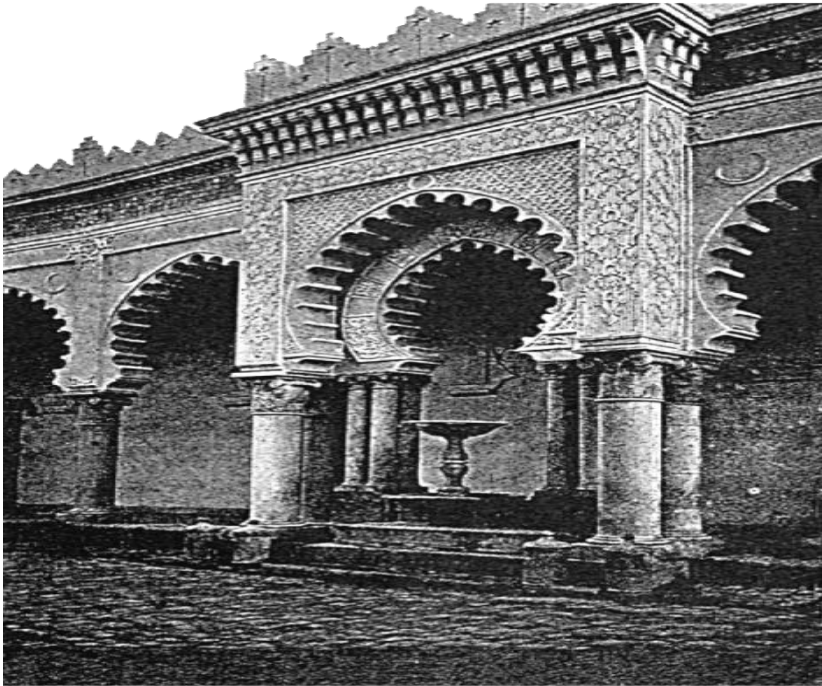
ومراكش وحدها هي التي حافظت على استقلالها العربي حتى الوقت الحاضر، ولكن مراكش لم تُصن نفسها من الانحطاط الذي عمّ جميع ولاياتها شيئاً فشيئاً، فقد أصاب الوهن مدينة فاس التي كانت منافسة لبغداد في القرن العاشر، والتي رَوَى مؤرخو العرب أن عدد نفوسها كان خمسمائة ألف، وأنها كانت تشتمل على ثمانمائة مسجد ومكتبة عامة زاخرة بالمخطوطات اليونانية واللاتينية، وأضحى سكان مراكش الذين قُدِّر عددهم الآن بستة ملايين شخص، أو سبعة ملايين شخص، من مولدي العرب والبربر والزنوج.

(٣) مباني العرب في شمال إفريقية

لم تُصِب حضارة العرب في إفريقية ما أصابته من الازدهار في مصر والأندلس، وكان للعرب في إفريقية، مع ذلك، مدناً مهمة وبعض مباني ذات قيمة، ولا سيما في زمن الأغالبة، وأنشأ العرب في إفريقية مدناً كالقيروان وتونس وفاس، وجَدَّدوا مدناً قديمة كَتِلْمِسَان وبجاية والجزائر... إلخ، ولم تكن نضارة تلك المدن غير مؤقتة، ولم يكن تنافس البربر وقلة استعدادهم للتمدن، وغارات أعراب العرب، وفقدان المراكز المهمة كبغداد في المشرق والقاهرة في مصر — مساعداً على تقدم الحضارة في إفريقية، ولا يتتظرنَّ القارئ، إذن، بياناً عن مباني عربية مبتكرة ثمينة في إفريقية الشمالية كالتى في الأندلس ومصر، وسيرى القارئ في الفصل الذي خصصناه للبحث في تاريخ فنِّ العمارة العربي أن عرب إفريقية لم يُوفَّقوا في فنههم للتحرر من النفوذ البزنطي.



شكل ٥-١١: داخل مسجد سيدي أبي مدين في تلمسان (من صورة فوتوغرافية).



شكل ٥-١٢: مقدم الجامع الكبير في الجزائر.

والآن نكتفي بذكر أهم مباني العرب الأثرية مختارين من مبانيهم الدينية ما سمح الدهر ببقائه في شمال إفريقية كما صنعناه سابقاً.

(١-٣) جامع القيروان

أنشأ فاتح إفريقية الشهير عقبة بن نافع مدينة القيروان، وبَنَى فيها، في سنة (٥٥٥ هـ / ٦٧٥ م) جامعها الكبير المربع الذي جُدِّد بناؤه عدة مرات فيما بعد، ولا سيما في سنة (٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م) والذي تعلوه قبابٌ منخفضة، ويحيط به سورٌ، وتُشرف عليه مئذنة كبيرة مربعة عريضة القاعدة ذات ثلاث طبقات متفاوتة الاتساع، وذاع طراز هذه المئذنة المربعة في إفريقية الشمالية، وكان شائعاً في الأندلس على الأرجح.

ولجامع القيروان الكبير وآثارها الدينية الأخرى قيمة أثرية كبيرة مع ما نالته من التجديد والترميم غير مرة كما نذكر ذلك في فصل آخر، ولم تُنشر صور هذه المباني، التي لم يَزُرْها الأوربيون إلا في الزمن الأخير، في أي كتاب حتى الآن.

ودُفِن عقبة بن نافع، الذي أنشأ القيروان، بالقرب من بركة، ويُعدُّ مسجد «سيدي عقبة» الذي يَضُمُّ قبره، أقدم المباني الإسلامية في إفريقية، ولهذا المسجد مئذنة مربعة.

(٢-٣) مسجد سيدي أبي مَدِين في تَلَمَّسان

كانت تَلَمَّسان عاصمة المغرب الأوسط فيما مضى، وبُنِيَ مسجدها في سنة (٧٣٩ هـ / ١٣٨٨ م) وتم إنشاء المدرسة التابعة لهذا المسجد في سنة ٧٤٧ هـ وتُعدُّ هذه المدرسة من أهم المباني التي من نوعها في إفريقية حتى الآن، وكانت تُدرَّس العلوم والتاريخ فيها أيام ارتقاء العرب، ويمكن القارئ أن يتمثَّل فنَّ عمارتها من الصورة التي نشرناها في هذا الكتاب.

(٣-٣) مساجد الجزائر

تكاد مساجد الجزائر تكون عصرية، ولذا فليس فيها ما يستحق البحث، وأهم ما فيها مسجدها الجامع الكبير الذي أقيم في القرن العاشر من الميلاد، والذي أصابته يدُ التغيير في مختلف الأزمنة، فبُنيت مثذنته المربعة في القرن الرابع عشر من الميلاد.



شكل ٥-١٣: مثذنة المسجد الكبير في طنجة (من صورة فوتوغرافية).
وليس في داخل هذا المسجد الجامع الكبير الذي كُلس في الوقت الحاضر شيءٌ من الزينة، وتقوم أقواسه التي يستند إليها سقفه على أعمدة مربعة، وأنشئت هذه الأقواس المفرض كثيرٌ منها على شكل نعل الفرس ورسم البيكارين.
ويحيط بأحد وجوه هذا المسجد الجامع الكبير رواقٌ جميلٌ مؤلفٌ من أقواس محززة، وصُنعت هذه الأقواس على شكل نعل الفرس، ورسم البيكارين كالأقواس السابقة، وتقوم هذه الأقواس على أعمدة من الرخام؛ وذكرونا ذلك الرواق، الذي أقيم بعد بناء ذلك المسجد الجامع بزمان طويل، بأعمدة رواقات القصر الداخلية في أشبيلية.
وإذا ما استثنينا ذلك المسجد الجامع لم تَرَ في الجزائر من المباني ما يجدر ذكره سوى المزار الذي يضمُّ رُفات عبد الرحمن والمسمى باسمه، والذي بُني في القرن الخامس عشر من غير أن يكون على شيء من الإبداع مع هيّقه.

(٣-٤) مساجد مراکش

يرى الإنسان في مراکش مساجد جميلة كثيرة، ولا سيما مسجد مولاي إدريس ومسجد القرويين في فاس، ولهذا المسجد شهرة عظيمة في تلك الديار، وهو يشتمل على ٢٧٠ عمودًا و١٦ صحنًا، ويشتمل كل واحد من هذه الصحنون على عشرين قوسًا، ولا يستطيع الأوربي أن يدخله من غير أن يُعرّض نفسه للقتل.

وأقيم أكثر مساجد مراکش على طراز مساجد إفريقية الشمالية، وهي مثلها ذات مآذن مربعة يُندّر نظيرها في مصر، وعلى هذا الطراز رُفعت في طنجة مئذنة الجامع الكبير، والتي ننشر صورة لها في هذا الكتاب؛ فيمكن القارئ أن يتمثل بها ما أقيم على طرازها.



شكل ٥-١٤: منظر مدينة طنجة العام (من صورة فوتوغرافية).

ولا يُرى في مراکش من المباني العربية المهمة سوى عدد قليل من المساجد، وإنما يُرى فيها من العادات والأزياء والمظاهر الشرقية ما يندر مثله في بلد آخر، ويجب على من يرغب في اجتلاء حياة العرب في عصر الخلفاء أن يزورها؛ ففيها يرى السائح ما لا يراه في بلاد الجزائر وسورية المائلة إلى التفرنج خلا دمشق.

وإنني أنصح لرجال الفن أن يطوفوا في بلاد مراكش التي لا تَصْغُبُ السياحة فيها، والسائح المحب للفن الذي يقلُّه القطار فيقطع فرنسة وإسبانية في بضعة أيام، ثم تستقلُّه الباخرة من مَالَقَة يصل إلى مدينة جبل طارق الإنكليزية الغبراء الكالحة، ولا يأسف لُبْعْد إنكلترة من هنالك؛ لما يراه بعد رحلة بحرية تدوم بضع ساعات من الفرق في مدينة طنجة المراكشية حيث يقضي العجب.

حقاً إن مدينة جبل طارق عنوان الحياة المدنية العصرية، وإن مدينة طنجة ذات المساكن البيض والأهلين البُلُق^{٨٤} والحكام الحَزَمَة عنوانُ الحياة العربية منذ ألف سنة، وتثير مناظرُ مساجد مدينة طنجة العجيبة ومآذنها وأبراجها المشرفة، وأسواق نخاستها ونسائها المتحجبات وعربها المدَّثرين بأبهى الملابس في السائح بعض ما جاء في رواية ألف ليلة وليلة كما لو وَقَعَ هذا بقدرة ساحر، وتتجلى للسائح حقيقة تلك الرواية كلما سار في مدينة طنجة القديمة التي تقول الأساطير: إن هِرْكُول بانيها، فكانت شهيرةً في عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد، أي في عهد هذا المعاصر الشهير للقيصر شارلمان الكبير.

^{٨٤} الأبلق: من كان في لونه بياض وسواد.

الفصل السادس العرب في إسبانية

(١) إسبانية قبل العرب

فكر العرب في فتح إسبانية بعد أن طردوا الروم من شمال إفريقيا، وردّوا جِماح البربر، وتمّ لهم، بصعوبة، فتح الأقطار الإفريقية التي كانت مسرحاً لحروب رومة وقرطاجة ولمغازي ماسينيسه وجوغورته ... وغيرهما من القادة المشهورين.

ولم يكن حب التوسع وحده هو الذي حفّز العرب، الذين ترامت أطراف دولتهم، إلى فتح إسبانية، وإنما دفعهم إلى ذلك رغبتهم في إلهاء البربر الذين كانوا أشدّ من حارهم العرب من الأعداء، والذين ظلوا مرهوبين؛ لشجاعتهم، وميلهم إلى الاستقلال، وحبهم للقتال على الرغم من قهر العرب لهم، فكان من السياسة الرشيدة إرواء غرائزهم الحربية في الغارة على البلدان الأجنبية.

وروى ابن خلدون أن الجيش الأول الذي عبر مضيق جبل طارق، ودخل بلاد إسبانية كان مؤلفاً من اثني عشر ألف مقاتل، وأن هذا الجيش كان من البربر تقريباً. ونرى قبل أن نقصّ خبر ذلك الفتح الإسلامي، أن نُوجِز تاريخ إسبانية قبله؛ ففي ماضي الأمم سرّ حوادثها الحاضرة، وبماضي إسبانية يُفسر سبب السرعة في فتح أتباع الرسول لها.

كان للفنيقيين والأغارقة والقرطاجيين مستعمرات في إسبانية التي يسكنها السّلت الغوليون، ومن لم يُعلّم أصلهم جيداً من الإيبيريين والليغوريين، وأنشأ القرطاجيون مدينة قرطاجنة في إسبانية بعد أن فتحوها؛ لتكون تابعة لقرطاجة، ثم فتح الرومان بلاد إسبانية على أثر الحروب اليونانية، وذلك قبل الميلاد بقرنين.

وملك الرومان بلاد إسبانية حتى القرن الخامس من الميلاد، وازدهرت مدُنٌ فيها أيام حكمهم، ووهبت لرومة رجالًا مشهورين مثل سينيك ولوكن ومرسيال، ووهبت لها قياصرةً مثل تراجان وأدريان ومرك أوريل وثيودوز... إلخ. وكان لإسبانية نصيبٌ من إدبار رومة بعد أن كان لها حظٌ من إقبالها، فقد انقض الوندال والألين والسويف الذين هم من برابرة الشمال على إسبانية بعد أن خربوا بلاد الغول، ولم يلبث القوط، الذين هم من البرابرة أيضًا، أن قهروهم، واستولوا على إسبانية في القرن السادس من الميلاد، وظلوا سادة لها تمامًا إلى أن جاء العرب.



شكل ٦-١: ذراعا صليب ذهبي قوطي طليطلي مرصع بالحجارة الثمينة (القرن السابع، من صورة فوتوغرافية).

ولسُرعان ما اختلط القوط البرابرةً باللاتين في إسبانية، فاتخذوا اللاتينية لغةً لهم، وانتحلوا النصرانية التي كانت دين الدولة الرسمي بدلًا من عبادة الأصنام، وخضعوا بذلك لسلطان الحضارة اللاتينية، وحاولوا كغيرهم من قاهري الدولة الرومانية أن يهضموها على قدر عقولهم.

وبقيت شريعة القوط دستورَ إسبانية النصرانية إلى منتصف القرن الثالث عشر، ودلت الحوادثُ على أنهم امتزجوا بالعنصر اللاتيني الذي كان مالكاً لقسم من البلاد، وتم اختلاطهم بنصارى الشمال بعد أن دحرهم المسلمون إلى جبال أشتورش، وظلَّ لقب «ابن

القوطي» من ألقاب الشرف حتى بعد أن استردوا إسبانية بزم من طويل، وعندى أن من مظاهر الدم القوطى ما نجد الآن فى إسبانية من أصحاب الشورى الشقر الكثرىن. وكان اختلاط القوط باللاتىن، قبل الفتح العربى، مقتصرًا على علية القوم، وكان سكان البلاد الأصلوىن من الأرقاء الذىن لىس لدهىم شىء ىدافعون عنه، والذىن كانوا مستعدىن لقبول أى سلطان علىهم، فلم ىكن الجىش المؤلف من أمثال هؤلاء مما ىعتمد علىه. ومن سوء حظ المملكة القوطىة أن كان النظام الملكى القوطى قائمًا على الانتخاب، وأن كان المرشحون للعرش كثرىن، فىقتل أنصار هؤلاء المرشحن على الدوام، وىمزقون باقتتالهم المملكة القوطىة، ولذا لم ىكن الأشراف ممن ىركن إلیهم. نزاعٌ اجتماعى، وفتن داخلية، وفقدان للروح العسكرىة، وفتور عن الدفاع بین الأهلىن المستعبدىن، هذه هى الحال التى كانت علیها مملكة القوط حىن ظهور العرب، وكان من المنافسات التى تمزق الدولة القوطىة أن سهّل الأمير یلیان ورئىس أساقفة أشبىلیة، وهما من علية الإسبان، فتح إسبانية على العرب.

(٢) استقرار العرب بإسبانية

دخل جىش إسلامى مؤلف من اثنى عشر ألف جندى بلاد إسبانية فى سنة ٧١١م، أى فى زمن الخلیفة العاشر الذى كانت دمشق عاصمته. ومن یقطع القسم الجنوبى الخصب من بلاد إسبانية یعلم مقدار التأثير الذى أثر به فى نفوس العرب حىنما استولوا علیه؛ فقد بهرتهم تربته وهواؤه ومُدنه ومبانیه. ووصفت إسبانية فى كتاب أرسله قائد الجىش العربى إلى الخلیفة الأموى بأنها: «شامیة فى طیبها وهوائها، یمنیة فى اعتدالها واستوائها، هندیة فى عطرها وذکائها، أهوازیه فى عظم جباياتها، صینیة فى معادن جواهرها، عدنیة فى منافع سواحلها.»

واستولى المسلمون على ساحل إسبانية مبتدئين بجبل طارق الذي اقتبس اسمه من اسم طارق بن زياد البربري الذي هو من رجال القائد العربي موسى بن نصير.

وكان العرب قد قَضَوْا خمسين سنة في فتح إفريقية البربرية، ولم يَقْضُوا سوى بضعة أشهر في فتح جميع إسبانية النصرانية، وتَقَرَّر مصير مملكة القوط في المعركة الأولى المهمة التي خاض المسلمون غمارها، والتي كان رئيس أساقفة أشيلية حليفاً لهم فيها، والتي خَسِر القوط فيها مُلْكَهُمْ وخسروا إسبانية.

وعَجِبَ موسى بن نصير من ذلك النصر السريع الذي لم يتوقعه، ولا غَرَوْ، فقد كان يتصور ما لاقاه من الشدائد في فتح إفريقية، وكان يعتقد أنه سَيَلْقَى في أوربة من الشجاعة وحب الاستقلال ما لقيه في البربر، فلما تَبَيَّن له خطؤه أراد أن يشارك طارق بن زياد في مجد الفتح؛ فعبر البحر بجيش مؤلَّف من اثني عشر ألف جندي عربي وثمانية آلاف جندي بربري؛ ليواصل فتح إسبانية.

أتمَّ العرب فتح إسبانية بسرعة مدهشة، وذلك أن المدن الكبيرة سارعت إلى فتح أبوابها للغزاة، فدخل الغزاة قرطبة ومالقة وغرناطة وطليطلة صلحاً تقريباً، ووجد العرب في طليطلة التي كانت عاصمة النصارى تيجانَ خمسة وعشرين ملكاً قوطياً، وأسروا أرملة للملك القوطي، رودريك، التي تزوجها ابن القائد موسى بن نصير فيما بعد.



شكل ٦-٢: داخل جامع قرطبة.

وأحسن العرب سياسة سكان إسبانية كما أحسنوا سياسة أهل سورية ومصر، فقد تركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم وحقّ المقاضاة إلى قضاة منهم، ولم يقرضوا سوى جزية سنوية تبلغ ديناراً (١٥ فرنكاً) عن كل شريف ونصف دينار عن كل مملوك، فرّضوا على سكان إسبانية بذلك طائعين، وخضعوا للعرب من غير مقاومة، ولم يبقَ على العرب إلا أن يقاتلوا الطبقة الأريستوقراطية المالكة للأرضين.

ولم يكد القتال طويلاً، وذلك أن العرب كسروا كلّ مقاومة، ودانت لهم جميع إسبانية في سنتين، ولكن لا إلى الأبد، فقد استرد النصارى ما خسروه بعد جهاد ثمانية قرون.

ويروى، مع التوكيد، أن موسى بن نصير فكّر، بعد فتح إسبانية، في العودة إلى سورية من بلاد الغول وألمانية، وفي الاستيلاء على القسطنطينية، وفي إخضاع العالم القديم لأحكام القرآن، وأنه لم يعقّه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إياه بأن يعود إلى دمشق،

فلو وفق موسى بن نصير لذلك؛ لجعل أوربة مسلمة، ولحقق للأمم المتمدنة وحدثها الدينية، ولأنقذ أوربة، على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه إسبانية بفضل العرب.

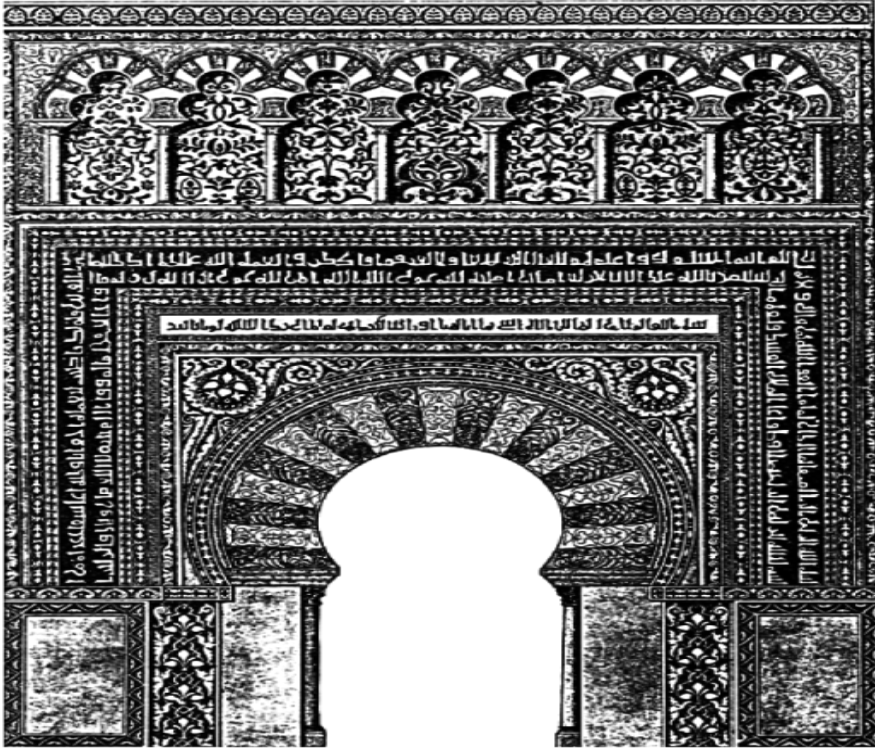
ولتتكلم، أولاً، عن امتزاج أهل البلاد بسادتهم الجدد قبل أن نقص عليك ماذا تم للعرب في إسبانية: كان أوائل الغزاة لإسبانية من العرب والبربر، وكان يوجد بضع قبائل سورية في الجيوش التي استولت عليها بعدئذ، ولم يكن عدد ما اشتملت عليه هذه القبائل كثيرًا، ولم يظهر أمرها إلا في دور الفتح الأول، فهاذا كان شأن العرب والبربر وأهل إسبانية بعد ما دانت إسبانية للعرب؟

يرى المحقق البصير في تاريخ المسلمين بإسبانية أن الإمامة الثقافية ورسالة التمدن كان يقوم بهما العرب، وأن البربر اختلطوا بطبقات الأهلين الوسطى والدنيا، وأن العرب حافظوا على شرفهم الثقافي حتى بعد أن قبض البربر على زمام الحكم.

وليس لدينا من الوثائق ما نتمكن به من تقدير نسبة العرب والبربر في مئات السنين الثماني التي دام فيها سلطان الإسلام بإسبانية، ولكن سير الأمور يدل على أن العنصر البربري أخذ يزيد بعد انفصال إسبانية عن خلافة المشرق، ولا سيما بعد توالي غارات بربر مراكش التي كانوا يشنونها عليها.

والحق أن العرب، بعد ذلك الانفصال، كانوا يعتمدون في بقائهم في إسبانية على تناسلهم، وأن البربر كانوا يزيدون فيها بمن يعبر جبل طارق من إخوانهم المراكشيين طلبًا للثراء.

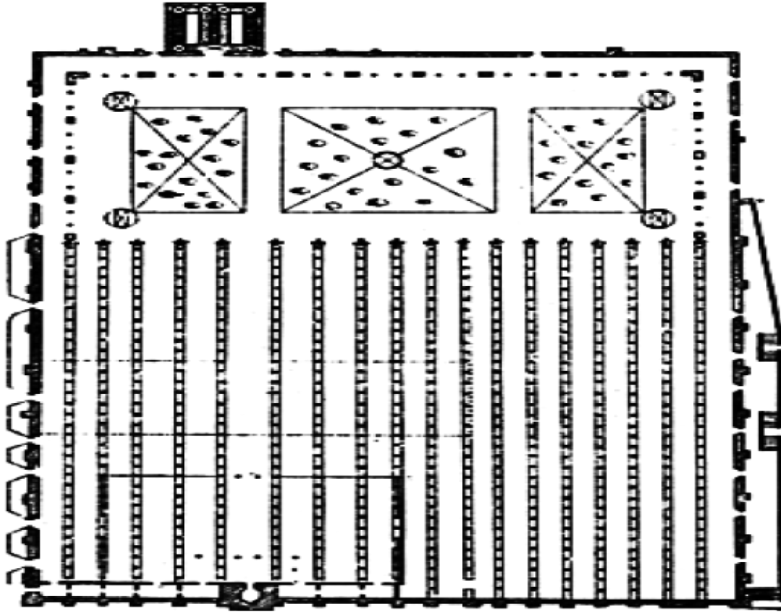
ويظهر أن التوالد لم يقتصر على العرب والبربر وحدهم، بل توالد العرب والبربر وسكان إسبانية الأصليون أيضًا، فكان العرب يتزوجون النصرانيات على الخصوص، فيُمِدُّون بذلك دوائر حريمهم ويديمون بذلك نسلهم.



شكل ٦-٣: محراب جامع قرطبة (من تصوير مورفي).

وروى مؤرخو العرب أن العرب تزوّجوا في بدء الفتح ثلاثين ألف نصرانية، ولا يزال يرى في قصر أشبيلية رَذَهَةٌ تُدعى ردهة الصبايا اللائي كان النصارى يُلزمون بتقديم مائة منهن إلى أحد ملوك العرب في كل سنة كجزية، فنحن إذا ما رأينا أن هؤلاء النصرانيات كنَّ من مختلف الأجناس، وأنه كان يجري في عروقهن الدم الإيبيري واللاتيني واليوناني والقوطي ... وغير ذلك، علمنا أنه نشأ عن توالد النصارى والبربر والعرب، الذي دام في بيئة واحدة قرونًا كثيرة، عِرْقٌ جديد مختلف عن العروق التي فتحت إسبانية اختلافًا بيّنًا، وأن العناصر الكثيرة التي أدى تمازجها إلى ظهور ذلك العِرْق كانت في أحوال تؤدّي إلى تكوينه تكوينًا مطابقًا لما ذكرناه في فصل سابق عن فعل البيئة والتوالد.

ولا أبحث هنا في تاريخ ملوك العرب أو البربر الذين ملكوا إسبانية ثمانمائة سنة، وإنما أوجز أهم الحوادث السياسية التي وقعت في تلك المدة الطويلة إيجازاً يكفي لفهم هذا الفصل: كانت إسبانية، التي تم فتحها في سنة ٧١١م، تابعة لخلفاء دمشق حتى سنة ٧٥٦م، وكان ينوب عن هؤلاء الخلفاء أمراء في شؤون حكمها، فلما كانت سنة ٧٥٦م انفصلت إسبانية عن خلافة المشرق، وقامت فيها دولة مستقلة عُرِفَتْ في التاريخ بخلافة قرطبة التي أصبحت عاصمة لها.



شكل ٦-٤: رسم جامع قرطبة (كما جاء في كتب العرب القديمة).

وأخذ نجم العرب السياسي في إسبانية يأفل بعد أن مضى على سلطانهم ثلاثة قرون بلغت الحضارة العربية فيها ذروتها، وشرع النصرانيون الذين دحرهم العرب إلى الشمال يستفيدون مما كان يقع بين المسلمين من الفساد والفتن، وصاروا يُغيرون عليهم.

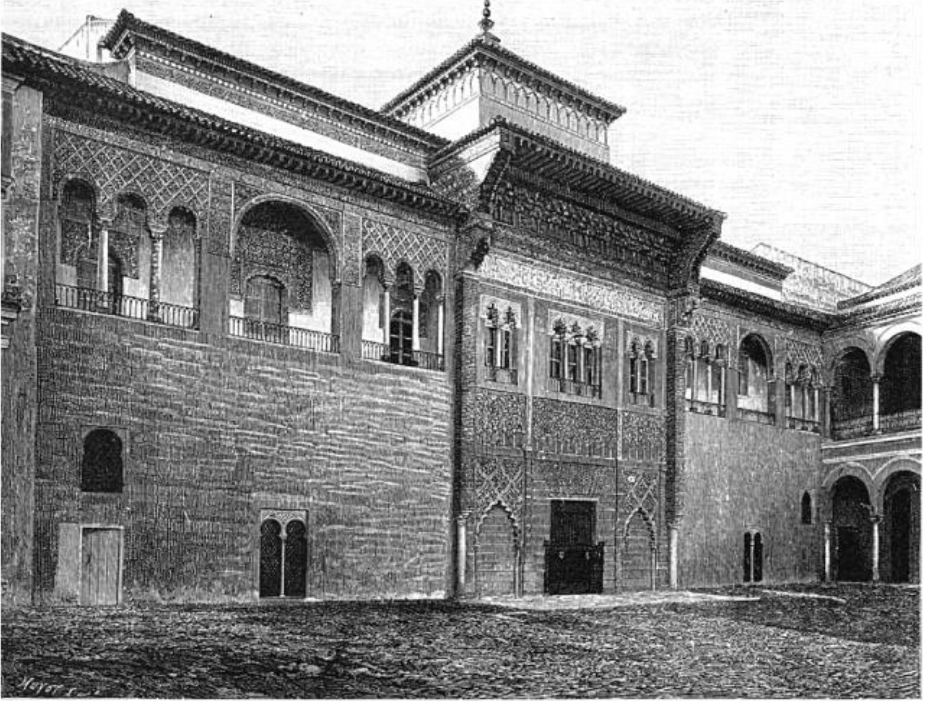
واستغاث عرب إسبانية ببربر مراكش في سنة ١٠٨٥م، ليحولوا دون توالي انتصارات ملك قشتالة وليون: الأذفونش السادس، ولم يلبث هؤلاء البربر الذين جاءوا إلى إسبانية

حلفاء للعرب أن ظهروا لهم بمظهر السيد، وأسفر تنازع العرب والبربر عن انقسام دولة العرب إلى عشرين دُويلة، وعن قبض المرابطين والموحدين وغيرهم من البربر على زمام الأمور، وعن تكمُّش العرب إزاء البربر، وعن تدبُّج الحضارة العربية إلى الانزواء. واهتبل النصارى تلك الفُرَصَ، فوسَّعُوا دائرتهم على حساب المسلمين، وأقاموا دُويلاتٍ كثيرةً كبلنَّسيَّة وقشتالة ومُرَسيَّة وغيرها مما انتهى إلى أربع دول، وهي: البرتغال ونبرة وأرغونة وقشتالة.

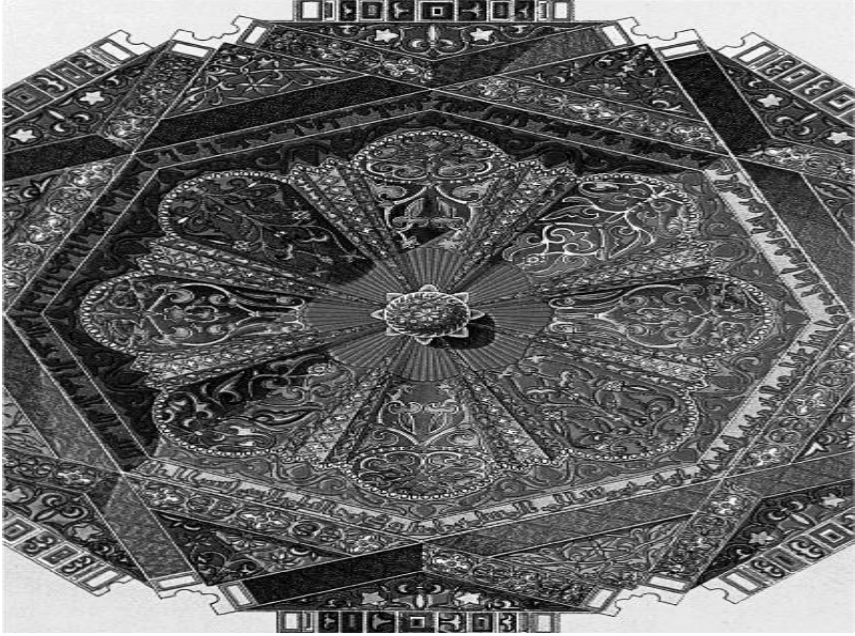


شكل ٥-٦: باب الشمس في طليطلة (من صورة فوتوغرافية).

ولم يبقَ للعرب في أواخر القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة، ولما تزوَّج ملك أرغونة فرديناند الكاثوليكي ملكة قشتالة إيزابلا، وتمت بذلك وحدة تينك الدولتين، حاصر في سنة ١٤٩٢ غرناطة، التي كانت آخر معقل للإسلام في إسبانية، وفتحها، ثم ضم إليه مملكة نبرة، فأصبحت جميع إسبانية، خلا البرتغال، تابعة لعرش واحد.



شكل ٦-٦: مقدم القصر في أشبيلية (من صورة فوتوغرافية).
ودامت دولة العرب في إسبانية نحو ثمانية قرون، أي ما يقرب من مدة سلطان الروم،
وأدى انقسامها إلى زوالها أكثر مما أدت إليه الغارات الأجنبية، فالعرب، وإن كانت
عبقريتهم الثقافية من الطراز الأول، لم يندُبوهم السياسي غير ضعيف.



شكل ٦-٧: سقف محراب جامع قرطبة القديم (طراز بزنطي عربي، آثار إسبانية المعمارية).

وعاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة، ولكن سنة ١٤٩٩م لم تكد تحلُّ حتى حلَّ بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قرونًا، والذي لم ينتهِ إلا بطرد العرب من إسبانية، وكان تعميد العرب كَرْهَا فاتحةً ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المُعَمِّدين على أنهم من النصارى، ولم تَتَمَّ عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج؛ لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة، ونصح كَردينال طليطلة التقيُّ، الذي كان رئيسًا لمحاكم التفتيش، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصَّر من العرب رجالًا ونساءً وشيوخًا وولدانًا، ولم يرَ الراهب الدومينيكي، بليدًا، الكفاية في ذلك؛ فأشار بضرب رقاب من تنصَّر من العرب ومن بقي على دينه منهم، وحجَّته في ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصَّر من العرب، فمن المستحب، إذن، قتلُ

جميع العرب بحد السيف؛ لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى، ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم، ولم تر الحكومة الإسبانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومينيكي الذي أيده الإكليروس في رأيه لما قد يُبدية الضحايا من مقاومة، وإنما أمرت، في سنة ١٦١٠م، بإجلاء العرب عن إسبانية، فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق، وأبدى ذلك الراهب البار، بليدا، ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين في أثناء هجرتهم، وهو الذي قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت مُتجهّة إلى إفريقيا.

وخسرت إسبانية بذلك مليون مسلم من رعاياها في بضعة أشهر، ويُقدّر كثير من العلماء، ومنهم سيديو، عدد المسلمين الذين خسرتهم إسبانية، منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير، بثلاثة ملايين، ولا تُعدّ ملحمة سان بارتلمي إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يُؤبه له، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يُؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين.

ومما يُرثى له أن حُرمت إسبانية عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية.

ثم رأت محاكم التفتيش أن تُبىد كل نصراني ترى فيه شيئاً من النباهة والفضل، فكان من نتائج هذه المظالم المزدوجة أن هبطت إسبانية إلى أسفل دركات الانحطاط بعد أن بلغت قمة المجد، وأن انهار معاً كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب والسكان.

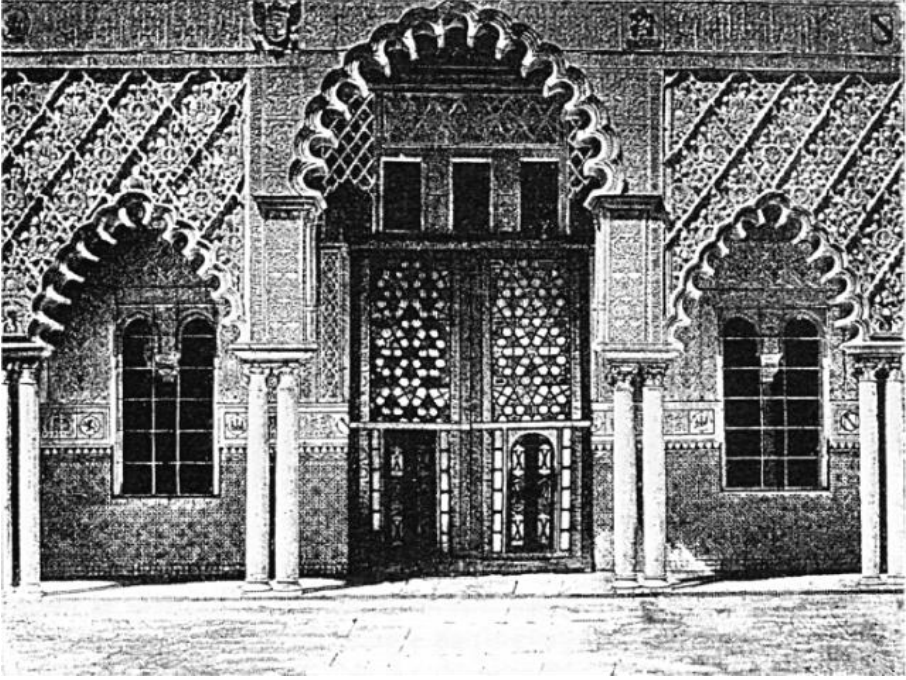
وها هي ذي عدّة قرون مضت على ذلك الدور من غير أن تستطيع إسبانية أن تنهض من هبوطها مع ما بُذل من الجهود، وقد صار عدد سكان طليطلة في الوقت الحاضر ١٧٠٠٠

بعد أن كان ٢٠٠٠٠٠ أيام الحكم العربي، وقد أصبح عدد سكان قرطبة في الوقت الحاضر ٤٢٠٠٠ بعد أن كان مليوناً أيام الحكم العربي؛ ولم يبقَ من مدن ولاية سَلَمَنْقَة، التي كان عددها أيام الحكم العربي ١٢٥ مدينة، سوى ١٣ مدينة.

وسيرى القارئ في الفصل الذي خَصَّصناه للبحث في وراثي العرب مقدار الانحطاط الذي أسفر عن إبادة العرب، وإذا كنْتُ قد أشرت إلى هذا هنا فلأن شأن العرب المدني لم يَبْدُ في قطر ملكوه كما بدا في إسبانية التي لم تكن ذات حضارة تُذكر قبل الفتح العربي؛ فصارت ذات حضارة ناضرة في زمن العرب، ثم هَبَطت إلى الدَّرَك الأسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب، وهذا مثالٌ بارزٌ على ما يمكن أن يَتَّفَق لِعِرْق من التأثير.

(٣) حضارة العرب في إسبانية

كانت إسبانية النصرانية ذات رَخاء قليل وثقافة لا تلائم غير الأجلاف في زمن ملوك القوط، ولم يَكَدْ العرب يُتِمُّون فتح إسبانية حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يحيا ميت الأرضين، وَيَعْمُرُوا حَرِب المدن، وَيَقِيمُوا فَخْم المباني، وَيُوَطِّدُوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب، ويطرجمون كتب اليونان واللاتين، وَيُنْشِؤْنَ الجامعات التي ظَلَّت وحدَها ملجأ للثقافة في أوربة زمناً طويلاً.



شكل ٦-٨: داخل ردهة في القصر بإشبيلية (من صورة فوتوغرافية).

وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبد الرحمن إلى العرش على الخصوص، أي منذ انفصال إسبانية عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة في سنة ٧٥٦م، فغَدَت قرطبة، بالحقيقة، أرقى مُدُن العالم القديم مُدَّة ثلاثة قرون.

ولم يَكِد عبد الرحمن يَقْبِض على زمام الحكم في إسبانية حتى أخذ يسعى في حمل العرب على عدِّ إسبانية وطنًا حقيقيًّا لهم، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذي هو من عجائب الدنيا؛ لتحويل أنظار العرب عن مكة، وصار يُنفق دخل بيت المال في إصلاح البلاد وعمرانها بدلًا من إنفاقه في الغزوات البعيدة، ثم سار خلفاؤه على سنته في ذلك.

وامتازت حضارة العرب في إسبانية في ذلك الدور بِمِيل العرب الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص، وأنشأ العرب في كل ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات، وترجموا كتب اليونان، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية

والكياوية والطبية بنجاح، وسنرى في فصول أخرى أهمية اكتشافاتهم في هذه العلوم المختلفة.

ولم يكن نشاطهم في الصناعة والتجارة أقل من ذلك، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسيج والجلود والسكر إلى إفريقية والشرق بواسطة تجار من اليهود والبربر.

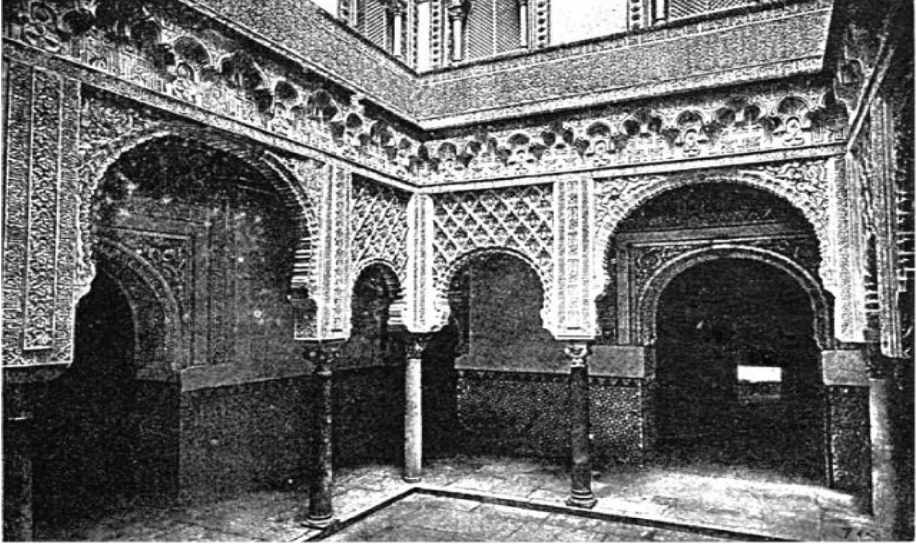
وبرع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات، ولا يوجد في إسبانية الحاضرة من أعمال الري خلا ما أتمّه العرب، وأدخل العرب إلى حقول الأندلس الخصبة زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموز ... إلخ، وأصبحت إسبانية، التي هي صحراء حقيقية في الوقت الحاضر، عدا بعض أقسام في جنوبها، جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الفنية.

ووجّه العرب نشاطهم إلى كل فرع من فروع العلوم والصناعة والفنون، ولم تقلّ أشغالهم العامة عن أشغال الرومان أهمية، فأكثرُوا من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافي والمساجد في كل مكان.

وظن رئيس الأساقفة الإسباني أكزيمينيس أنه، بإحراقه مؤخرًا ما قدّر على جمعه من مخطوطات أعداء دينه العرب (أي ثمانين ألف كتاب)، تحا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد، وما دَرى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانية، خلا مؤلفاتهم، يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد.

وكانت عاصمة الخلافة، قرطبة، دارًا للعلوم والفنون والصناعة والتجارة، وتستطيع أن تقابلها بعواصم دول أوربة العظمى الحديثة، وهي على خلاف قرطبة الحاضرة التي

أضحت مقرًا للأموات، ومن المؤلم أن كنتُ أسير عدة ساعات في هذه المدينة الواسعة، التي كان يقيم بها مليون شخص، قبل أن أصادف مارًا نشيطًا...



شكل ٦-٩: داخل ردهة في منصر بأشبيلية (من صورة فوتوغرافية).

أجل، كان من النصر العظيم أن أحلَّ النصارى الصليب محل الهلال في قرطبة، ولكن الهلال كان يُيمن على أغنى مدن العالم وأجملها وأكثرها أهلاً، فيُشرف الصليب اليوم على بقايا تلك الحضارة القويمة التي قَوَّضها عبَّادُه من غير أن يقيموا حضارةً أخرى مقامها. وكان نظام الحكم العربي في إسبانية مشابهاً لنظام الحكم الذي تكلمنا عنه في فصل «العرب في بغداد» أي كان الخليفة، وهو وكيل الله في الأرض، حاكماً مطلقاً جامعاً لجميع السلطات المدنية والدينية والحربية مع اختياره مجلساً لإسداء النصيحة إليه في جميع أمور الدولة.

وكان يقوم بحكم الولايات ولاةً يُنصبهم الخليفة جامعون لمثل سلطاته كلها. وكان قانون الدولة المدني يستند في نصوصه إلى القرآن وتفسير القرآن، كما نوضح ذلك في فصل آخر؛ فيتخذ القضاة القرآن دستوراً في أحكامهم، وكانت المحاكم على درجتين؛

فتقوم محاكم الدرجة الثانية (الاستئناف) بإصلاح ما تُصدره محاكم الدرجة الأولى من الأحكام.

وكان الخليفة، كملوك ذلك العصر، غير ذي جيش دائم، وكانت الكتيبة الوحيدة المسلحة على الدوام مؤلفة من حَرَس وليّ الأمر الشخصي الذي يبلغ عدده عشرة رجال أو اثني عشر رجلًا،^{٨٥} وإن كان يستطيع أن يجند كلّ شخص قادرٍ على حمل السلاح من أبناء الدولة.

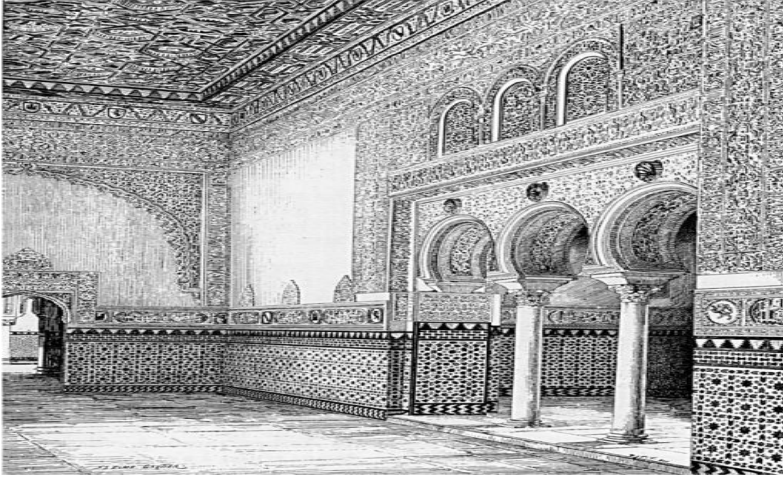
وكانت البحرية قوية جدًّا، وكانت تتمُّ بفضلها صلات العرب التجارية بجميع مرافئ أوربة وآسية وإفريقية، وظل العرب وحدهم سادة البحر المتوسط زمنًا طويلًا. وكان دخل بيت المال يقوم على الضرائب والمناجم، كما في بغداد، وكانت مناجم الفضة والذهب والزئبق غنيّة في ذلك الزمن، وكانت الضرائب تتألف من العُشر العيني لمحاصيل أراضي المسلمين، ومن الجزية التي يُعطونها النصارى واليهود، ومن الجمارك والمكوس، فبلغ دخل دولة الخلافة في إسبانية ثلاثمائة مليون في إبّان عظمتها، أي في عهد الحكم الثاني.

وقلنا: إن الإمامة الثقافية كانت للعرب في البلاد، وأما العوام فكانوا من البربر، ومن سكان البلاد القدماء على الخصوص، وكان باب المناصب مفتوحًا للنصارى، وكان النصارى يُستخدمون في الجيش غالبًا، ولم يكن توالد المسلمين والنصارى غير قليل، وكانت أم الخليفة عبد الرحمن الثالث نصرانيّة.

واستطاع العرب أن يحوّلوا إسبانية ماديًا وثقافيًا في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانية على هذين الأمرين؛ بل أثروا في

^{٨٥} لعل المؤلف قصد عشرة آلاف أو اثني عشر ألفًا؛ فسقطت كلمة «آلاف أو ألف» عند طبع الأصل الفرنسي (المترجم)

أخلاق الناس أيضًا، فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يُعلّموها، التسامح الذي هو أئمن صفات الإنسان، وبلغ حلم عرب إسبانية نحو الأهليين المغلوبين مبلغًا كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني، الذي عُقد في سنة ٧٨٢م ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عُقد في سنة ٨٥٢م، وتُعد كنائس النصارى الكثيرة التي بنّوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.



شكل ٦-١٠: بهو ملوك المغاربة في القصر بأشبيلية (من صورة فوتوغرافية).

وأسلم كثيرٌ من النصارى، ولكنهم لم يُسلموا طمعًا في كبير شيء، وهم الذين استعربوا فغدّوا هم واليهود مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانية العربية بلدًا أوروبية الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيرًا جدًّا.

وكان عربٌ إسبانية يتصفون بالفروسية المثالية خلا تسامحهم العظم، وكانوا يرحمون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم ... وما إلى هذا من الخلال التي

اقتبستها الأمم النصرانية بأوربة منهم مؤخرًا، فتؤثر في نفوس الناس تأثيرًا لا تؤثره الديانة.

وللفروسية العربية شروطها كما للفرسية الأوربية التي ظهرت بعدها، فلم يكن المرء ليصير فارسًا إلا إذا تحلّى بهذه الخصال العشر: «الصلاح، والكرامة، ورقة الشئائل، والقريحة الشعرية، والفصاحة، والقوة، والمهارة في ركوب الخيل، والقدرة على استعمال السيف، والرمح، والنشاب.»

ونرى تاريخ العرب في إسبانية حافلًا بالأنباء الدالة على كثرة انتشار تلك الخصال، ومن ذلك أن والي قرطبة لما حاصر، في سنة ١١٣٩م مدينة طيطة التي كانت بيد النصارى أرسلت إليه الملكة بيرنجر التي كانت فيها من بلغه أنه لا يليق بفارسٍ بطلٍ شهيمٍ كريمٍ أن يحاصر امرأة، فارتد القائد العربيُّ من فوره محييًا الملكة.

وذاعت خصال الفروسية تلك بين النصارى، ولكن ببطء، ويمكننا أن نتمثل ما كانت عليه الفروسية النصرانية في القرن الحادي عشر عند النظر إلى أمر السيد الكنيطور رودريك الفيفاري.

لم يكن هذا البطل الشهير الذي تَغَنَّى به الشعراء كثيرًا سوى رئيس عصابة بالحقيقة، أي كان محل مزادة، فيبيع نفسه من العرب تارة ويبيعها من النصارى تارة أخرى، ومما حدث أن دخل مدينة بلنسية صُلحًا فلم يُحجم عن شَيِّ حاكمها الهَرَم على النار؛ ليُكرهه على كشف ما كان يظنُّ وجوده في القصر من الكنوز.

قال مسيو فيازدو: إن ذلك الفارس الشهير الذي يُثير اسمه ذكريات البطولة هو البطل الشعبي الذي اقتحم المخاطر والأهوال أكثر مما اقتحمه هر كول وثيزه وقدماء أنصاف الآلهة مجتمعين.

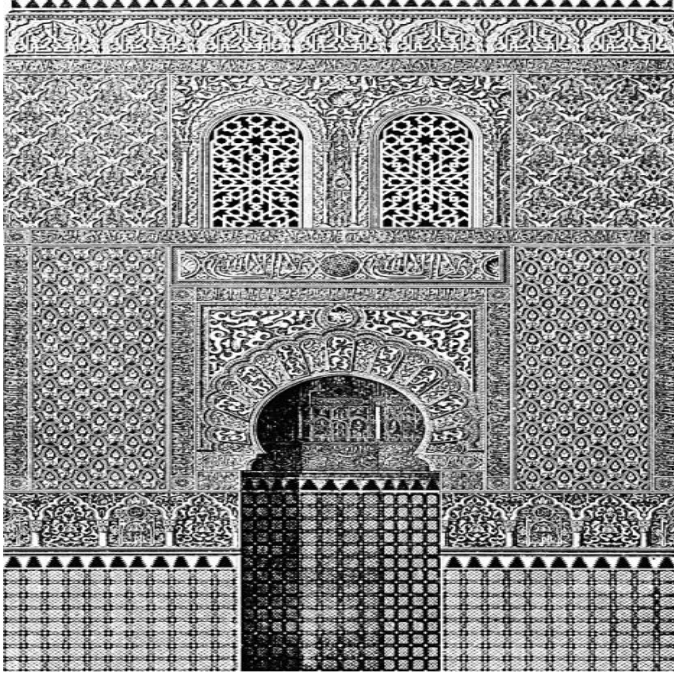
بَيد أنه، وإن كان من المؤلم تجريدُ اسمٍ عظيمٍ من بعض ما أسبغته القرون عليه، لم يُوضَع التاريخ ليؤيد بأحكامه أقاصيص الأدباء وخيالات الشعراء. لم يُحرز رودريك، أو روي دياز الفيفاري، غيرَ صفات الجندي، أي كان رئيس عصابة من المرتزقة قاسيًا جشعًا حقودًا شديدًا في قوله وعمله كثير الجلف مستخفًا بالعدل والإنصاف.



شكل ٦-١١: برج لاجيرالده (برج لعبة الهواء) في أشبيلية (من تصوير جيرول دوپرانجه).

وكان نصارى أرغونة أول من أعمل السلاح فيهم لحساب المسلمين الذين منحوه لقب «السيد» فعُرف به، ثم باع سيفه من شانشه القوي؛ ليساعده على تجريد ما لإخوته وأخواته من المقاطعات، ثم حالف هذا وذاك محالفة الغادرين، ولم يُبالِ بعهد الأمان الذي قَطَعَه لمدينة ساغوننة ومدينة بَلَنْسِيَّة؛ فأطعم الكلابَ بعضَ الأسرى، ونكَل ببيعهم، وحرَّق بعضًا آخر منهم إكراهًا لهم على كشف كنوزهم.

«حقاً إنه أطفأ ما تمّ له من مجد النصر بما قام به من أعمال الختر»^{٨٦} والخسة والإجرام، ولإني أحيل القارئ الذي يريد التثبت في مصداق قولي إلى ما قاله مسيو دوزي في مباحثه عن تاريخ عرب إسبانية السياسي والأدبي في القرون الوسطى.



شكل ٦-١٢: محراب مسجد قصر الحمراء (من تصوير جونز).

وليس من الإنصاف أن نقسو على السيد الذي لم يعمل بغير ما كانت تُبيحه طبائع زمنه، ولكن من الواجب أن نشير إلى تلك الطبائع؛ ليتجلى لنا مقدار ما أسدت به الأمة التي عَمِلت على زوال تلك الطبائع من خدمة عظيمة بتأثير تعاليمها التي لا مؤيّد لها سوى الرأي.

^{٨٦} ختره يختره خترًا: غدره أقبح الغدر.

ويقولون: إن الدين يهذب الطبائع، وأذهب إلى هذا الرأي أحيانًا وإن لم يكن في التاريخ سوى أدلة قليلة على ذلك، وإنما الذي لا ريب فيه هو أن قواعد الفروسية التي جاء بها العرب أدّت إلى إصلاح تلك الطبائع أكثر من جميع التعاليم الدينية.

نعم، إن إحراق السيد شيخًا لِيَسْلُبَ ماله يُبديه لنا وحشًا، غير أن طبائع أهل ذلك الزمن كانت تُبيح ذلك، وأن كل أمير نصراني كان يقترف مثل ذلك.

ومن ذلك أن دعا الطاغية بطرّه ملك غرناطة، أبا سعيد، إلى قصره فأعجبه ما كان يَتَحَلَّى به الملك أبو سعيد من الجواهر، فلم يرَ غير سلبه إياها بقتله غدراً.^{٨٧}

فأثامٌ مثل هذه مما لم يقترفه العرب قط. والعرب أحسنوا كثيرًا إلى الحضارة بنشرهم من المشاعر في أنحاء العالم ما يحُول دون ارتكابها.

واعترف الكتابُ القليلون الذين درسوا تاريخ العرب بفضلهم الخُلقي، وإليك ما قاله العالمُ الثَّبتُ مسيو سيدْيُو: «كان العرب يفوقون النصارى كثيرًا في الأخلاق والعلوم والصناعات، وكان من طبائع العرب ما لا تراه في غيرهم من الكرم والإخلاص والرحمة، وكان من طبائعهم التي امتازوا بها في المحافظة على الكرامة ما يؤدي الإفراط فيه إلى المبارزة والشحناء.

وكان ملوك قشتالة وَنَبَرَّة على علم من صدق العرب وقَرَاهم، ولم يتردد الكثير منهم في المجيء إلى قرطبة؛ ليعالجهم أطباؤها المشهورون.

وكان أفقر المسلمين يحافظ على شَرَف أسرته محافظة أشد الرؤساء صَلفًا.

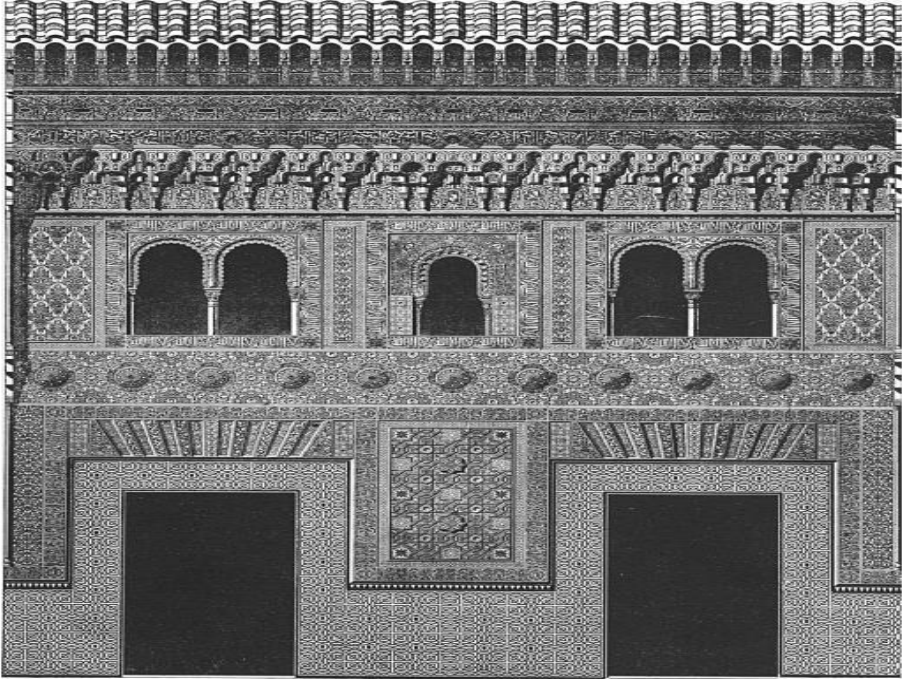
(٤) مباني العرب في إسبانية

^{٨٧} أهدى ملك إسبانية إلى أحد أمراء الإنكليز ياقوتة حمراء من تلك الجواهر التي سُرقت من الملك العربي، وهى الآن من الجواهر التي يُزين بها تاج ملكة إنكلترا المصون مع الجواهر الملكية الأخرى في «غرفة حل التاج» بلندن، فأتيت لي أن أشاهدها.

استخدم العرب، في بدء إقامتهم بإسبانية، مهندسين من الروم، ولكن العرب لم يلبثوا أن أثَّروا بعبقريتهم الفنية في أولئك المهندسين، وبكَلغ إبحاؤهم في أمور الزينة مبلغاً صار يتعذر معه على أقل الناس دقة أن يخلط مبانيهم بالمباني البيزنطية.

ولم يلبث العرب في إسبانية أن تحرروا من النفوذ البيزنطي كإخوانهم في مصر، فاستبدلوا النقوش العربية الممزوجة بالكتابة بالزخرفة الذهبية، وأكثروا، كما في المشرق، من المتدليات المؤلفة من الأقواس الصغيرة التي يعلو بعضها بعضاً على شكل نخاريب النخل، فيكون منظرها ساحراً عجيباً حينما يُزَيَّن بها داخل إحدى القباب كما في الحمراء، وكانت هذه الأقواس على شكل نعل الفرس الظاهر في البُداءة، ثم اختلطت بأنواع الأقواس الأخرى البسيطة المصنوعة على رسم البيكارين، والأقواس المفلوكة المصنوعة على رسم البيكارين، والأقواس المنقوشة على شكل الأزهار والأغصان المصنوعة على رسم البيكارين... إلخ، وأما الأقواس المجاوزة فقد أهملها العرب تقريباً.

ونَعُدُّ جامع قرطبة الذي بُني في القرن الثامن من الميلاد وبعض المباني في طليطلة من آثار الدور الأول لفن العمارة العربي بإسبانية، ونَعُدُّ منارة لاجيرالدة (لعبة الهواء) الأشبيلية، التي أقيمت في القرن الثاني عشر من الميلاد، والقصر الأشبيلي من آثار الدور الأوسط لفن العمارة العربي، ونَعُدُّ قصر الحمراء الغرناطي الذي شيد في القرن الرابع عشر من الميلاد عنواناً لما انتهى إليه فنُّ العمارة العربي.



شكل ٦-١٣: مقدم مسجد قصر الحمراء في غرناطة.

وعلى ما في هذه المباني التي أنشئت في إسبانية في مختلف الأدوار من التباين في الطُّرُز نرى لها طابعًا خاصًا يدل على أصلها أول وهلة.

ويرى مثل هذا الطابع الخاص في مختلف المباني التي شادها العرب في مختلف الأقطار، فقصر الحمراء في غرناطة أو جامع السلطان حسن في القاهرة أو باب علاء الدين في دهلي أو غيره، وإن بدا عليه تأثير البيئة التي كان يعيش فيها المهندسون الذين رسموه، جمعت بينه وبين المباني الأخرى التي شادها العرب في الأقطار الأخرى صفات فن العمارة العربي العامة، وتنبه هذه على مهارة صانعيها في إبداع الآثار الجديدة بالمواد القديمة، ولا جرم أن باب علاء الدين الذي أُلّف فيه بين عناصر الفن العربية والفارسية والهندوسية هو من الأمثلة المهمة لتأثير الفن العربي العجيب الذي طبع سمته على كل ما مسّه، والذي ظل

عربياً مع ما اقتبسه من الهندوس في الهند ومن الفرس في بلاد فارس ومن البزنطيين في إسبانية.

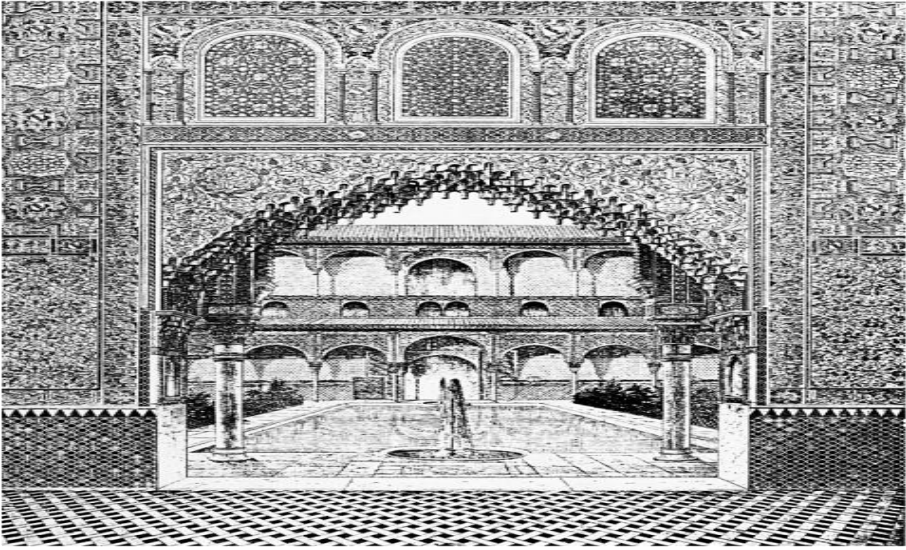
ولتكلم الآن بإيجاز عن المباني المهمة التي تركها المسلمون في إسبانية، وستتبع طريقتنا في نشر صور صادقة عنها نشرًا يُغنينا عن الوصف المفصل، وذلك على أن نعود إلى الكثير منها في الفصل الذي ندرس فيه تاريخ فن العمارة العربي.

(٤-١) المباني العربية في قرطبة

إن جامع قرطبة الشهير الذي بدأ عبد الرحمن بإنشائه في سنة ٧٨٠م، والذي يعده علماء المسلمين قبلة أنظار المغرب، من أجمل المباني التي شادها العرب في إسبانية، قال كوندو: بُني ذلك المسجد الجامع في أواخر القرن الثامن من الميلاد بأمر عبد الرحمن الأول وإشرافه، ورُوي أن عبد الرحمن الأول هذا أراد أن يجعله ماثلاً لجامع دمشق على أوسع نطاق، ومذكراً للناس بفيض زخارفه، بعجائب هيكل سليمان القدسي المجيد الذي هدمه الرومان.

«وكان جامع قرطبة يفوق معابد الشرق قاطبة بعظمته وروعته، وترى ارتفاع مئذنته أربعين ذراعاً، وترى قُبته الهيفاء تقوم على روافد من الخشب المحفور وتستند إلى ١٠٩٣ عموداً مصنوعاً من مختلف الرخام على شكل رقعة الشطرنج، فيتألف منها تسعة عشر صحنًا واسعاً طويلاً وثمانية وثلاثون صحنًا ضيقاً عرضاً، وترى في وجهه الجنوبي المقابل للوادي الكبير تسعة عشر باباً مُصَفَّحاً بصفائح برونزية عجبية الصنع خلا الباب المتوسط الذي كان مصفحاً بالواح من الذهب، وترى في كل من وجهه الشرقي والجانبى ووجهه الغربي الجانبى تسعة أبواب مشابهة لتلك الأبواب.»

ولا يزال جامع قرطبة من المباني المهمة مع ما أحدثه الإسبان فيه من التلف والفساد، ومع تلك الكنيسة الواسعة التي أقاموها فيه لتطهيره، وما صنعه الإسبان أن كلَّسوا زخارف جُدْره وكتاباتهِ، ونزعوا منه فسيفساء أرضه، وباعوا نُحْف سقفه الخشبية المحفورة المزُوّقة، فيجب على من يرغب في تمثّل شيءٍ مما كان عليه جامع قرطبة أن ينظر إلى محرابه الذي تَفَلَّت وحده من التّخريب.



شكل ٦-١٤: قاعة البركة في قصر الحمراء (من تصوير جونز).

ويقوم سقف جامع قرطبة على أعمدة، ويتكون من اجتماع هذه الأعمدة صفوفٌ من الصّحون الكبيرة المتوازية المؤدية إلى باحته، وتتقاطع هذه الصّحون وصحونٌ أخرى كتقاطع الأضلاع الذي ينشأ عنه زوايا قائمة، ويتألف من مجموع تلك الأعمدة غابة من الرخام واليَصْب والغرائيت، وتعلو تلك الأعمدة أقواسٌ رائعة مُنَضَّدة مصنوعة على شكل نعل الفرس.

ولا يؤدي ارتفاع سقف جامع قرطبة الذي لا يزيد على عشرة أمتار إلى ما نراه في الكندرائيات القديمة، التي أقيمت على الطراز القوطي في القرون الوسطى، من الجلال

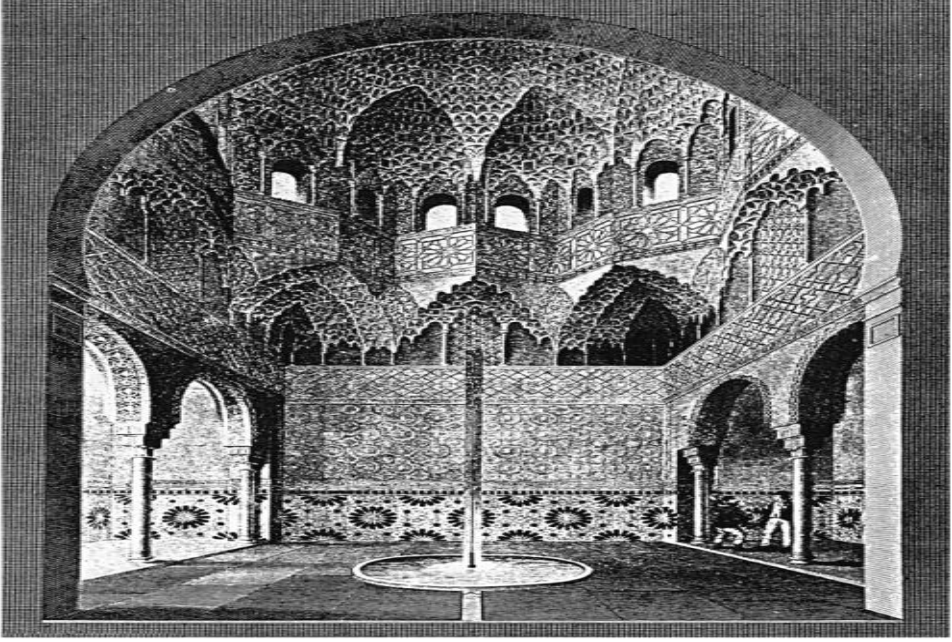
الأذجن ككتدرائية كولونية وستراسبرغ، وإنما ينشأ عن تنضُّد أقواسه وتنوع زخارفه منظرٌ مبتكرٌ بديع قلما تجد مثله في مبانٍ أخرى.

وأما محراب جامع قرطبة فإننا، من غير أن نُجاري جيرول دوهرانجه في قوله: «إنك لا ترى أحسنَ من زُخرفته وسنائه في أي أثرٍ قديم أو حديث مماثل»، نعترف بأنه من أجمل ما تقع عليه عينُ بشر.

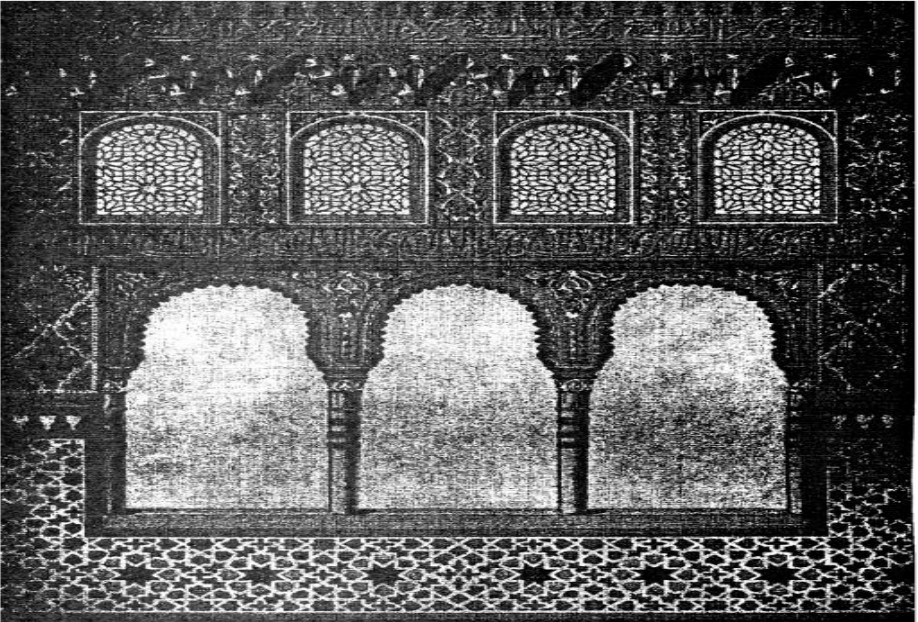
وأقيم جامع قرطبة أيام كان الفنُّ العربي في فجوه، وتدرَّج الفنُّ العربي إلى الكمال، فأقيمت على الطراز العربي الكامل مبانٍ عجيبةٌ كالحمراء تُخبر، بما لها من الروعة والجلال قادم الأجيال بما كان للقوم الذين شادوها من الذوق الفني وحب كل ما هو ساطع بديع عجيب.



شكل ٦-١٥: منظر التَّقَط في قاعة الأختين بقصر الحمراء (من تصوير جونز).



شكل ٦-١٦: قاعة بني سراج في قصر الحمراء (من تصوير مورفي).



شكل ٦-١٧: ليوان في قصر الحمراء بغرناطة.

من الذهب عُمِلت في القسطنطينية، وكانت الدرة الشهيرة، التي أُنحِفَ قيصرُ الروم عبدَ الرحمن الناصر بها، تَعْلُو هذه العين، وكانت الحدائق العظيمة ذات الأشجار المثمرة والرياحين قريبة من القصر، وكان في وسط هذه الحدائق، وعلى مكان مُشرف منها، قُبَّةُ الخليفة القائمة على أعمدة رُخامية بيض ذات تيجان مُذهَّبة، وكان في وسط هذه القبة حوض كبير من الرخام السماقي مملوءً بالزئبق الذي كان يَتَدَقَّقُ بشكل عجيب تدفقًا مستمرًا، فكانت أشعة الشمس تنعكس عليه بما يأخذ بمجامع القلوب، وكان في هذه الحدائق الجميلة حمامات ذاتُ صهاريج رخامية وبُسْطٍ ورياشٍ حريري ذهبي مُوسَى بصور غريبة طبيعية من الأزهار والغاب والحيوانات، وجُلِبَ الرخام الأبيض إلى قصر الزهراء من المرية، والورديُّ والأخضر من قرطاجة وتونس، وصُنعت في سورية، وفي القسطنطينية على رواية، عينُ الذهبية المنقوشة، وكان يُرى هنالك ما جَلَبَه أحمد الرومي من الصور البشرية المنقوشة، وأمر الخليفة بأن تُنصب هنالك صورٌ من الذهب والحجارة الثمينة لاثني عشر حيوانًا مصنوعةً في المعمل الملكي بقرطبة، فكانت المياه تتدفق من أفواهها تدفقًا مستمرًا، وكان سقف ردهة الخليفة مُذهَّبًا مؤلفًا من قطع رخامية لامعة مختلفة الألوان، وكانت جُدُرُه مزخرفةً مثل سقفه، وكان في وسط هذه الردهة حوضٌ رخاميٌّ عظيم مملوء بالزئبق، وكان في كل جانب من هذه الردهة ثمانية أبواب معقودة على حنايا من العاج والأبنوس مزينة بالذهب والحجارة الثمينة، قائمة على أعمدة من الرخام المتنوع والبلور الصافي، وروى ابن حيان أن قصر الزهراء اشتمل على ٤٣١٢ سارية مختلفة الحجم، وأنه جُلِبَ ١٠١٣ سارية منها من إفريقية و١٩ سارية منها من رومة، وأن قيصر الروم أُنحِفَ عبد الرحمن بـ ١٤٠ سارية منها، وأن بقية السواري أخذت من مختلف

بقاع الأندلس وطَرَكُونَة وغيرها، وصُنِعَت أبواب قصر الزهراء من الحديد أو من النحاس المَمَوَّه بالذهب والفضة.

(٤-٢) المباني العربية في طليطلة

مدينة طليطلة القديمة الحاضرة صورةٌ صادقةٌ لما كانت عليه المدن الأوربية في القرون الوسطى، وما هو مائل فيها الآن من الكتدرائية الفخمة ودير سان جوان دولوس ريس يكفي لشهرتها، فإذا استثنيت هذين الأثرين رأيت في كل خطوة منها ما يساعد على درس تأثير العرب في الأمم التي حَلَّت محلهم.

ولا يزال يُحيط بطليطلة حصونها وأبراجها العربية، ونذكر من أبوابها القديمة باب بيزاغرة (باب شقرة) الشهير الذي أُنشئ في القرن التاسع من الميلاد، وباب الشمس الشهير الذي أُنشئ في القرن العاشر من الميلاد فيصعب عليّ أن أعدّه، كما أعدّه غيري، من الآثار التي شيدت على الطراز البزنطي، وذلك لشكله العربي العام، ولما يُرى فيه من الأقواس والزخارف العربية.

وأذكر من المباني العربية في طليطلة، أو المباني العربية اليهودية فيها، ستا ماريا لا بلانكا، أي الكنيس القديم الذي بُني في القرن التاسع.

ويُعدُّ بالألوف ما تم في طليطلة من ضروب الزخارف على يد عمالٍ من العرب كانوا من رعايا النصراني قبل إجلاء العرب العام الذي حدث بعد فتح النصراني لجميع بلاد إسبانية، وإلى هؤلاء العمال العرب يعود الفضل فيما ترى من دقائق النقوش والزينة في مباني طليطلة التي شيدت على الطراز الرُّوماني أو الطراز القوطي، وقد نشأ عن هذا المزج بين الطراز العربي والطراز النصراني ذلك الطراز الذي يُسمَّى المدجّن، والذي اتصل أمره

في إسبانية زمنًا طويلًا، والذي لم يَعْفُ أثره فيها كما تشهد بذلك بعض الأبنية التي شيدت في أشبيلية حديثًا.

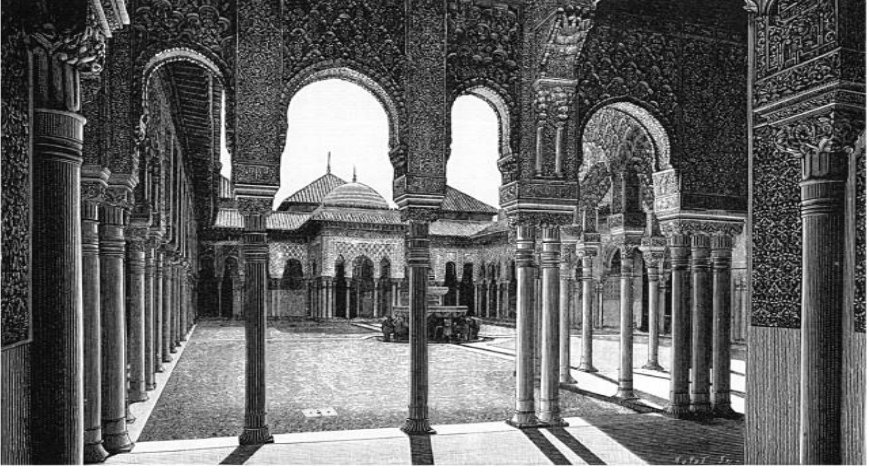
(٤-٣) المباني العربية في أشبيلية

يُرى في أشبيلية، كما يُرى في طليطلة، أثرٌ للعرب في كل خطوة، وإن كان ذلك بمعنى آخر، فإذا نظرتَ إلى أكثر بيوت أشبيلية العربية العصرية رأيته مبنياً على الطراز العربي، وإذا نظرت إلى الرقص البلدي والموسيقا المحلية في أشبيلية رأيتهما على النهج العربي، وإذا نظرت إلى نسوة أشبيلية، على الخصوص، رأيت الدم العربي يجري في عروقهنَّ.

وإن البرج المسمى لاجيرالدة (برج لُعبة الهواء) هو أقدم المباني العربية في أشبيلية، وهو بناءٌ جميل مربعٌ مبنٍ من الآجر الوردي، وهو يشابه بُرج مار مرقس في البندقية وأكثر مناور إفريقية، وإنني أرجح أن يكون قد بُني مئذنةً للمسجد الجامع الذي أقامه المنصور في سنة ١١٩٥ م.

ووجوه برج لاجيرالدة الخارجية مستورةٌ بشبكة من النقوش المحفورة، ومن النوافذ ذات الأقواس المصنوع بعضها على شكل نعل الفرس، والمصنوع بعضها الآخر على رسم البيكارين، وكان يعلو ذلك البرج كرةٌ معدنية مذهبة فأزالها الإسبان وبنوا في محلها برجًا للناقوس، ثم وَضَعُوا فوق هذا البرج تمثالاً؛ ليكون رمزاً للإيمان.

والقصر الأشبيلي قصرٌ عربي قديم يرجع إنشاؤه إلى أدوار مختلفة، وقد بُدئ بإنشائه في القرن الحادي عشر، وشيد معظمه في القرن الثالث عشر، وبنى مقدّمه عمالٌ من العرب في عهد الطاغية بِطْرُء، ثم حاول شارلكن أن يُزَوِّقه فأضاف إليه من الزخارف الإغريقية الرومية ما دَلَّ على فساد ذوق الصانع.



شكل ٦-١٩: قاعة الأسود في قصر الحمراء (من صورة فوتوغرافية).

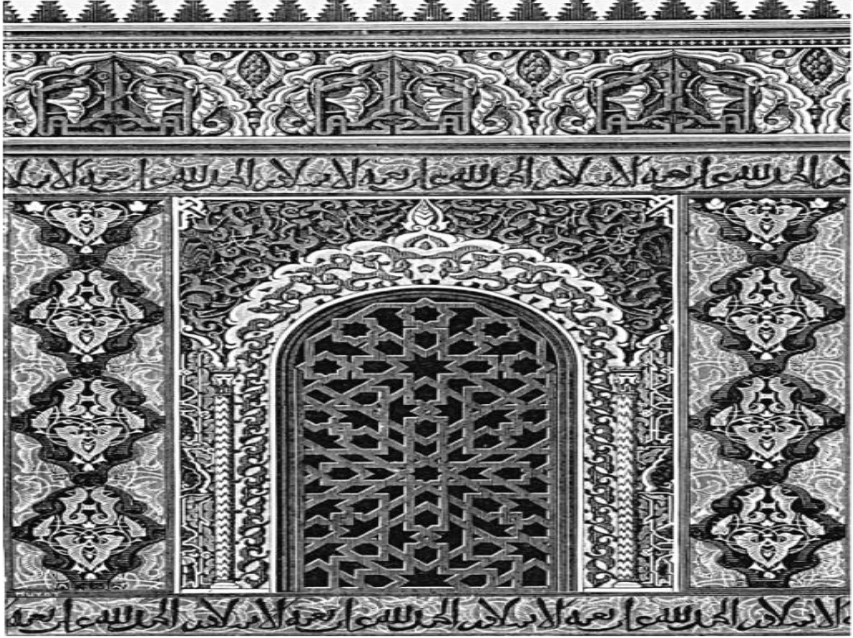
واتخذ ملوك النصارى قصر أشبيلية منزلاً لهم، ويُعدُّ البناء الوحيد الذي حُفِظَ من نوعه في إسبانية، وإن الناظر إلى رِدهِ هذا القصر المزخرفة بشتى الألوان، والتي أزال الكلس عنها دوك مُؤنَّاسِه بعد أن كلَّسها الإسبان وَفَقَّ عاداتهم، لِيَتَمَثَّلَ ما كانت عليه رِدهِ الحمراء قبل أن يُكلَّسها الإسبان أيضاً، وإن رِدهِ الصبايا اللاتني كان النصارى يقدمون مائةً منهم كجزية إلى ملوك المغاربة في أشبيلية في كل سنة، كما رُوي، وكذلك رِدهِ السفراء، هما من أروع رِدهِ القصر الأشبيلي، وتُعد رِدهِ السفراء هذه من العجائب بغير ما أضيف إليها من الزُخرف الرخيص، وإذا استثنينا مباني دمشق العربية وبعض مساجد القاهرة العربية لم نَر في غير القصر الأشبيلي تلك السقوف المغطاة بالخشبَان المحفورة المطليّة المذهبة التي يفتخر أئمنُ قصورنا باشتماله على مثلها.

والحقُّ أن أشبيلية أكثر مدن إسبانية حياةً وتمدناً، وهي نقيض غرناطة التي حافظت على توحش القرون الوسطى، وعلى كرهها الشديد للأجانب.

(٤-٤) المباني العربية في غرناطة

تتجلى عظمة فن العمارة العربي الأندلسي في قصر الحمراء الذي أنشئ في القرن الرابع عشر من الميلاد.

أقيم قصر الحمراء على منحدر جبل شلير الذي يُشرف على مدينة غرناطة وعلى المروج الواسعة الخصيبة، والذي يُعدُّ من أجمل أمكنة العالم.



شكل ٦-٢٠: جزئيات نافذة في قصر الحمراء.

وإذا ما نظر المرء إلى الحمراء من أسفل الصخور التي تُتَوَّجها رآها أبراجاً مربعة ذات ألوان قِرمزية يناطح أعلاها السحاب، ويسفر أدناها عن نبات أخضر كثيف، وإذا ما مرَّ المرء من تحت الأشجار التي تُحْفُّ بها وسمِع تغريد الطيور التي عليها وخير الماء الذي يجري في السواقي والقنوات القريبة منها، فدخل ذلك القصر الشهير رأى ما تغنى به الشعراء، ولا سيما صاحب المشرقيات (في كتورهُوغُو) الذي أنشد قائلاً:

أيّتها الحمراء! أيها القصر الذي زيّنتك الملائكة كما شاء الخيال، وجعلتك آية الانسجام! أيّتها القلعة ذات الشُّرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان والمائلة إلى الانهدام! حينما تنعكس أشعة القمر الفضية على جُدُرِكَ من خلال قناطرك العربية يُسمَع لك في الليل صوتٌ يَسْحَرُ الألباب.

ويتعذّر وصفُ الحمراء بوصف دقيق، وقلم الرسم وحده هو الذي يستطيع ذلك، وهو ما نستعين به، وما نشرنا في هذا الكتاب من صور للحمراء يُغني عن كل ما يمكن قوله. وكل ما في قصر الحمراء عجيب، والمرء يقضي العجب من جُدرانها المزينة بالنقوش العربية الأنيقة المحفورة المُفَرَّضة وأقواسه المصنوعة على رسم البيكارين، وقبابه ذات الزخارف الساحرة المتدلّية (المقرنصات) المطلية فيما مضى باللأزورد والأرجوان والإبريز.

ولا تشابه الحمراء قصور أوربة مطلقاً، شأنٌ كثير من القصور العربية، فهي عاطلةٌ من المقدم، وتنحصر زخارفها في داخلها الذي نرى كل شيء فيه عجيباً، وإن كان صغيراً، وليس فيها رِداءٌ فخمةٌ ممّلةٌ باردة مثل رِداء قصورنا الأوربية رُسِمَت ليعجَب بها الزائرون، لا لتلائم ساكنيها.

ويمكننا أن نتمثّل حياة ملوك العرب عند النظر إلى الحمراء؛ فالعين لا ترى من نوافذها غير آفاقٍ لا نهاية لها، وهي تثير ذكريات ما كان يحدث في رياضها الغنّ التي كانت حظايا ملوك غرناطة، وقد كنّ من أجمل غواني الغرب والشرق، يتفَيَّان في غياضها ويتنسَّمن شذا أزهارها النادرة.

وكان يحفُّ بصاحب تلك العجائب جمعٌ من المتفنين والعلماء والأدباء الذين كانوا أعلام ذلك العصر، وكان لذلك الصاحب أن يُعَدَّ الملوك الآخرين من الحاسدين له، وكان له أن

يكتب على باب قصره كما صنع ذلك الملك الهندي الذي حَكَتْ عنه القصة: «إن كان في الأرض فردوسٌ فهو هذا!»

واشتهر أهمُّ أقسام قصر الحمراء بفضل الفوتوغرافية والرسم، فذاع صيت قاعة الأسود وغرفة الأختين وحجرة بني سراج وردهة العدل، والقارئ الذي يُنعم النظر في الصور التي نشرناها عن تلك الأقسام في هذا الكتاب يرى أنها ليست دون شهرتها، وانتهت الشهرة إلى قاعة الأسود على الخصوص، قال جيرول دوبرانجه: «يَعْبَزُ الإنسان عن بيان ما يشعر به حين يمرُّ من قاعة البركة، ويدخل قاعة الأسود فيرى فيها الأروقة التي تُزيّنها الأقواس المُنوّعة المزخرفة بالنقوش المزهرة والزخارف المتدلية والتخاريم التي كانت ذهبيةً ملوّنة، وتقعُ عينه على غابة من الأعمدة الهيف التي وُضِعَ بعضها منفردًا وبعضها مزدوجًا وبعضها مجتمعًا على شكلٍ بديع، فيُبصرُ من خلالها التماع مياه فسقيةٍ الأسود المتدفقة.»

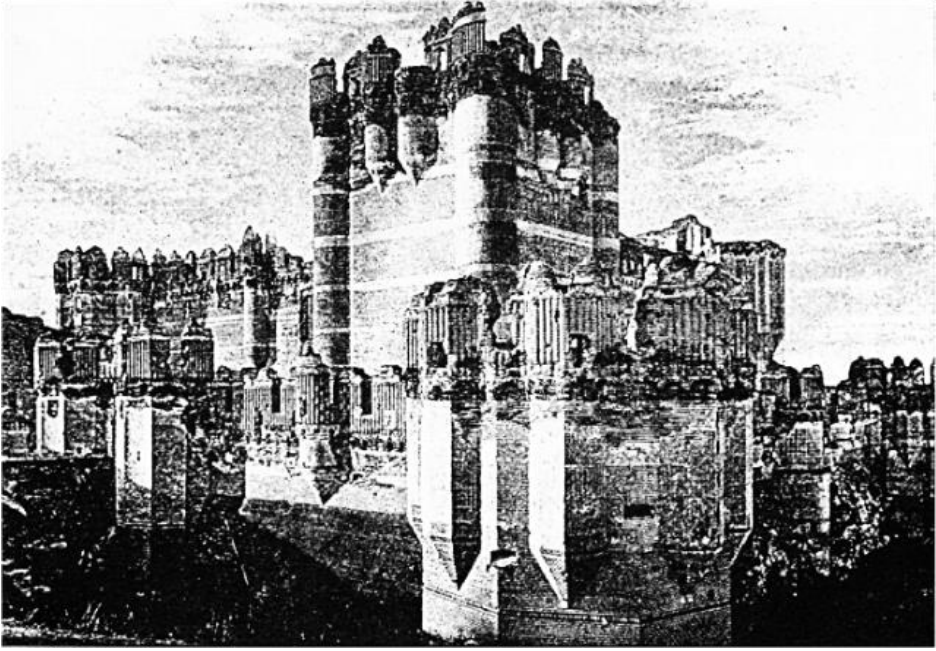
وتقول القصة: إن رقاب بني سراج الستة والثلاثين ضُربت على تلك الفسقية، وتقول العامة: إنه يُشاهد في كل ليلة طيفُ أولئك القتلى متوعدًا متهددًا. ولا تكتُ أسود تلك الفسقية إلى أيّ حيوان بوجه شبه حقيقي، فهي ناقصة الشكل نقصًا قصده المثلون الذين أرادوا بها نوعًا من الزينة.

ويكاد زائرو الحمراء لا يُصدّقون، أول وهلة، أن زخارف جدرانها منقوشة على الجصّ، لا على الحجارة، كما هو الأمر في القاهرة والهند، ويرى أولئك الزائرون الذين يتأملون قرن تلك الزخارف وسطها الأملس المصقول أن من المستحيل ألا تكون منقوشة على الرخام، ولم أر أنها من الجصّ إلا بعد أن حلّل لي أحد أعضاء المجمع العلمي، مسيو فريدل، قطعة صغيرة منها.

والجِصُّ الممزوج بقليل من المواد العضوية هو، إذن، ما صُنِعَتْ منه جميع نقوش الحمراء، ولا نستطيع سوى الاعتراف بإتقان صُنِعَ ذلك الجِصُّ الذي قاوم تقلبات الجو خمسمائة سنة من غير أن يَفْسُد، ولا أعتقد أن مهندساً أوروبياً في الوقت الحاضر يمكنه أن يعاهد على صنع نوعٍ من الجِصِّ يستطيع أن يدوم مثل هذا الزمن الطويل بلا عَطَب. ولا يُسْتَدَلُّ على بقاء جُدُر الحمراء بملاءمة جوِّ إسبانية لها ما تطرَّق الفساد إلى أجزائها التي رُثِّمَتْ بعد إجلاء العرب بزمن طويل، ويُعرف هذا الفساد، بسهولة، من انثلام تلك الأجزاء المرمة وانخفاضها وانتفاخها.

وقص جميع رجال الفن الذين زاروا قصر الحمراء العجيب، والألمِ مِلء قلوبهم، ما لا يكاد العقل يُصدِّقه من أنباء التخريب الفظيع الذي أحدثه الإسبان فيه، فقد هَدَمَ شارلكن قسماً مهماً منه لِيُنشَى في مكانه بناءً ثقيلاً، وعدَّته جميع الحكومات الإسبانية مجموعة من الخرائب القديمة التي لا تنفع لغير الاستفادة من موادها، قال مسيو دَقُّالِيه في كتابه عن إسبانية: «لقد بيعت ألواح الميناء التي كانت تُزَيَّن ردها الحمراء منذ بضع سنين لصنع المِلاط، وبيع باب مسجد البرونزي كنجاس عتيق، وحُرِّقَتْ منها أبواب ردهة بني سراج الخشبية الأنيقة كما يُحرق الخطب، ثم اتُّخِذَ من ردهاها الجميلة سجوناً للمجرمين ومخازن للميرة بعد أن بيعَ ما أمكن نزعها منها.»

وأراد الإسبان تطهير جدران الحمراء المزينة بالنقوش العربية الجميلة، فكسوها طبقةً كثيفةً من الكلس، ويظهر أن التكليس الذي تساوى في حُبِّه الإسبان والإنكليز هو مما يرغب فيه بعض الشعوب المتقدمة التي لا ترى ما هو أطيب منه للزينة، وهو مما يروق بالتدريج أولئك الأوربيين الذين يرون فيه مظهرًا للمساواة ووحدة الشكل المبتذلة.

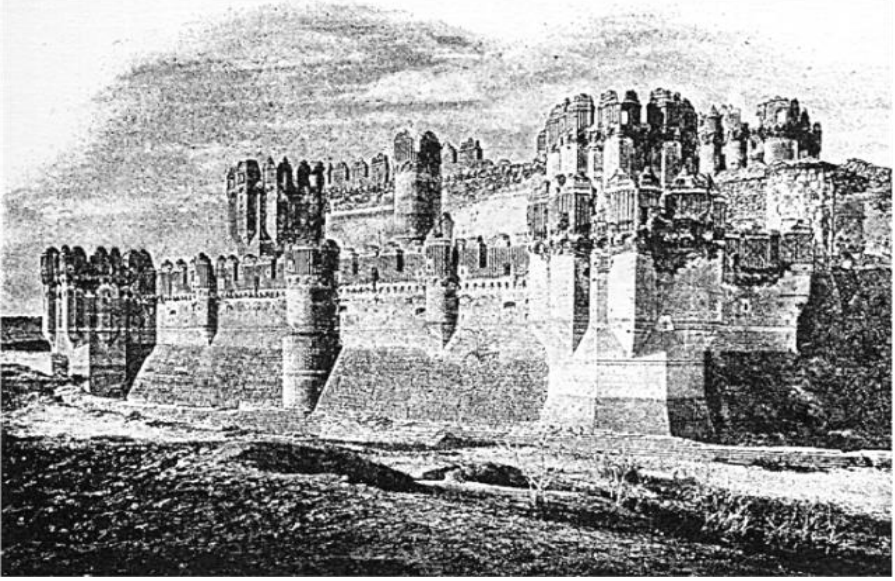


شكل ٦-٢١: قصر شقوية (من صورة فوتوغرافية)

ولمَّا يَمُضِ زمنٌ طويلٌ على تدمير المتفنين من تخريب قصر الحمراء، ونزع أولو الأمر من الإسبان إلى المحافظة على ما بَقِيَ من هذا القصر الساحر بعد أن قيل لأهل غرناطة، غير مرة، إنهم يملكون به إحدى العجائب التي تجلب إليهم السياح من كل جانب، فأزيل شيءٌ من الكلس الذي سِتِرَتْ به تلك النقوش العربية، وبُدئ بالترميم، والإسبان عاملون على ذلك ببطء لعدم وجود عمال في إسبانية قادرين على إنجاز هذا الترميم الذي يَسْهُل أمره عند النظر إلى النماذج.

ويُرى بجانب الحمراء قصرٌ عربيٌّ آخر يُسمى جَنَّة العريف، وقد بالغ الإسبان في تكليس جدران هذا القصر، فصِرَتْ لا تستطيع أن تتمثل حالته الأولى، وصار لا يستحق الحماسة التي يصفه بها مُطَوِّفو السياح خلا روضته.

وأما مدينة غرناطة فلا أنصح أحدًا بأن يزورها بعد أن وصفها شعراء العرب بأنها أنضر مدينة تنالها أشعة الشمس وبأنها دمشق الأندلس.



شكل ٦-٢٢: قصر شقوية (من صورة فوتوغرافية)

ولا أقدر أن أصِفَ الحال التي كانت عليها غرناطة فيما مضى، ولكن غرناطة الحديثة لم تكن سوى قرية كبيرة كثيفة قدرة ليس فيها ما يجدر ذكره غير كتدريثاتها الفخمة وحرائها، فضلًا عن أنها قائمة على مكان يُعد من أجمل أمكنة العالم، ولم تُبنَ بيوتها الحديثة على طراز معروف، وأمعنْتُ في البحث عن زخارفها التي قصَّ أدباء معاصرون مشهورون علينا خبرها فلم أجد لها أثرًا.

حقًا لم تكن غرناطة الجديدة سوى مدينة ميتة، ويُعرف أهلها بأنهم من الجهلة الثقلاء البعيدين من القرى، وهي نقيض مدينة أشبيلية التي تُشاهد فيها مسحة من الحياة، والتي تجدُ فيها من بائعي الكتب ما لا تجد في غرناطة.

أكتفي بذكر ما تقدّم من مباني العرب، فإذا أضفنا إليه قصرَ شقويّة وبعض الأبنية التي نتكلم عنها في الفصل الذي خصّصناه للبحث في تأثير العرب في أوربة كانت لدينا صورةٌ كافية للآثار العربية الماثلة الآن في إسبانية والتي هي بقايا عصر زاهر، والتي تكفي وحدها للدلالة على عظمة العرب ولو لم يَتَّهِ إلينا شيءٌ من علومهم وآدابهم.

الفصل السابع العرب في صقلية وإيطالية وفرنسة

(١) العرب في صقلية وإيطالية

يدلُّنا درسُ تاريخ العرب في مختلف الأقطار التي دخلوها على أن لغزواتهم مناحيَ مختلفةً، أي يدلنا على أنهم إما أن يكونوا قد أغاروا عليها؛ ليستقروا بها نهائياً، وإما أن يكونوا قد اكتفوا بغزوهم الخاطف لها، فأما في الحالة الأولى فقد كان من سياستهم الثابتة أن يكونوا على وئام مع الأهليين المغلوبين، وأن يحترموا دينهم وشرائعهم، وأن يكتفوا بأخذ جزية طفيفة منهم كما صنعوا في سورية ومصر وإسبانية، وذلك خلافاً لعادة جميع الفاتحين في زمانهم، وأما في الحالة الثانية فقد ساروا على سياسة كلِّ فاتح، فعدُّوا البلاد التي أغاروا عليها كإيطالية، وفرنسة على الخصوص، من الفرائس وانتهبوا بسرعة ما وصلت إليه أيديهم منها، وخزَّبوا فيها ما لم يقدِّروا على حمله غير مبالين بسكانها.

وسار العرب على ذينك التَّجدين في صقلية، فبما أن عدد من أغار منهم على صقلية وعلى قطعة من إيطاليا كان قليلاً وقفوا عند حد الغزو المؤقت وما ينشأ عنه عادةً من التخريب والنهب وقتل مَنْ يقاوم من الأهليين ثم العودة السريعة، ولما تكررت غزواتهم لتلك البلاد وأصابهم فيها من النجاح والتوفيق ما أصابهم رأوا أن يستقروا بها، وأن يُحسِّنوا سياسة أهلها، ولما رَسَخَتْ أقدامهم فيها كَفُّوا عن عادة نهبها، وأنعموا عليها بنعم الحضارة، وكان لهم فيها مثل ما كان لهم في إسبانية من الأثر النافع البالغ.

ويُمكننا، ببيان هذه الفروق الأساسية في سياسة العرب، إدراك تاريخ العرب في مختلف الأقطار التي استولوا عليها، وإيضاح عِلَّة اختلاف سياسة العرب أنفسهم في البلدان المتجاورة.

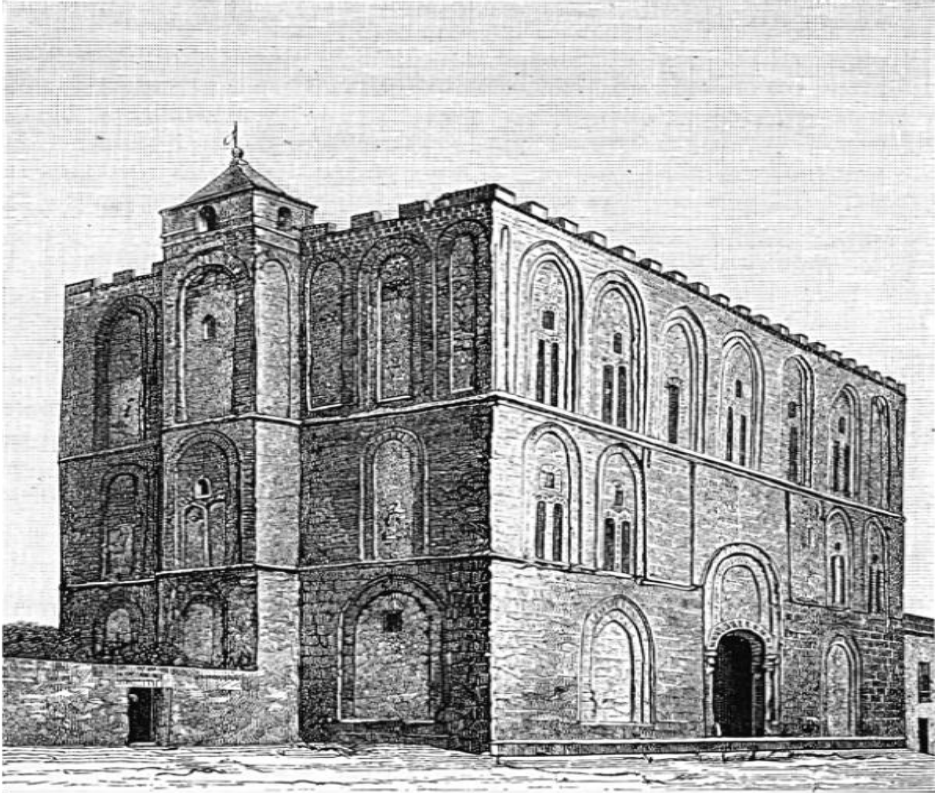
ومسلمو إفريقية هم الذين غزوا صقلية وإيطالية، وأكثر هؤلاء المسلمين من البربر؛ لما كان من قلة عدد العرب في ذلك الدور، وهؤلاء البربر من أشد الشعوب التي دانت لشرعة الرسول بأسًا، وأضعفهم تمدنًا كما ذكرنا.

وأغار العرب على صقلية وجزر البحر المتوسط بضع مرات منذ القرن الأول من الهجرة، ولم يحاول العرب الاستيلاء على صقلية جدًّا إلا في أوائل القرن الثالث من الهجرة حين استقل شمال إفريقية عن خلافة المشرق، وحين حدث ما شجَّعهم على ذلك.

وكانت جزيرة صقلية من أعمال حكومة بزنطة، وكانت حكومة بزنطة ترسل إليها حكامًا ليأرسوا السلطة فيها، ومما حدث أن عُهد إلى أمير البحر أوفيموس (فيمي) في الدفاع عنها، وأن عَلم أوفيموس أن قيصر بزنطة أمر بقتله، وأن قَتَلَ أوفيموس حاكم صقلية ونصب نفسه أميرًا عليها، وأن ثار أهلها عليه ففرَّ إلى إفريقية طالبًا حماية المسلمين، وأن عاد إلى صقلية مع جيش من المسلمين لم يلبث أن سار على حساب نفسه، فأتمَّ فتح صقلية بدخوله بَلَرَم بعد وقائع دامت بضع سنين (٢١٢هـ / ٢١٧هـ).

ولم يقتصر العرب، بمقاتلتهم الروم، على غزو صقلية، فقد استولوا على جنوب إيطاليا أيضًا، وبلغوا في تقدمهم ضواحي رومة، وأحرقوا كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولس اللتين كانتا قائمتين خارج أسوار رومة، ولم يرجعوا عنها إلا بعد أن وَعَدَهم البابا يوحنا الثامن بدفع جزية إليهم، واستولى العرب على مدينة برنديزي الواقعة على شاطئ البحر الأدرياتي ومدينة تارانت، وأغاروا على دوكية بني قِالنت، وصاروا سادة البحر المطلقين بفتحهم صقلية وأهمَّ جزر إيطاليا وقورسقة وقندية (الخندق) ومالطة وجميع جزر البحر المتوسط، ولم يَسع البندقية إزاء ذلك إلا أن تعدل عن محاربتهم لطويل زمن.

والنورمان هم الذين قضوا على سلطان العرب السياسي في صقلية في القرن الحادي عشر من الميلاد، وداوم العرب، بعد زوال سيادتهم، على القيام برسالتهم الثقافية فيها كبير وقت، وذلك أن ملوك النورمان، إذ كانوا من الذكاء ما يستطيعون أن يدركوا به تفوق العرب العظيم استندوا إلى العرب؛ فظل نفوذ أتباع الرسول في أيامهم بالغاً. وإذ كان لتاريخ النورمان صلة وثيقة بتاريخ العرب في صقلية رأيتُ أن أُحدِّث عن وقائعهم بإيجاز لفهم تاريخ حضارة العرب فيها، ومن المفيد أيضاً أن أذكر أسلوب الحرب في ذلك الزمن، وأن أُبين أعمال التخريب، التي لام مؤرخو اللاتين العربَ عليها، هي مما كان يستبيحه مقاتلو جميع الأمم.



شكل ٧-١: مقدم قصر العزيزة العربي في صقلية (من صورة فوتوغرافية).

نَعُدُّ الأحوال التي ساقَت النورمان من أمكنة بعيدة إلى فتح صقلية من غريب الحوادث، وذلك أن كوكبة من فرسان الفرنج والنورمان كانت قادمة، حوالي سنة ١٠١٥ م، من بيت المقدس إلى جنوب إيطاليا لتزور، وَفَقَّ العادة، غار جبل غورغانو الذي اشتهر بظهور الملك ميكائيل فيه، وأن كونت أفيلينو، روفريد، لما علم ذلك استنجد بهم للدفاع عن ساليرم التي كان العرب يحاصرونها، وأنهم استطاعوا أن يدخلوها، وأن يَشُدُّوا عزائم أهلها الذين لم يلبثوا أن فكُّوا الحصار وهزموا العرب، وأن أهل ساليرم وأميرهم فرحوا بذلك، ودارت الحمية في رؤوسهم، فأجزلوا عطاء أولئك الغرباء، ودَعَوْهم إلى الإقامة بين ظَهْرَانِيهم.

ومع أن أولئك الحجاج لم يَرْضُوا بذلك لرغبتهم في رؤية وطنهم مرة ثانية وعدوا بأن يبعثوا إليهم فتياناً منهم للدفاع عن النصرانية ببسالة، ثم توجهوا إلى وطنهم الذي كانوا في أشد الشوق إليه، وأخذوا معهم من الهدايا نساءً ثمينَةً وحُلَلًا فاخرة وسروجاً ذهبية وفضية زاهية، وما لم تعرفه فرنسة قبل ذلك الزمن من البرتقال الناضج، قاصدين بذلك أن يرى بنو قومهم تلك المنتجات، وأن يتشوّقوا إلى زيارة ذلك القطر الذي يُنتج مثلها. ولم يكد أولئك الفرسان النورمان يصلون إلى وطنهم حتى أخذوا يقصُّون على أهله من الأنباء ما ألهبوا به حميتهم، وما دفعوا به عددًا كبيرًا منهم إلى غزو صقلية.

ذلك هو سبب غارة النورمان الذين كان هُمُّهم مصروفًا إلى النهب على حسب عادة ذلك الزمن أكثر مما هو مصروف إلى الدفاع عن دينهم، والذين تساوى الأغارقة والإيطاليون والعرب في نظرهم فصاروا يَسْلُبون هؤلاء جميعًا بنشاط، والذين عدوا في خمسين سنة، أي حتى تم لهم الفتح، جزيرة صقلية وما جاورها من إيطاليا بلادًا مباركةً يمكن الاغتناء فيها بسهولة.

ولم ينشأ عن أعمال حُماة الدين من النورمان سوى تخريب تلك البلاد بسرعة، ولم يلبث أهلوها أن اعترفوا بأن صداقة فرسان النورمان أشدُّ وقراً من عداوة العرب، فاستغاثوا بالبابا لينقذهم من النورمان، ولم يُجِدْ إنذارُ البابا للنورمان نفعاً، فأرسل إلى قيصر القسطنطينية كتاباً يدلُّنا على سوء معاملة جيشٍ نصراني في ذلك الزمن لبلاد صديقة استولى عليها.

وإليك كتاب البابا ليون التاسع الذي بعث به إلى قيصر القسطنطينية: يكاد قلبي يتفطر من الأخبار المحزنة التي أنبأني بها رُسُل ابني أرجيوس، فعزمتُ على تطهير إيطاليا من ظلم هؤلاء الأجانب النورمان المردة الأشرار الزنادقة الذين لا يحترمون شيئاً عند اندفاعهم، والذين يذبحون النصرى، ويسومونهم أشد العذاب غير راحمين ولا مفرقين بين الجنسين والأعمار، والذين ينهبون الكنائس ويُحرقونها ويهدمونها، والذين يعدُّون كلَّ شيء فريسةً يُباح سلبها، والذين أكثرت من لومهم على فسادهم، ومن إنذارهم بسوء أحكامي، وخوفتهم من سخط الرب، فلم يزددهم ذلك إلا عتواً، فكان أمرهم كقول الحكيم: إن من يتركه الربُّ يظل خبيثاً على الدوام، وإن من يكون مجنوناً لا يُصلحه الكلام، ولهذا فقد عزمت على شهر الحرب الدينية المشروعة على هؤلاء الغرباء الثقلاء الذين أمعنوا في الظلم وصار أمرهم لا يُطاق، وهذا دفاعاً عن الشعوب والكنائس.

وإذ لم ينل البابا ليون التاسع أية مساعدة من قيصر الروم سعى إلى عقد حلفٍ ضدَّ النورمان، وخاطب الألمان في ذلك، ورأى الأسقفُ أيشتات عاراً في قيادة البابا لجيش يحارب به النصرى، ومنع ملك جرمانية، هنري الثالث، من الانضمام إليه، هنالك جمع البابا جيشاً أكثر عدداً من الجيش النورماني، وهجم على النورمان بصولة متوكلاً على

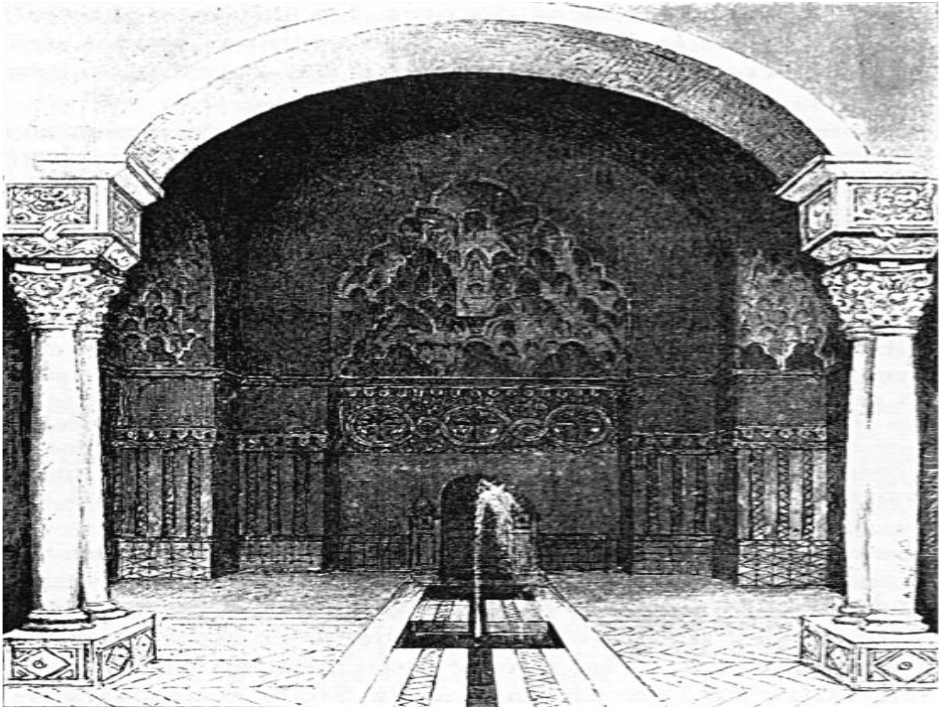
الرب فكُسرَ وأسر، وهنالك حاول البابا أن يستعطف قاهريه فاسترد حرمانه إياهم ومنحهم البركة، ولم يؤثر هذا في مشاعر النورمان، ولم يُسرّحوه إلا بعد سنة، وبعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق الغليظة.

وداوم النورمان، الذين خلا لهم الجوّ بذلك على اقتراف جرائم النهب عمداً في صقلية وإيطالية، ودام النزاع بين الحاكمين والمحكومين زمناً طويلاً، وتعوده الأهليون، وصاروا يألّفون ما يقع كل يوم من حوادث السلب والقتل التي قصّ المؤرخون خبر كثير منها كما لو كان ذلك من الوقائع اليومية التي لا أهمية لها، ومن ذلك أن فرسان النورمان كانوا يفاجئون الأديارَ السيئة التحصين، ويسلبون كل ما فيها، ويقرّون بطون رهبانها على بكرة أبيهم خشيةً الفضيحة، وأن الرهبان من ناحيتهم كانوا يتغفلون بعض أولئك الفرسان بين حين وآخر فينتقمون منهم أشد الانتقام.

وتاريخ اللاتين حافلٌ بوصف أنباء تلك المجاملات المتقابلة، ومن بين ألف حادثةٍ منها اختار الخبر الآتي الذي اطلع عليه مسيو دُولَـاَـرِيْمُودِيرِي في وثائق رهبان جبل كاسِينُو للدلالة على طبائع أهل ذلك الزمن:

صعد الكونت رَادُلْف في جبل كاسينو ذات يوم، وكان معه خمسة عشر نورمانياً، فترك هؤلاء النورمان، على حسب العادة، أسلحتهم وحيولهم عند باب الدير الذي دخلوه للصلاة، وبينما كان هؤلاء النورمان جُثّاً أمام هيكل القديس «بِنُوَا» أغلق الرهبان أبواب الدير من فورهم، وقبضوا على تلك الأسلحة والخيول، ودقوا النواقيس إيداناً بالخطر، فتدفّق أنصار الدير كالسيل، وهجموا على هؤلاء النورمان الذين لم يبقَ لهم ما يدفعون به عن أنفسهم سوى السُّبُحات التي كانت بأيديهم.

وذهب عبثاً ما تضرَّعوا به لاحترام ذلك المكان المقدس الذي لم يحدث أن احترموا أمثاله، وذهب عبثاً قَسَمُهُمْ إنهم لم يدخلوا الدير إلا للعبادة وللاتفاق مع رئيسه، فقد جعل الرهبان أصابعهم في آذانهم، ولم يرضوا أن يُضيعوا ما سَنَحَ لهم من فرصة الانتقام، وقد قُتِلَ أصحابُ الكونت الخمسة عشر، ولم ينجُ الكونت نفسه من القتل إلا بفضل شفاعَةِ رئيس الدير الذي اهتبل هذه الفرصة فأعاد إلى الدير ما كان هذا الكونت قد اغتصبه من الأملاك والأموال، وقصرُ القديس أندره وحده هو الذي حاول المقاومة.



شكل ٧-٢: داخل قصر العزيزة في صقلية (من تصوير جيروld دوپرانجة).
واستمرَّ النورمان على نهب صقلية إلى أن فكر رئيسٌ ماهر من رؤسائهم، اسمه روجر، في فتحها بحزم، والفرصة كانت سانحة لتحقيق ذلك.

وكان الانقسام يأكل المسلمين، وكان ما بين العرب والبربر من المنافسة يقودهما إلى الهلاك في صقلية كما كان يقودهما إليه في إسبانية، وكانت صقلية في ذلك الزمن، أي في سنة ١٠٦١م، مجزأة إلى الإمارات الخمس: بَلَرْم ومَسِينَة وقَطَانِيَة وأَطْرَابُنْش وجرجنتة، وأطلق المؤرخون لقبَ ملك على أمير بَلَرْم، ولكن هذا الملك كان يقتتل هو والأمراء المسلمون الآخرون مع استيلاء النورمان على نصف جزيرة صقلية.

وجعل انقسام العرب في صقلية فتح النورمان لها من الممكنات، وتمَّ استيلاء النورمان عليها بدخولهم بلرم سنة ١٠٧٢م، فأفل نجم العرب السياسي عن صقلية في تلك السنة، وإن دام تأثيرهم الثقافي بعدها زمنًا طويلاً بفضل دراية روجر وخلفائه.

وبدا روجر الأول، الذي نودي به أميرًا على صقلية، منظمًا قديرًا كما بد مقاتلاً شجاعًا، ويجب عده من أعظم رجال زمنه، ويستحق ابنه الذي خلفه مثل هذا المديح.

وكانت حضارة العرب زاهرة في صقلية حين فتحها النورمان، وأدرك روجر وخلفاؤه أفضلية أتباع النبي؛ فانتحلوا نظمهم، وشملوهم برعايتهم، وتمتعت صقلية برخاء دام إلى أن قبض ملوك من السُّوَاب على زمامها في سنة ١١٩٤م فأجلوا العرب عنها.

وكان يسكن صقلية، حينما نظم روجر أمورها، خمسة شعوب ذات لغات وعادات مختلفة، وهي: الفرنج (النورمان ولا سيبا البريتان) والأغارقة واللبار واليهود والعرب، وكان لكل من هذه الشعوب شريعة خاصة، أي كان الأغارقة يعملون بقانون جوستينان، واللبار يعملون بالفقه اللبباري، والنورمان يعملون بالفقه الفرنجي، والعرب يعملون بالقرآن، وكان لا بد لمن يريد أن يُحسن سياسة هذه الشعوب المختلفة من التحلي بروح التسامح والعدل والإنصاف، وكان العرب يدركون ذلك فجاء روجر فأدركه أيضًا، وكانت إمامة الثقافة والصناعة للمسلمين، فأخذ روجر يحافظ عليهم أحسن المحافظة،

وكانت مراسيم روجر تُكتب بالعربية واليونانية واللاتينية، وكان نصف الكتابة في دائرة نقوده بالعربية والنصف الآخر باليونانية أو اللاتينية، وكان بعضها يشتمل على رمز المسيح، وبعضها منها يشتمل على رمز محمد، وبعضها آخر يشتمل على كلا الرمزين. وسار خلفاء روجر على سنته، ومنهم غليوم الثاني الذي درس لغة العرب، وكان يرجع إليهم في أهم شؤونهم، وكانوا يقابلون عطفه بإخلاصهم له، فينضون إليه ويساعدونه على إطفاء ما يقع من الفتن.

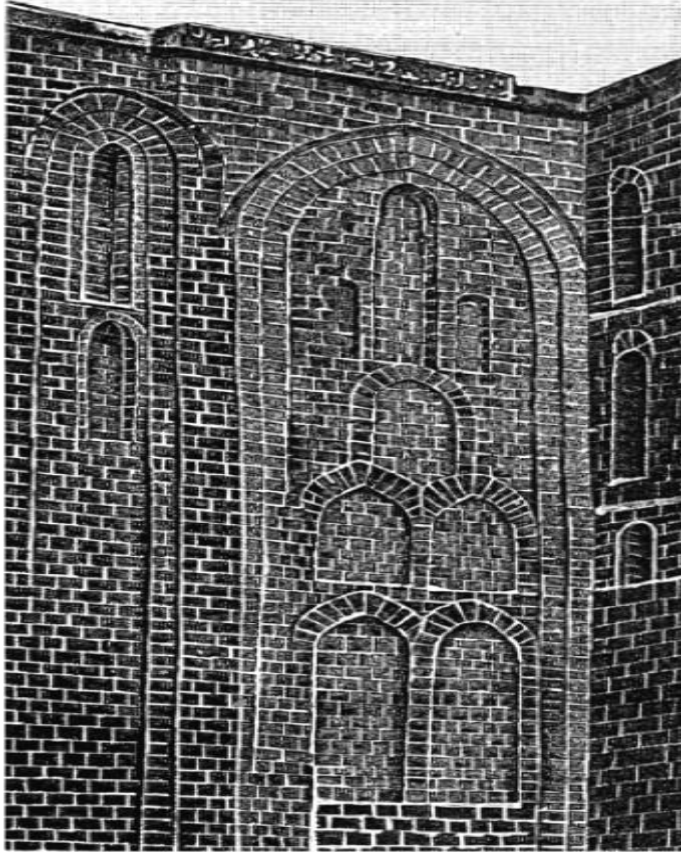
وروى مؤرخو العرب أن عدد العرب في صقلية أصبح كثيرًا في سنة ١١٨٤م، أي بعد قرن من ذلك الفتح، وأنه كان لهم في بلرم أحياء واسعة ومساجد كثيرة وأئمة وقاضٍ للفصل في خصوماتهم، وأزهر بلاط ملوك النورمان في صقلية بفضل العرب، وبالغ أبو الفداء في تقديره؛ فشبهه ببلاط الخلفاء في بغداد، وببلاط الخلفاء في القاهرة.

(٢) حضارة العرب في صقلية

إن المصادر التي يرجع إليها في تصوير حضارة العرب في صقلية قليلة، وليس لدينا منها غير ما هو مبثّر في كتب المؤرخين من الفقر، وقليل من المباني التي لم تنلها يد التخريب، وبعض النقود، وتكفي هذه المصادر، مع ذلك، لإثبات أن حضارة العرب كانت في صقلية على شيء من التقدم، وإن لم تكن مثل ما كانت عليه في مصر وإسبانية، وأن صقلية كانت حين جلاء العرب عنها أرقى ثقافة وصناعة واجتماعيًا منها حين دخلوها، ونحن إذا علمنا أن قيمة تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى من ناحية الحضارة تُقدّر بمقدار نهوضها بها وإصلاحها لها رأينا أنه كان للعرب تأثير عظيم في صقلية.

وعقب دور تنظيم العرب لصقلية دور فتحهم لها، فقسّم العرب صقلية إلى ثلاث ولايات بعد أن كانت مقسومة، منذ زمن القرطاجيين إلى الولايتين: بلرم وسرقوسة، فكان تقسيم

العرب لها إلى ثلاث ولايات أكثر ملاءمةً لجغرافيتها، وكان على رأس كل واحدة من هذه الولايات الثلاث وال، وكانت كل ولاية مقسمةً إلى عدة أعمال، وكان يقوم بشؤون كل واحد من هذه الأعمال قائدٌ تابع للوالي، وكان يقيم ببلرم مفتٍ، وكان يقيم بكل ناحية قاضي ومسجلٌ، وكان في كل مدينة جابٍ، وكان يُشرف على إدارة أمور المال والمحاسبة ديوانٌ كبير.



شكل ٧-٣: جزئيات إحدى وجهات قصر القبة العربي في صقلية (من صورة فوتوغرافية).

وترك لنصارى صقلية كل ما لا يمس النظام العام، فكان للنصارى، كما في زمن الروم، قوانينهم المدنية والدينية وحكامهم للفصل في خصوماتهم وجباية الجزية السنوية التي فرضها العرب عليهم، وهي ٤٨ دينارًا عن كل غني، و٢٤ دينارًا عن كل موسر، و١٢ دينارًا عن كل من يكسب عيشه بنفسه، وكانت هذه الجزية، التي هي دون ما كان يأخذه الروم، لا تؤخذ من رجال الدين والنساء والأولاد.

وجعل العرب كل ما له علاقة بالحقوق المدنية، كالتملك والإرث وما إليهما، ملائمة لعادات صقلية، ولم يرغب النورمان عنه حين استولوا عليها.

وسمّح العرب، في أيام سلطانهم، للنصارى بالمحافظة على قوانينهم وعاداتهم وحرّيتهم الدينية، وقد روى الدومينيكي كواردين، وكان رئيسًا لدير القديسة كاترين في بلرم، أن القساوسة كانوا أحرارًا في الخروج لابسين حُلّهم الدينية ليناولوا المرضى القربان الأقدس، وقد روى الأب مورّ كولي أنه كان يُنصب في الحفلات العامة بمسّينة رايتان: إحداها إسلامية وعليها صورة برج أسود في حقل أخضر، والأخرى نصرانية وعليها صورة صليب مذهب في حقل أحمر، ولم يمسّ العرب الكنائس القائمة في صقلية حين فتحهم لها، وإن لم يأذنوا لهم في بناء كنائس جديدة فيها كما كانوا يأذنون لنصارى إسبانية.



شكل ٧-٤: نقود نصرانية عربية للملوك النورمان في صقلية.

ولم تكد أقدام العرب ترسُخ في صقلية حتى أقبلوا على الزراعة والصناعة، فانتشلوها بسرعة من الانحطاط الذي كانتا فيه، وأدخلوا إلى صقلية زراعة القطن وقصب السكر والدردار^{٨٨} والزيتون، وحفروا فيها التُّرع والقنوات التي لا تزال باقية، وأنشأوا فيها المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم.

وتقدمت الصناعة في صقلية بفضل العرب، واستغلَّ عربُ صقلية ثروتها الطبيعية، واستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت والرخام والگرانيت ... إلخ، بأساليب فنية، وأدخلوا إليها صنع الحرير، ومما يُرى في نور نبرغ رداءٌ من الحرير كان

^{٨٨} الدردار: شجر عظيم له زهر أصفر، وورق شانك، وثمر كقرون الدفلى.

يلبسه ملوك صقلية مُطَرَّزًا بكتابات كوفية مع تاريخ سنة ٥٢٠هـ / ١١٣٣م، ويحمل كل شيء على القول بانتشار فنِّ صباغة المنسوجات في أوربة من صقلية.

وانتعشت التجارة، واتسع نطاقها أيام العرب بعد أن كانت صِغَرًا، تقريبًا، قبلهم كما يدلُّ على ذلك ما انتهى إلينا من جداول مكوسهم التي أدرجت فيما نظَّمه النورمان من القوائم في أوائل الفتح فتُبَّت درجة تحوُّل تجارة صقلية حين هذا الفتح.

ولم يبقَ من المباني الإسلامية في صقلية سوى عدد قليل، وأشهرُ هذه المباني قصرُ العزيزة وقصرُ القبة القائمان بالقرب من بلرم، واللذان ثبت بهما أنه لم يكن من المبالغة ما رواه المؤرخون عن فخامة مباني العرب في صقلية، فعن هذه المباني المزينة بالرخام الثمين والفسيفساء الزاهرة والمحاطة بأجمل الرياض تكلمَّ الراهب ثيودوز والعالم الجغرافي الإدريسيُّ مع الإعجاب، والراهب ثيودوز هذا أُسِرَ في أثناء حصار سرقوسة في سنة ٨٧٨م، ونُقِلَ إلى بلرم، وامتدح قصور هذه المدينة المهمة ومساجدها وضواحيها.

واسمع في وصف بلرم ما قاله العالم الجغرافيُّ العربي الإدريسي الذي ألَّف كتاب رحلته الكبير في بَلَرَم في عهد الملك روجر الثاني أي بعد الفتح النصراني بزمان قليل:

بلرم هي المدينة السَّنيَّة العظمى، والمحلة البهية الكبرى، والمنبر الأعظم الأعلى، عَلمُ بلاد الدنيا، وإليها في المفاخر النهاية القصوى، ذاتُ المحاسن الشرائف، ودار الملك في الزمان المؤتلف والسالف، ومنها كانت الأساطيل والجيوش تغدو للغزو وتروح كما هي عليه الآن من ذلك، وهي على ساحل البحر في الجانب الغربي والجبال الشواحق العظام محدقةً بها، وساحلُها بهج مُشرق فَرَجٌ، ولها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناءاتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها، وهي على قسمين: قصر وَرَبَض، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد وإقليم، وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة؛ السَّاط

الأوسط يشتمل على قصور منيفة، ومنازل شاحخة شريفة، وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار، والسَّاطان الباقيان فيهما أيضًا قصورٌ سامية، ومبانٍ فاخرةٌ عالية، وبهما من الفنادق والحمامات كثير، وبهما الجامع الأعظم الذي كان بيعه^{٨٩} في الزمن الأقدم، وأعيد في هذه المرة على حالته في سالف الزمان، وصِفته الآن تعزَّب عن الأذهان، لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة المنتخبة المخترعة، ومن أصناف التصاوير وأجناس التزييق والكتابات، وأما الرِّبض؛ فمدينة أخرى تُحدِّق بالمدينة من جميع جهاتها، وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة التي كان بها سُكنى السلطان والخاصة في أيام المسلمين، وباب البحر ودار الصناعة التي هي للإنشاء، والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة، وعيونها جارية متدفقة، وفواكهها كثيرة، ومبانيها ومنتزعاتها حسنة، تُعجز الواصفين، وتبهر عقول العارفين، وهي بالجملة فتنة للناظرين، والقصر المذكور من أكبر القصور منعةً وأعلاها رفعةً، لا ينال بقتال، ولا يُطاق على حال، وبأعلاه حصن محدث للملك المعظم رجار مبنِيّ بالفصوص الجافية والحجارة المنحوتة الضخمة، وقد أحكم نَسَقَه وأعليت رُقْعَه، وأوثقت مناوره ومحارسه، وأتقنت قصوره ومجالسه، وشيدت بنيانًا ونُمِّتت بأعجب المغتربات، وأودعت بدائع الصفات، فشهد لها بالفضل المسافرون، وغلا في وصفها المجوِّلون، وقطعوا قَطْعًا أن لا مباني أعجب من مباني المدينة، ولا مكان أشرف من مغانبها، وأن قصورها مشارف القصور، وأن دورها منازلُ الدور، والرِّبض المُحدِّق بالقصر القديم المتقدم ذكره هو في ذاته كبير القطر كثير الفنادق والديار والحمامات والحوانيت والأسواق، وله سورٌ يحيط به وخندقٌ وفصيل، وله في داخله، بساتين كثيرة ومنتزهات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة إليها من الجبال المحدقة

^{٨٩} البيعة: معبد النصارى.

ببقعتها، وبخارج الرض من الجهة الجنوبية منها نهر عباس، وهو نهر جارٍ عليه جبل من الأرحاء الطاحنة لا يحتاج معها إلى غيرها.

وُتُفَسِّرُ إمامة العرب في الفنون والصناعات والعلوم سببَ حماية ملوك النورمان لهم، وكان الرهبان يُعجبون بحذق العرب وإن كانوا يَعزُّون اكتشافاتهم إلى السحر، وإنني أنقل، العبارة الغريبة الآتية التي وردت في كتاب تاريخي لاتيني، وذلك من بين العبارات الطريفة الكثيرة التي قيلت في العرب، وذلك للدلالة على رأي أعداء العرب في العرب، قال المؤرخ:

اكتشف الكونت روبرت ويسكارد في إحدى غزواته تمثالاً على عمود رخامي متوج بإطار من نحاس منقورة فيه هذه الكلمة: «سأكون عند طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو صاحباً لتاج من ذهب»، فلم يستطع أحدٌ أن يدرك مغزاها، ولكنه كان عند الكونت روبرت أسيرٌ من عرب صقلية عنده علم الجُفْر، كجميع أبناء هاجر فأخبر الكونت هذا بأن لديه مفتاح ذلك اللغز وبأنه يقول له معنى تلك الكلمة إذا أطلق، فوعده الكونت بذلك، فأشار ذلك العربي عليه بأن يحفر حين طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو المحلَّ الذي يدل عليه منتهى ظل ذلك التمثال، فصنع الكونت ما نصحه به فوجد كنزاً كبيراً.

(٣) غزو العرب لفرنسة

شن العرب غارات كثيرة على فرنسة بعد فتحهم إسبانية، ولم يقع ما يدل على أنهم كانوا يريدون الإقامة الجديّة بفرنسة، وفُسِّرَ هذا بعدم ملاءمة المناطق الباردة لهم. والحقُّ أن الرخاء كان يصبح حليف العرب في المناطق المعتدلة الجنوبية، وأن العرب استقروا بأقصى جنوب فرنسة زمناً طويلاً.

وكان يملكُ بلادَ فرنسة، حين ظهر فيها العرب في القرن الثامن من الميلاد، أمراء يُعرفون بالملوك الكُسالي، وكانت تأكلها الفوضى الإقطاعية، وكانت مستعدةً لتكون غنيمة لغزاة العرب الذين استولوا على أكثر مدنها الجنوبية بسهولة، ودخل العربُ قَرْشُونة ونيم وليون وماكون وأوتون ... إلخ، بالتتابع بعد أن فتحوا أربُونة من إقليم لَنُغدوكة، وحاصروا في سنة ٧٢١م مدينة طُلُوشة التي كانت عاصمة أكيثانية على غير جدوى، وانتشر العرب في جميع وادي الرون وفي دوفينة وبورغونية.

واستولى العرب بالتدريج على نصف فرنسة الحاضرة الذي يبدأ من ضفاف نهر اللُوار وينتهي إلى مقاطعة فَرَنش كُوتِه، ولم يقصد العرب الاستقرار بتلك البلاد، بل اكتفوا باحتلال بعض المراكز المهمة؛ لتكون قواعد يستطيعون أن يشنوا منها غاراتٍ جديدةً على بعض البقاع حيث يأملون أن يجدوا ما يغنمون.

وأهم تلك الغارات هي التي كانت بقيادة عبد الرحمن الغافقي فوقَّفها شارل مارتل (قارلة) بالقرب من پواتيه سنة ٧٣٢م.

جمع عبد الرحمن الغافقي جيشًا على شيء من الأهمية في إسبانية وعَبَرَ نهر الغارون، واستولى على بوردو (برديل) على الرغم من دفاع الأكيثان والقسكون الذين كان يقودهم دوك أوديس، ثم توجَّه إلى پواتيه فاستغاث دوك أوديس بشارل مارتل الذي كان يُلقَّب بأمير القصر، ويمارس السلطة باسم ملكين ضعيفين من ملوك الميروقنجيين في المقاطعتين: أُسْتَرَازية ونُسْطَرِيَّة.

وروى أحدُ مؤرخي العرب أن كثيرًا من سنيورات الفَرَنج اشتكوا إلى شارل مارتل من الأضرار التي أحدثها المسلمون، ومن الخزي الذي يمكن أن يصيب البلاد من جرَّاء دحر أناس غير مدربين، وغير حاملين سلاحًا كافيًا؛ لمحاربين مجهَّزين بالدروع وبعدة الحرب

الكاملة، فأجابهم شارل مارتل قائلاً: «دعوهم يصنعوا ما يشاءون، فهم الآن مستأسدون، وهم كالسيل الذي يأتي على كل ما يعترضه، وما عندهم من الحماسة والشجاعة يقوم مقام الدروع والحصون، ولكنهم إذا ما أثقلتهم الغنائم، وطاب لهم المقام بالبيوت الجميلة، وألفوا رفاهية العيش، واستحوذ الطمع على قاداتهم، ودب الشقاق في صفوفهم — زحفنا عليهم واثقين من النصر.»

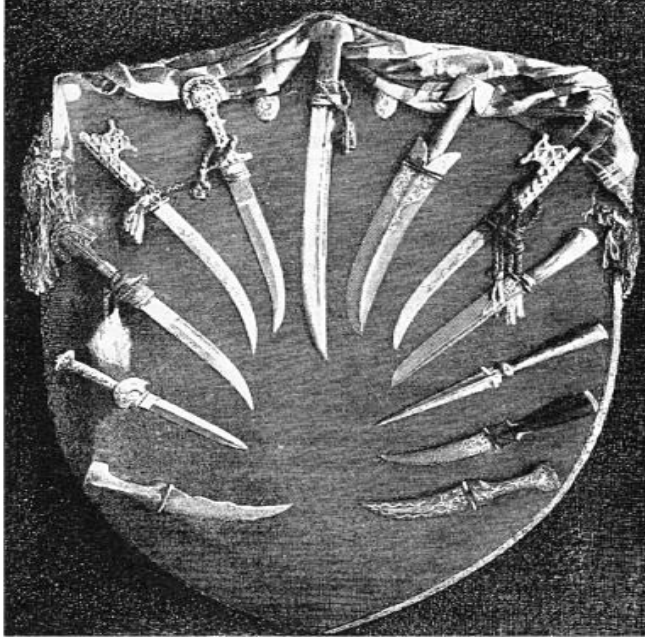


شكل ٧-٥: إبريق عربي مصنوع من البلور في القرن العاشر من الميلاد (متحف اللوفر، صورة أُخذت من جريدة الفنون الجميلة).
أجل، كان رأي شارل مارتل صائبًا، غير أن الرُّعب الذي ألقاه العرب في القلوب كان من الشدة ما تُركوا معه يَنْهبون البلاد التي قطعوها بدلًا من محاولة وقفهم.

واستطاع عبد الرحمن الغافقي أن يسير، إذن، متصراً غير هيّاب إلى الأمام، وأن يُحَرَّب الحقول الخصبة الواقعة بين مدينة بوردو ومدينة تور، وأن يأخذ غنائم كثيرة من المدن، ونحن إذا علمنا أنه لم يكن من عادة العرب أن ينهبوا البلدان التي يرغبون في استيطانها، كما ذكرنا ذلك غير مرة، رأينا أن سلوك عبد الرحمن الغافقي يدل على أنه، بدخوله فرنسة، لم يفكر في غير الغنائم، ويتجلى لنا ذلك عندما نعلم أن العرب، حينما وصلوا إلى مدينة تور، كانوا مُثقلين بالغنائم وأنهم لم يستطيعوا التقدم إلا بمشقة، وأن عبد الرحمن الغافقي لما عَلم زحف شارل مارتل الذي جمع جيشاً من الممالك المتحدة تحت لواء كلوفيس فيما سلف، فكر في الارتداد فنزل إلى هواتية واضطر إلى منازل شارل مارتل الذي كان يتعقبه. وكان جيش شارل مارتل مؤلفاً من البوغورن والألمان والغول، وكان جيش عبد الرحمن الغافقي مؤلفاً من العرب والبربر، وظلت المعركة غير حاسمة بعض اليوم، فلما كان المساء انفصلت فرقة من جيش الفرنج لتُغير على معسكر المسلمين، فترك المسلمون ميدان القتال ليحافظوا على غنائمهم، فأفسرت هذه الحركة الخرقاء إلى خسارتهم، فاضطروا إلى القتال متقهقرين إلى الجنوب، وقد تتبّعهم شارل مارتل من بعيد، وحاصر أربونة غير موفق، وأخذ ينهب البلاد المجاورة على حسب عادات ذلك الزمن، وحالف أمراء النصارى العرب؛ ليتخلصوا منه، وحملوه على القتال مُرتدّاً.

ولم يلبث المسلمون، بعد أن أفاقوا من تلك الضربة التي أصابهم بها شارل مارتل، أن أخذوا يستردون مراكزهم السابقة، وقد أقاموا بفرنسة قرنين بعد ذلك، وقد سلّم حاكم مرسيلية مقاطعة الپروفنس إليهم في سنة ٧٣٧م، واستولوا على الآرل، ودخلوا مقاطعة سان ترويز في سنة ٨٨٩م، ودامت إقامتهم بمقاطعة الپروفنس إلى نهاية القرن العاشر من

الميلاد، وأوغلوا في مقاطعة الفالة وسويسرة سنة ٩٣٥م، ورَوَى بعض المؤرخين أنهم بلغوا مدينة ميس.



شكل ٦-٧: أسلحة عربية صُنعت في مختلف الأزمنة (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وثُبتت إقامة العرب بفرنسة مدة تزيد على قرنين بعد شارل مارتل أن النصر الذي أحرزه في پواتية لم يكن مهمًا كما زعم المؤرخون، ولم يُقَمَّ إجماع هؤلاء المؤرخين الذين قَصُّوا علينا أن شارل مارتل أنقذ أوربة والنصرانية من العرب على أساس متين كما يبدو لنا، فلم تكن غزوة عبد الرحمن الغافقي سوى حملة قام بها؛ لِيُموِّن جنوده، ويمكِّنهم من أخذ مغانم كثيرة، وما كان العرب ليفعلوا أكثر من نهب مدينة تور وبضع مدن أخرى، سواء انتصر شارل مارتل أو لم ينتصر، وما كان همُّهم مصروفًا إلى غير العودة بما غنموه على أن يُعيدوا الكرة في سنة أخرى إلى أن يجدوا أمامهم من التحالف ما يدرحهم.

ولم يستطع شارل مارتل أن يطرد العرب من أية مدينة احتلوها عسكرياً، واضطر شارل مارتل إلى التقهقر أمامهم تاركاً لهم ما استولوا عليه من البلدان، والنتيجة المهمة الوحيدة التي أسفر عنها انتصاره هي أنه جعل العرب أقلّ جرأة على غزو شمال فرنسا، ونتيجةً مثل هذه، وإن كانت مفيدة، لم تكفٍ لتكبير أهمية انتصار هذا القائد الفرنجي.

ويرى المؤرخون الذين يُجسّمون قيمة انتصار شارل مارتل على العرب بالقرب من پواتية أنه لولا هذا الانتصار؛ لاستمر العرب على غزواتهم، واستولوا على أوربة، ثم يسألون مذعورين عن مصير الشعوب النصرانية لو خَفَقَتْ فوقها راية النبي، قال مسيو هنري مارتن في كتابه عن تاريخ فرنسا الشعبي: «لقد تقرر مصير العالم في تلك المعركة، ولو غَلَبَ الْفَرَنْجُ فيها لكانت الأرض قبضة محمد ... ولخسرت أوربة والدنيا مستقبلها، فليس النشاط الذي يَحْفِزُ الناس إلى التقدم مما نَجِدُه في عبقرية المسلمين التي تتلخص في فكرتهم عن الله، وإله المسلمين قد جنح إلى العزلة والسكون بعد أن خلق العالم، وهو لا يَحُثُّ الناس على العمل في سبيل الرقي».

والجواب عن ذلك هو أن النصر لو تَمَّ للعرب ما طَرَأَ تبديل على مقادير البلاد، فإذا ما كان العرب غالبين انتهبوا بضع مَدُن، على ما يحتمل، زيادةً على المدن التي انتهبوها كما قلنا آنفاً، ثم ارتدوا حاملين غنائمهم إلى ملجأ أمين، ثم عادوا في السنين القادمة إلى سيرتهم الأولى ريثما يلقاهم عدوٌّ قوي يَدْحَرُهُمْ كما وُقِّعَ له شارل مارتل.

ولكن لنفرض جدلاً أن النصرارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جَوْ شِمال فرنسا غير بارد ولا ماطر كجَو إسبانية فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربة؟ كان يصيب أوربة النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوربة التي تكون قد هُذِّبَتْ ما حدث فيها من

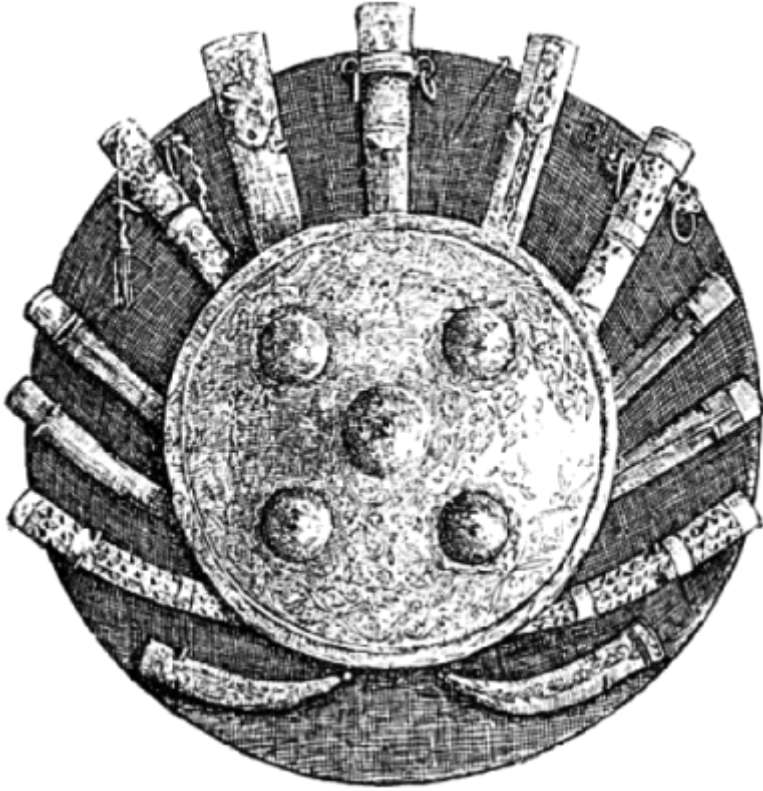
الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتلمي، ومظالم محاكم التفتيش ... وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضَرَّجَتْ أوربة بالدماء عدة قرون.

ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخ حضارة العرب جهلاً مُطَبِّقاً؛ ليوافق على ما زعمه ذلك المؤرخ العالم من «أن النشاط الذي يحفز الناس إلى التقدم ليس مما تجده في عبقرية المسلمين»، ومن «أن أوربة والدنيا كانتا تحسران مستقبلهما»، فمزاعم مثل هذه ليست مما يقف أمام سلطان النقد عندما يُعْلَم أن التمدن اللامع حلَّ بالبلاد التي خَصَّعت لأتباع الرسول محل الهمجية، وأن النشاط الذي يحفز الإنسان إلى التقدم لم يكن قوياً في أمةٍ مثل قوته في العرب.

ولم يكن احتلال العرب لجنوب فرنسة عدة قرونٍ غير ذي أثرٍ ضعيف، فبما أن المدن التي استولوا عليها في جنوب فرنسة من القواعد الحربية التي كانوا يستندون إليها في غاراتهم لم يبالوا بتمدينها، ولم يكن لهم في جنوب فرنسة مراكزٌ مهمةٌ للحضارة كما اتفق لهم في إسبانية وبلاد المشرق.

ومع أن إقامة العرب بفرنسة نشأت عن بعض السرايا نراهم قد تركوا أثراً عميقاً في اللغة وفي الدم كما نذكر ذلك في فصل آخر، وذلك أنه استقرَّ أناسٌ كثيرون منهم بالأرضين القريبة من المدن التي استولوا عليها وتَعَاطَوْا فيها أمور الزراعة والصناعة، وأنهم أدخلوا صناعة البُسْط إلى أبُوسُون، وأنهم أدخلوا كثيراً من أساليب الفلاحة كما عُرِزي إليهم، وأنهم امتزجوا بسكان البلاد بسبب محالفاتهم الكثيرة لأمراء النصارى الإقطاعيين المتقاتلين على الدوام، وأنه وُجِدَ حَفْدَةٌ للعرب في أماكن كثيرة من بلاد فرنسة كالمقاطعات: كروز والألب الأعلى ومونتمور (جبل المغاربة) وبنيو (شارانت) وبعض قرى لاند وروسيون ولنغدوكة وبيارن كما أثبت ذلك علمٌ وصف الإنسان، فيمكن

الإنسان أن يَعْرِفَهُمْ بجلودهم السُّمر وشعورهم السود وأنوفهم القُنُو وعيونهم الثاقبة اللامعة، ويمكن المرء أن يُعرف نساءهم بألوانهن الزيتية ووجوههن الأسيلة وأعينهن النُّجَل الدُّعج وحواجبهن الرُّجَّ وصدورهن الناهدة ... إلخ، وإذا كانت هذه الصفات قد ظلت باقية فلم تَمَحِّ بِغَرَقِهَا في صفات السكان المجاورين، تبعاً للسنن الإثنولوجية التي يَبْنِئُهَا، فلأن حفدة العرب أولئك أَلْفُوا جماعاتٍ صغيرةً منفصلةً عن بقية الأهلين غير متصلة بهم بصلات التوالد.



شكل ٧-٧: قرب عربية (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

انتهينا من تاريخ العرب في مختلف الأقطار التي دانت للإسلام، وعلمنا درجة اختلاف هذا التاريخ باختلاف البيئات التي أقاموا بها وبحسب مقاصدهم من الاستيلاء عليها،

ورأينا أنهم ذوو أثر بالغ في تمدين الأقطار التي خضعت لهم خلا فرنسة على ما يحتمل، وأن كل بلد خَفَقَتْ فوقه راية النبي تحول بسرعة، فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أيما ازدهار.

ولندع جانباً بياننا المجلد الذي اقتصرنا عليه حتى الآن، ولنبدأ بتفصيل تاريخ حضارة العرب ودرس مبتكراتهم في مختلف المعارف البشرية التي زاولوها، فمهما يكن تاريخ إحدى الأمم السياسي مبهمًا أو زاهرًا، فإن شأن هذه الأمة الحقيقي في العالم يُقاس باكتشافاتها وتأثيرها في ميدان الحضارة.

الفصل الثامن اصطراع النصرانية والإسلام

الحروب الصليبية

(١) منشأ الحروب الصليبية

كان سلطان العرب السياسي في أواخر القرن الحادي عشر من الميلاد، أي في الدور الأول من الحروب الصليبية، في طور الانحطاط، وإن لم يذو نفوذ اسمهم في العالم، فقد كانت إفريقية وإسبانية قبضتهم، ولم يتقادم بعدُ الزمن الذي كانوا فيه سادة البحر المتوسط وسادة جزء من فرنسة وملوكًا لصقلية، والذي أوغلوا فيه حتى رومة فأكروهوا البابا على دفع جزية إليهم، ولم يصل قياصرة الرومان في إبان مجدهم إلى ما وصل إليه اسم محمد من إلقاء الرعب في برابرة أوربة، فهجوم أوربة النصرانية على الإسلام الذي كانت فرائص العالم ترتجف فرَقًا منه منذ خمسة قرون، وذلك في عُقر داره، من الأعمال العظيمة التي كانت تتطلب حماسة دينية بالغة، واعتمادًا كبيرًا على الرب، وجيشًا مؤلفًا من مليون جندي.

وكلُّ يعلم كيف أجاب العالم النصراني دعوة ذلك المجذوب، وكيف انقضت أممٌ على الشرق، وكيف أن سَوق تلك الجيوش الهائلة لم يؤدِّ إلى غير نصرٍ وهميٍّ، وكيف فُلت عزيمة مجاهدي النصارى الذين لم ينقطع سيلهم مُدَّةَ قرنين من أجل فتح القدس، والمحافظة عليها أمام هلال الإسلام.

واصطلح الناس على تسمية ذلك الصراع بين النصرانية والإسلام بالحروب الصليبية، وكان لتلك الحروب نتائج مهمة في تاريخ حضارة أوربة العام، وليس من الجائز أن نصمت عنها إذن في هذا الكتاب الذي لم تقتصر فيه على بيان حضارة العرب وحدها، بل عزمنا فيه على درس تأثيرهم في العالم أيضًا.

ولنقل كلمة عن حال الغرب والشرق في زمن الحروب الصليبية.

كانت أوربة، ولا سيما فرنسة، في القرن الحادي عشر الذي جُرّدت فيه الحملة الصليبية الأولى في أشد أدوار التاريخ ظلامًا، وكان النظام الإقطاعي يأكل فرنسة، وكانت مملوءة بالحصون التي كان أصحابها، وهم من أنصاف البرابرة، يقتتلون دائمًا ولا يملكون سوى أناس من العبيد الجُهَّال، ولم يكن في ذلك الحين نفوذٌ شامل لسوى البابا، وكان الناس يَحْشَوْنَ البابا أكثر من احترامهم له.

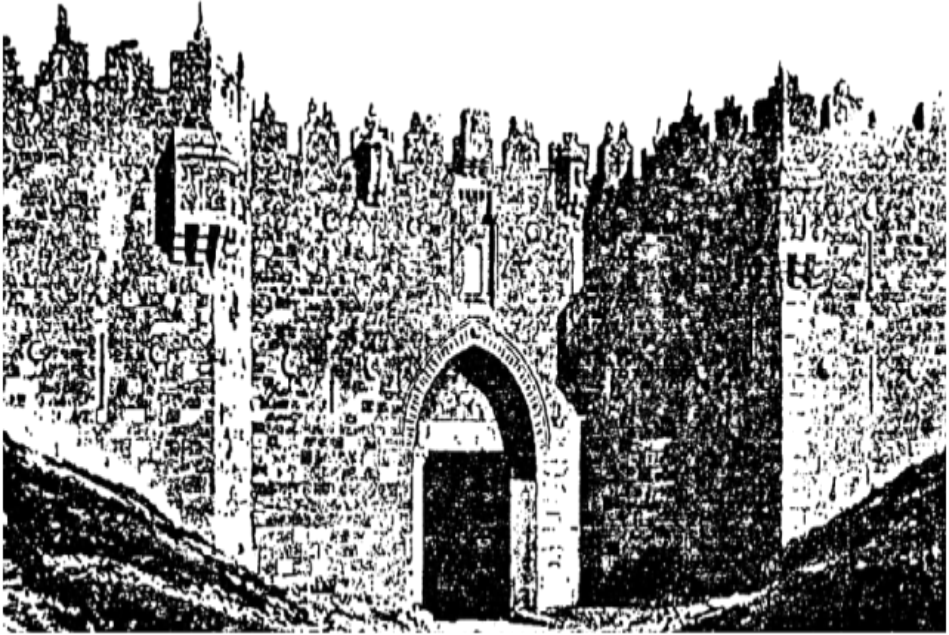
وكانت دولة الروم في الشرق قائمة، وكانت القسطنطينية، مع انحطاطها، عاصمة لدولة كبيرة، وكانت ميدانًا للمنازعات الدينية وأنواع المشاحنات، وكانت تخسر كلَّ يوم جزءًا من أملاكها، فضلًا عن انطفاء سلطانها في إيطالية، وكان كلُّ من بابا رومة وبطرك بزنطة قد حرّم الآخر فصار للنصارى كنيسة.

وكان قسمٌ من سورية تابعًا للترك السلجوقيين، وكان القسم الآخر تابعًا لسلطين مصر، ولم يكن الخليفة ببغداد غير شبح، وكانت دولة العرب السياسية في دور الانحلال مع محافظة حضارتهم على سلطانها، ولم يكن الصراع العظيم الذي كان يتمخض عنه العالم، إذن، غير نزاعٍ عظيم بين أقوام من الهمج وحضارة تُعد من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ.

وكانت الصلات بين أوربة والشرق مقصورةً على زيارة حجيج النصارى لفلسطين في ذلك الدور، وواظب النصارى على زيارة فلسطين مع زيادةٍ منذ زمن قسطنطين، ولا سيما منذ حَسُنَت العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان.

وزاد عدد زيارات النصارى لفلسطين مع الزمن، وكان يتألف من بعض قوافل حجاج النصارى جيشٌ حقيقيٌّ، ومن ذلك أن استصحب الأب ريشارد سبعمائة حاج في سنة

١٠٤٥م، ولم يستطع أن يصل إلى ما هو أبعد من قبرس، ومن ذلك أن رئيس أساقفة ماينس، سيغفروا، وأربعة أساقفة يقودون قافلة من سبعة آلاف حاج في سنة ١٠٦٤م ومشملة على بارونات وفرسان، فحاربت هذه القافلة الأعراب والتركمان. وما كان يَعتَوِّر زيارات القدس من المصاعب والمخاطر أوجب فَرَضَ الإكليروس لها عاڏين إياها مُكفِّرةً عن أسوأ الجرائم، وما كان عدد أكابر المجرمين قليلاً في ذلك الزمن، وما كان خوف جهنم والشیطان ضئیلاً في نفوس البرابرة، فزاد عدد الحجيج لهذا السبب، وأنت إذا ما عدّوت بعض المغامرين والأتقياء الحُمسِ وجدت أولئك الحجاج مؤلفين، على العموم، من أسفل المجرمين المفطورين على أخطر الجرائم، والذين ما كان غيرُ الفزع من النار ليدفعهم إلى قصد تلك البلاد البعيدة.



شكل ٨-١: باب دمشق في القدس (من صورة فوتوغرافية).

وكان عدد حجيج النصارى يزيد كل يوم، وكان ضجيجهم يزيد على ما كان عليه، وكان التركمان الذين قاموا مقام العرب في سورية أقل تسامحاً من العرب، فجادل هؤلاء التركمان أولئك النصارى في حق المرور من وسط البلاد الإسلامية بلا إذن إيفاء لزيارة بيت المقدس، وأكروها حجيج النصارى على دخول القدس بخشوع بدلاً من أن يسمحوا لهم بدخولها ظافرين على صَوْت الصُّنُوج وضوء المشاعل كما كان العرب يسمحون به، وأخذوا يحملونهم على دفع الفِدَى غير تاركين وسيلة لإيذائهم إلا أتوها.

وحدث أن جاء لزيارة بيت المقدس جندي قديم كان قد تَرَهَّب بعد أن طرأ على حياته الروحية ما كدَّر صفوه، وكان اسم هذا المجدوب المتعصب النشيط بطرس، فأضاف التاريخ إلى اسمه لقب «الناسك».

واشتاط بطرسُ الناسك غيظاً من سوء ما عومل به في فلسطين، وغاص بطرس الناسك في بحر من الأحلام فرأى أنه مرسل لدعوة أوربة إلى إنجاد الأرض المقدسة.

وملكت هذه الأوهام مشاعره فتوجه إلى رومة ليستعين بالبابا، فأذن له الباب أوربان الثاني في دعوة النصارى إلى إنقاذ الأماكن المقدسة، فصار يجوب بلاد إيطاليا وفرنسة، ويُلقي الخطب النارية ممزوجةً بالبكاء والعيول وصبّ اللعنات على الكافرين، وبوعد الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة، وتؤثّر فصاحته التمثيلية الخيالية في قلوب الجموع، ويعُدّه الناس نبياً في كل مكان.

ولم تكن الجموع التي ألهبها بطرس الناسك لتستطيع عمل شيء وحدها، وإنما حدث ما حفز السنيورات الذين كانوا سادة للجموع إلى دعم تلك الحركة، وذلك أن قيصر الروم، ألكسيس كومنين، الذي كانت دولته تخسر كل يوم قطعةً من أملاكها، استغاث بالبابا

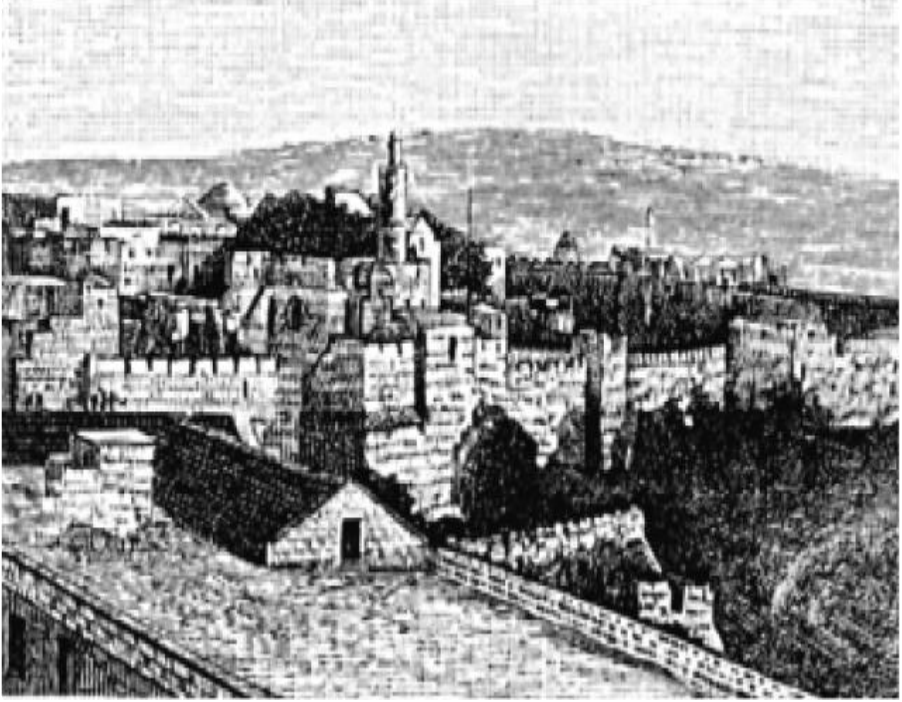
وملوك أوربة حينما حاصر الترك القسطنطينية، فأقام ذلك العالم النصراني وأقعه
بالإضافة إلى مواعظ بطرس الناسك.

ورأى البابا أن يُشجّع تلك الحركة، فعقد في إيطالية مؤتمرًا دينيًا لم يُسفر عن نتيجة، ثم
عقد في سنة ١٠٩٥م مؤتمرًا ثانيًا في كليرمون بأوفرن، وحضر بطرس الناسك هذا المؤتمر
الآخر، وتحالف المؤتمر، تلبيةً لدعوته الصارمة وترديد الجموع الهائجة لكلمة: «الربُّ
يريد ذلك!» على الزحف إلى فلسطين لإنقاذ قبر الرب مُلصقين الصليبان على أكتافهم،
وأجمع المؤتمر على أن يُبدأ بالزحف في عيد انتقال العذراء من السنة القادمة حتى يَجْمَعَ
أولياء الأمور جيشًا كبيرًا قادرًا على القيام بذلك.

(٢) خلاصة الحروب الصليبية

نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعالُ النفوس حميَّةً، وصار كل واحد يرجو
إصلاح حاله، فضلًا عما يناله في ملكوت السماوات، فغدا العبيد يطعمون في فك رقابهم،
وغدا أبناء الأسر الذين حُرِّموا الميراث بسبب نظام البِكْرِية والسنِّيورات الذين كانت
قِسْمَتُهُمْ ضِئْزَى ١ يطعمون في الاغتناء، وغدا الرهبان الذين أضَتْتَهُمْ حياة الأديار وجميعُ
المحرومين طيبَ العيش، وكان عددهم كبيرًا يُعَلِّلُون أنفسهم بأطيب الأمانى.

حقًا لقد أصاب القومَ نوبةٌ حادة من الجنون، فرغب السنِّيورات والعبيد والرهبان
والنساء والأولاد وجميع الناس في الزحف، وأخذ كلُّ امرئ يبيع ما يملك ليتجهَّز،
واستعد من الرجال ١٣٠٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين حالًا.



شكل ٨-٢: قسم من أسوار القدس (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وكانت تلك النوبة تزيد حدة كل يوم، ولم يرغب الذين بكَرُوا في انتظار تأليف جيش منظم، وما كاد ربيع سنة ١٠٩٦م يحل حتى توجهت عصابات كبيرة من كل صوب وحذب إلى نهر الدانوب.

وكانت الحركة شاملة ما بين بحر الشمال ونهر التَّيْبِر، وكانت تَجْرُفُ سكان بعض القرى آخذين ما عندهم من الأموال، وكانت أوربة كلها تَنْقُصُ على آسية. وكلما اقتربت تلك العصابات من هدفها المأمول زادت جنونا، ودارت المعجزات والكرامات في أدمعتها المشتعلة التي طارت منها العقول إلى الأبد.

وكان بطرس الناسك والفارس الفقير غوته على رأس أهم العصابات الزاحفة إلى الشرق، وأُكْرِمَت هذه العصابات في البلدان الأوربية التي كانت تمرُّ منها في بدء الأمر،

ولكنها لم تكّد تصل إلى بلغارية حتى التقت بأناس من ضعاف الإيمان أبوا أن يُضيّقوهم مجانًا، وساء هذا الرفض الصليبيين، ولم يُحجموا عن اغتصاب ما مُنِعوه، وعن نهب قُرى تلك البلاد وذبح أهليها، ولم يصبر الأهلون على ذلك فأخذوا يتتقمون ويقتلون فريقًا كبيرًا منهم أو يُغرقونه، وجَدَّ الصليبيون في طلب النجاة بسرعة، وبلغوا القسطنطينية ناقصي العدد، ووجدوا فيها عصابات من التوتون والطلاينة والغسكون والغول والبروفنسيين كانت قد سبقتهم إليها، وهنالك انضمَّ هؤلاء إلى أولئك، وأخذوا يقتلون وينهبون، ويأتون ما يفوق الوصف من الأعمال الوحشية، ويعزّم البزنطيون على التخلص منهم، وينقلونهم بالسفن إلى ما وراء البُسفور.

وبلغ عدد من سيقَ من الصليبيين إلى آسية الصغرى على ذلك الوجه مائة ألف، واقترب هؤلاء من الجرائم نحوَ المسلمين والنصارى ما لا يصدر عن غير المجانين من الأعمال الوحشية، وكان من أحبِّ ضروب اللهو إليهم قتلُ من يلاقون من الأطفال وتقطيعهم إربًا إربًا وشيئهم كما رَوَت أن كومنينُ بنت قيصر الروم.

وكان من حقوق الترك أن يقابلوهم بالمثل، ولذا صار الترك يتصيّدونهم كما يتصيدون الحيوانات المفترسة مقيمين من عظامهم هرما عظيمًا.

ولم يلبث جيش الصليبيين الأول المؤلّف من مئات الألوف أن أُبِيد، وإنما كانت تأتي من خلفه فيالقُ منظمة تامة العدة مؤلفة من سبعمائة ألف مقاتل بقيادة أقوى السنيورات، أي كان يأتي من الفيالق ما لم يسبق للعرب أن جمعوا جيشًا لجبًا مثله.

ومن هذه الفيالق نذكر الفيالق الذي كان يقوده دوك اللورين الدنيا، غودوفروا البُويونيّ، والذي كان مؤلفًا من ثمانين ألف مقاتل من سكان اللورين وبافارية وسكسونية.

وحاصر الصليبيون مدينة إزنيق الواقعة في آسية الصغرى، وهزموا جيشًا تركيًا، وقطعوا رؤوس جرحى الترك وربطوها بسروج خيولهم وعادوا إلى معسكرهم، ثم رموها إلى تلك المدينة التي كانت محاصرة.

ولم يكن ذلك مما يُرضي الأهلين، فسَلَّم الأهلون — الذين عَلِمُوا ماذا كان ينتظرهم — أَمَرَ أَنْفُسِهِمْ إلى القيصر بالقسطنطينية، فاضطُرَّ حلفاؤه الصليبيون إلى القتال مُرتدين.

وَبَقِيَ على الصليبيين أن يقطعوا نحو مِئتي فرسخ ليصلوا إلى سورية، وكان همهم مصروفًا إلى الاغتناء، ولم يُحسنوا سياسة الأهلين، وخَرَّبُوا البلاد، وكَثُرَ الجوع لهم عن أنيابه، واضطرب حبل نظامهم، وتفرقوا، وتقاتل من قادتهم القائدان المَهْمَّان: تانكريد وبودوين، ثم انفصل بودوين عن رفقائه هو وفيلقه كي يَسْلُب ويحارب لحساب نفسه.

وفتكت الأمراض والمجاعة بالصليبيين فتكًّا ذريعًا، وَقَطَّ بطرس الناسك من النصر وَقَرَّ من المعسكر، وأُعيد إليه، فاستقبله تانكريد بضرب العِصِيِّ.

وَدَبَّت الفوضى في مفاصل الجيش الصليبي، وشاع التجسس فيه، وأمر بوهموند بتقطيع الجواسيس وطهيهم وإطعامهم للجنود الجائعين، فتدابير كهذه تخبرنا عن حال جيش اضطُرَّ إلى اتخاذها.

ويدلُّ سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقةً، فقد كانوا لا يُفَرِّقون بين الحلفاء والأعداء، والأهلين العُزْل والمحاربين، والنساء والشيوخ والأطفال، وقد كانوا يقتلون وينهبون على غير هدى.

ونرى في كل صفحةٍ من الكتب التي أَلَّفَهَا مؤرخو النصارى في ذلك الزمن براهين على توحش الصليبيين، ويكفي لييان ذلك أن ننقل الخبر الآتي الذي رواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين في مدينة مارات للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية،

وذلك بالإضافة إلى ما حدث حين الاستيلاء على القدس، قال المؤرخ الراهب التقي روبرت:

وكان قومننا يُجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت؛ ليُرؤوا غليلهم من التقتيل، وذلك كالببؤات التي خُطفت صغارها، وكانوا يذبّحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستبقون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بُغية السرعة، فيا للعجب ويا للغرابة أن تُذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم! وكان قومننا يقبضون على كل شيء يجدونه؛ فيقرون بطون الموتى ليُخرجوا منها قطعاً ذهبية، فيا للشره وحب الذهب! وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجنث، فيا لتلك الشعوب العُمني المُعدّة للقتل! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحدٌ ليرضى بالنصرانية ديناً، ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر، وأمر بضرب رقاب عجايزهم وشيوخهم وضعافهم، ويسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكي يباعوا فيها، وحدث قتل الترك ذلك في يوم الأحد الموافق ١٢ من ديسمبر، وإذ لم يمكن إنجاز كل شيء في ذلك اليوم قتل قومنا ما بقي من أولئك في اليوم التالي.

وليس من العسير أن ندرك رأي الشرقيين المتمدنين في أولئك، فتواريحهم مملوءة بما كانوا يوحون به إليهم من الاحتقار العظيم، قال الشاعر الفارسي الكبير سعدي بعد زمن: «لا يستحق أولئك أن يُسمو بشراً».

وكان عدد الصليبيين مليون شخص حينما خرجوا من أوربة، فأخذت المجاعة والأوبئة والدعارة والوقائع والمنازعات تُبِيد هذا الجيش العظيم الذي كان يمكنه فتح العالم لو أُلّف من أناس آخرين، ولم يبقَ منه عند بلوغه القدس سوى عشرين ألفاً.

وكانت القدس تابعة، في ذلك الحين، لسلطان مصر الذي استردها من الترك فاستولى عليها الصليبيون في ١٥ من يولييه سنة ١٠٩٩م، وقد جاء في الأقاويص أن القديس جورج تراءى للصليبيين من جبل الزيتون، وأنه حَرَّضهم على القتال فانقضوا على أسوار القدس واقتحموها.

وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غيرَ سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون، قال كاهن مدينة لُويوي، ريمُوند داجيل: حدث ما هو عجيب بين العرب (!) عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قُطعت رءوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم (!) وبُقرت بطون بعضهم، فكانوا يُضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحُرِّق بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رءوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمرُّ المرء إلا على جُثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا ...



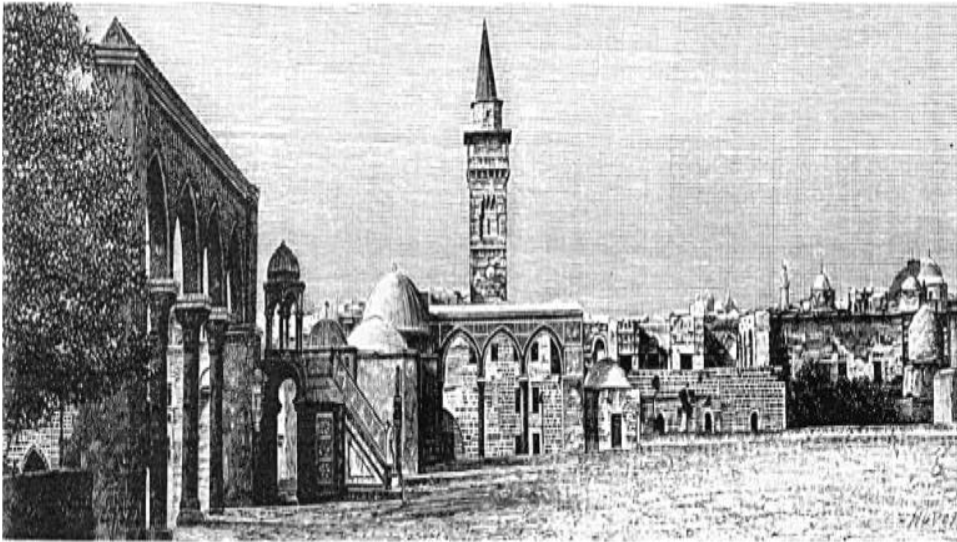
شكل ٨-٣: منظر القدس (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وروى ذلك الكاهن الحليم خبرَ ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر، فعرض الوصف اللطيف الآتي:

لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا ما اتصلت ذراعٌ بجسم لم يُعرف أصلها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملمحة لا يُطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة.

ولم يكتفِ الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك، فعمدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس، من المسلمين واليهود وخوارج النصارى، الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً فأفَنَوْهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأةً ولا ولداً ولا شيخاً.

وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذيب أهل القدس قاطبةً، فانهمكوا في كل ما يستقذره الإنسان من ضروب السكر والعريضة، واغتاز مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حُماة النصرانية مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح الإغضاء والتساهل، فنعتهم برنارد الخازن بالمجانين، وشبَّههم بودان الذي كان رئيس أساقفة دُول، بالفُرُوس التي تتمرغ في الأقدار.



شكل ٨-٤: الحرم الشريف في القدس، وفيه ترى ساحة جامع عمر في الوقت الحاضر وساحة هيكل سليمان فيما مضى (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وهاج العالم الإسلامي من استيلاء الصليبيين على القدس كما هاج العالم النصراني، ولاح، لوقتٍ قصير، تَضَعُضُ نفوذ أتباع النبي الذي تأصل منذ خمسة قرون، وتناسى المسلمون جميع عوامل الانقسام الذي كان يُفْتُ في عضدهم مع ما أحدثه ذلك الاستيلاء من الدُّعْر الكبير فيهم، وأغضى سلطان القاهرة عن منافسته لخليفة بغداد فتبادلا السفراء للبحث في عمل ما يجب لتلافي تلك المصيبة.

أجل، لقد خسر النصارى مليون رجل، وخَرِبَ بعض أوربة في سبيل فتح القدس، وكان النصارى يَرَجُونَ أن يحتفظوا بثمرة هذا الفتح العزيز، غير أن أملهم خاب، فلم يَلَبْثَ المسلمون أن استردوا القدس، وعادت القدس إلى حظيرة الإسلام إلى الأبد.

واختيرَ غودفروا ملكًا على القدس لشجاعته التي أقام الدليل عليها، ولكن الشجاعة لا تكفي لتنظيم دولة، فقد كان غودفروا عاجزًا عن إدارة شؤون دولته الفَتِيَّة مع شدة بأسه، ثم مات غودفروا بعد زمن قليل، ولم يكن خليفته بودوان أقدر منه على تدبير أمور الحكم. وكان قد مضى على وجود الفَرَنْج في فلسطين عشرون سنة حينما توفي بودوان في سنة ١١١٩م، ولم ينشأ عن حكم الفرنج لها سوى خرابها وإفقارها، وكان من نتائج هذا الحكم أن عرفت البلاد نظام الإقطاع كما في أوربة، وأن قُسِّمَتْ إلى الإمارات الإقطاعية المتقاتلة على الدوام: طرابلس وعسقلان ويافا... إلخ، ولم يلبث طغاتها الصُّغراء الذين لم يكونوا ليفكروا في غير الاغتناء أن خربوها بعد أن كانت زاهرة أيام الحكم العربي الرشيد، وإليك ما قاله أَسْقُف عكا الصليبي جاك دوقِ إِيثْرِي عن أبناء الصليبيين الأولين، وذلك في تاريخه عن القدس:

خرج من الصليبيين الأولين الأتقياء المتدينين جيلاً من الفَجْرة الأشرار الفاسدين المنحلين الفاسقين كما يَحْرُجُ الثُّفلُ من السُّلاف^{٩٠} والدُّرديُّ^{٩١} من الزيت والشَّيْلَمُ^{٩٢} من البرِّ والصدأ من القُلْزِ^{٩٣} ... وكان هؤلاء الأبناء يختصمون ويقتتلون لأنفهم الأسباب، حتى إن بعضهم كان يستعين على بعض بأعداء النصارى في الغالب ... وكان لا يرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزُّناة والقتلة والخائنين والمهرِّجين والرهبان الدُّعَّار والراهبات العواهر.

ولم يكن غليوم الصوريُّ أقلَّ صراحةً من ذلك، فقد قال، بعد أن وصم أبناء الصليبيين بأنهم «من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين»: «تلك هي رذائلهم الوحشية التي لو أراد كاتبٌ أن يصفها؛ لخرج من طور المؤرخ ليدخل في طور القادح الهاجي.»
وبينا كان النصارى يُحَرِّبون القدس كان المسلمون يستردون بالتدريج، ما حَسِرُوهُ، وقد أورث تقدمهم في سورية واستيلاؤهم على الرُّها (أورفة) هَلَعًا في قلوب النصارى بفلسطين، فاستغاث النصارى بأوربة.

ونُظِّمَتْ حملةٌ صليبيَّةٌ ثانية لإمداد أولئك، ونجح سان برنارد في إيقاد نار التعصب الديني، فقد تَوَجَّهَ ملك فرنسة لويس السابع على رأس الحملة الصليبية الجديدة إلى فلسطين، وتبعه الملك الألماني كونارد الثالث، غير أن جيش لويس السابع الذي كان عدده مائة ألف مقاتل لم يكد يصل إلى آسية الصغرى حتى أبيد على بَكْرَة أبيه، ففرَّ لويس السابع بطريق البحر ليذهب إلى أنطاكية، ويتوجَّه منها إلى القدس كحاجٍّ عاديٍّ، وما كان جيش كونارد الثالث أوفر حظاً من جيش لويس السابع.

^{٩٠} السلاف: ما سال وتحلب قبل العصر، وهو أفضل الخمر.

^{٩١} الدردى من الزيت ونحوه: الكدر الراسب في أسفله.

^{٩٢} الشيلم: الزوان يكون بين الحنطة.

^{٩٣} القلز: النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

ولم يندُ سلوك الصليبيين في هذه الحملة الثانية أحسن من سلوك رجال الحملة الصليبية الأولى، قال الكاهن أنكيتيل في تاريخه: «قلما كان يُوجدُ صليبي يسير بوحى ديني، فلم يترك أولئك الصليبيون جرائم وحشية وضرباً من قَطْع الطرق وفضائح مُزرية إلا اقترفوها»، وعزا سان برنارد ذلك الحبوط إلى ما ارتكبه هؤلاء الصليبيون من تلك المظالم. وتمَّ طرد الصليبيين من القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير، وذلك أن صلاح الدين دخل سورية بعد أن أصبحت مصر وجزيرة العرب والعراق قبضته، وأنه غلب ملك القدس الأسيف غي دُولُزِينِيَان، وأسَره، واسترد القدس في سنة ١١٨٧ م. ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيبيد النصرارى على بكرة أبيهم، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعاً سلب شيء منهم.

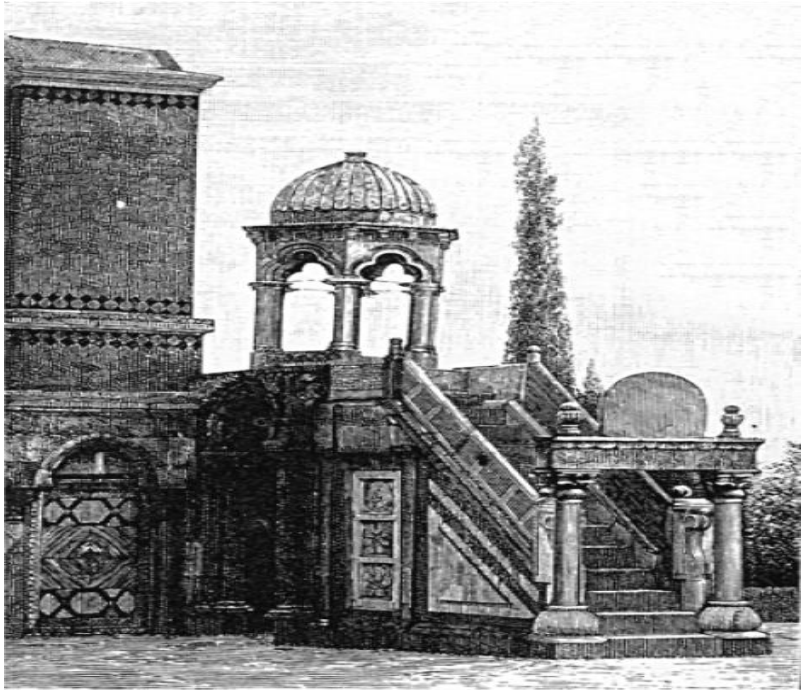
قُضِيَ على مملكة القدس اللاتينية بعد أن عاشت ٨٨ سنة، ومَرَّت سبعة قرون على تلك الحوادث من غير أن تخرج هذه المدينة المقدسة من أيدي أتباع محمد على الرغم من جميع الجهود التي قام بها العالم النصراني منذ ذلك الحين.

ولا نرى فائدة كبيرة في تاريخ الجهود غير المُجدية التي قامت بها أوربة لاسترداد القدس، أي في تاريخ الحملات الصليبية الست الأخيرة، وإنما نكتفي بذكرها الخاطف.

ورئيس أساقفة مدينة صور في فنيقية، غليوم، هو الذي حَرَّض أوربة على تجريد الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢ م)، وقد قاد هذه الحملة الثالثة ملك فرنسا: فليب أوغست، وملك إنكلترة: قلب الأسد ريكاردس، وقيصر ألمانيا: فريدريك بارباروس، أي أقوى ملوك أوربة.

فأما بارباروس: فقد مات في آسية الصغرى، حينما كان يغتسل في نهر البرَدان (قَرَه صُو)، ولم يصل سوى بقايا جيشه إلى سورية، وأما فيليب أوغست: فقد تَعَبَ سريعا، وأبحر إلى صور بعد إقامة قصيرة بفلسطين تاركًا خَلْفَه جيشًا مؤلَّفًا من عشرة آلاف مقاتل بقيادة أمير بورغونية، ولذا ظلت القيادة العليا في يد قلب الأسد ريكاردس الذي اقترف جرائم وحشية كالتي اقترفها رجال الحملة الصليبية الأولى.

وكان أول ما بدأ به ريكاردس هو قَتْلُه، أمام معسكر المسلمين، ثلاثة آلاف أسير مسلم سلَّموا أنفسهم إليه بعد ما قطع لهم عهدًا بحقن دمائهم، ثم أطلق لنفسه العنان في اقتراف أعمال القتل والسلب.



شكل ٨-٥: منبر من رخام في الحرم القدسي يُعرف بمنبر عمر (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

وليس من الصعب أن يتمثل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النبيل الذي رَجِم نصارى القدس ولم يمسَّهم بأذى، والذي أمدَّ فليب أوغست وقلب الأسد ريكاردس بالأزواد والمُرطَّبات في أثناء مرضهما، فقد أبصر الهوَّة العميقة بين تفكير الرجل المتمدن وعواطفه وتفكير الرجل المتوحش ونزواته، وأدرك أنه لا يجوز أن يعامل أولئك الحمقى بغير ما تعامل به الوحوش الضارية.

وأكره ريكاردس من فوره على مغادرة فلسطين قبل أن يرى القدس، ولم يكن للحملة الصليبية الثالثة التي قادها ملوك أوربة الأقوياء الثلاثة المتحالفون نتيجةٌ غيرُ بقاء النصارى مالكين لبضع مدن الساحل.

ثم نُظِّمَت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤م) بقيادة أمير الفلاندر: بُودْوَان، وعزم الصليبيون في هذه المرة على بلوغ فلسطين بحرًا، لا برًا كما في الماضي، وأبحروا من ميناء زاره متوجهين إلى عاصمة الدولة النصرانية: القسطنطينية، ولما بلغوها رأى بعضهم أن سورية لا تزال بعيدة، وأن الصليبيين السابقين هكَّوها غير تاركين فيها نهابًا، وأن كلَّ الصيد في جوف القسطنطينية، فانضمَّ بقية الصليبيين إلى هذا الرأي الصائب، وأخذوا ينهبون ما فيها وإن دخلوها حُلُفاء.

وكانت القسطنطينية تشتمل في ذلك الحين على ما تركه الأغارقة والرومان من كنوز الفن والأدب، ولم يرَ صليبيو أوائل القرن الثالث عشر في هذه الكنوز شيئًا نافعًا يمكن تقديمه إلى قبيلةٍ من أصحاب الجلود الحمر (الپوروج)، فصاروا يُحطِّمون كلَّ ما لم يكن من الذهب أو الفضة أو يُلقونه إلى البحر، وصاروا يَكْسِرُونَ التماثيل الرخامية التي صنعها ليزيب وفيدياس وپراكزيتيل، ويُتلفون، في يوم واحد، تاليفَ ديموستين وديودرس، وهوليب... إلخ. المهمة.

ولم يُفكرُ بودوان وأصحابه في الزحف إلى فلسطين بعد أن شَبَعوا من الغنائم فُنْصِب بودوان قيصرًا؛ وأجاز البابا إينوسان الثالث ذلك مع بيانه أن الصليبيين اقترفوا أفظع الجرائم.

ولا احتياج إلى ذكرنا أن سلطة هذا القيصر الجديد كانت مؤقتة، فلم يكن الصليبيون من غير الهمج العاجزين عن إقامة دولة دائمة وعن غير التخریب، ولم ينشأ عن إقامتهم القصيرة بالقسطنطينية غيرُ إبادة كنوز العالم اليونانيّ اللاتيني القديم.

ولم تكن الحملتان الصليبيتان، الخامسة والسادسة، من الحملات المهمة، ولم تباليا بالجهاد في سبيل القدس، وإنما ذهب أكثر رجالهما إلى مصر طمعًا في الغنائم فاضطُّروا إلى التقهقر بعد أن أوغلوا قليلًا فيها.

وتوجَّه جيشٌ صغير إلى القدس بقيادة فردريك الثاني الألماني الذي تعاهد هو والمسلمون، فسَمَحَ له المسلمون بدخول القدس حليفًا، فعاد إلى أوربة مكتفيًا بهذه المجاملة الحقيرة.

ومع ذلك فإن الحملات الصليبية أخذت تُفقد صبغتها الأوربية الشاملة التي اصطبغت بها في بدء الأمر، فقد قام مقام أخلاط الزُّمَر الأولى، التي كانت تنقُصُ على آسية، بعض السرايا الصغيرة التي ركبت كُلُّ واحدةٍ منها مَن هواها فلم تبحث عن غير ما فيه الثراء.

وظَلَّت القدس، وفلسطينُ تقريبًا، قبضةً المسلمين على الرغم من الحملات الصليبية الخمس التي جُرِّدت بعد الحملة الصليبية الأولى، ثم عزم ملك فرنسة، سان لويس، على العُود إلى الجهاد فجرَّد حملة صليبية سابعة في سنة ١٢٤٨م، وقد غادر إنْغُمُوزت على رأس خمسين ألف مقاتل متوجِّهاً إلى مصر، وقد احتلَّ دمياط، وزحف إلى القاهرة التي كُسر جيشُها قبل أن يبلغها، ووقع أسيرًا، وافتدى نفسه، وذهب إلى سورية، وأقام بها ستين من غير أن يظفر بباطل، ثم رَجَعَ إلى فرنسة قبل أن يرى القدس.

ولم تَنْشِ عَزِيمَةُ سان لويس مع هذا الانكسار، فقد جَهَّز حملة صليبية جديدة بعد ست عشرة سنة، وقد غادر إيغمورت في ٤ من يولييه سنة ١٢٧٠م على رأس جيش مؤلَّف من ثلاثين ألفًا من المشاة وستة آلاف من الفرسان، وقد تَوَجَّه إلى تونس طَمَعًا في حل أميرها على انتحال النصرانية، فأصابه الطاعون حينما كان محاصرًا لها، فمات في ٢٥ من أغسطس سنة ١٢٧٠م.

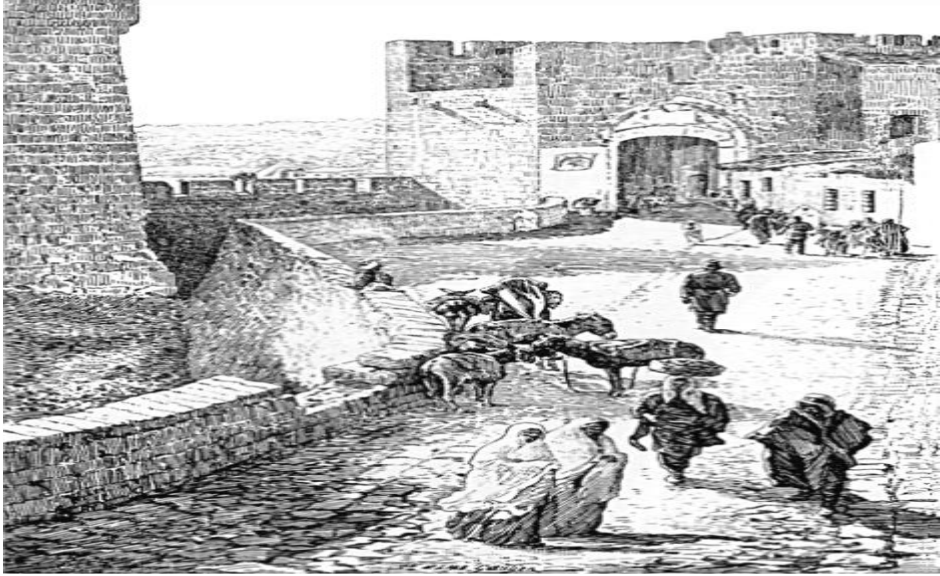
وكانت تلك الحملة الثامنة أُخْرَى الحملات الصليبية، فيها خُتِمت تلك المغازي الكبيرة إلى الأبد، وبقيَ المشرق خاضعًا لأتباع النبي العربي.

ولم يلبث النصارى أن خسروا ما كانوا يملكون من النواحي القليلة في فلسطين، وأراد البابوات أن يوقظوا حميَّة النصارى الدينية على غير جدوى، فقد فَتَرَت حرارة الإيمان في النفوس، وصارَ هم شعوب الغرب مصروفًا إلى أهداف أخرى.

ولا أحاول، في خاتمة هذه الخلاصة القصيرة التي سردها عن تاريخ الحروب الصليبية، تَسْوِيعَ ذلك الاعتداء الذي وجهته أوربة إلى المشرق أو دُمَّه، فأمرٌ مثل هذه من نوع المجادلات التي تَرُوق شُبَّان المؤرخين ولا تستحقُّ أن يُبَالَى بها، ولا أعلم أن فاتحًا في القرون القديمة أو الحديثة فكر ثانية في عدل جهاده الحربي أو ظلمه ما لاءَم ذلك الجهاد مصالحه، وما رأى وصوله إلى مقصده من غير خطر كبير، فإذا كُتِب له النجاح في جهاده كفاه نجاحه ولم يبقَ ما يستلزم تسويغه، ولم يَعْدَم، عند الضرورة، فرسانَ بيانٍ لتمجيد ما صنع، وإذا ما هَجَا بعض الكتَّاب مظالم القوة قائلين: إن على القوة ألا تتغلب على الحق كان ذلك من قبيل ذمِّ الأمور الطبيعية غير المُجدي، كشكوانا من السَّقم والهَرَم والموت.

حقًّا إن مبادئ الحقوق النظرية المدوَّنة في الكتب لم تكن دليل أمة في أي زمن، وإن المبادئ التي احترمها الأمم هي التي أيَّدتها قوة السلاح كما أثبتته التاريخ، وإن البابوات لم يسيروا

على غير سنن الفاتحين في الماضي والمستقبل، حينما حرّضوا النصارى على الحروب الصليبية الطاحنة المنافية لأبسط قواعد الإنصاف من الناحية النظرية، فلا يُفيدُ لومهم على ما فعلوا، ولنترك، إذن، كلّ بحث من هذا النوع، ولندرس النتائج القريبة والبعيدة لذلك النزاع العظيم بين عالمين.



شكل ٨-٦: باب يافا في القدس (من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف).

(٣) نتائج الحروب الصليبية بين الغرب والشرق

آراء المؤرخين في نتائج الحروب الصليبية متناقضة إلى الغاية، وقد أسهب أكثرهم في مدحها، وعدّها بعضهم ذات نتائج سيئة.

وإذا نظرنا إلى هدف الحروب الصليبية القريب الذي هو فتح فلسطين رأيناها لم تُسفر عن أية نتيجة مع ما خسرته أوربة في قرنين من المال والرجال، فقد بقي المسلمون سادة لتلك الأماكن التي أراد النصارى أن يستولوا عليها بأيّ ثمن كان.

ولكننا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التي أسفرت عنها الحروب الصليبية تجلت لنا أهمية تلك النتائج التي كان بعضُها نافعا وبعضُها ضارا، وإن شال الميزان وَرَجَحَتْ كِفَّة النافع منها، فقد كان اتصال الغرب بالشرق مُدَّة قرنين من أقوى العوامل على نمو الحضارة في أوربة، وتكون الحروب الصليبية قد أدت بهذا إلى نتائج غير التي نَشَدتها، وليس التاريخ خالياً من الأمثلة على عدم المطابقة بين الضالَّة المنشودة والهدف المُدرك، بل هو حافلٌ بهما، حتى يكاد البصير يرى في ذلك قاعدةً مطردة.

وإذا أراد المرء تصور تأثير الشرق في الغرب وَجَب عليه أن يتمثل حال الحضارة التي كانت عليها شعوبها المتقابلة، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب، وأما الغرب فكان غارقاً في بحر من الهمجية، وقد ظهر من بياننا الوجيز عن الحروب الصليبية أن الصليبيين كانوا في سلوكهم وحوشاً ضارية، وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم على السواء، وأنهم خربوا في القسطنطينية ما لا يُقدَّر بثمن من الكنوز القديمة الموروثة عن اليونان والرومان.

ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق، ولم ينتفع الشرق منهم بشيء في الحقيقة، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بَذْرها في قلوبهم الازدراء للغربيين على مرِّ الأجيال، ولم ينشأ عن جهالة الصليبيين وغلظتهم وتوحشهم وسوء نيَّتهم غيرُ حمل الشرقيين أسودَ الأفكار عن نصارى أوربة وعن النصرانية، وغير إيجاد هُوَّة عميقة لا يمكن سدُّها بين أمم الشرق وأمم الغرب، وما إلى ذلك من النتائج الضارة التي أشرنا إليها آنفاً.

ولم تكن العداوة العادلة التي يحملها الشرقيون تجاه أمم الغرب كل ما صدر عن الحروب الصليبية من النتائج الضارة، فقد نشأ عنها، أيضاً، زيادة سلطة البابوات الذين كانوا

رؤساء عالين للصليبيين، وزيادةً سلطة رجال الدين الذين اغتَنَوْا بِأَرْضِينَ اضطر
السنيرورات إلى بيعها منهم ليقوموا بنفقات الغزو، وقد نَجَمَ عن نموِّ سلطة أولئك واغتناء
هؤلاء أن رَغِبَ البابوات في السيطرة على الشعوب والملوك وأن عمَّ فساد الإكليروس،
فأدى هذا الفساد بعد زمن إلى الإصلاح الدينيِّ وما قاسته أوربة بسببه من المنازعات
الدائمة.

ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية: أن ساد عدم التسامح العالمَ عدَّةَ قرون، وأن صَبَّغَتْه بها
لم تعرفه ديانةٌ، خلا اليهودية، بصبغة القسوة والجور، أجل، كان العالم قبل الحروب
الصليبية يعرف الشيء الكثير من عدم التسامح، ولكنه ندر أن كان عدم التسامح هذا
يصل إلى حد الجَلَف والطغيان، وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغًا من الحُمَيَّا الشديدة في
الحروب الصليبية ما لا يزال العالم يقاسي أثره إلى زماننا تقريبًا، فلم يلبث رجال الدين
الذين تعوَّدوا سفك الدماء أن صاروا ينشرون المعتقد ويؤيدون أصحاب البدع على
الطريقة التي كانوا يبيدون بها الكافرين، ويرون أنه يجب إخضاع أقل انحراف بأفطع
تعذيب، ومن نتائج ما نما في الحروب الصليبية من روح عدم التسامح المشؤومة: ما حدث
من ذبح اليهود والألييجوا وكل ذي بدعة، ومن إنشاء محاكم التفتيش، ومن الحروب
الدينية، ومن الحروب الوحشية التي ضَرَّجت أوربة بالدماء زمنًا طويلًا.

ولنبحث الآن في نتائج الحروب الصليبية النافعة بعد أن ذكرنا نتائجها الضارة الثابتة: كان
من النتائج السياسية التي نشأت عن الحروب الصليبية أن تَصَغُصَّعَ النظام الإقطاعي في
فرنسة وإيطالية على الأقل، وذلك أن السنيرورات لم يخسروا كثيرًا من أراضيهم التي
باعوها؛ لينفقوا على ما جهزوه من الحملات فقط، بل باعوا أيضًا ما كانت تصبو إليه
المدن من الحرية والامتيازات، فصارت هذه المدن دُوِيَلاتٍ مستقلة ضمن دول الإقطاع

تابعةً للملك وحده، ثم أصبح اشتراء المدن لحريتها مبدأً عامًا، فقامت بلديةٌ مستقلة في كل مدينة، فكانت نتيجة ذلك أن ضعف شأن الإمارات الإقطاعية الصغيرة لا الكبيرة التي مالت إلى التوسع، وأن أضحى ملك فرنسا حكمًا بين الفسّلات وسادتهم السابقين أكثر مما في الماضي، وأن زادت بذلك سلطة ملوك فرنسا، الضعيفة قبل الحروب الصليبية، على حساب سلطة قوّاسّلاتهم التي كادت تساوي سلطة الملك فيها مضى، والتي عادت لا تكون في غير الظواهر في بضعة قرون.



شكل ٧-٨: قدح عربي يُعرف بقدح شارلمان، ويرجح أنه جيء به من الشرق أيام الحروب الصليبية (متحف شارتر).

ولم يتقلّص النظام الإقطاعي بفعل الحروب الصليبية إلا في فرنسا وإيطالية، لا في إنكلترا وألمانية اللتين لم يشترك سنيورائهما في الحروب الصليبية الأولى إلا قليلًا، واللّتين حافظوا على إقطاعاتهم فيهما، وصاروا رقباء على ملوكهما الذين تورّطوا فيها كثيرًا، فاستفادوا من ذلك فقيّدوا سلطة هؤلاء الملوك، ونحن إذا أنعمنا النظر فيما نشأ عن سير الحوادث من النتائج البعيدة بدا لنا أن أصول دستور إنكلترا السياسي المتين ترجع إلى حوادث الحروب الصليبية.

أجل، اشترك ثلاثة من قياصرة المانية في الحروب الصليبية، فلما مات فردريك الثاني الذي هو آخرهم كانت السلطة القيصرية من الأوهام، واشترك ثلاثة من ملوك فرنسا في الحروب الصليبية، فأما رحلة فليب أوغست فكانت قصيرة، وأما سلطة الأشراف في غياب لويس السابع ولويس التاسع فكانت غير خطيرة لما ذكرنا، فسُهل على نائب الملك سوجر والملكة بلانش أن يُردّا جِماحها.

وكان لاصطراع أوربة وآسية تأثيرٌ كبير في التجارة أيضًا، فقد نشأ عن تجهيز الجيوش الكبيرة التي قَدَّفت بها أوربة في الشرق في قرنين وتموينها ونقلها حركةٌ عظيمة في التجارة البحرية؛ فاغتنى بذلك أهل مرسيلية وبيزة وجنوة والبندقية على الخصوص، وبلغت بحرية مرسيلية درجةً عظيمةً من النمو استطاعت معه؛ في سنة ١١٩٠م؛ أن تنقل إلى الأرض المقدسة جيشَ قلب الأسد ريكاردس.

ولم يقف نموُّ التجارة بعد طرد الصليبيين من آسية؛ فقد عقد أكثر جمهوريات إيطالية وأمراء المسلمين معاهداتٍ تجارية؛ وكانت صلات البندقية التجارية الوثيقة بالشرق سبب عظمتها، واطرد تقدم هذه التجارة مع الزمن إلى أن اكتشفت طُرُق بحرية جديدة، فانتقل زمامها إلى أيدي أخرى.

ولم يكن تأثيرُ الحروب الصليبية في الصناعة والفنون أقلَّ من ذلك، فقد استوقفت نفائسُ الشرق الباهرة أنظار السنيورات الصليبيين مع جَلْفهم، فوجدوا في التجارة وسيلةً تقليدها، فنرى اقتباس نفائس الشرق في أسلحة الغرب وثيابه ومساكنه في القرن الثاني عشر، والقرن الثالث عشر على الخصوص.

وكلما نمت النفائس أدت إلى تقديم الصناعة بحكم الضرورة، وتبحث الصناعة عن المنتجات التي تطلبها التجارة منها بطبيعة الحال، فتحفزها الضرورة إلى القيام بذلك من فورها.



شكل ٨-٨: إناء عربي مصنوع من النحاس المكفت، ويُعرف بإناء معمودية سان لويس (متحف اللوفر).

وإذ كانت صنائع الخشب والمعادن والميناء والزجاج تتطلب معارف كثيرة فقد اقتبسها الأوربيون من آسية مع جهلهم لها قبل دَوْر الحروب الصليبية، وعمَّ أمرها بذلك في أوربة، فعن صور أخذت البندقية نماذج صناعة الزجاج، وعن المسلمين أخذت أوربة صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة، وعن سورية أخذ عُمال الحملات الصليبية التي دام أمرها قرنين وصانعو أسلحتها ومهندسوها ونجاروها ومن إليهم ما كانوا يجهلون من المعارف الصناعية، وذلك في أثناء إقامتهم الطويلة بها.

وكان تأثير فنون الشرق في الغرب عظيمًا أيضًا، فقد نشأ عن إيلاف الصليبيين ضروب منتجات الشرق الممتد من القسطنطينية إلى مصر تهذيبٌ أذواقهم الغليظة، ولم يلبث فن

العمارة أن تحول في أوربة تحوّلًا تامًّا، ولا يصعب علينا، والحالة هذه، أن نثبت في فصل آخر قوة تأثير آثار حضارة العرب في أطواره الأولى.

وأما استفادة الصليبيين من علوم العرب الخالصة فكانت ضعيفةً إلى الغاية خلافًا لما ذهب إليه كثير من المؤرخين؛ فالجيوش الصليبية إذ كانت جاهلةً للعلماء لم تكن لتبالي بالمعارف والأصول مبالاتها بشكل البناء أو الأسلوب الصناعي.



شكل ٨-٩: طبق عربي قديم مصنوع من النحاس.

وإذا كنتُ لم أقل إن تأثير الصليبيين في تقدم أوربة العلمي صفرٌ فلما بين العلوم والصناعات من الصلة، ولما تجرّ إليه إحداهما إلى بحثٍ قليلٍ في الأخرى غالبًا.

ولا يُحتجُّ علينا بأن القرون الوسطى استنبطت معارفها العلمية والأدبية من مؤلفات الشرقيين، فالواقع أن تلك المعارف لم تدخل أوربة بفضل الحروب الصليبية قطُّ كما نيين ذلك في فصل آخر.

ولم يكن تأثير آداب العرب في الصليبيين صفرًا، بل كان كذلك، ضعيفًا جدًّا، أي استوحاها كثيرٌ من شعراء الغرب وكتّابهم، فكان سَحَرُهُ مصر وعجائب الشرق وغودفروا وتانكريد وغيرهما موضوع قصص مهمٍّ للشعراء المجوّلين الذين كانوا ينشدونه بين قصر وقصر.

ظهر مما تقدم أن تأثير الشرق في تمدن الغرب كان عظيمًا جدًّا بفعل الحروب الصليبية، وأن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب، وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيم باطراد بين الغرب والشرق، وإلى ما نشأ عن تحاكُّ الصليبيين والشرقيين من النُّمُوِّ في الفنون والصناعة — تجلّى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش، وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوربة تُعوّل عليها؛ فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم.

المصادر

غایتنا من نشر هذا الفهرس هي أن يكون لدى القارئ جدولٌ جميع الكتب العربية المهمة التي تُرجمت إلى اللغات الأوربية، ولم نصف إليه سوى الكتب المؤلفة وفق الوثائق الأصلية كالمخطوطات والآثار... إلخ، ولم نذكر من الكتب العربية غير المترجمة إلا التي لها أهمية خاصة كمقامات الحريري مثلاً.

ويجد القارئ في هذا الفهرس إشارة إلى مؤلفين من الفرس والمغول لم يُذكروا على العموم، ولكن كتبهم تفيد كثيراً في الاطلاع على تاريخ العرب في بلاد الشرق.

(١) الفهارس والنشرات الدورية... إلخ

حاجي خليفة: كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، نشره المستشرق فلوجل في ليلسك بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٥٨ م مع ترجمة لاتينية له في سبعة مجلدات.

السمعاني اللبناني — المكتبة الشرقية، كتبها باللاتينية في اثني عشر مجلداً، ولم يطبع منها إلا أربعة في رومة بين سنة ١٧١٩ وسنة ١٧٣٠ م.

- AMARI, *Biblioteca Arabo-sicula*, Roma, ١٨٨٠, in-٨°.
- CASIRI, *Bibliotheca Arabico-hispana Escorialensis*, Matriti, ١٧٦٠-١٧٧٠, ٢ Vol., in-f ٨°.
- DEREMBOURG, *Les manuscrits Arabes de L'Escorial*, Paris, ١٨٨٣, ٢ Vol., in-٨°.
- Dozy, etc. *Catalogus codicum orientalium bibl. Ac. Lugd. Batav.*, Lugd. Batavorum, ١٨٥١-١٨٧٣, ٥ Vol., in-٨°.
- DUGAT, *Histoire des Orientalistes de L'Europe*, Paris, ١٨٦٨-١٨٧٠, ٢ Vol., in-١٢°.
- FRCEHN, *Indications bibliographiques relatives à la littérature historico-géographique des Arabes, des Persans et des Turcs*, Saint-Pétersbourg, ١٨٤٥, in-٨°.
- FLUEGEL, *Die Arabischen, Persischen und Turkischen Handschrift, der K. K. Hofbib. Zu Wien Vienne*, ١٨٦٥-١٨٦٧, ٣ Vol, in-٤°.

- GONZALÉS, *Plan de una biblioteca de autores arabes españoles, Madrid*, ١٨٦١, in-٤°.
 - HERBELOT, *Bibliothèque orientale, Paris*, ١٦٩٧.
- تجد عدة طبعات لهذا الكتاب المهم، وأحسنها ما طُبِع في لاهاي بين سنة ١٧٧٧ وسنة ١٧٧٩ م في أربعة مجلدات.
- HOMMELIUS, *Bibliotheca Juris rabbinica et saracenorum arabica, instructa,, Byruthi*, ١٧٦٢, in-٨°.
 - HOTTINGER, *Promptuarium sive Bibliotheca orientalis, Heidelbergoe*, ١٦٥٨, in-٤°.
 - ROSSI, *Dizionario storico degli autori arabi piú celebri e delle Principali loro opere*, Parma, ١٨٠٧, in-٨°.
 - SCHNURRER, *Bibliotheca arabica, Halœ*, ١٨١١, in-٨°.
 - WÜSTENFELD, *Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke (XVIII XVIII vol. der Ab. der kon. ges. der Wiss. Zu Göttingen)*, Göttingen, ١٨٨٢, in-٤°.
 - ZENKER, *Bibliotheca orientalis, Leipzig*, ١٨٤٨—١٨٦٦, ٢ vol., in-٨°.
- وتجد أيضًا إشارات إلى الكتب العربية، وترجمات للمخطوطات العربية، وللرحلات في بلاد العرب في النشرات الدورية الآتية:
- *Journal Asiatique, Paris*, ١٨٢٢—١٨٨٣.
- تُرجمت كتب المسعودي وابن بطوطة، إلخ، في هذه المجموعة المهمة.
- *Journal of the Asiatic Society, Calcutta*, ١٨٣٧—١٨٨٣.
 - *Zeitschrift der Deutsch. Morgenländ. gesellschaft*.
- في هذه المجموعة كتب مهمة عن العرب.
- *Bulletin et Mémoires de la Société de Géographie de Paris*.
- يشتمل الجزء الخامس والجزء السادس من المذكرات على ترجمة لجغرافية الإدريسي.
- *Journal of the Royal Geographic Society, London*.
- تشتمل هذه المجموعة على رحلات برتن وپاللي وغيرهما في جزيرة العرب.
- وتجد أيضًا بيانًا عن كتب العرب العلمية في آخر المطلب الذي خصصناه لها في هذا الفهرس.

(٢) تاريخ العرب في الأقطار المختلفة التي خضعت للإسلام

ابن عبد الحكم: فتح الأندلس، ترجمه هاري جونس إلى الإنكليزية، وطُبع بلندن سنة ١٨٥٨م.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، طُبع بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٧٤م بليدن وأوبسالا في اثني عشر مجلدًا بعناية المستشرق تورنبرغ.

ابن جبير: رحلة ابن جبير، ترجم أماري القسم المختص منها بصقلية إلى الفرنسية، وطُبع بباريس سنة ١٨٤٦م.

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ترجمه إلى الإنكليزية دو سلان، ونشر في لندن بين سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٧١م في أربعة مجلدات ضخمة، ويشتمل على تراجم مشاهير الإسلام منذ محمد إلى أواسط القرن الثالث عشر من الميلاد.

ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، اشتغل دو سلان بنشر القسم المختص ببلاد المغرب والبربر منه، فنشره في الجزائر سنة ١٨٤٧م في مجلدين كبيرين، وسماه كتاب الدول الإسلامية في المغرب، ثم نقل هذا القسم إلى الفرنسية، ونشره في الجزائر بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٦م في أربعة مجلدات.

ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ترجم ديفرجيه إلى الفرنسية القسم المختص منه بأخبار بني الأغلب في إفريقية وصقلية إلى حين استيلاء الفرنج عليها، وطُبع بباريس سنة ١٨٤١م.

ابن القوطية: تاريخ الأندلس، ترجمه شاربونو إلى الفرنسية، وطُبع بباريس سنة ١٨٥٦م.
ابن مجير الدين العليمي: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ترجمه سوفيير إلى الفرنسية، وطُبع بباريس سنة ١٨٧٢م.

أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، ترجمه دو سلان إلى الفرنسية، وطُبع بباريس سنة ١٨٥٩م.

أبو الفرج الملقب: تاريخ مختصر الدول، وهو تاريخ عام منذ بدء العالم إلى زمن المؤلف، ترجمه بوكوك إلى اللاتينية، وطُبع بأوكسونية سنة ١٦٦٣م، وترجمه بور إلى الألمانية، وطُبع بلييسك سنة ١٧٨٥م.

أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ترجمه أدلر إلى اللاتينية، وطُبع بلييسك بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٤م في خمسة مجلدات.

أبو الحسن الفاسي: الأنيس المطرب، وروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ترجمه بوميه إلى الفرنسية، وطُبع بباريس سنة ١٧٦٠م.

أبو الغازي بهادور: تاريخ المغول، ترجمه دي ميزون إلى الفرنسية، وطُبع ببطرسبرغ سنة ١٨٧١م في مجلدين.

أكبر: آثار الشاه أكبر، ترجمه غلادوين من الفارسية إلى الإنكليزية، وطُبع بكلكتة بين سنة ١٧٨٣ وسنة ١٧٨٦م في ثلاثة مجلدات، (ألف هذا الكتاب بأمر أكبر، ويشتمل على وصف حسن للهندوستان في عهد المغول)، وتجد طبعة ثانية لهذا الكتاب في مجلدين نُشرت بلندن سنة ١٨٠٠م.

البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، عنى سخاو الألمانى بترجمته إلى الإنكليزية، وطُبع الأصل بلييسك سنة ١٨٧٨م، وطُبعت الترجمة بلندن سنة ١٨٧٩م.

تيمور: أنظمة تيمورلنك السياسية والحربية، وضعها بالمغولية، وترجمها لانغليس من الفارسية إلى الفرنسية، وطُبعت بباريس سنة ١٧٨٧م.

رشيد الدين: تاريخ المغول، ترجمه كاترمير إلى الفرنسية.

روض القرطاس (٩): وهو كتاب يبحث في ملوك المغرب والأندلس وأخبار مدينة فاس،

نقله بوميه إلى الفرنسية، وطُبعت ترجمته هذه بباريس سنة ١٨٦٠م.

زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ترجمه رولندسن إلى الإنكليزية، وطُبعت بلندن سنة

١٨٣٣م (وهو يشتمل على تاريخ المسلمين بالهند).

الطبري: كتاب أخبار الرسل والملوك، ترجم البلعمي هذا الكتاب إلى الفارسية، وترجمه

من ترجمة البلعمي زوتنبرغ إلى الفرنسية، وطُبعت الترجمة بباريس سنة ١٨٧٤م في أربعة

مجلدات، وقد ترجم هذا الكتاب المشهور إلى اللاتينية وإلى التركية أيضًا، وهو يشتمل على

تاريخ العالم إلى سنة ٣٠٢هـ.

العتبي: كتاب اليميني، ترجمه إلى الفارسية الجربادكاني، وترجمه من النسخة الفارسية إلى

الإنكليزية رينولد، وطُبعت بلندن سنة ١٨٥٨م.

عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار، وتجد في آخر هذا الكتاب

مختارات كثيرة للمستشرقين، ترجمه دوساسي إلى الفرنسية، وطُبعت بباريس سنة ١٨١٠م.

غلام حسين خان: تاريخ الإسلام في الهند في القرن الأخير، ترجمه إلى الإنكليزية بريغس،

وطُبعت بلندن سنة ١٨٣٢م في مجلد واحد.

فرشته: تاريخ الإسلام في الهند إلى سنة ١٦١٢م، ترجمه بريغس من الفارسية إلى

الإنكليزية، وطُبعت بلندن سنة ١٨٢٩م في أربعة مجلدات.

محمد القيرواني: تاريخ إفريقية، ترجمه ريموزه إلى الفرنسية، وطُبعت بباريس سنة ١٨٤٥م.

المسعودي: مروج الذهب، ترجمه باربيه دو مينار إلى اللغة الفرنسية، وطُبعت بباريس بين

سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٧٨م في تسعة مجلدات، وهو تاريخ عام تمتد أخباره إلى القرن العاشر

من الميلا، وتجد له ترجمة إلى الإنكليزية قام بها سپرنغر، وطُبعت بلندن سنة ١٨٤١م.

المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، نقله باسكوال دوكانيكوس إلى الإنكليزية ملخصاً، وطُبع بلندن بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٣ م في مجلدين كبيرين.

المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دُول الملوك، ترجمه إلى الفرنسية كاترمير، وطُبع بباريس بين سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٤٥ م في مجلدين باسم «تاريخ السلاطين الممالك».

المكين بن العميد: المجموع المبارك (٧٥٠-١١٥٠) ترجمه فاتيه إلى الفرنسية، وطُبع بباريس سنة ١٦٥٧ م.

الواقدي: كتاب فتوح الشام، علّق عليه ليس وطبعه بكلكتة بين سنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٢ م في تسعة أجزاء.

- AMARI, *Frammenti di testi arabi per servire alla storia della Sicilia musulmana*, Firenze, ١٨٥٥, in-٨°.
- *Storia dei musulmani di sicilia*, Firenze, ١٨٥٤-١٨٦٩, ٤ vol., in-٨°.
- *Biblioteca Arabo-sicula*, Lipsia, ١٨٥٦, ٢ Vol., in-٨°.
- CARDONNE, *Histoire de L'Afrique et de L'Espagne sous La domination des Mores d'après des manuscrits arabes*, paris, ١٧٦٥, ٣ vol., in-١٢°.
- Caussin de PERCEVAL, *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme*, paris, ١٨٤٥, ٣ vol., in-٨°.
- CONDE, *Historia de La dominacion de los Arabes in Espana*, Barcelone, ١٨٤٤, ٣ vol., in-١٦°.
- ألف هذا الكتاب على حسب المخطوطات العربية، وترجمه مارل إلى الفرنسية في ثلاثة مجلدات، وطبعه بباريس سنة ١٨٢٥ م.
- CHRICHTON, *History of Arabia*, Edimbourg, ١٨٣٣, ٢ vol. in-٨°.
- DEFERMERY, *Histoire des sultans Ghourides*. Trad. française, paris, ١٨٤٤, in-٨°.
- *Histoire des khans mongols du Turkistan et de la Transoxiane*, traduit du persan, paris, ١٨٥٣, in-٨°.
- DESVERGERS, *Arabie*, paris, ١٨٤٧, in-٨°.
- DORN, *Muhammedanische Quellen zur Geschichte der südlichen Küstenländer des Kaspiischen* (Textes arabes, persans et turcs) publiés et commentés par B. Dorn, ٤ vol., in-٨°. Saint-petersbourg, ١٨٥٠-١٨٥٨.
- Dozy, *Histoire des musulmans d'Espagne de ٧١١ à ١١١٠*, Leyde, ١٨٦١, ٤ vol., in-٨°.
- ELLIOTT, *The History of India as told by its own historians. The Muhammedan period*. London, ١٨٧٧, ٨ vol., in-٨°.

- FRESNEL, *Letter sur L'histoire des Arabes avant L'islamisme*, paris, ١٨٣٦, in-٨°.
- GŒJE, *Fragmenta historicum arabicorum*, Lugd. Batavorum, ١٨٦٩, ٢ vol., in-٤°.
- Grangeret De LAGRANGE, *Les Arabes en Espagne*, paris, ١٨٢٤, in-٨°.
- GREGORIO, *Rerum arab quæ ad hist sicularum spectant ampla collectio*, arab. et Lat., Panormi, ١٧٩٧, in-f°.
- HALÉVY, *Etudes sabéennes*, Paris, ١٨٧٥, in-٨°.
- HOWORTH, *History of the Mongols*, London, ١٨٨٠, ٢ vol., in-٨°.
- KREMER *Culturgeschichte des Orients*, Wien, ١٨٧٥–١٨٧٧, ٢ vol., in-٨°.
- LEES, *History of the Caliphs ... to the year ١٠٠ of the Hijrah*, Calcutta, ١٨٥٧, in-٨°.
- MARCEL, *Histoira de L'Egypte depuis La conquête des Arabes*, Paris, ١٨٤٨, in-٨°.
- MIRCHOND, *Historia Ghaznevidarum*, Berlin, ١٨٣٢, in-٤°.
- *Historia Samanidarum*, Gött., ١٨٠٨.
- MURPHY, *The history of the Mohametan empire in Spain*, London, ١٨١٦, in-٤°.
- OSBORN, *Islam under the Khalifs of Bagdad*, London, ١٨٧٨, in-٨°.
- POCOCKE, *Specimen historiæ arabum*, Oxoniæ, ١٦٤٩, in-٤°.

وهو مقتطف من تاريخ أبي الفرج في منشأ العرب وطبائعهم، وطُبع هذا الكتاب مجدداً

سنة ١٨٠٦ م، مضافة إليه ترجمة دو ساسي لكتاب أبي الفداء عن قدماء العرب.

- LA PRIMAUDAIE, *Les Arabes en Sicile et en Italie*, Paris, ١٨٦٧, in-٨°.
- RASMUSSEN, *Historia præcipuorum arabum regnorum ... ante islamismum*, Haunioe ١٨١٧, in-٤°.

وفق ما جاء في المخطوطات العربية في كوبنهاغن.

- *Recueil des historiens orientaux des Croisades*, publié par de Slanc et Defremery, Paris, ١٨٧٢–١٨٧٦, ٢ vol., in-f°.
- REINAUD, *Chroniques arabes, extraites des historiens Arabes et relatives aux guerres des Croisades*, Paris, ١٨٢٩, in-٨°.
- *Invasion des Sarrasins en France, Savoie, etc.*, Paris, ١٨٣٦, in-٨° (d'après les auteurs chrétiens et musulmans).
- S. DE SACY, *Mémoires sur les antiquités de La perse et sur L'histoire des Arabes avant Mahomet*, Paris, in-٤°.
- SAUVAIRE, *Histoire de Jérusalem et d'Hebron depuis Abraham jusqu, à la fin du xve Siècle de J.-C. (traduite sur le texte arabe de Moudjir-ed-dyn)* Paris, ١٨٧٦, in-٨°.
- SEDILLOT, *Histoire générale des arabes*, ٢e éd., Paris, ١٨٧٧, ٢ vol., in-٨°.
- SPRUNER, *Historischen Hand atlas*, Gotha, ١٨٥٣, in-f°.

- WAKEDI, *Geschichte der Eroberung von Mesopotamien und Armenien*, Herausgegeben von Mordtmann, Hambourg, ١٨٤٧, in-٤°.
- G. WELL, *Gesch. der Khalifen Manhein*, ١٨٤٦-١٨٦٢, ٥ vol. — *Geschichte der islam Völker*, stuttgart, ١٨٦٦, in-٨°.
- WHEELER, *The History of India from the earliest ages*, London, ١٨٨١, ٤ vol.
- WUSTENFELD, *Die Chroniken der stadt Mekka*, Leipzig, ١٨٥٨-١٨٥٩, ٣ vol., in-٨°.

(٣) ديانة العرب

أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر، ترجمه أدلر إلى اللاتينية، وطبع بلييسك بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٤م في خمسة مجلدات، وترجم ديفرجه سيرة النبي من هذا التاريخ إلى الفرنسية، وطبعها بباريس سنة ١٨٣٧م.

بشير الدين: تفسير القرآن، طبع بكلكتة بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٧م في عشرة مجلدات. التبريزي: مشكاة المصابيح «في الحديث»، ترجمه ماتيو إلى الإنكليزية، وطبع بكلكتة سنة ١٨١٠م في مجلدين.

شريف: قانون الإسلام (أو عادات المسلمين في الهند)، طُبع بلندن سنة ١٨٣٢م. القرآن: نقله كازيمرسكي إلى الفرنسية، وطُبعت ترجمته بباريس سنة ١٨٤٠م، وكانت الطبعة الأولى للقرآن بالعربية في سنة ١٦٩١م، وللقرآن ترجمات في كثير من اللغات، وأقدم هذه الترجمات هي التي قام بها بيبلياندر سنة ١٥٤٣م، وأما تفاسير القرآن وتقاويمه فلا يحصيه عدد.

محمد الشهرستاني: كتاب الملل والنحل، طبعه كورتن بلندن سنة ١٨٤٢م في مجلدين.

- Barthélémy SAINT-HILAIRE, *Mahomet et le Coran*, Paris, ١٨٦٥, in-٨°.
- Dabry DE THIERSANT, *Le Mahométisme en Chine*, paris, ١٨٧٨, ٢ vol., in-٨°.
- DOZY, *Essai sur L'Histoire de l'islamisme*, trad. Chauvin, paris ١٨٧٩, in-٨°.
- DUGAT, *Histoire des philosophes et des théologiens musulmans de ٦٣٢ à ١١٥٨ de j.-c.*, paris, ١٨٧٨.
- FLUEGEL, *Concordantiæ Corani arabicæ*, Leipzig, ١٨٤٢, in-٤°.
- GALLAND, *Recueil des rites et cérémonies du pèlerinage de La Mecque*, Amsterdam, ١٧٥٤, in-٨°.

- KREHL, *Über die Religion der vorislamischen Araber*, Leipzig, ١٨٦٣, in-٤°.
- MAHOMET, *The original sources for the biography of Mahomet*, Calcutta, ١٨٥٣, in-٨°.
- NÖLDEKE, *Geschichte des Qorâns*, Göttingen, ١٨٦٠, in-٨°.
- SPRENGER, *Das Leben und die Lehre des Mohamed nach bisher grösstentheils unbenutzten Quellen*, Berlin, ١٨٦٨, in-٨°.
- G. DE TASSY, *Mémoire sur des particularités de la religion musulmane dans L'Inde*, Paris, ١٨١٣, in-٨°.

(٤) الإثنوغرافية والنظم الاجتماعية والطبائع والعادات

خليل بن إسحق: كتاب المختصر في الفقه المالكي، ترجمه سيغنت إلى الفرنسية، وطبع بقسنطينة سنة ١٨٧٨ م.

- AVRIL, *L'Arabie contemporaine*, Paris, ١٨٦٨, in-٨°.
 - BLUNT, *Bedouin tribes of the Euphrates*, London, ١٨٧٩, ٢ vol. in-٨°.
 - BLAU, *Arabien in VI Jahrhundert. Eine ethnographische skizze (zeitschrift der dents. Morgenland Ges. ٢٣° volume)*
 - BURCKHARDT, *Travels in Arabia*, London, ١٨٢٩, ٣ vol., in-٤°.
 - BURTON, *Personal narrative of a pilgrimage to el Medinah and Meccah*, London, ١٨٥٥, ٣ vol., in-١٢°.
 - Du CAUROY, *Législation musulmane sunnite, rite hanefi*, Paris, ١٨٤٨, in-٨°.
 - DAUMAS, *La vie arabe et la société musulmane*, paris, in-٨°.
 - DIETRICI, *Die Anthropologie der Araber in X Jahrhundert*, Berlin, ١٨٦٥, in-٨°.
 - QUERRY, *Droit musulman (Législation schyite)*, paris, ١٨٧١, ٢, vol., in-٨°.
 - ISAMBERT, *Itinéraire de L'Orient*, ٢e éd., paris, ١٨٨٢, ٣ vol., in-٨°.
- معلومات كثيرة غير صحيحة في الغالب.
- KHANIKOFF, *Mémoire sur l'ethnographie de La Perse*, Paris, ١٨٦٦, in-٤°.
 - NIZAM, *collection of opinions and precepts of Mahomeddan law*, calcutta, ١٨٢٨-١٨٣٥, ٦ vol., in-٤°.
 - NIEBUHR, *Voyage en Arabie. Trad. Française*, Amsterdam, ١٧٧٦, ٢ vol., in-٤°.
 - PALAGRAVE, *Voyage dans l'Arabie Centrale, Trad. Française*, paris, ١٨٦٦, ٢ vol., in-٨°.
 - LE PLAY, *Les Ouvriers de l'Orient*, Tours, ١٨٦٧, in-٨°.
 - PELLE, *Visit to the Wahabee capital of central arabia*. (proc. Of the Royal Geog. Society, ١٨٦٥).
 - PLAYFAIR, *Histoire de l'Arabie beureuse*, paris, ١٨٥٩, in-٨°.
 - SANTAGRA et CHARBNEAU, *Droit musulman, statut personnel et successions*, paris, ١٨٧٣-١٨٧٤, ٢ vol., in-٨°.
 - H. SPENCER, *Descriptive Sociology*, London, ٨ vol., in-٨°.

تحت الطبع، ويبحث مجلد من هذا الكتاب المهم في العرب.

- VAMBÉRY, *sittenbilder aus dem Morgenlande*, Berlin, ١٨٧٦.
- Vivien DE SAINT-MARTIN, *Dictionnaire de géographie*, paris, in-٤°. ظهر منه مجلدان.

- WALLIN, *Journey from Cairo to Médina* (J. of Roy. Geog. Soc.) ١٤٥٤.
- WELLSTED, *Travels in Arabia*, London, ١٨٣٨, ٢ vol., in-٨°.
- WETZTIEN, *Nord-arabien ...* (*Zeitschrift für allgemeine Erdkunde*), ١٨٦٥.
- WUESTENFELD, *Genealogische Tabellen der arabischen stamme und Familien*, Göttingen, ١٨٥٢, ١ vol., in-٤°.

(٥) الآداب والفلسفة

ابن رشد: طُبعت شروحه لفلسفة أرسطو مرارًا باللغة اللاتينية في البندقية على الخصوص سنة ١٥٩٥ م، ولخص مسيو زينان فلسفة ابن رشد في كتابه الذي سماه «ابن رشد وفلسفة ابن رشد»، وطبعه بباريس سنة ١٨٥٢ م.

أبو طالب: عاصر محمدًا، وتُرجمت آثاره غير مرة، وهي في الحكم والشعر، ونُشرت ترجمة لاتينية لها مع النص العربي بأوكسوني سنة ١٨٠٦ م.

ألف ليلة وليلة: طُبعت رواية ألف ليلة وليلة في أكثر اللغات، ولم تكن جميع الطبعات الفرنسية غير تكرار لطبع ترجمة غالاند الناقصة، ويعد من أحسن الطبعات المعروفة ما نشره على حسب النص العربي أستاذ اللغات الشرقية في هيدلبرغ: مسيو فيل.

- *Tausend und eine nacht*, stuttgart, ١٨٧٢, ٤ vol., in-٨°.
- امرؤ القيس: نشر دوسلان ديوانه مع ترجمته بباريس سنة ١٨٣٧ م.

الأمثال العربية: تجد عدة مجموعات للأمثال العربية، وإليك أهمها:

- *Proverbiorum arabicorum centuriæ duæ cum interpretatione latina et scholiis*. J. Scaligeri, leide, ١٦١٤, in-٤°: MEIDANI, *proverbium arabicorum*, ed. Schröder, Lugd. Batav., ١٧٩٥, in-٤°.

وقد نقل كاترمير قسماً من أمثال الميداني هذه إلى الفرنسية، وطبع ما ترجمه بباريس سنة ١٨٣٧م، ونقل بركهارد أمثال عوام مصر إلى الإنكليزية، وطبع ما ترجمه بلندن سنة ١٨٣٠م.

- LANDBERG, *Proverbes et dictons du peuple arabe*, Leyde et Paris, ١٨٨٣, in-٨°, tome I^{er}.

جامي: أخلاق جلاي، ترجمه ثومسن من الفارسية إلى الإنكليزية، وطبع بلندن سنة ١٨٣٩م.

الحريري: مقامات الحريري، نشرها دو ساسي بباريس سنة ١٨٢٢م (ولا تجد ترجمة كاملة لهذا الأثر المهم).

الزنجشري: نوابغ الكلم، ترجمه مينار إلى الفرنسية، وطبعت الترجمة مع الأصل العربي بباريس سنة ١٨٧٦م.

الزنجشري: أطواق الذهب، ترجمه مينار إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة ١٨٧٦م.
عنتره: نقل هاملتن أشعاره إلى الإنكليزية، وطبعها بلندن في مجلدين سنة ١٨٢٠م، ونقل ديفيك حماسياته إلى الفرنسية وطبعها بباريس، وتجد لقصائد عنتره ترجمة بالألمانية طبعها منيل بيتافورم سنة ١٨١٦م، وتجد أشعاره مطبوعة في ترجمات المعلقات الكثيرة إلى اللاتينية والإنكليزية والألمانية.

القزويني: كتاب في المنطق العربي، نشره سپرنغر مع ترجمة إنكليزية بكلكتة سنة ١٨٥٤م.
لقمان: أمثال لقمان، نقلها مارسيل إلى الفرنسية، وطُبعت بباريس سنة ١٨٠٣م، (يوجد ترجمات كثيرة لهذا الكتاب).

المعلقات السبع: نشر كوسان دوپرسقال أصلها العربي، وتُرجمت هذه القصائد المشهورة إلى اللاتينية والإنكليزية والألمانية.

المقدسي: الطيور والأزهار، ترجمه دوتاسي، وطُبع بباريس سنة ١٨٢١م.

- CARLYLE, *Specimens of arabica poetry from the earliest times*, Cambridge, ١٧٩٦, in-٤°.
- DOZY *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge*, Leyde, ١٨٦٠, ٢ vol., in-٨° (٣e éd. ١٨٨١).
- G. W. FREITAG, *Darstellung der arabischen Verkunst*, Bône, ١٨٣١, in-٨°.
- Grangeret De LAGRANGE, *Anthologie arabe*, Paris, ١٨٢٨, in-٨°.
- Hammer PURGSTALL, *Literatur geschichte der araber*, Vienne, ١٨٥٠—١٨٥٦, ٧ vol., in-٨°.
- HUMBERT, *Anthologie arabe*, Paris, ١٨١٩, in-٨°.
- J. JAHN, *Arabische Chrestomathie*, vienne, ١٨٠٢, in-٨°.
- MEHREN, *Die Rhetoric der Araber*, Kopenhagen, ١٨٥٣, in-٨°.
- NØELDOKE, *Beiträge zur Kenntnis der pæsie der alten Araber*, Hannover, ١٨٦٤, in-٨°.
- SCHMOLDERS, *Essai sur les écoles philosophiques chez les arabes*, Paris, ١٨٤٢, in-٨°.
- S. DE SACY, *Chrestomathie arabe*, Paris, ١٨٢٦, ٣ vol., in-٨°.
- G. WAHL, *Neue arabische anthologie*, Leipzig, ١٧٩١, in-٨°.

(٦) مؤلفات العرب العلمية

اعتمدت جامعات أوربة على ما تُرجم إلى اللاتينية من مؤلفات العرب وحدهم عدة قرون، وأعيد طبع ترجمة هذه المؤلفات مرارًا، ونقتصر على ذكر أهم علماء العرب وكتبهم الأساسية مع الإشارة إلى القرون التي عاشوا فيها؛ لعدم فائدة إحصائهم كلهم.

ابن رشد: ظهر هذا الفيلسوف الشهير في القرن الثاني عشر من الميلاد، وله كتب في علم الفلك والطب، ومن كتبه في الطب كتاب الترياق الذي تُرجم إلى اللاتينية، وطُبع في البندقية سنة ١٥٥٢م، وكتاب السموم الذي تُرجم إلى اللاتينية وطُبع في لوغدوني سنة ١٥١٧م، وكتاب الكليات في الطب الذي تُرجم إلى اللاتينية، وطُبع في البندقية سنة ١٥٥٢م.

ابن زهر: ظهر في القرن الثاني عشر من الميلاد، واشتهر بكتابه «التيسير في المداواة والتدبير» الذي تُرجم إلى اللاتينية، وطُبع في البندقية سنة ١٤٩٠م.

ابن سينا: ظهر في القرن العاشر من الميلاد، وهو أشهر أطباء العرب، وطُبع كتابه المهم «القانون في الطب» عدة مرات، وظهرت الطبعة الأولى لكتبه في البندقية سنة ١٤٨٤م، ولم ينقطع العلماء عن شرح مؤلفاته حتى القرن الأخير.

ابن البيطار: ظهر في القرن الثاني عشر من الميلاد، وهو من أشهر علماء النبات من العرب، وترجم لوكليز كتابه «جامع مفردات الأدوية والأغذية» إلى الفرنسية، وطُبع بباريس في ١٨٧٧-١٨٨١م في مجلدين.

ابن العوام: ظهر في القرن السادس من الهجرة، وهو من علماء الأندلس المشهورين في علم النبات، وترجم كليان مولر كتابه في الفلاحة حديثًا، وطُبع بباريس سنة ١٨٦٦م. ابن يونس: ظهر في القرن العاشر من الميلاد، وهو من واضعي «الزيج الحاكمي» الذي هو أهم كتاب عربي في الفلك، وترجم كوسان دوپرس فال بعضه إلى الفرنسية، وطُبع بباريس سنة ١٨٠٤م.

أبو الحسن المراكشي المراكشي: ظهر في القرن الثالث عشر من الميلاد، وله تصانيف كثيرة منها: كتاب «جامع المبادئ والغايات في علم الميقات» الذي ترجم سيديو بعضه، وطبعه سنة ١٨٤٣م.

أبو الوفاء البوزجاني: ظهر في القرن العاشر من الميلاد، وهو من أشهر علماء الفلك عند العرب، وترجم سيديو بعض الفصول من كتبه إلى الفرنسية، وطبعها بباريس سنة ١٨٤٥م.

أبو القاسم: ظهر في القرن الثاني عشر من الميلاد، وهو أشهر جراحٍ العرب، وتُرجم كتابه في الجراحة مرارًا، وطُبعت أحسن ترجمة لاتينية له ببال سنة ١٥٤١م.

أبو معشر البلخي: ظهر في القرن الثامن من الميلاد، وترجم كتابه «المدخل الصغير» إلى اللاتينية، وطُبع في أوغسبرغ سنة ١٤٨٩م، وترجم كتابه في الأبعاد الفلكية إلى اللاتينية أيضًا، وطُبع في سنة ١٤٨٩ وسنة ١٥١٥م.

أرطفيوس Artephius(٩): ظهر في القرن الحادي عشر، وكتب رسالة في السيمياء، وترجمها أرنود إلى الفرنسية سنة ١٦١٢م.

أماجور: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وهو مؤلف كتاب «الزيج البديع» ومن أماجور اقتبس ابن يونس أرساده.

أولوغ بك: ظهر في القرن الرابع عشر من الميلاد، وهو حفيد تيمورلنك، ويُعد من أشهر ممثلي مدرسة بغداد الفلكية، وترجمت أزياجه إلى اللاتينية، وطُبعت في أكسفورد سنة ١٦٦٥م، وترجم سيديو مقدمات هذه الأزياج إلى الفرنسية، وطبعها في باريس سنة ١٨٤٧م.

البتاني: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وأهم مؤلفاته كتاب «زيج الصابي» الذي ترجم عدة مرات، وطبع بنورنبرغ سنة ١٥٣٧م.

ثابت بن قرة: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وهو أول من طَبَّق الجبر على الهندسة، ونشر سيديو فصولاً من مؤلفاته التي تشتمل على حل هندسي للمعادلات المكعبة.

جابر بن حيان الكوفي: ظهر في القرن الثامن من الميلاد، وهو أشهر كيميائي العرب، وتحتوى المكتبة الوطنية بباريس على ستة مخطوطات لاتينية من كتبه طُبعت جميعها خلا جزء منها خاص بالمثلثات الكرية، وأشهر مؤلفاته كتاب «الاستتمام» الذي طُبِع سنة ١٤٠٩م، وتُرجم إلى الفرنسية سنة ١٦٧٢م، وتجدر ترجمة إنكليزية لكتبه مؤرخة في سنة ١٦٦٨م.

جابر الأشبيلي: ظهر في القرن الحادى عشر من الميلاد، وترجم كتابه في الفلك إلى اللاتينية، وطُبع في نورنبرغ سنة ١٥٣٣م، ولا يفرقون في الغالب بين جابر هذا وجابر الكيماوي.

الحسن بن الهيثم: ظهر في القرن الحادى عشر من الميلاد، وهو من علماء الفلك والرياضيات، وترجم فيتليو كتابه في المناظر إلى اللاتينية سنة ١٢٧٠م، وترجم سيديو بعض فصول من كتابه في الأصول الهندسية.

الخوارزمي: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، ومن مؤلفاته كتاب الجبر والمقابلة الذي ترجمه رودلف دوبروغ إلى اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر من الميلاد، ثم نقله روزن إلى الإنكليزية وطبعه سنة ١٨٣١م.

الرازي: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، واشتهر بالطب والكيمياء، وبلغ عدد مؤلفاته ٢٢٦، وأهمها كتاب «الحاوي» الذي طُبع غير مرة منذ سنة ١٤٨٦م، ونشر كتابه «الجدي والحصبة» سنة ١٧٦٦م، وللرازي ثلاثة مخطوطات في الكيمياء.

زاديت Zadith (؟): ظهر في القرن الثاني عشر من الميلاد، وله كتاب في الكيمياء اسمه **Tabula Chimice** طُبع في المسرح الكيماوي.

علي بن العباس: ظهر في القرن العاشر من الميلاد، وترجم كتابه «الملكي» في الطب المؤلف من خمسين جزءاً إلى اللاتينية، وطُبع في البندقية سنة ١٤٩٢م.

الفاربي Alpharebi (؟): ظهر في القرن الحادى عشر من الميلاد، واشتهر بأنه من علماء الكيمياء، وألفت كتبه التي أحصاها الغزيري بالعبرية، ولم تُطبع حتى الآن.

الفرغاني: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وهو صاحب كتاب «المدخل إلى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم» الذي تُرجم إلى اللاتينية ثلاث مرات، والمترجم الأول له هو

يوحنا الأشبيلي الذي نقله إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر من الميلاد، وقد طُبعت ترجمته الأولى بفيرار سنة ١٤٩٢م، وطُبعت ترجمته الأخيرة سنة ١٦٦٩م.

القزويني: ظهر في القرن الثالث عشر من الميلاد، وألّف في جميع الموضوعات مع اشتهاؤه في الفلك والجغرافية والطبيعات، وترجم شيري فصولاً من كتابه «عجائب المخلوقات» في الفلك والجغرافية الطبيعية إلى الفرنسية، وطُبعت في باريس سنة ١٨٠٥م، وترجم كتابه في الفلك إلى الألمانية حديثاً.

قسطنطين الإفريقي: ظهر في القرن الحادي عشر من الميلاد، وأدخل طب العرب إلى إيطاليا، وإليه يعود الفضل في شهرة مدرسة ساليرم، وألّف عدة كتب نذكر منها De morborum cognitione ونذكر منها De remediorum الذي طُبِع غير مرة، وكانت طبعته الأولى ببال سنة ١٥٣٦م.

الكرخي: ظهر في القرن الخامس من الهجرة، وترجم واپكه كتاب «الفخري» في الجبر لهذا المؤلف، وطبعه في سنة ١٨٥٣م.

الكندي: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وزادت مؤلفاته على مئتين ذكرها صاحب الفهرس، ومنها رسالة في معرفة قوى الأدوية المركبة، ترجمت إلى اللاتينية وطُبعت مراراً بين سنة ١٥٣١ وسنة ١٦٠٣م.

محمود أفندي (باشا) الفلكي: هو مؤلف كتاب «التقاويم العربية قبل الإسلام» الذي طُبِع بباريس سنة ١٨٥٨م.

محمد بن موسى: ظهر هذا الرياضي الشهير في القرن التاسع من الميلاد، وترجم كتابه في الجبر عدة مرات، ومار هو الذي قام بترجمته الأخيرة، فطُبعت في روما سنة ١٨٦٦م.

نصير الدين الطوسي: ظهر في القرن الثالث عشر من الميلاد، وله تقاويم ترجم بعضها إلى اللاتينية باسم التقويم الجغرافي، وطُبع في ليدن سنة ١٦٤٨م، وفي لندن سنة ١٦٥٢م. ولد الزرقيال: ظهر في القرن الحادي عشر من الميلاد، وكانت أزياجه الفلكية مع أزياج البتاني أساسًا للأزياج الأذفونسية.

يوحنا بن ماسويه: ظهر في القرن التاسع من الميلاد، وله عدة كتب في الأدوية طُبعت مرارًا، ونُشرت كتبه المهمة باسم **Canones universales** في البندقية سنة ١٤٧١م.

وتُعد تلك الكتب أهم ما تُرجم إلى بعض اللغات الأوروبية من مؤلفات العرب، وتفيد المؤلفات الآتية في معرفة آثارهم العلمية.

- DELAMBRE, *Histoire de L'astronomie au Moyen-âge*, paris, ١٨١٩, in-٤°.
- DORN, *Description of an arabic celestial globe*, London, ١٨٢٩, in-٤°.
- JOURDAIN, *Mémoire sur l'observatoire de Méragah* (mag. encyclopédique de ١٨١٠).
- LECLERC, *Histoire de la médecine arabe*, Paris, ١٨٧٦, ٢ vol., in-٨°.
- FURNARI, *La Médecine arabe au IX^e siècle*, Paris, ١٨٤٦, ٢ vol., in-٨°.
- REINAUD, *L'art militaire chez les arabes du Moyen-âge*, Paris, ١٨٤٨, in-٨°.
- SÉDILLOT, *Recherches pour servir à l'histoire des sciences mathématiques chez les orientaux*, Paris, ١٨٣٧, in-٤°.
- SINOBAS, *Libros del saber de astronomia del rey Alfonso X de Castilla*, Madrid, ١٨٦٣.
- SPRENGEL, *Histoire de la Médecine*. (Hall, ١٧٩٢-١٨٠٣) traduit en français par Jourdan.
- WŒOPKE, *Essai d'une restitution des travaux perdus d'Apollonius sur les quantités irrationnelles, d'après un manuscrit arabe*, paris, ١٨٥٦, in-٤°.
- *Recherches sur L'histoire des sciences mathématiques chez les Orientaux*, Paris, ١٨٦٠, in-٨°.
- WUESTENFELD, *Geschichte der arabischen Aerzte und Naturforscher*, Göttingen, ١٨٤٠, in-٨°.

(٧) الجغرافية والرحلات

ابن بطوطة: تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وتُعرف برحلة ابن بطوطة، ترجمها ديفريميري وسنكونيتي إلى الفرنسية، وطُبعت بباريس بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٩ م في أربعة مجلدات.

ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب في الجغرافية، ترجمها هيلنده، وطُبعت بلنده سنة ١٨٢٣ م.

ابن خرداذبه: كتاب المسالك والممالك، ترجمه مينار إلى الفرنسية، وطُبع بباريس سنة ١٨٦٥ م.

ابن حوقل: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طُبع بعناية دوغويه في ليدن سنة ١٨٧١ م، وترجم أوزيلي ما هو خاص منه بجغرافية المشرق إلى الإنكليزية وطُبع في لندن سنة ١٨٠٠ م، وترجم دو سلان ما هو خاص منه بإفريقية إلى الفرنسية، وطُبع في باريس سنة ١٨٤٢ م، وترجم أماري ما هو خاص منه بوصف بلرم في القرن العاشر من الميلاد، وطُبع في باريس سنة ١٨٤٥ م.

أبو الفداء: تقويم البلدان، ترجمه رينو وجويار إلى الفرنسية، وطُبع بباريس بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٨٣ م في ثلاثة مجلدات، وترجم غانية القسم الخاص منه بجزيرة العرب، وطُبع بأكسفورد سنة ١٧٤٠ م، وترجم سولفا القسم الخاص منه بالمغرب، وطُبع بالجزائر سنة ١٨٣٩ م.

الإدريسي: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ترجمه جوير إلى الفرنسية، وطُبع بباريس سنة ١٨٤٠ م في مجلدين.

الإصطخري: كتاب مسالك الممالك، طُبع بعناية دوغويه في ليدن سنة ١٨٧٠ م.
الإصطخري: كتاب الأقاليم، طُبع بعناية الدكتور مولر الألماني.

البكري: كتاب المسالك والممالك، ترجم دو سلان ما هو خاص منه بإفريقية الشالية، وطُبع بباريس سنة ١٨٥٩م.

القزويني: عجائب المخلوقات، في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب، ترجم إلى الألمانية، وطبع في لبيسك سنة ١٨٦٨م.

المسعودي: كتاب مروج الذهب، ترجمه بارييه دو مينار، وطُبع في باريس بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٧٨م في تسعة مجلدات (وهذا الكتاب تاريخي جغرافي معاً).

ياقوت: معجم البلدان، طبعه فون وستنفلد في لبيسك بين سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠م في أربعة مجلدات ومجلدين للفهارس والحواشي، وترجم مسيو بارييه دو مينار ما هو خاص منه ببلاد فارس إلى اللغة الفرنسية، وطبعه في باريس سنة ١٨٦١م.

- BABELON, *Commerce des Arabes dans le nord de L'Europe*, Paris, ١٨٨٢, in-٨°.
- FRÖHN, Ibn Fozlan, s und anderer Araber Berichte über die Russen älterer zeit, saint-pétersbourg, ١٨٢٣, in-٤°.
- GÖJE, *Bibliotheca geographorum arabicorum*. Lugd. Batavorum, ١٨٧٠-١٨٧٩, ٤ vol.

ويشتمل المجلد الأول على كتاب الإصطخري، والمجلد الثاني على كتاب ابن حوقل، والمجلد الثالث على كتاب الإدريسي.

- REINAUD, *Relations des voyages faits par les Arabes et les persans dans L'Inde et la Chine dans le IX^e siècle de l'ère chretienne* Texte arabe et traduction, Paris, ١٨٤٥, ٢ vol., in-٨°.
- SPRENGER, *Die post und Reiserouten des Orients*, Leipzig, ١٨٦٤, in-٨°.
- STUVE, *Die Handelszüge der Araber*, Berlin, ١٨٣٦, in-٨°.
- B. DE TUDEL.

تُرجمت رحلات هذا الرحالة الشهير في أوربة وآسية وإفريقية في القرن الثاني عشر، عدة مرات؛ إلى اللغة الفرنسية على الخصوص (Amsterdam ١٧٤٣ in-٨°).

(٨) الآثار والنقود والفنون الجميلة

ابن خلدون: المقدمة، وترجم كوكبر دومونبره ما هو خاص منها بفن البناء، وطُبع في باريس سنة ١٨٢٧ م.

المقريزي: نبذة العقود في أمور النقود، ترجمها دوساسي إلى الفرنسية، وطُبع في باريس سنة ١٧٩٧ م.

Monumentos Arquitectonicos de España كتاب مباني إسبانية الأثرية

تنشر الحكومة الإسبانية هذا الكتاب المصور نشرًا متتابعًا، وطُبع منه سبعة أجزاء حتى الآن.

- Barbier De MEYNARD, *Ibrahim ... Scènes de la vie d'artiste au III^e siècle de l'hégire*, Paris, ١٨٦٩, in-٨°.
- BATISSIER, *Histoire de l'art monumental*, Paris, ١٨٨٠, ٢^e éd., in-٨°.
- BOURGOIN, *Les Arts arabes*, Paris, in-٤°.
- Caussin DE PERCEVAL, *Notices sur Les principaux musiciens arabes des trois premiers siècles de l'hégire*, Paris, in-٨°.
- CHRISTIANOWITSCH, *La Musique arabe aux temps anciens*, Paris, ١٨٦٣, in-٤°.
- COSTE, *L'Architecture arabe d'après Les monuments du Caire dessinés de ١٨١٨ à ١٨٢٥*, Paris, ١٨٣٨, in-f°.
- *Monuments modernes de La Perse*, Paris, ١٨٧٠, in-f°.
- DAVILLIERS, *Histoire de faïences hispano-moresques*, Paris, ١٨٦١, in-٨°.
- J. DE LA RADA Y. DELGADO, *Museo espanol de antigüedades*, Madrid, in-f°.

تحت الطبع، وقد ظهر من هذا الأثر النفيس تسعة مجلدات.

- FLANDIN, *L'Orient*, ٣ vol., Paris, ١٨٤٠, in-f°.
- Girault DE PRANGEY, *Essai sur l'architecture des Arabes et des maures en L'Espagne et en Sicile*, Paris, ١٨٤٢, in-٤°.
- GUÉRIN, *Voyage archéologique dans la province de Tunis*, Paris, ١٨٦٢, ٢ vol., in-٨°.
- O. JONES, *L'Alhambra*, London, ١٨٣٠, ٢ vol., in-f°.
- *The Alhambra Court in the Crystal palace erected and de scribed by O. Jones*, London, ١٨٥٤, in-٨°.
- KIESEWETTER, *Die Musik der Araber*, Leipzig, ١٨٤٢, in-٤°.
- LABORDE et LINANT, *Voyage dans L'Arabie Petrée*, Paris, ١٨٣٠, in-f°.
- LANGLOIS, *Numismatique des Arabes avant L'islamisme*, ١٨٥٩, in-٤°.

- LONGPÉRIER, *Archéologie orientale, monuments arabes*, t. 1^{er}, Paris, ١٨٨٣, in-٨°.
- Marmol DE CARJAVAL, *Description générale de l'Afrique*, Trad. de P. d'Alancourt, Paris, ١٦٦٧, ٣ vol., in-٤°.
- MURPHY, *The arabian antiquities of spain*, London, ١٨١٥, in-f°.
- Prisse d'AVESNES, *L'Art arabe d'après Les monuments du caire*, Paris, ١٨٧٨, ٣ vol., in-f°.
- RAVOISIER, *Architecture, sculpture, inscription et vues de L'Algérie*, in-f°.

جزء من ريادة الجزائر بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٢ م، وقد نُشر بأمر الحكومة.

- REINAUD, *Monuments du Cabinet du duc de Blacas*, Paris, ١٨٢٨, ٢ vol., in-٨°.
- ROBLES, *Malaga musulmana. Illustré*, Paris, ١٨٨٠, in-٨°.
- Salvator DANIEL, *La Musique Arabe*, Paris, ١٨٦٣, in-٨°.
- SAULCY, *Numismatique des rois nobathéens de Pétra*, ١٨٧٤, in-٨°.
- SCHLUMBERGER, *Le Trésor de Sana, Etude sur les monnaies hymyaritiques*, Paris, ١٨٨٠, in-٤°.
- TEXIER, *L'Arménie, la Perse et la Mésopotamic*, Paris, ١٨٤٢-١٨٥٢, ٣ vol., in-f°.
- UYFALVY, *L'Art des cuivres anciens an Cachemire. Illustré*, Paris, ١٨٨٣, in-٨°.
- VOGUÉ, *Le Temple de Jérusalem*, Paris, ١٨٦٤, in-٤°.

الفهرس

٥	 حضارة العرب
٦	 مقدمة المترجم
٢٩	 مقدمة المؤلف
٤٥	 الباب الأول: البيئة والعرق
٤٦	 الفصل الأول
٤٦	 جزيرة العرب
٧٠	 الفصل الثاني
٧٠	 العرب
١٠٦	 الفصل الثالث
١٠٦	 العرب قبل ظهور محمد
١٢٢	 الباب الثاني: مصادر قوة العرب
١٢٣	 الفصل الأول
١٢٣	 محمد: نشوء الدولة العربية
١٤١	 الفصل الثاني
١٤١	 القرآن
١٥٩	 الفصل الثالث
١٥٩	 فتوح العرب
١٨٦	 الباب الثالث: دولة العرب
١٨٧	 الفصل الأول
١٨٧	 العرب في سورية
٢١٥	 الفصل الثاني
٢١٥	 العرب في بغداد
٢٢٨	 الفصل الثالث
٢٢٨	 العرب في بلاد فارس والهند
٢٧٧	 الفصل الرابع
٢٧٧	 العرب في مصر
٣٢٢	 الفصل الخامس

العرب في إفريقية الشمالية	٣٢٢
الفصل السادس	٣٤٦
العرب في إسبانية	٣٤٦
الفصل السابع	٣٨٦
العرب في صقلية وإيطالية وفرنسة	٣٨٦
الفصل الثامن	٤٠٩
اصطراع النصرانية والإسلام	٤٠٩
المصادر	٤٣٦